أدب السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية بالتركيز الخاص على الكتاب "*حياتي مع الجوع والحب والحرب* " للشيخ عزيز ضياء

دراسة تحليلية

بحث جامعي

لنيل شهادة الدكتوراه

إعداد

عبد الحكيم

تحت إشراف

الدكتور عبيد الرحمن الطيب

مركز الدراسات العربية والإفريقية

مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة

جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي- 110067

2019

مركز الدراسات العربية والإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi - 110 067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली - 110067
Gram: JAYENU Tel. : +91-11 2670 4253, Fax : 91-11-2671 7525

15th July 2019

DECLARATION

I declare that the Thesis entitled ***Autobiographical Literature in the Kingdom of Saudi Arabia with Special focus on the Book "My Life With Hunger, Love and war" By Aziz Día (An Analytical Study)*** submitted by me in partial fulfillment of the requirements for the award of the Degree of ***Doctor of Philosophy*** of Jawaharlal Nehru University is my own work. The Thesis has not been submitted for any other degree of this University or any other University.

Abdul Hakim

Abdul Hakim

(Research Scholar)

SLL&CS/CAAS

CERTIFICATE

We recommend that this Thesis be placed before the examiners for evaluation.

Ubaidur Rahman

Supervisor

Dr. Ubaidur Rahman Tayyeb

(CAAS/SLL&CS/JNU)

Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

Chairperson

Prof. A. Basheer Ahmad

(CAAS/SLL&CS/JNU)

Chairperson
Centre for Arabic and African Studies
SLL&CS, Annex Building
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

Scanned by CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدي الله فهو المهتد، ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وبارك وسلم تسليما كثيرا كثيرا أما بعد: –

مما لا شك في أن فن السيرة الذاتية تعبير ذاتي بحيث إن الإنسان يعبر به عن انطباعاته وخواطره ومشاعره، ويذكر أحواله الذاتية وتجاربه الشخصية، ويسجل حوادثه الكبيرة وظروفه المثيرة وذكرياته الحلوة والمؤلمة مرت بجوانب حياته المختلفة، ويسرد إنجازاته العلمية والأدبية والفنية والتاريخية التي تركها وراءه، ويذكر أيام طفولته وصباه وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث الفرح والسرور والسعادة والرخاء والشقاء والعناء والحزن والألم والكآبة والمآسي، وما يتأثر به من بيئة وأسرة وعائلة وأساتذة وأصدقاء وزملاء، وما ينطبع في نفسه من إيمان وعقيدة ومبادئ حيوية.

عندما نلقي نظرة عميقة على النشأة لسيرة الذاتية في اللغة العربية نجد أن الباحثين والمحققين يوجد لديهم اختلاف شديد عن الزمن الذي نشأت فيه السيرة الذاتية وتطورت على نطاق أوسع، وإن بعض المختصين بهذا الفن يعتبرها من أقدم الفنون الأدبية نشأة، والبعض الآخر يعدها من أحدث الأجناس الأدبية المتميزة مثل: الرواية والقصة والقصة القصيرة والمسرحية والمقالة وغيرها من الفنون الأخرى. أما الذين يعدونها من أحدث الفنون الأدبية، فهم الذين يرون أن السيرة الذاتية لها بناءا خاصا، وهذا البناء لم يبدأ ظهوره إلا في نهاية القرن الثامن عشر. وأما الذين يعتبرونها من أقدم الفنون الأدبية المتميزة نشأة، فهم الذين يرون أن كل كتابة نثرية أدبية يتحدث فيها الكاتب بقلمه المترسل عن أحواله الشخصية وتجاربه الذاتية وذكرياته الحلوة مرت بجوانب حياته المختلفة هي سيرة ذاتية. وهناك فريق يدعي عن نفسه بأن السيرة الذاتية

هي وليدة الحضارة المصرية القديمة، ويقيم الدليل والحجة على الحضارات المصرية القديمة التي تصل إلينا آثارها القديمة التي كانت توجد في تلك الفترة من الزمان، منهم ول وايريل ديورانت، وشوقي ضيف وغيرهما.

وأما بالنسبة إلى فن كتابة السيرة الذاتية في الملكة العربية السعودية فجاءت في حيز الوجود في وقت متأخر بالمقارنة مع البلاد العربية الأخرى، وقد اتفق المتخصصون بهذا الفن الأدبي الشيق على أن البذور الأولى التي بذلها في هذا الفن هو الأديب الرائد الأستاذ أحمد محمد السباعي الذي سجل سيرته الذاتية وأحواله الشخصية وذكرياته الحلوة والمؤلمة في منتصف القرن العشرين بعنوان " أبو زامل "، ثم غير عنوانها إلى " أيامي"، وذلك في عام 1954م. وفي الواقع، أن هذه السيرة الذاتية تعتبر من أول الكتب في الأدب العربي السعودي في القرن العشرين، وتمتاز بأسلوبها الرائع ودقتها الجميلة في الوصف والبيان والروعة الجمال، وبعد ذلك لقد برز في العصر الحديث أدباء وكتاب وشعراء سجلوا وقائع حياتهم، وقد اطلع بعض الأدباء والشعراء على اللغات الأجنبية ليتعرفوا عن كثب على ما لدى الغرب من ترجمات شخصية، ونجد في القرن العشرين الكثيرين من الأدباء والعلماء والشعراء الذين يكتبون سيرهم الذاتية لا في المملكة العربية السعودية وحدها، بل في البلدان العربية المختلفة.

وقد تابع العلماء والأدباء والشعراء للمملكة العربية السعودية في القرن العشرين، وكتبوا بألوان مختلفة من السير الذاتية، كما كتب الأستاذ عمر توفيق سيرته الذاتية بعنوان " 46 يوما في المستشفى"، وكتب حسن محمد كتبي سيرته الذاتية باسم " هذه حياتي"، وكتب الأستاذ حسن القرشي ترجمته الذاتية بعنوان " تجربتي الشعرية "، و " حياة في الإدارة "، وكذلك دون الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي تاريخ سيرته الذاتية في كتابين رائعيين يحملان اسما " سيرة شعرية" و" حياة في الإدارة "، وكذلك دون الشيخ عزيز ضياء قصة رائعة من تجاربه الشخصية وذكرياته الحلوة والحامضة بعنوان " حياتي مع الجوع والحب والحرب " (في ثلاثة أجزاء)، وهذا هو الكتاب الذي نحن

بصدده الآن في هذا البحث المتواضع. وسأتناوله في هذا البحث المتواضع بإذن الله تعالى كدراسة تحليلة ومقارنة جادة.

يعد الكتاب المسمى بـ" حياتي مع الجوع والحب والحرب" من أهم انتاجات الشيخ عزيز ضياء الذي سجل فيه انطباعاته ومشاعره وخواطره ورحلاته وتنقلاته بعد تجارب علمية وخبرات واسعة في كل مجال من العلم والأدب والثقافة والمعرفة والتاريخ والسيرة الذاتية والعلوم العقلية والنقلية النظرية وما إلى ذلك. ويعد هذا الكتاب من كتبه النافعة المفيدة المؤثرة على نفوس القراء والدارسين الباحثين والمثقفين ممن يريدون الإلمام بتاريخ المملكة العربية السعودية والشام والأردن قبل وبعد الحرب العالمية الأولى والحروب الدامية الأخرى مثل: الثورة العربية الكبرى، وثورة 1908م، والسفر برلك الذي قام به عزيز ضياء بعد ما أصدر السلطان فخري باشا– والي العثمانيين على المدينة المنورة– حكما دعا فيه أبناء المدينة المنورة مغادرة بيوتهم ومنازلهم فورا، فذلك الحين تم تهجير عدد لا بأس به من أبناء المدينة المنورة والحجاز خائفين من الجوع الشديد إلى العديد من مدن الشام ولبنان والأردن وفلسطين ومناطق أخرى كانت لا تزال خاضعة لسيطرة السلطنة العثمانية.

ومن المعلوم للجميع أن الشيخ عزيز ضياء أولا كتب عدة مقالات شيقة في المجلات المختلفة والصحف المتنوعة، حيث تناول أحواله الشخصية ووقائعه الاجتماعية والسياسية والدينية والتعليمة والإصلاحية وأزماته النفسية والفكرية والعاطفية وإنجازاته الأدبية وأعماله الوظيفية وعلاقاته الودية مع الأساتذة والأصدقاء والزملاء العرب والرجال السياسيين الآخرين، وألقى ضوءا ساطعا على أهوال الحرب العالمية الأولى والثانية ونذرها، وعلى مشاهدة آثارها وانعكاساتها في كل من الحجاز والشام والمدينة المنورة، وبعد حوالي بضع سنوات بدأ ينشر الجزء الأول من سيرته الذاتية العربية في حلقات سلسلة في مجلة " إقرأ " ما بين عام 1405هجـ و1406هجـ تحت عنوان (حياتي مع الجوع والحب والحرب)، حيث بدأت الحلقة الأولى وانتهت، وبعد إلحاح شديد من الدكتور عبد الله مناع – رئيس التحرير للمجلة آنذاك، عاود عزيز

ضياء على كتابة بقية الأجزاء من هذه السيرة الذاتية العربية فبدأ ينشر بقية الحلقات من سلسلة الجزء الأول حيث استأنف الجزء الثاني وبعضا من الجزء الثالث في نفس المجلة.

وبعد ذلك توقفت سلسلة هذه الحلقات من سيرته الذاتية، ثم بدأت سلسلة نشر بقية فصولها بعد ثلاث سنوات تقريبا، ولكن لم تنشر في مجلة " إقرأ " وحدها، بل نشرت في مجلة أخرى كان اسمها مجلة " اليمامة " الصادرة من الرياض، كتب في هذه المجلة الغراء ثلاث عشرة حلقة، وبعد نحو أربع سنوات أصدرت مجلتان شهيرتان كان اسمهما مجلة " إقرأ " ومجلة " اليمامة " فتلك الفصول المتفرقة المنثورة جمعت في شكل كتاب بعنوان "حياتي مع الجوع والحب والحرب"، ونشرت طبعته الأولى، ثم ظهر الكتاب في جزأين يشتملان على أكثر من خمس مأة وثمانين صفحة، وبعد عدة سنوات تقريبا نشرت طبعته الثانية من دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع– جدة في عام 2012م يضم الجزء الأول من هذا الكتاب أكثر من ثلاث مأة وخمس وستين صفحة، وكذلك يضم الجزء الثاني من هذا الكتاب أكثر من ثلاث مأة وأربع وثلاثين صفحة تقريبا.

وبعد ذلك طبع هذا الجزء المنشور مع حلقات أخرى في كتاب يشكل الجزء الثالث من سيرته الذاتية، وكانت طباعته في عام 1418هجـ، ويقع هذا الجزء في أكثر من مئة وثمانين صفحة، وهنا يجدر بي الإشارة إلى أن الأستاذ عبد المقصود محمد سعيد خوجه أصدر هذا الجزء الثالث الأخير من هذا الكتاب في الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء (الجزء الخامس)، نشرته مكتبة عبد المقصود محمد سعيد خوجه – جدة.

تحدث الشيخ عزيز ضياء في هذا الكتاب بقلمه عن فترة زمنية متقدمة من حياته الشخصية التي تمتد ما بين الرابعة إلى العشرين من عمره، حيث ذكر عن أحواله الذاتية وتجاربه القاسية وذكرياته الحلوة والحامضة مرت بجوانب حياته المختلفة، كما أنه تحدثنا في سيرته الذاتية بشيء من التفصيل عن فقد والده الذي قام برحلة سياحية

إلى بلاد روسيا وقزاقستان لجمع الأموال وبناء وتأسيس الجامعة الإسلامية العريقة في المدينة المنوة لكي استطاع أبناء البلاد العربية وخاصة المدينة المنورة أن يطلع على العلم والأدب والثقافة والاجتماع والتاريخ وغيره من العلوم والفنون الأخرى، لكنه لم يرجع من هذه الرحلة قط، وتشير الدلائل الواضحة إلى أنه استشهد في الطريق المؤدي إلى هذه بلاده، وقام فيه بتسليط الضوء على سفر البرلك الذي قام به عدد لا بأس به من أبناء المملكة العربية السعودية وخاصة أبناء المدينة المنورة خائفين من الجوع والعطس الشديد إلى بلاد سوريا وفلسطين والأردن وعمان ومناطق أخرى كانت لا تزال خاضعة لسيطرة الحكومة العثمانية.

وكانت أسرة عزيز ضياء من بين أولئك المهاجرين المغادرين هجرهم فخري باشا– والي العثمانيين على المدينة المنورة، وهناك عانت أسرته الكريمة من الجوع والخوف والعذاب الشديد كما عانت غيرها من الناس، ومن خلال مكوثه في الشام أنه فقد بعض أفراد أسرته، ورجع بعدها إلى المدينة المنورة بمرافقة أمه، وكل ذلك وقع بعد انتهاء الحرب وخروج جيش الاحتلال التركي.

كما ذكر لنا انطباعاته وخواطره ومشاعره وتنقلاته مما شاهد بعينيه وسمع بأذنيه بين العديد من مدن الشام والمملكة العربية، وتحدث عن الأحوال والأوضاع والظروف القاسية التي كانت سائدة آنذاك من حالات بعض وفيات أهله وأسرته في جو من الحزن والألم والعذاب والخوف والفقر والبؤس، وألقى ضوءا ساطعا على الأحوال السيئة والحوادث الكثيرة المثيرة التي تعرضت لها أسرته وأهل بيته والتي بدأت بسرقة اللصوص لمقتنيات الأسرة الثمينة الغالية، وكل ذلك حدث عندما اشتد حصار المدينة المنورة من جوانبها الأربعة خلال الحرب العالمية الأولى، وبسبب انتشار الجوع الشديد في المدينة المنورة عمت الفوضى والاضطرابات فيما بين الناس، وشاعت عملية السرقة كثيرا.

وكذلك تحدثنا في كتابه عن الأحداث والظروف السيئة التي أعقبت رجوعه مع والدته إلى المدينة المنورة ومعاناته بعد تعرض سرقة اللصوص في البيت حيث سرق

اللصوص كل شيء من الأشياء في البيت، وألقى ضوءا ساطعا بشيء من التفصيل على زواج والدته برجل جديد كان يعمل بصفته ضابطاً رسميًا في الدولة العثمانية بعد أن حكم بطلاقها من والده الأسبق على المذهب المالكي في المحكمة، وكذلك ذكر فيه متحدثا عن الأوضاع والحوادث المثيرة التي طرأت على هذه الأسرة الصغيرة المشتملة على عزيز ضياء وأمه وأبيه الجديد الذي كان ضابطا ومسؤولا لبعض الأماكن من منطقة المدينة المنورة، وأعرب خواطره ومشاعره عن أثر التعليم والتربية التي كانت رائجة في المدرسة وعن الالتحاق بالمدرسة الراقية الهاشمية وما جرى له من أحداث وأهوال في تلك الفترة من الزمان.

في الواقع أن الكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب" بيان عن قصة حياته الشخصية وحالته الأدبية والفكرية والعلمية مما عايشها تحت ظلال الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى في شوارع وأزقة المدينة المنورة والشام، وهو خلاصة لحياته الممتدة من نعومة أظفاره حتى صباه، ففيه صور وعواطف وخواطر ومشاعر وأحاسيس ونظريات وأفكار وعلوم وآداب وتجارب وما إلى ذلك من موضوعات مختلفة وقضايا متعددة من أدبية وفنية وعلمية ودعوية وتربوية وخلقية واجتماعية وسياسية وثقافية وتاريخية وماعداها، فإذا أراد القاريء أن يطالعه فلم يتركه حتى يكمل قراءته ومطالعته كاملا في مجلس واحد، وعندما يقرأه يشعر تلذذا وطراوة وحرارة في نفسه، كما يتلذذ من خلال قراءة كتب الرواية والمسرحية والقصة وغيرها من العلوم والفنون، فنظرا إلى أهمية هذا الكتاب ونظرا لمكانة صاحب الكتاب ودوره القيادي في الحركة االأدبية والفكرية والثقافية في المملكة العربية السعودية، عقدت العزم على أن اختاره للبحث والتحقيق لدرجة الدكتوراة.

وأريد هذا أن أصرح بكل صدق وأمانة إنني كنت مولعا ومغرما منذ صغر سني بمطالعة كتب السير الذاتية والتراجم الغيرية للأعلام والكتاب والشعراء والمفكرين والدارسين والباحثين والناقدين والصحفيين والرجال السياسيين الذين قدموا مساهمات جليلة في أي ميدان من الميادين الاجتماعية والثقافية والعلمية والفكرية والأدبية

الحضارية لرفاهية الإنسانية الجمعاء وكتبوا سيرهم الذاتية في اللغة العربية أو الإنجليزية أو الهندية أو الأردية، فقرأت العديد من السير الذاتية والتراجم الغيرية من أمثال " الأيام " للدكتور طه حسين، و"حياتي" لأحمد أمين، والسيرة الذاتية " تجربتي مع الحقيقة " (The Story of My Experiments with truth) لمهاتما غاندي، والسيرة الذاتية " أجنحة من الطيران " (Wings of Fire) لعبد الكلام، و سيرة ذاتية " The Autobiograhy of Benjamin Franklin " لبنجامن فرانكلين، و " Long walk to Freedom" لنيلسن مانديلا،" The Diary of a Young girl" لأنا فرانك، "Mein Kamph" لأدولف هتلر، وغيرها الكثيرة، عندما قرأت هذه الكتب المذكورة أعلاه وجدت في نفسي طراوة ولذة ومتعة وتسلية وأدبا وفنا مع تجربة نافعة وخبرة محكنة، منذ ذلك الحين كنت أود أن أقوم بالبحث في أي موضوع من الموضوعات التي تتعلق بالسير الذاتية الأدبية، وقد كملت طموحاتي عندما ذهبت في أوائل شهر يناير عام 2013م إلى السوق الموسمية للكتب التي تقع في براغاتي ميدان – نيو دلهي في كل سنة من السنوات.

ما كدت أصل السوق حتى ذهبت بسرعة إلى مكتبة المملكة العربية السعودية التجارية فوقع نظري فجأة إلى أحد الكتب كان اسمه "حياتي مع الجوع والحب والحرب" (الجزء الأول) فشدني هذا العنوان وأعجبني كثيرا جداً، طالعته قليلا وأنا كنت قائما، ثم أخذته بإذن صاحب المكتبة التجارية واستأذنته ورجعت إلى حرم جامعتنا، وبدأت أطالع هذا الكتاب كلمة كلمة، فإنه يثير فينا كل معاني الطموح والعجب والإعجاب بهذا الرجل الذي حقق نجاحا كبيرا في حياته وأحدث ثورة هائلة في الأدب العربي الحديث بشكل عام وفي الأدب العربي السعودي بشكل خاص، وعندما بدأنا مطالعة هذا الكتاب فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة تامة هو أنه شريط مسلسل لحياته، يعرض الصور ويقرر الآراء في غير افترار ولحظة حازمة، وإنه أفضى إلينا ذكريات حياته متعددة الجوانب، فتأترت للغاية بأسلوبه الرائع ووقائعه التاريخية وأحواله الشخصية وذكرياته الحلوة والحامضة، وتشكلت في ذهني صورة عن الكتاب وصاحبه وخدماته الجليلة التي قام بها أثناء حياته

المطولة في الأدب العربي الحديث في المملكة العربية السعودية، فبدأت أبحث عن تصنيفات وتأليفات ومترجمات أخرى لهذا الأديب الموهوب فوالله لم يتيسر لي إلا الإطلاع على الكتاب " الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء " (في خمسة أجزاء)، الذي وجدت فيه الأسلوب الرائع الأنيق نفسه الذي وجدته في كتابه السابق، فسرعان ذهبت إلى مشرفي الأستاذ الدكتور عبيد الرحمن طيب، وناقشت معه حول هذا العنوان المحدد للبحث والتحقيق في الدكتوراه، فقد اتفق على هذا الموضوع بعد نقاش طويل، وتم اتفاقه عليه، فرجعنا إلى غرفتي بكل فرح وسرور، ومنذ ذلك الحين شمرت عن ساق الجد للبحث في هذا الموضوع.

وكذلك يناسب لي في هذا المكان أن أبين أن معظم الكتاب والعلماء والأدباء والباحثين والدارسين والناقدين من العرب والعجم كتبوا البحوث والدراسات والمقالات الأكاديمية عن حياة الشيخ عزيز ضياء وخدماته الجليلة ومساهماته القيمة في حقل العلم والأدب والتاريخ وغيره، ولكن لم يقم أحد منهم بإجراء بحث وتحقيق تحليلي شامل ومقارن عن كتابه النادر بـ" حياتي مع الجوع والحب والحرب" في الجامعات العصرية الهندية وخارجها على حد معرفتي، على الرغم من ذلك أن الشيخ عزيز ضياء يعد من الشخصيات الفذة والعبقرية في أنحاء المملكة العربية السعودية وخارجها. وبالطبع وليست المبالغة فيه القول إن الأستاذ عزيز ضياء كان ممتازا وعبقريا في القرن العشرين في الأدب العربي السعودي الحديث، وإنه ترك في مجال العلم والأدب والثقافة أثرا حسنا شيقا فأصبح من أعظم العلماء والأدباء البارزين بأعماله الأدبية وبخدماته الجليلة التي قام بها في حياته. وهذه هي الأسباب الجذرية التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع المحدد.

ومن أهداف هذا البحث إبراز مدى إسهامات الشيخ عزيز ضياء في العلوم المختلفة والفنون المتنوعة، واستكشاف القيم التاريخية والاجتماعية والسياسية والدينية التي تحويها السيرة الذاتية العربية تحليلا مضامين النص من حيث مقومات فن السيرة الذاتية وتقنيات سردها، كما يهدف إلى اطلاع القضايا التاريخية التي تناولها الكاتب من

خلال سيرته الذاتية، واعتمدت للوصول إلى هذه الغاية على المنهج الوصفي والتحليلي ثم قمت بمقارنة جادة بين الكتاب "حياتي مع الجوع والحب والحرب"، وكتاب "أيامي" للأديب الرائد أحمد السباعي، حتى أصلى إلى تحقيق أهداف بحثي. أرجو أن تكون هذه الرسالة مرجعا ومصدرا للباحثين القادمين وثروة ذات أهمية في باب فن كتابة السيرة الذاتية في الأدب العربي المعاصر بشكل عام وفي الأدب العربي السعودي بشكل خاص، كما أرجو أن تكون هذه الرسالة إضافة جديدة في باب أدب السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية وخارجها.

ومما لا شك في أن هذا الموضوع الذي قد اخترته للبحث هو موضوع هام جداً في أدبنا العربي الحديث بشكل عام وفي الأدب العربي السعودي بشكل خاص، نظرا لأهمية هذا الموضوع كنت أتوقع أن المواد المتعلقة بهذا الموضوع أن تكون متوفرة بمقدار كثير في المكتبات الهندية المختلفة ولكن آمالي قد خابت إذ لم أجد مصادر ومراجع بمقدار كاف، ومن هنا قد واجهت مشاكل وصعوبات كثيرة في إنجاز هذا البحث المهم إلى حيز الوجود. وفي هذا المكان أريد أيضاً أن أوضح تماما وليس فيه عار علينا بأنني لم أستطع أن أودي حق البحث كما ينبغي، ومع ذلك كله إنني بذلت قصارى جهودي المتواضعة المضنية لتقديم عصارة بحثي المتواضع في أحسن صورة وأروع أسلوب مستمدا من المصادر والمراجع المتوفرة في مكتبة جامعة جواهر لال نهرو –نيو دلهي (الهند)، ومكتبة الملحق الثقافي السعودي – نيو دلهي– الهند، مكتبة الجامعة الملية و الإسلامية– نيو دلهي– ومكتبة الجامعة العثمانية– حيدرآباد– الهند، والمواقع الإلكترونية ونجحت إلى حد ما في تحقيق غايتي المنشودة وقدمت ثمرة بحثي المتواضع في صورة هذه الأطروحة للدكتوراه.

ولإنجاز هذا البحث المتواضع بأحسن صورة ممكنة قسمته إلى أربعة أبواب، وجميع هذه الأبواب تنطوي على ثلاثة أو خمسة فصول والتفاصيل عنها كما يلي: –

يحتوي الباب الأول الموسوم **بـ " أدب السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية**"، على ثلاثة فصول، ذكرت في الفصل الأول معنى السيرة والسيرة الذاتية لغة

واصطلاحا، وأنواع السير والسيرة الذاتية باعتبار الكاتب، وعلاقة السيرة مع الفنون الأدبية الأخرى مثل المذكرات والاعترافات واليوميات والرواية والتاريخ والرسم الذاتي والرسائل وغيرها، والشروط الفنية للسيرة الذاتية في الأدب العربي، وأسلوب السيرة الذاتية، والعوامل الدافعة إلى كتابة السيرة الذاتية، ونشأة وبداية السيرة الذاتية في الآداب العالمية. وتحدثت في الفصل الثاني عن أدب السيرة الذاتية نشأته وتطوره في الأدب العربي الحديث والقديم عبر العصور مع التركيز على الكتاب البارعين والعلماء النابغين والمترجمين الماهرين الذين كتبوا كتبا كثيرة في حقول مختلفة من العلوم والفنون فضلا عن السيرة الذاتية في اللغة العربية، وتحدثت في الفصل الثالث عن مرحلة بداية السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية وتطورها عبر العصور.

والباب الثاني المعنون **بـ " الشيخ عزيز ضياء: حياته وأعماله"**، يحتوي على خمسة فصول، ناقشت في الفصل الأول عن عصر الشيخ عزيز ضياء، وتاريخ المملكة العربية السعودية بالتركيز على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية وما إلى ذلك. ويدور الفصل الثاني عن حياة الأديب الراحل الشيخ عزيز ضياء المغفور له، وميلاده، ونشأته، ونسبه، ورحلات أسرته المأساوية. وفي الفصل الثالث ألقيت نظرة خاطفة على دراساته العلمية، ونشاطاته العملية، وأساتذه البارعين الذين قد استفاد منهم خلال الدراسة والمطالة، كما أوضحت فيه رغبته الشديدة الملحة التي دفعته إلى قراءة ومطالعة الكتب الأدبية والفنية في أيام الطفولة والصبا وعلى وفاته. وفي الفصل الرابع ألقيت الضوء على إسهاماته الجليلة في مجالات شتى بما في الصحافة العربية، والإذاعة العربية، والتلفاز، وأعماله الأدبية الشعرية، ومحاضراته القيمة، ومناقشاته النادرة التي ألقاها عزيز ضياء في العديد من الندوات والجلسات والاجتماعات والمؤتمرات في المملكة العربية السعودية وخارجها، ومكانة الشيخ عزيز ضياء لدى الأوساط العلمية والفكرية والأدبية. وفي الفصل الخامس قمت باستعراض إنجازاته العلمية والأدبية والفكرية التي تركها ورائه في فنون مختلفة من القصة، والمسرحية، والأدب، والتاريخ، والترجمة الغيرية، والسيرة الذاتية وما عداها.

ويحتوي الباب الثالث الموسوم **بـ " مساهمة الشيخ عزيز ضياء في السيرة الغيرية (الترجمة) والسيرة الذاتية"**، على ثلاثة فصول. ففي الفصل الأول ألقيت نظرة عابرة على مساهمة الشيخ عزيز ضياء في فن كتابة السيرة الغيرية (الترجمة) والسيرة الذاتية بالإشارة الخاصة إلى الكتاب الموسوم بـ" حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف"، كما ذكرت الموضوعات أو القضايا التي تناولها المؤلف من خلال سيرته الذاتية، وتحدثت عن الأسلوب الأدبي الذي قد اختار المؤلف فيه، وفي الفصل الثاني تحدثت عن التعريف الموجز بالكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب"، وعن محتوياته، وعن العوامل الدافعة إلى كتابة بسيرته الذاتية في اللغة العربية، وفي الفصل الثالث قمت بدراسة تحليلية دقيقة لكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب" من حيث الموضوعات التاريخية والاقتصادية والسياسية والإدارية والاجتماعية.

وأما الباب الرابع: المعنون **بـ " كتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب " و" أيامي " دراسة تحليلية ومقارنة "**، فيتحوي على ثلاثة فصول. تحدثت في الفصل الأول عن العناصر الأدبية البارزة التي وجدتها خلال مطالعة ودراسة الكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب" وذكرت في الفصل الثاني الخصائص البارزة النادرة المتواجدة في الكتاب، كما ناقشت عن أهمية الكتاب ومكانته المرموقة لدى الأساط العلمية والفكرية والأدبية في المملكة العربية السعودية وخارجها، ويحتوي الفصل الثالث على دراسة "حياتي مع الجوع والحب والحرب" للأستاذ عزيز ضياء و "أيامي" للأديب الرائد الأستاذ أحمد السباعي دراسة تحليلية مقارنة. وينتهي هذا البحث بالخاتمة التي استقصيت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها أثناء هذه الدراسة التحليلية والمقارنة بينه وبين كتاب " أيامي"، ثم ألحقت بها قائمة المصادر والمراجع التي استفدت منها في إعداد هذا البحث المتواضع.

وفي النهاية أحمد الله سبحانه وتعالى أنه وفقني لإنجاز البحث، وبعد ذلك علىّ أن اتقدم بالشكر الجزيل إلى جميع أفراد أسرتي لما وفروا لي الراحة والتسهيلات لكي أقوم بهذا البحث في الفترة المحدودة له ولاسيما أمي الحنون ووالدي الكريم اللذان قد

انتقلا إلى جوار الله سبحانه وتعالى قبل ختام البحث (تغمدهما الله سبحانه وتعالى بواسع رحمته وأدخلهما في فسيح جناته النعيم، آمين يارب العالمين). وكذلك يجب علينا أن أقدم شكري وتقديري لأستاذنا الفاضل الدكتور عبيد الرحمن طيب الذي بصفته مشرفا بعث في قلبي روح البحث والدراسة، وساعدني بتوجيهاته الرشيدة وآرائه الصائبة في إعداد هذه الرسالة، ولم يأل جهدا وسعيا في تقديم مساعدات غالية وآراء سديدة في مسار البحث والتحقيق العلمي والأدبي والفني.

ثم عليّ أن أبدي عواطف الشكر والتقدير من أعماق قلبي الأخ الدكتور محمد ريحان خان الندوي، والدكتور كاشف جمال، والدكتور محمد محامد حسين الندوي، والمقريء فيض أحمد فيض،، والأخ محمد شميم أحمد، والدكتور خلدون صبح، والدكتور محمد مهتاب عالم، والدكتور محمد عرفان، اللذين لم يبخلوا علي بآرائهم السديدة وتوجيهاتهم الرشيدة في نقل هذه الرسالة إلى حيز الوجود على الميعاد، وكذلك لن أنسى آية بنت رجب التي ساعدتني بآرائها المفيدة ولم تزل ولا تزال تساعدني في البحث عن المواد والكتب التي تتعلق بموضوعنا البحث، جزاكها الله أحسن الجزاء يارب العالمين، ولا يفوتني في هذا المكان أن أشكر كافة أمناء وموظفي المكتبات الهندية مثلا: مكتبة الملحق الثقافي السعودي – بنيو دلهي (الهند)، ومكتبة جامعة جواهر لال نهرو – نيو دلهي، (الهند)، ومكتبة الجامعة الملية الإسلامية– نيو دلهي، ومكتبة الجامعة العثمانية– حيدرآباد، ومكتبة مولانا آزاد الوطنية الأردية – حيدرآباد، الذين ساعدوني في الحصول على المعلومات حول الموضوع، إذ استفدت من هذه المكتبات كثيراً جداً، وكذلك يجب على أن أشكر جميع أصدقائي وزملائي الذين مدوا إليّ يد العون والمساعدة لإنجاز هذه الرسالة، وزودوني بالمعلومات المفيدة في المراحل المختلفة للبحث.

أخيرا وليس بآخر إنني اعتقد من الله عز وجل بأن هذه الرسالة المتواضعة ستكون هدية غالية ثمينة في المستقبل خاصة للراغبين في الأدب العربي الحديث في الحادي والعشرين، وكذلك أدعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبّل مني جهودي المتواضعة

خالصا لوجهه وأن يوفقنا جميعا لما يحب ويرضى، وكذلك آمل أن هذه الرسالة المتواضعة ستنال القبول والإعجاب بين الأوساط العلمية والأكاديمية بإذن الله عز وجل والله ولي التوفيق وحسبنا الله فنعم المولى ونعم النصير.

عبد الحكيم

الباحث في الدكتوراه

مركز الدراسات العربية والإفريقية

جامعة جواهر لال نهرو – نيو دلهي (الهند).

التاريخ: 2019/07/15م

الباب الأول

أدب السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية

الفصل الأول: معنى السيرة والسيرة الذاتية

الفصل الثاني: تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي

الفصل الثالث: تطور السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية

الفصل الأول

معنى السيرة والسيرة الذاتية

مما لا شك فيه أن السيرة الذاتية والترجمة الشخصية تعتبر من أهم الفنون الأدبية المتميزة شأنا، وتعبيرا عن طبيعة العصر الذي أنشأت فيه، فالتراث العربي القديم والحديث مملوء بالسيرة والسيرة الذاتية التي تتسم بما هو ذاتي الطابع أو ذي اهتمام بما هو عام أو تكون مزيجا بينهما، فتكشف تلك السير الذاتية العربية بصورة عامة عن الملامح الثقافية التي سنحاول أن نبحث عنها في هذا الفصل المحدد، قبل أن نتحدث عن أدب السيرة الذاتية، ونشأته، وتطوره، وأنواعه، وأشكاله، وشروطه الفنية، وأهدافه الأدبية لابأس به من التعريف بمفهوم السيرة، ومعناها، ومدلولاتها، وتعريفها في اللغة والاصطلاح الأدبي.

تعريف السيرة في اللغة:

اتخذت السيرة معاني لغوية عديدة نجدها في المعاجم والقواميس اللغوية القديمة والجديدة، وعلى الرغم من ذلك أن بعضها قد ابتعد عن المعنى الدلالي لمصطلح السيرة وبعضها الآخر قد اقترب منه بل يعد أصلا لغويا له، ومن الممكن أن نلاحظ معنى السيرة لغة في المعاجم والقواميس اللغوية الأدبية وهي السيرة: هي الطريقة والسنة والهيئة "وسار" الوالي في الرعية "سيرة" حسنة، وأحسن" السير" وهذا في سير الأولين، والسيرة: الضرب من السير، والسير الكثير السيرة: السنة وقد سارت وسرتها[1].

وقد جاء في المعجم الوسيط بأن السيرة: هي السنة، والطريقة، والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، " السيرة النبوية " و" كتب السير" ماخوذة من السيرة بمعنى الطريقة، وأدخل فيها الغزوات وغير ذلك، ويقال: قرأت سيرة فلان، تاريخ حياته[2]. وكذلك جاء في القاموس المحيط للفيروزآبادي بأن السير: الذهاب كالمسير والتسيار

---

[1] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، مادة س، ي، ر.

[2] المعجم الوسيط، مادة، س، ي، ر، ص: 486.

والمسيرة والسيرورة، والسيرة: الضرب من السير، والسيرة بالكسرة: السنة، والطريقة، والهيئة، والميرة "[1]. ولو فكرنا على هذا المعنى الذي ذكره الفيروزآبادي في قاموسه المحيط فوجدنا أن كلمة السيرة تفيدنا لغة معنى الطريقة التي ينهجها لشخص في طول حياته. كما جاء في معجم مصطلحات الأدب " السيرة، تاريخ الحياة، ترجمة الحياة Biography، 1. تاريخ مدون لحياة لشخص، مثال ذلك: حياة صلاح الدين الأيوبي، للدكتور أحمد بيلي، 2. فن ترجمة الحياة لشخص ما، 3. الجنس الأدبي لقص ترجمات الأشخاص"[2].

وعندما نتوسع للاطلاع على المعنى الشامل لهذه الكلمة فنرى ماذا يتحدث عنها صاحب محيط المحيط هو يقول " الاسم من سار والسنة، والطريقة، والمذهب، والهيئة، والسيرة جمع سير، ويقال سار بهم سيرة حسنة، وسيرة السلطان طريقته التي يحمل عليها رعيته من عدل أو جور، وقولهم تنشر الملائكة سيرته أي صحيفة أعماله وطاعاته على حذف المضاف، وأصلها حالة السيرة إلا أنها غلبت في لسان الشرع على أمور المغازي وما يتعلق بها كما غلبت المناسك على أمور الحج، وقالوا السير الكبير فوصفوها بصفة المذكر لقيامها مقام المضاف الذي هو الكتاب كقولهم صلى الظهر أي صلاة الظهر، قيل وسميت المغازي سيرا لأن أول أمورها السير إلى الغزو وأن المراد بها في قولنا كتاب السير سير الإمام وملاقاته مع الغزاة والأنصار والكفرة، وكتاب السير أرجوزة نظمها الشيخ إبراهيم الحلبي في ترجمة الرسول صلى الله عليه وسلم من ولادته إلى وفاته يقول في أولها " أحمد من علمنا علم السير، وصلواته على خير البشر" فجعلها ثلاثة وستين بيتا على عدد أعوام عمر الرسول وشرحها شرحا طويلا مشتملا على جميع غزواته ومتعلقاته، هو المعروف بكتاب السير الكبير، وسيرة الإنسان كيفية سلوكه بين الناس، فيقال فلان حسن السيرة اورديها، ومن قولهم من

[1] الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ص: 828/827.

[2] مجدي وهبه، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص: 205.

طابت سريرته حمدت سيرته، والسيرة تطلق على القصة عند العامة، ومن ذلك قولهم سيرة عنترة وسيرة الملك سيف ونحو ذلك[1].

إذا قمنا بالنظر فوجدنا أن السيرة اختصت أولا بحياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ثم شاع استعمال كلمة السيرة بمعنى ترجمة الحياة وخاصة حياة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وأي إنسان آخر يسكن على وجه الأرض في أرجاء المعمورة، كما جاء في الإنسكلوبيديا الإسلامية الجديدة " إن السيرة نوع من الأدب معناها: طريق الذهاب، طريقة التمثيل، السلوك، طريق الحياة (وفي هذه المعاني هو مرادف مع السنة) وأيضا عمل لا ينسى، وسجل مثل هذا العمل، وفي مجموعات الحديث النبوية الشريفة والكتب للشريعة الإسلامية تستخدم كلمة السير بمعنى قواعد الحرب، والتعامل مع غير المسلمين، وعلاوة على ذلك أن السيرة معناها: المكتوب، والكتيب، والبيان، وأخيرا ليس آخرا أن السيرة معناها: حياة وأوقات ابن المقفع، وأن السيرة هي سيرة حياة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يبدو أن هذه الكلمة استعملت من قبل ابن هشام وكذلك قد استعملها الواقدي وتلميذه ابن سعد من قبله، وبالإضافة إلى ذلك أن كلمة السيرة معناها بشكل عام: تاريخ حياة الشخص" وهذا ما يدل عليه كتاب الكلبي(158) المعنون بسيرة معاوية وبني أمية".[2]

وكذلك يرى الدكتور محمد كامل حسن أن السيرة النبوية قد تأثرت بفن السيرة في بلاد مصر والتي كانت شائعة فيها منذ زمن الفراعنة والأقباط الذين قاموا بكتابة سيرهم من سبقوهم من الأدباء والقديسيين فهو يقول " وفي مصر الإسلامية ظهرت هذه الحلقات المتتابعة في فن السير، ولعل أولها ما قبل من أن ابن اسحاق صاحب السيرة النبوية وفد على مصر وروي بها السيرة، ووفد ابن هشام على مصر وروى بعض أجزاء السيرة عن المصريين، وبلغت عناية المصريين بالسير وكلفهم بهذا الفن أنهم وضعوا للشعب سيرا عن أبطال أحبهم المصريون وردد الشعب هذه السيرة في اجتماعاته

[1] بطرس البستاني، قاموس محيط المحيط، ص:445.

[2] The encyclopaedia of islam(new adition) by C.E Bosworth and others, volume 9th page no. 660

ومغانيه، مثل سيرة عنترة بن شداد وسيرة الهلالية "[1]. وإذا ألقينا نظرة خاطفة على السيرة في الأدب العربي القديم فوجدنا أن السيرة ارتبطت بسيرة حياة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كما أنها ارتبطت بالأدباء والفقهاء والمؤرخين كما نجد هناك بعض السير التي ظهرت في العصور المتأخرة مثل: سيرة سيبويه المصري، وسيرة ابن طولون، والأخشيد التي كتبها المؤرخ بان زولاق وغيره.

تعريف السيرة في الاصطلاح:

لقد تعددت تعريفات السيرة في الاصطلاح، ولم يتفق الكتاب المختصون بهذا الفن على تعريف واحد يوضع لتعريف السيرة، بل معظمهم قد حاولوا كل المحاولة أن يضعوا تعريفا خاصا به حسب فهمهم وتدبرهم لطبيعة السيرة، فجاءت السيرة بتعريفها الأدبي بأنها " نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي والامتاع القصصي، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصية "[2]. وعرفها الدكتور إحسان عباس أثناء حديثه عن نشأة السيرة وقال " كلما كانت السيرة تعرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو منعكسة منها أو متأثرة بها فإن السيرة في هذا الوضع تحقق غاية تاريخية "[3]. ويؤكد أيضا أنها " كلما كانت السيرة تجتزيء بالفرد، وتفصله عن مجتمعه، وتجعله الحقيقة الوحيدة الكبرى، وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتاريخ تكون واهية ضعيفة "[4]. وقد رأي الدكتور النجار في تعريفه للسيرة " بأن السيرة قصة تاريخية، لا تشذ أبدا عما يفيده التاريخ من حقائق تعتمد على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطعة البعيدة عن الكذب والافتراء إلا أنها قصة تتعلق بحياة إنسان ترك من الأثر في الحياة ما جذب إليه التاريخ "[5].

---

[1] حسين، الدكتور محمد كامل، في أدب مصر الفاطمية، ص: 143/142.

[2] المقدسي، أنيس، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، ص: 547

[3] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة، ص: 12.

[4] المرجع نفسه، ص: 12

[5] النجار، الدكتور حسين فوزي، التاريخ والسير، ص: 61

ولا شك فيه أن السيرة في المعاجم اللغوية تعنى الطريقة، والسنة، والهيئة، وتاريخ حياة الشخص، فهذا المعنى اللغوي يقترب كثيرا من المعنى الإصطلاحي، كما ورد في كتاب " معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب" أن السيرة تعنى " فن ترجمة الحياة لشخص ما أو تاريخ مدون لحياة شخص"[1]. ويمكننا القول إن السيرة فن أدبي يجمع بين القصة والتاريخ، ويتناول شخصية من الشخصيات البارزة لجلاء جوانبها، والكشف عن عناصر العظمة فيها، ويقوم بدراسة أخلاقها وعاداتها والتعليق عليها بقصد الإفادة من خبرات وتجارب في الحياة، وهي من الفنون الأدبية المتميزة التي تجعل حياة الإنسان موضعا وتستمد منها الوقائع والأحداث فتعرضها عرضا فنيا نظرا إلى التسلسل الزمني.

أنواع السيرة باعتبار الكاتب:

السيرة في الأدب، لها أشكال متعددة وأنواع مختلفة، ولأجل ذلك هي متعددة التعريفات تبعا للنوع والشكل الذي تلبسه، ويرجع اختلاف أقسامها إلى اختلاف الغاية والطريقة التي يعتمد عليها الكاتب في التصنيف والتأليف، ولكن من أشهر السير وأعمقها قسمان مشهوران في الأدب العربي، وهنا نحن نستطيع أن نقسم السيرة إلى نوعين رئيسيين اعتمادا على كاتبها هما: الأول: السيرة الغيرية والثاني: السيرة الذاتية.

1. **السيرة الغيرية:**

المقابل الإنجليزي للسيرة الغيرية هو Biography، وهو مشتق من كلمتين يونانيتين تعنيان: وصف حياة، فBios تعني: حياة وGraphein تعني: يصف، ولقد وضع كارلايل أوجز تعريف للسيرة في قوله " إن السيرة حياة إنسان" فهي غرض أدبي عريق في حضارتنا العربية الإسلامية، وقد صيغ على نماذج تكاد تصل به إلى منزلة الاكتمال في المضمون والغرض والأسلوب "[2]. فالسيرة الغيرية قصة تتعلق بحياة إنسان فرد ترك من الأثر في الحياة ما جذب إليه التاريخ، وأوقفه على بابه، وهي أحفل من

[1] مجدي وهبه، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص: 205

[2] شرف، الدكتور عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص: 3.

التاريخ العام بالعواطف الزاخرة الجياشة والأحاسيس النابضة، لأنها تعرض من سيرة الفرد لجوانب حياته المختلفة حتى تتجلي مقومات شخصيته، وتبرز معالم حياته، لتفصح عن سر نبوغه وتفرده، إذ لا تحفل السير إلا بكل نابغة فريد، فهي إذا قصة إنسان فذ أو متميز بكل ما ينبض به قلب هذا الإنسان من أحاسيس وعواطف، وما اعتور عقله من فلتات الذكاء الفذ، والخيال الجامح، وأبرز ما فيها هو العمل الكبير الذي قام به صاحبها، والأثر الفعال الذي تركه بعمله في الحياة الإنسانية، وبقدر ما يعظم هذا العمل ويعظم تأثيره، بقدر ما يحفل به التاريخ فيقص خبره ويروي سيرة صاحبه[1].

فيمكننا القول إن السيرة الغيرية هي أن يكتب الكاتب عن الأشخاص الكبار لإبراز شخصياتهم المتميزة المختفية والكشف عن جوانب العظمة والكرامة التي يتصف بها، مثل سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وسيرة ابن هشام، وسيرة البديعي، وسيرة عروة بن الزبير، وسيرة بهاء الدين بن شداد، وكذلك كتب العبقريات لعباس محمود العقاد وكتب جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه وغيرها الكثير.

2. السيرة الذاتية:

اهتم العصر الروماني منذ وجود السيرة الذاتية في الأدب اهتماما كبيرا بالغا في الآداب العالمية على العموم والأدب العربي على الخصوص، وبدأ الدارسون والمحققون يتناولونه في بحوثهم العلمية والأدبية ووضعوا له عدة تعريفات، ولكنهم لم يضعوا له حتى اليوم أي تعريف واضح لحدوده يعتمد عليه، وقد يرجع السبب إلى اتصاله بغيره من الأجناس الأخرى مثل القصة والمسرحية والقصة القصيرة وغيرها من الفنون الأدبية، ولذلك كثرت تعريفاته في أدبنا العربي الحديث والقديم كما يعرف لنا هذا الفن الأستاذ محمد عبد الغني بقوله " هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه أخباره،

[1] المرجع نفسه، ص: 5/4

ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعا لأهميته "[1].

وإن السيرة الذاتية هي فن أدبي يتحدث فيه الكاتب أو المؤلف عن حياته، وأنه يعترف بكل صدق وأمانة بالأخطاء التي يقوم بارتكابها في مرحلة ما من حياته، وطالما يقدم الكاتب ميثاقا للسيرة الذاتية يعد فيها القاريء أن يقول عما عاشه هو عن نفسه، والجدير بالذكر أن السيرة الذاتية تكتب في بعض الأحيان بضمير المتكلم وفي بعض الأحيان بضمير الغائب كما نلاحظ في كتاب "الأيام" للدكتور طه حسين، وأن السيرة الذاتية لها أشكال متنوعة وطالما تنتقل المسجلات الشفوية والمكتوبة من قصة حياة الكاتب في الكتب وتسجيل الصوت والأفلام، وأن الكتابات الحميمة التي تنتج أثناء حياة كل فرد من الأفراد في تلك الرسائل والمذكرات والمجلات يمكن أن تستخدم لإلهام في مذكراته وغالبا أن هذه العناصر الرئيسية تقوم بدور كبير في كتابة السيرة الذاتية.

أشكال السيرة باعتبار غايتها ومضمونها:

تنقسم السيرة باعتبار غايتها ومضمونها إلى أصناف عديدة ومنها ما يلي: –

1. **السيرة الأخبارية: Informative Biography**

إن السيرة الأخبارية هي أكثر أنواع السيرة رواجا وتقليديا وفعالية، وإن هذه السيرة يقال لها في بعض الأحيان باسم " السيرة التجميعية " وكاتب هذا النوع من السيرة يمتنع عن أي شكل من أشكال التفسير أو الشرح أو التعليل وهو يحاول إبراز الشخصية وكشف حياتها بصورة عادية بترتيب زمني، وغالبا يصبح هذا النوع من السيرة مصدرا لمن يكتب بعد ذلك عن الشخصية المترجم لها ومن أمثال ذلك حياة ملتن التي كتبها الكاتب الإنجليزي دافيد ماسون وما كتب أدوارد نيلسن عن نورنس وغيره الكثير.

[1] حسن، محمد عبد الغني، التراجم والسير، ص: 23

2. **السيرة الأدبية:** **Literary Biography**

السيرة الأدبية هي قطعة أدبية صغيرة تتناول حياة الأشخاص بأسلوب فني يتصف بالأصالة والروعة الفنية والمقدرة القصصية، مثل "متالب الوزيرين" و" الامتاع والمؤانسة" لأبي حيان التوحيدي وغيره.

3. **السيرة النقدية:** **Critical Biography**

السيرة النقدية هي شكل من أشكال النقد الأدبي الذي يحلل سيرة الكاتب لإظهار العلاقة القوية المتينة بين حياة المؤلف وأعماله الأدبية والفنية التي قام بها خلال حياته بدءا من الطفولة حتى الكهولة. يجمع هذا النوع من السيرة بين البحث العلمي، والتحقيق الأدبي، والنقد العملي. ويختلف عن النوع الأول، لأنه يقدم صورة حقيقية للحياة من الكاتب، والهدف من هذه السيرة تقويم الأعمال وبالإضافة إلى كشف الحياة وجلاء الشخصية بواسطة إعادة تشكيلها استنادا إلى أعمال الشخص وبواسطة تخصيص فصول خاصة للكتابة عن أعماله، وأن هذه السيرة النقدية ترتبط بالنقد التاريخي، وهذا النوع من كتابة السيرة مدين للأعمال الجيدة التي قام بها الكتاب والأدباء في عصور مختلفة من أمثال ادغار جونسن عن جارلس ودكنز داريك بارسال عن حياة جيفري جاوسار وغيرهم.

4. **السيرة التاريخية:** **Historical Biography**

هذا النوع من السيرة يتحدث عن النواحي التاريخية ويعتني بالأحداث بتسجيل الأحداث والحروب والوقائع المتصلة بحياة فرد من الأفراد ويتعرض لبيان صنيعه وأعماله كانت لها علاقة قوية بالأحداث العامة الفاجعة، هناك كتب كثيرة من هذا النوع ومنها " سيرة المعز لدين الله الفاطمي" لابن زولاق، ومما يجدر بالذكر أن ابن زولاق قد اهتم بالسيرة التاريخية اهتماما بالغا فكتب العديد من الكتب في السيرة التاريخية، فكتب سيرة سيبويه المصري وهي شخصية غريبة العادات والأطوار، وسيرة الإخشيد، وسيرة جوهر الصقلي وكلهم كانوا من رجال التاريخ.

5. **السيرة المعيارية:** **Standard Biography**

يعد هذا النوع من السيرة من أهم النوع المركزي الذي يوازن بين الذاتي والموضوعي، وأنها تمثل التيار الرئيسي للسيرة الأدبية وممارسة كتابة السيرة باعتبارها فن، وإن هذه السيرة تهدف إلى نقل تأثير الحياة بصدق وأمانة، وبطريقة أدبية فنية لا تمنح الحقائق الظاهرة فيها، ومن أشهر من كتب هذا النوع من السيرة في العالم هو جورج كافندس الذي كتب حول حياة جونسن، ووالتر أساكسن الذي كتب كتابا قيما حول شخصية بنجامين فرنكالين المتميزة، وكذلك كتب براك أوباما (الرئيس السابق لأمريكا) كتابا رائعا على هذا الموضوع حول.

6. **السيرة التفسيرية:** **Interpretive Biography**

هذه السيرة هي تفسيرية مثل كل السير الذاتية. يعد هذا النوع من كتابة السيرة موضوعيا وليست له هوية مميزة يجمعها نورمان بين واحدة من التقنيات القديمة في المجالات الاجتماعية والأدبية، ومن أفضل ما كتب فيها منذ وقت مبكر هو أعمال كاترين درنكويون عن حياة جابكوفسكي بعنوان "الصديق الحبيب".

7. **السيرة القصصية:** **Fictionalized Biography**

السيرة القصصية هي قصة يتناول بها الكاتب عن حياة شخص حقيقي بأسلوب روائي خيالي شيق رائع، ومن المعروف أن قصة حياة الشخص تعتمد جزئيا على حقيقة وتعزز من خيال المؤلف، السيرة القصصية هي إحدى مناحي السير، والكتب من هذا النوع تنتمي إلى الأدب للسير إلا من خلال مجاملة، ومن خير مثاله كتاب "ابنة الملوك" لمحمد فريد أبو حدير، وكتاب "الشاعر الطموح" لعلي الجارم وغيرهم.

8. **السيرة السياسية:** **Political Biography**

هذا النوع من السيرة هو الذي يقوم بعرض الجوانب السياسية بصرف النظر عن الحياة الشخصية كسيرة " المؤيد في الدين داعي الدعاة" حيث تحدث الكاتب عن الجهود المضنية السياسية التي قام بها خلال حياته الفذة في مجال الدعوة الفاطمية.

9. **قصة تكتب على شكل سيرة: Fiction presented asBiograph**

إن هذا النوع الأخير من أنواع السيرة هو قصة تكتب على شكل سيرة أو سيرة ذاتية، وقد نجح هذا النوع من السيرة نجاحا كاملا عند عامة القراء، ففي هذا النوع من السيرة يكتب القاص أحداث سيرته الذاتية بضمير المتكلم، ويضع نفسه مكان البطل أو البطلة، وهذه الطريقة هي التي نجدها في كتاب "نداء المجهول" لتيمور، و"الحب الضائع" لطه حسين، وفي أكثر قصص خيالية لمحمد عبد الحليم عبد الله وغيره.

تعريف السيرة الذاتية في اللغة:

إذا أردنا أن نتناول مفهوم السيرة الذاتية لا بد لنا من التعرف على معنى السيرة الذاتية في اللغة، والسيرة في اللغة هي: السير: الذهاب، سار يسير سيرا وتسيارا ومسيرة وسيرورة.. والتسيار: تفعال من السير، وسايره أي جاراه فتسايرا، وبينهما مسيرة يوم، وسيره من بلده: أخرجه وأجلاه، وسيرت الجل عن ظهر الدابة: نزعته عنه، والسيرة: الضرب من السير، والسيرة: الكثير السير، والسيرة: السنة، والطريقة يقال: سار بهم سيرة حسنة، السيرة: الهيئة، وفي التنزيل العزيز " سَنُعِيدُها سِيرَتَها الأُولى "(سورة طه21) وسير وسيرة: حدث أحاديث الأوائل"[1]. وجاء في القاموس المحيط " السير، الذهاب، كالمسير والتسيار والمسيرة والسيرورة، وسار يسير وساره غيره وأساره وساربه وسيره، والإسم: السيرة، وطريق مسور ورجل مسور به، والسيرة: الضرب من السير، وكهمزة: الكثير السير والسيرة، بالكسر: السنة، والطريقة، والهيئة، والميزة، والسير بالفتح: الذي يُقدُّ من الجلد ج: سيور وإليه نسب المحدثان: الحسين بن محمد، وعبد الملك بن أحمد السيوريان"[2].

تعريف السيرة الذاتية في الاصطلاح:

أما السيرة الذاتية في الاصطلاح فهي بصورة عامة مصطلح يدل على سيرة الحياة، أو ترجمة الحياة، وهي عبارة عن ترجمة حياة أحد الأعلام، وأهم السير" سيرة

[1] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، الجزء الرابع، ص:390.

[2] الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ص:828/827.

ابن هشام " وسيرة الملوك، وقد تكون ترجمة المؤلف نفسه وهي في الأدب تدل على " السلوك " و" أسلوب حياة " و" الترجمة "[1]. ثم يؤكد التونجي على المفهوم الاصطلاح للسيرة بقوله " هي اليوم فن أدبي من الأجناس الأدبية التي تحكي حياة الأدباء والأعلام، وتروي نوعا من القصص المعتمد على المذكرات "[2]. ثم يفسر المفهوم الاصطلاح للسيرة الذاتية بقوله " السيرة الذاتية هو سرد قصصي يتناول فيه الكاتب ترجمة حاله، وما يعترض حاله من معضلات وشدائد، محاولا تتابع الأحداث زمنيا وأهمية، وهو في السيرة الذاتية لا يذكر إلا ما يشاء ذكره عن حياته، وما يريد أن يوضحه عن الناس حوله، وبإمكان الكاتب يتبع طريقة المذكرات اليومية، والتفصيل في الحكايات والأخبار بالقدر الذي يشاء "[3].

ولقد تعددت وتنوعت التعريفات واختلفت حول مصطلح السيرة الذاتية ويصعب الوصول إلى حد جامعي شامل للسيرة الذاتية فعبد العزيز شرف يقول إن السيرة الذاتية " تعنى حرفيا ترجمة حياة إنسان كما يراها هو "[4]. وأن الأستاذ فيليب لوجون يضع حدا شاملا للسيرة الذاتية حيث يقول " يصبح حد السيرة الذاتية كالآتي: الحد: حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصية، بصفة خاصة "[5]. ويعرف السيرة الذاتية على النحو: هي قصة استعادية نثرية يروي فيها شخص حقيقي (قصة) وجوده الخاص مركزا حديثه على حياته الفردية وعلى تكوين شخصيته بالخصوص"[6]. وقد وضع فيلب لوجون اهتماما بالغا على العقد أو الميثاق من خلال تحديده لعناصر أربعة هي: 1. شكل اللغة: (أ)

---

[1] التونجي، الدكتور محمد، المعجم المفصل في الأدب، ص: 536.

[2] المرجع نفسه، ص: 536

[3] المرجع نفسه، ص: 536

[4] شرف، الدكتور عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص: 27

[5] لوجون، فيلب، السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي، ص:22

[6] المبخوت، شكري، سيرة الغائب، سيرة الآلي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين، ص: 12

حكي (ب) نثري 2. الموضوع المطروق: حياة فردية وتاريخ شخصية معينة 3. وضعية المؤلف: تطابق المؤلف (الذي يحيل اسمه إلى شخصية واقعية) والسارد[1].

وأما شوقي ضيف فقد تحدث بصورة عامة عن الأمور الأساسية التي يجب أن تتوفر في السيرة الذاتية لكن أنه لم يقدم تعريفا واضحا شاملا لها، ففي حديثه عن السيرة عند الغرب أنه يضع الحدود الأربعة للسيرة الذاتية التي يجب توافرها في السيرة وهي: الأولى: أن يكتب الكاتب من واقع نفسه وتجربته الذاتية، والثانية: أن يكتب الكاتب عن نفسه جزءا من حياته أو كل حياته الفردية، الثالثة: التركيز على الحياة الشخصية وعدم التطرق للأحداث العامة، الرابعة: الصراحة، كما أنه يعتبر السيرة الذاتية فنيا أدبيا بقوله حيث يقول " إنما حسبنا أن نعرف أن نشير إلى أن هذا الفن الأدبي له تراث كبير عند القوم، وأن هذا التراث اطلع عليه أدباؤنا المحدثون "[2].

وعلى الرغم من ذلك أن هناك توجه عام نحو كتابة السيرة الذاتية إلا أن يحي إبراهيم عبد الدايم قد استطاع أن يقدم تعريفا شاملا للسيرة الذاتية ويشترط فيه وجود بناء فني لها إذ يقول " الترجمة الذاتية الفنية هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح... وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيا كاملا، عن تاريخه الشخصي، على نحو موجز، حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض، وحسن التقسيم، وعذوبة العبارة، وحلاوة النص الأدبي، وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات، وفيما يتمثله من حواره مستعينا بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله، حتى تبدو ترجمته الذاتية في صورة متماسكة محكمة، على ألا يسترسل مع التخيل والتصور حتى لا ينأي عن الترجمة الذاتية خاصة إذا كان يكتب ترجمته في قالب روائي "[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص:22

[2] ضيف، شوقي، البحث الأدبي مناهجه أصوله مصادره، ص: 11/10.

[3] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 10

وإذا قمنا بالنظر والتحليل على الكلام السابق فوجدنا أن عبد الدايم يضع المحددات التالية للسيرة الذاتية وهي: الأولى أنه يعتبر فنا أدبيا، والثانية ذا بناء محدود وواضح ومصوغ صياغة فنية جيدة، والثالثة تسجيل الأحداث المهمة للكاتب أو المؤلف والابتعاد عن التفصيلات كلها.

ولا ريب فيه أن السيرة الذاتية عمل فني أي أنها نوع من أنواع الإبداع الفني كما يقول عبد العزيز شرف في كتابه " الوحدة هي التي تكمن وراء إبداع السيرة الذاتية "[1]. وقد أيَّد قوله يحي إبراهيم عبد الدايم بقوله عندما قال بأنها " تحقق الغاية المرجوة التي يؤديها العمل الفني، إذ أنها مراح رحب لكاتبها، يتخفف فيه من ثقل التجارب التي خاص غمارها بنقلها من داخل نفسه، إلى خارجها، وهو بهذا يعرض خبراته على الآخرين، بغية مشاركتهم له فيها، ويتحدث إليهم عنها في صدق وصراحة، وأمانة وتجرد "[2].

على أية حال في نهاية حديثي عن المعنى الإصطلاحي للسيرة الذاتية يمكننا القول بأن السيرة الذاتية هي نوع خاص من أنواع الفنون الأدبية النثرية القديمة التي يقدم فيها كاتبها مادة صادقة عن حياته الشخصية والفردية في مختلف مراحلها مع ذكر أهم الأحداث المختلفة والوقائع المتنوعة التي وقعت معه من خلال حياته الفردية بهدف نصيحة وتربوية للأجيال القادمة.

علاقة السيرة الذاتية مع الفنون الأخرى:

هنا أرى من المناسب أن أذكر العلاقة القوية والصلة التامة بين السيرة الذاتية وما يشبهها من أنواع السير لكي نتعرف على مفهوم كل نوع من أنواعها وهي كما يلي-

1. **المذكرات: Memoirs**

كلمة مذكرات واحدها مذكرة، وهي التي تولى اهتماما كبيرا بالغا للأحداث والتغيرات حول الكاتب وخارجه أكثر مما تولى للكاتب نفسه كما في مذكرات

[1] شرف، الدكتور عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية،)، ص: 15

[2] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص:11/10

(Memoirs) الرئيس الأمريكي هاري ترومان (1955-1956)[1]. ويرى عبد العزيز شرف " أن الشكل الوحيد الذي له صلة، والذي من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، فصله منطقيا من السيرة الذاتية هو المذكرات (Memoirs) فكاتب المذكرات عادة هو شخص لعب دورا مميزا في التاريخ، أو أتيحت له الفرصة لكي يشاهد عن كثب التاريخ في صنعه (ثم يشرح مقصده بقوله) كانت كلمة مذكرات Memoirs كثيرا ما تستخدم لأعمال تسمى الآن سيرا ذاتية، والتمييز بين الشكلين كثيرا ما يتحول إلى فرق في الدرجة لا في النوع "[2].

إنها تعتبر من أهم الأشكال الأدبية التي يصعب فصلها منطقيا عن السيرة الذاتية، فكاتبها يلعب دورا واضحا في مجرى الأحداث، ومراقبتها وملاحظتها عن قرب، وكذلك معايشتها عن كثب وذلك يوفر لكاتبها متابعة التأريخ والموضوعات والقضايا[3]. حيث " إن المذكرات من حيث المادة التي تحتويها أوسع مدى من السيرة الذاتية، فهي نستطيع أن تستوعب الأحداث الخاصة، التي يهتم بها كاتب السيرة الذاتية، كما أنها تهتم برصد الأحداث التاريخية وتسجيلها "[4].

ومن المعلوم أن المذكرات نوع خاص من أنواع الكتابة التاريخية المتعلقة بالسيرة الذاتية، هناك أقل فرق بينها، وهي أن السيرة الذاتية تقوم برواية قصة حياة المؤلف وتسجل كل الخبرات والمهارات والمنجزات التي يحملها المؤلف، على حين أن المذكرات أقرب إلى التاريخ حيث أنها وثيقة تنقل لنا ما قام به صاحبها كصانع للتاريخ أو شاهد عليه، ويمكننا القول إن المذكرات هو نوع أدبي من النثر يعبر المؤلف عن وصف ظواهر وأحداث وتغيرات وتنقلات ماضية بجوانبه المحدودة " وقد ظهرت منذ القرن السابع عشر مذكرات Memoirs مختلفة كتبها كثيرون من الشخصيات العامة، صوروا

---

[1] شرف، الدكتور عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص: 44

[2] المرجع نفسه، ص: 38

[3] بركات، على عبده، اعترافات أدباءنا في سيرهم الذاتية، ص: 19

[4] شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، ص: 20

فيها دورهم في تشكيل الأحداث العامة، دون ميل كبير إلى تصوير حياتهم الشخصية، وهذا هو الاتجاه الغالب على المذكرات السياسية والحربية التي بدأها " ملقيل " وكثرت في القرن الثامن عشر كمذكرات " بيتري بروس " Bruce واستمر تزايدها في القرنين التاسع عشر والعشرين ومن أمثلتها " مذكرات الفيكونت وولزلي " Walsely، و" مذكرات جلوفر " Glover التي نشرت عام 1814م ومن المذكرات ما يكتبه الرحالة عن أسفارهم ومغامراتهم من مثل " مغامرات روبوت دروري 1729م"[1].

ومن أبرز هذه المذكرات الجيدة التي كتبها الأدباء والكتاب العرب منها: مذكرات شفيق باشا بعنوان " مذكراتي في نصف قرن "، أن الكاتب قد صور فيها الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مصر وكذلك ساطع العصري التي سماها بـ" مذكراتي في العراق "، هذه المذكرات غلب عليها وصف وتاريخ التربية والتعليم في العراق وكذلك مذكرات محمد حسين هيكل، ومذكرات محمد كرد علي، ومذكرات الإمام الشيخ محمد عبده، ومذكرات أحمد عرابي، ومذكرات محمد كرد علي، وكذلك مذكرات عبد الله الحسين وغيرها الكثيرة. فكل كتاب منها حري بالمطالعة والقراءة لما فيه من جزيل الفوائد التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية وغيرها.

2. الاعترافات: Confession

مما لا شك فيه أن السيرة الذاتية ترتبط بالاعتراف ارتباطا قويا تاما إلى حد أن بعض الاعترافات تعتبر من أهم السير الذاتية في الأدب العربي والغربي حيث يقول يحي إبراهيم عبد الدايم " لكن أشهر التراجم الذاتية في العصور الوسطى " اعترافات أوغسطين " التي تعتبر قمة الاعترافات الدينية وقد حذا حذوها من كتب بعده، وهي تذكر بما احتوته من صراحة وصدق، وقدرة على الاستبطان والتعرى النفس والأصالة "[2]. كما أنه يؤكد بقوله على " أن هناك لونا آخر من ألوان الترجمة الذاتية، كثر في تلك الفترة، هو" الاعترافات " وظلت تحتذي تقاليد الاعترافات الديني، لكن أعظم الاعترافات

[1] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 16

[2] المرجع نفسه، ص: 13

أهمية، يرجع ظهوره إلى القرن الثامن عشر، لأنها لم تكن اعترافات دينية بالمعنى المعروف، وإنما كانت تنصب على الحياة الخاصة "[1].

ومن أهم الكتب التي قد اشتملت على الاعترافات واعتبرت من أهم السير الذاتية منها: "اعترافات القديس أوغسطين"، " اعترافات روسو"، و" اعترافات تولستوي "، كما يقول عنها إحسان عباس " وفي السير الذاتية بالغرب معالم كبيرة كان لكل معلم منها أثره في كتابة السيرة الذاتية وطريقتها، وفي طليعة تلك السير" اعترافات القديس أوغسطين " فإنها فتحت أمام الكتاب مجالا جديدا من الصراحة الاعترافية، وشجعت الميل إلى تعرية النفس، في حالات كثيرة تلتبس بالآثام، أو يثقل فيها عناء الضمير، ثم هناك " اعترافات روسو " وقد خطت بالصراحة المكشوفة خطوة جديدة... وإن كان يعجبه أن يتعرف إلى النفوس الكبيرة والعبقريات الفذة في صراعها وتقلبها واخطائها، فهو واجد في " اعترافات تولستوي " وأشباهها، ما يرضيه "[2].

3. اليوميات: Diaries

اليوميات هي سجل للتجربة اليومية التي يقوم بكتابتها صاحبها يوما فيوما ويسجل فيها الأحداث والوقائع المهمة التي يشهدها أو التي يقوم بروايتها شخص آخر يوما فيوما كما يقول عبد العزيز شرف " اليوميات سجل للتجربة اليومية، والحفاظ على عملية حياة المرء بالذات، دون نظر إلى التطور الذي يحاكي نموذجا معينا، أو التواصل القصصي، أو الحركة الدرامية نحو ذروة ما، ويوميات صمويل بيبيز Samuel Pepys مثلا، كثيرا ما تحقق التواصل، ولكنها تفعل هذا بصورة متقطعة، وبدون تخطيط واع "[3]. وفائدة هذه الطريقة هي تساعد الكاتب في عدم نسيان الأحداث المهمة والوقائع الصغيرة والكبيرة التي يشاهدها صاحبها في حياته، ومن المعلوم للجميع أن الكتابة الكثيرة من اليوميات مفيدة جدا، لأنها تكتب لنا عن شخصية كاتبها، وتحفظ

---

[1] المرجع نفسه، ص: 18/17

[2] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة، ص: 107/106

[3] شرف، الدكتور عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص: 44

لنا الكثير من المعلومات الغالية عن المجتمعات الإنسانية أو حقبة من الفترة التاريخية، وهناك أنواع متعددة من اليوميات فمنها: اليوميات الغرامية التي يكتبها البعض خلال حقبة معينة يكون فيها تحت تأشيرات عاطفية غرامية. ومما لا شك فيه أن اليوميات لها أهمية كبيرة ومكانة مرموقة لدى العلماء والأدباء العباقرة في أي لغة من اللغات، فإنها تحتل مكانا عظيما متميزا وخير مثال على ذلك كتاب " مذكرات سائح في الشرق الأوسط " للعلامة أبي الحسن علي الندوي، و" يوميات " لأندرية جيد، و" يوميات " لفرانز كافكا وغيرها الكثيرة.

4. الرواية: Narrative/Novel

إن العلاقة بين السيرة الذاتية والرواية علاقة قوية إلى حد، لذلك قد مال الأدباء العرب والغرب إلى اعتبار السيرة الذاتية نوعا خاصا من الرواية كما يرى عبد العزيز شرف وهو يؤكد على صلة السيرة الذاتية القوية بالرواية بقوله " فإن فن التراجم يحتاج إلى قدر لا بأس به من الفنية الروائية، التي يظهر بها الأشخاص وكأنهم أحياء يتحركون على مسرح الحياة، ويغدون ويروحون بما يختلج في نفوسهم من نوازع الإنسان الخيرة والشريرة، التي تتم بها صورة الكائن الإنساني الحي"[1]. وقد تحققت العلاقة الفنية بين الرواية والسيرة الذاتية لذلك نرى أن الكثير من الروائيين قاموا بكتابة رواياتهم بأسلوب السيرة الذاتية على اعتبار أن إحدى الشخصيات تحكي سيرتها وما حدث معها خلال أيامها الطفل والشباب والكهولة.

5. الذكريات: Recollections/ Reminiscence

يستخدم في الغرب مصطلح (الذكريات) للدلالة على الذكريات المتفرقة والمتناثرة، التي يعتمد فيها صاحبها على الاستعادة المباشرة من الذاكرة دون الرجوع إلى وثائق معدة أو مكتوبة تعاضد عملية التذكر، وتنفي عن المادة المتذكرة آثار الزمان وتشويهات الذاكرة والنسيان[2]. وكاتب الذكريات يعنى في الغالب بتسجيل الحياة العامة،

[1] شرف، الدكتور عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص: 21

[2] مربع، أحمد بن علي، السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم، ص: 57

أكثر من عنايته بتسجيل حياته الخاصة، وليست عنايته منصرفة إلى الأفكار والحالات الشعورية، لكنها منصرفة إلى المجتمع والشخصيات والمشاهد والأماكن، وصاحبها يبدي كثيرا من الملاحظات، التي كثيرا ما يتاح للقاريء الوقوف عليها ومشاركة كاتبها دون أن تتهيأ له معرفة المواطن المخبوءة في وجدان الكاتب، ولذا كانت الذكريات أقل أنواع السيرة الذاتية حظا من حيث تمثيلها لكاتبها، فهي تحجب أفعال كاتبها وشخصيته، ومن ثم فإن قيمتها الأدبية أدنى من تلك التي تحظى بها المذكرات[1]. هنا يمكن الإشارة إلى عدد كبير من الكتب التي تحمل مصطلح الذكريات مثل: " ذكريات كارليت Garlyte "، و"ذكريات وليم مشيل روزوتي Rossetti "، و" ذكريات روز اليوسف"، و" ذكريات شكري شعاعه"، ومن ذكريات الفن والقضاء لتوفيق الحكيم، و" ذكريات لا مذكرات " لثروة أباظة، و" ذكريات العهود الثلاثة " لمحمد حسين زيدان، و" ذكريات طفل وديع " لعبد العزيز ربيع وما عداها.

6. التاريخ: History

من يعرف تاريخه فإنه يستطيع أن يعرف حاضره ومستقبله، من هذا المنطلق تحاول الشعوب والأمم من كافة العالم إلى تعريف الأجيال بتاريخها، والتعرف على الرجال الكبار، والكتاب العظماء وعصورهم الزاهرة السابقة، لكي يكونوا أسوة حسنة نادرة للأجيال القادمة، إذا يمكننا القول بأن هناك علاقة السيرة الذاتية بالتاريخ علاقة قوية متينة، والسبب وراء ذلك لأنهما يشتركان في تسجيل الوقائع المتنوعة والأحداث المختلفة العامة في تصوير مختلف الهيئات والمآثر والكشف عن الصور المادية والنفسية، وكانت السيرة تنبع من صلب الأدب بخلاف التاريخ بالطبع العلمي فهذا لا يعني أن الحس التاريخ منعدم في كتابة التاريخ الخاص، بل إنه على العكس حاضر بأبعاده الثلاثة المتمثلة في الماضي والحاضر والمستقبل، كما أن بعض الباحثين والمحققين يرون أن السيرة الذاتية جزء من التاريخ كما يقول إحسان عباس " ففي أحضان التاريخ–

[1] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 16

إذن– نشأت السيرة وترعرت، واتخذت سمتا واضحا، وتأثرت بمفهومات الناس عنه على مر العصور، وتشكلت بحسب تلك المفهومات"[1].

ولكن أنكر الأستاذ كولنجوود Collingwood اعتبار السيرة كذلك، لأنها تفقد القاعدة الصحيحة التي يقوم التاريخ عليها، فحدود السيرة هي الأحداث البيولوجية الواقعة بين ولادة شخص وموته، من طفولة ونضج وأمراض وغيرها، فهي صورة للوجود الحيواني الجسماني، وقد يرتبط بها كثير من العواطف الإنسانية ولكن هذا كله ليس تاريخا "[2]. ويرى توينبي Toynbee نفس الرأي حيث يخرج اعترافات القديس أوغسطين وروسو وحياة الملكة فيكتوريا من دائرة التاريخ ويقول " إن هذه الكتب تشتبك بالتاريخ لأنها تدور حول أناس لهم قيمتهم في الحياة الاجتماعية، فللقديس أوغسطين مثلا أثره العميق في الكنيسة المسيحية، ولأفكار روسو أثر في نقل العالم الحديث إلى عالم أحدث، وحيوانات هؤلاء الناس هامة في نظر الآخرين، لما كان لهم من ميزة تاريخية وميزة فردية، فإذا علقنا التاريخ بالسيرة وقعنا في الخطأ من حيث الطريقة "[3]. ويثني توينبي على ما حققه ليتون ستراتشي في سيرة الملكة فكتوريا لأنه استطاع أن ينتزع تاريخها الفردي من حياة العصر الذي عاشت فيه[4].

7. الرسم الذاتي: Auto Portrait

هذا النوع له علاقة قوية متينة مع السيرة الذاتية وهو يشبهها فنا وأدبا، قد ابتكر هذا النوع من السيرة الذاتية في ولاية فرنسا في بداية القرن العشرين، وأن هذا القسم من السيرة يقال له أيضا المقالة الذاتية التصويرية المقفلة كما يرى أحمد بن على آل مربع فهو يقول " والذي يظهر لي أنه استعمل للدلالة على ما يمكن أن أسميه بـ: (المقالة الذاتية التصويرية المقفلة) إذ تقدم فيه الشخصية في جانب واحد، أو جوانب بسيطة خلال مدة زمنية محددة، أي: أنه وصف مرحلي جزئي لا يتسم بالشمول، ولا الامتداد

---

[1] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة، ص: 10.
[2] المرجع نفسه، ص: 11
[3] المرجع نفسه، ص:11
[4] المرجع نفسه، ص:12/11

الزمني، لذلك تبدو الشخصية من خلاله شخصية ساذجة بسيطة مهما بولغ في رسمها وتعقيدها بالوصف، لأنها تفتقر إلى النمو والصراع والامتداد الزمني، وقد أسميته هنا بـ **(المقالة)** لأنه يتلبس هذا الجنس من القول حين يخرج الناس، ونعته ب**(الذاتية)** و**(التصويرية)** لأنه يجنح إلى الوصف والتصوير، ويمتح مادته من الذات التي يحملها الكاتب بين جنبيه، ويحاول وصفها دون اعتماد على مصادر أخرى، وقد احترزت بكلمة **(المقفلة)** من المقالات الذاتية التصويرية التي تكتب على فترات زمنية متباعدة، ثم تجمع بعد ذلك حسب تسلسلها الزمني فتسري بينها روح توحدها وتجعلها كالأعضاء المختلفة من الجسد الواحد كما في (أنا) للعقاد، وهذا النوع أي: الرسم الذاتي، أقل من السيرة الذاتية، لأنه يكتفي بتصوير شريحة واحدة، أو شرائح قليلة في موقف من المواقف"[1].

ويمكن أن نمثل للرسم الذاتي أو المقالة الذاتية التصويرية المقفلة ببعض مقالات الشيخ علي الطنطاوي المجموعة في كتاب بعنوان (من حديث النفس) وبمقالات أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري المجموعة في كتاب بعنوان (تباريح التباريح) وقد كتبت هذه المقالات في مراحل زمنية متباعدة، وهي في مجملها تصوير للذات في جانب من جوانبها دون المساس بجوانب أخرى، وكل من هذه المقالات عبارة عن كيان مستقل/ مقفل، لا يرتبط بما قبله أو ما بعده برباط وثيق[2]. ومن أبرز كتابه: عبد العزيز البشري، وأحمد أمين، والدكتور طه حسين، ومحمود تيمور، وعبد الرحمن المازني، وحسين سرحان وغيرهم الكثير.

8. الرسائل: Letter

الرسائل هي فن من فنون النثر، لها علاقة قوية تامة بالسيرة الذاتية التي عرفها الأدب العربي في قديم الزمان، وهي مثل فنون النثر الأخرى مثل: الرواية، والقصة، والمسرحية وغيرها، ولها خصائصها المميزة التي تجعلها فنا نثريا قائما بذاته، وعندما

[1] مربع، أحمد بن علي، السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم، ص: 60

[2] المرجع نفسه، 60

نلقي نظرة عابرة على تاريخ الرسائل وجدنا أن العرب قد عرفوا هذا الفن منذ العصر الجاهلي، ثم وجدنا أن نبينا الكريم محمد الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم كان يقوم بكاتبة الرسائل إلى الملوك والأمراء داعيا إلى الله سبحانه وتعالى، ومبلغا الدين الحق إلى يوم القيامة، وفيما بعد نجد في وصايا الخلفاء الراشدين والعباسيين والأمويين، والوصايا كانت تعتبر من أفضل الرسائل التي كان يرسلها خلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس إلى ولاتهم، ثم تطور فن الرسائل في المضمون والأسلوب، وإن يحمل سماته وخصائصه الأصلية كالإخوانيات أو البحث في موضوع فكري أو قضية سياسية أو في الحب والوجدان[1].

ومما يجدر بالذكر أن الرسائل في بعض الأحيان تكتب للأقرباء والأصدقاء والزملاء الذين يسكنون على بعد تحت تأثيرات عاطفية وحب قوية، وفي أكثر الأحيان تكتب لنشرها في الجرائد والمجلات والصحف اليومية، فهي تحمل الكثير من الصراحة والصدق والأمانة وهذا يمنحها أهمية خاصة وميزة أدبية، هنا نحن نجد العديد من الرسائل التي كتبها الأدباء العرب من أمثال: رسائل محمد بن زكريا الرازي (313هـ) فيما كتبه عن سيرته وسلوكه الفلسفي، ورسالة أبي حيان التوحيدي (414هـ) "الصداقة والصديق"، وكذلك رسالة ابن الجوزي " لفتة الكبد إلى نصيحة الولد "، وكذلك نجد في الهند الرسائل القيمة التي كتبها العلامة أبو الحسن علي الندوي إلى الحكام والأمراء العرب وهي التي قد قام بجمعها الشيخ عبد الماجد الغوري بشكل كتاب اسمه " رسائل الإعلام " وغيرها الكثيرة.

شروط السيرة الذاتية:

هذه حقيقة ناصعة بأن السيرة الذاتية تكتب مرة واحدة فقط ولا تكتبها مرارا وتكرارا في الحياة العامة، لأن النصوص للسيرة الذاتية تعد من النصوص الأدبية المهمة في حياة الكاتب الأدبية والاجتماعية، ولأن السيرة الذاتية تكتب بشكل عام بعد الخمسين

[1] بركات، على عبده، اعترافات أدباءنا في سيرهم الذاتية، ص: 23/22.

عاما من عمر الكاتب، وأن جميع التدريبات في السيرة الذاتية يجب أن تكون فيها التعميم، لذلك وضع بعض المختصين والمشتغلين بالسيرة الذاتية شروطا عامة تنطبق على السيرة الذاتية، والبعض الآخر وضع شروطا محددة من محددات السيرة الذاتية يجب أن يلتزم بها الكاتب خلال كتابة سيرته الذاتية، هنا أود أن أذكر عن تلك الشروط العامة التي تنطبق على السيرة الذاتية والسيرة الغيرية على حد سواء ومنها ما يلى:

1. **الإلمام بكل الحقائق المتعلقة بالمترجم له:** يجب على الكاتب أن يجمع كل الأخبار الخاصة بالمترجم له، وكذلك يجب عليه أن يجمع كل الأحداث والوقائع العامة التي حدثت معه خلال حياته كما يقول عز الدين إسماعيل وهو يؤكد على ذلك بقوله " أن من واجب كاتب السيرة أن يلم بكل الحقائق التي لها صلة مباشرة ببطله، وبالأحداث والمواقف التي كان لها تأثير مباشر في حياته، وعلى هذا الأساس لا يحق له أن يهمل أي مصدر يمكن أن يمده بشيء من هذا، ألا يحدث في كثير من الأحيان أن يمدنا شاهد لم تتوقعه ولم نحسب له حسابا بمادة طريفة تلقي ضوءا مباشرا على الشخصية موضوع دراستنا ".[1] ومن ثم أنه حدد المصادر اللازمة لكاتب السيرة الذاتية والترجمة الشخصية بما يلي:

أ. الكتب التي سبق تأليفها في الموضوع أو في موضوع متصل به

ب. الوثائق الأصلية، كالخطاب أو اليوميات أو السجلات الرسمية

ج. ذكريات المعاصرين

د. مقتنيات الشهود الأحياء، وذلك عندما لا تكون الفترة موضوع الدراسة بعيدة

هـ. ذكريات المؤلف نفسه إذا كانت له معرفة شخصية ببطله، كما هو ماثل في ترجمة بوزول لحياة جونسون، أو ترجمة العقاد لسعد زغلول

[1] اسماعيل، عز الدين، الأدب وفنونه دراسة ونقد، ص: 154

و. وأخيرا ينبغي على الكاتب– قدر المستطاع– أن يزور الأماكن التي يجد نفسه مضطرا لوصفها.[1]

2. **عدم تحيز الكاتب:** ينبغي للكاتب أن لايتحامل على المترجم له أو يجامله فيما يكتب بل يجب عليه أن يكون موضوعيا لأن الحقيقة العلمية تضيع متى تحيز المؤرخ أو تحامل أو حامل، على الرغم من ذلك أن محمد عبد الغني حسن يؤكد على ذلك ويقول " ومن الصعب على المترجم المنصف النزيه أن يجرد نفسه تماما من عوامل التحيز، والتجرد، و الهوى، وهي آفة المرء دائما فيما يأتي أو يدع... لذلك ولو أن السخاوي المؤرخ المترجم للرجال بعد عن التحامل على رجال عصره لكان مثالا لكتاب التراجم على النحو الذي اقترحه هو في كتابه " الإعلان بالتوبيخ " إلا أن هناك عاملا نفسيا لا يجدر إغفاله هنا ".[2] ومن الملاحظ أن هذا الشرط الذي ذكرته ينطبق على السير الغيرية بالمقابلة إلى السيرة الذاتية، وإن كان مطلوبا في السيرة الذاتية أيضا والسبب يرجع إلى أن الكاتب الذي يكتب لغيره يمكن أن يكون موضوعيا إذا حافظ على الصدق والأمانة والصراحة التامة في القول واهتم اهتماما بالغا بالعدل والإنصاف خلال كتابة السيرة الذاتية والغيرية.

3. **أن يلتزم الكاتب الصدق والأمانة فيما يكتب:** مما لا شك فيه أن الصدق له أهمية كبيرة في حياتنا الاجتماعية لأن الصدق ينجي الإنسان في كل زمان ومكان كما نحن نسمع منذ نعومة أظفارنا، على أية حال إن الصدق هو الذي يعتبر من أهم الشروط الأساسية في كتابة السيرة بصورة عامة وفي كتابة السيرة الذاتية بصورة خاصة، لأن المختصين لهذا الفن يعتبرونه ذا أهمية كبيرة في اعتبار النصوص الأدبية النثرية للسيرة الذاتية كما يقول يحي إبراهيم عبد الدايم " كاتب الترجمة الذاتية حريص على تحرى الحقيقة المصورة لما مضى من حياته، ينقلها مما قد تجمع لديه من "يوميات" و"رسائل" أو"مدونات" وما تسعفه به الذاكرة، وكلها تعينه على تمثل الحقيقة الماضية

[1] المرجع نفسه، ص: 154

[2] حسن، محمد عبد الغني، التراجم والسير، ص: 84/83

المتعلقة بحياته تمثلا قويا، ورغم ذلك، فإن المترجم لذاته يصبح في أكثر الأحيان موضع الاتهام، بأنه يفتقر فيما يكتبه عن نفسه، إلى الصدق والصراحة، وذلك لأن ذاكرته ذات مواقف إيجابية إزاء أحداث الماضي"[1].

الشروط الفنية للسيرة الذاتية:

أما الشروط الفنية التي يجب أن تكون في السير والتراجم فقد حددها يحي إبراهيم عبد الدايم ويقول " الترجمة الذاتية تعتمد، شأنها في ذلك شأن الترجمة العامة على وحدة البناء وتطور الشخصية وقوة الصراع، وكلاهما يعتمد على الحقيقة التاريخية والسرد الأدبي، وهما أقرب صلة بالإنسان، لأن المجال الذي يدور حوله اهتمام كل منهما، لكن الترجمة الذاتية أوثق صلة بالإنسان من السيرة الغيرية لأن هذه تعتمد على النقد الموضوعي، وعلى الوثائق والمدونات والمشاهدات والملاحظات والقراءات وغيرها من وسائل النقد الغير المباشر خارج الذات"[2]. إذن وحدة البناء، وتطور الشخصية، وقوة الصراع والطريقة أو الأسلوب، وتطابق السارد مع الشخصية الرئيسية، هي الشروط الأدبية الفنية التي ينبغي لها أن تتحقق في السيرة الذاتية، هنا أود أن أذكر كل شرط من الشروط الفنية للسيرة الذاتية بكل إيجاز وهي كما يلي:

1. **وحدة البناء:** وتعني أن تكون لها بناء واضح مرسوم من حيث لاتكون سردا للوقائع والأحداث، وتأتي في النهاية ذكريات متناثرة " إن السيرة فن لا بمقدار صلتها بالخيال، وإنما لأنها تقوم على خطة أو رسم أو بناء، وعلى ذلك فهي ليست من الأدب المستمد من الخيال، بل هي أدب تفسيري، وهذا النوع من الأدب كالأدب الذي يخلق خلقا، من حيث أن صاحبه معنى بغاية محدودة تهديه في اختياره وترتيبه للحقائق وهو كالروائي والقاص أيضا "[3]. ومما يجدر بالذكر أن الأستاذ يحي إبراهيم عبد الدايم يتفق مع الدكتور إحسان عباس مما ذكرناه سابقا لكنه يختلف معه في نوع القالب الذي

[1] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 137
[2] المرجع نفسه، ص: 25
[3] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة، ص: 84

ينطبق في السيرة الذاتية حيث يحدد عبد الدايم ثلاثة قوالب للسيرة الذاتية وهي: الأول: قالب روائي، والثاني: قالب تفسيري، والثالث: قالب يجمع بين التحليل والتصوير، بينما يحدد الدكتور إحسان عباس قالبا واحدا وهو قالب تفسيري.

2. **تطور الشخصية:** تعني أن تكون الشخصية المركزية شخصية نامية متطورة إذن لتطور حياته وتقدمه في العمر ولا بد أن يكون كاتب السيرة الذاتية مميزا ومتفوقا و"إذا كانت السيرة عامة تتطلب لرواجها أن يكون بطلها شخصيا ذا تميز واضح في ناحية من النواحي، فإن هذا الشرط أساسي في السيرة الذاتية بخاصة، إذ لا بد لشمول الرغبة فيها أن يكون صاحبها ذا صلة دقيقة بأحداث كبرى أو أن يكون ممن لهم مشاركة في بعض تلك الأحداث أو أن يكون ذا نظرة خاصة إلى الحياة وحقائق الكون أو ذا غاية كبيرة، أو صاحب أخطاء جسيمة "[1].

3. **قوة الصراع:** هي أن تكون قوة الصراع في السيرة الذاتية كما نجد أن إحسان عباس يثني على سيرة جبران خليل جبران التي تمت كتابته على يد ميخائيل نعيمه بقوله " فإن العناصر من صراع بين بطل السيرة والناس، وصراعه مع نفسه، والحرارة التي حاول أن يبعثها في الحوار، وذلك البناء الذي يتميز بقسط كبير من الأحكام– كل هذه تجعل مما كتبه نعيمة سيرة جميلة ممتعة فنية في كيانها العام "[2]. هنا أن قوة الصراع تميز السيرة الذاتية وترفع مكانها بين سائر السير الذاتية والتراجم الشخصية العامة.

4. **الطريقة أو الأسلوب المناسب :** مما لا شك فيه أن الطريقة أو الأسلوب المناسب تعتبر من أهم الشروط الفنية والأدبية في السيرة الذاتية لذلك يجب على الكاتب أن يكون له قدرة فائقة وصلاحيات قوية تامة على اختيار الطريقة أو الأسلوب الجيد المناسب في الكتابة للسيرة الذاتية والترجمة الشخصية يرى الدكتور إحسان عباس أن ستراتشي أجاد عندما قد استخدم الطريقة الدرامية، في حين قد استخدم بوزول الطريقة

[1] المرجع نفسه، ص: 96
[2] المرجع نفسه، ص: 85

الحكائية السردية بينما استخدم ميخائيل نعيمة طريقة الشرح والتفسير في سيرة جبران خليل جبران، وقد يجمع الكاتب بين أكثر من طريقة فيما يكتب كما يؤكد على أن الأسلوب الأدبي للكاتب عنصر هام في كتابة السيرة الذاتية[1].

5. **تطابق السارد مع الشخصية الرئيسية:** يعتبر هذا الشرط أيضا من أهم الشروط الفنية للسيرة الذاتية كما يرى فيلب لوجون " وغالبا ما يتحدد تطابق السارد والشخصية الرئيسية الذي تفترضه السيرة الذاتية، من خلال استعمال ضمير المتكلم وهو ما يطلق عليه جيرار جنيت السرد " القصصي الذاتي" أثناء تصنيفه لـ"أصوات" الحكي، وهو تصنيف أقامه انطلاقا من أعمال تخييلية "[2]. ويؤكد لوجون أيضا على ضمير المتكلم على الرغم من أن بعض السير الذاتية ظهرت بضمير الغائب ويقول " يمكن أن يوجد حكي بـ"ضمير المتكم" دون أن يكون السارد نفسه هو الشخصية الرئيسية، وهو ما يطلق عليه، بشكل موسع أكثر، السرد "مماثل القصة"[3].

أسلوب السيرة الذاتية:

كما عرفنا فيما سبق أن السيرة الذاتية لا تكتب مرارا وتكرارا في الحياة الإنسانية بل أنها تكتب مرة واحدة فحسب، وكذلك أن السيرة الذاتية لا تكتب في أسلوب واحد بل أنها تكتب وفق المختصين لكتابة السيرة الذاتية في أساليب متعددة وأغلب الظن أنها تكتب في ثلاثة أساليب وهي كما يلي: –

1. **الأسلوب التصويري:** هو أسلوب يجمع فيه الكاتب بين الطريقة السردية والتفسيرية والتحليلية السالفة، وبين طريقة الرواية الفنية القائمة على التصوير للتجارب والأماكن والمواقف والمشاهد والشخصيات الحقيقية تصويرا يعتمد على العناصر للفن الروائي مثل الحوار الأدبي الموجز، والاستعانة بقدر قليل من الخيال، والاستعانة باللفظة الأدبية في الحوار، وأن هذا الشكل من الأساليب للسيرة الذاتية يمتزج من

[1] المرجع نفسه، ص: 88/87

[2] لوجون، فيلب، السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، ترجمة وتقديم عمر حلي، ص: 25/24

[3] المرجع نفسه، ص: 25

أسلوب المقالة حين يعبر عن حالته الفكرية والنفسية والشعورية الخاصة به، وقد اشتهر في هذا الأسلوب للسيرة الذاتية الكتاب والأدباء الذين مارسوا على العمل التصويري الروائي قبل كتابة سيرهم الذاتية، ويمثل هذا الأسلوب العديد من الكتاب والأدباء الذين قاموا بكتابة سيرهم الذاتية مثل ميخائيل نعيمة في سيرته الذاتية التي أسماها "سبعون" وتوفيق الحكيم في كل من "زهرة العمر" و" سجن العمر" وغيرهم الكثيرون.

2. **الأسلوب التحليلي:** هو الذي يبدأ فيه الكاتب بداية تحليلية على نحو ما يفعل في المقالة المبنية على التحليل والتفسير والإيضاح، فهو مدخل تحليلي تبدأ به الترجمة الذاتية، يعمد فيه صاحبه إلى التعبير عن أفكاره، والتحليل المتأمل لمواقفه وواقعه الذي مضى، ومن مجموع ذلك يتألف موضوع ترجمة الذاتية التي اتخذت شكل مقالة مهمة تضم فصولا صغيرة[1]. وقد اختار الكثيرون من الكتاب الأسلوب التحليلي لترجماتهم الذاتية، فسجلوا تاريخ حياتهم في فترات تسجيلية بذل فيها الواحد منهم جهدا وسعيا ليفهم تطوره النفسي والعقلي في مراحل حياته من أمثال: لطفي السيد، وعبد العزيز فهمي، ومحمد حسين هيكل، وسلامة موسى وغيرهم الكثيرون.

3. **الأسلوب الروائي:** هو الأسلوب الأرقى لتأليف السيرة الذاتية في العصر الحديث، يقدم عليه الروائي المتمرس حينما يود أن يقوم بكتابة سيرته الذاتية، حيث يعبر عن تجاربه ومواقفه في شكل روائي ويتمسك بعناصر الحقيقية فيما يقصه، كما يرى يحي إبراهيم عبد الدايم وهو يؤكد على ذلك بقوله " الكاتب حين يختار هذا القالب أداة يهدف من ورائها إلى التعبير عن ترجمته الذاتية فإنه يخلق به أن يكشف عن غايته، فيفصح إفصاحا أنه يصوغ سيرة حياته الحقيقية على هذا النحو الروائي، وحينئذ عليه أن يتمسك بعناصر الحقيقة فيما يقصه، دون أن يسترسل مع الخيال والتصور، ودون أن يسلم نفسه إلى ما يفرضه "[2].

---

[1] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 112

[2] المرجع نفسه، ص: 115

والجدير بالذكر أن هذا الأسلوب الروائي أكثر تواترا وتقدما وتطورا في الأدب العربي الحديث بين الأساليب الأخرى للسيرة الذاتية، ومن أشهر النصوص الراقية التي كتبت بأسلوب روائي هي تبدأ من النص التأسيسي الأول " الأيام " للدكتور طه حسين، وكذلك يعد في هذا الأسلوب الروائي كتاب " الخبز الوافي " لمحمد شكري، و" عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم و" أوراقي.. حياتي" لنوال السعداوي وغيره الكثير.

أهداف السيرة الذاتية:

مما لا شك فيه أن السيرة الذاتية نوع من أنواع الأدب، وجنس من أجناسه الأدبية النثرية الأخرى، وتهدف إلى ما يهدف إليه الأدب، و" إن الأدب كفن جميل– واجبه الأول أن يسهم بكل ما يستطيع في إعلان الإنسان عقلا ووجدانا، وخلقا وسلوكا، ونفسا وروحا، وأملا وطموحا، وإنتاجا وعملا".[1] وكذلك أن السيرة الذاتية ينبغي لها أن تسعى لتحقيق الهدف والغاية نفسه وأن يكون لها دور كبير ومكان عظيم في تطوير النفس والمجتمع البشري على السواء، ومن المعلوم أن كاتب السيرة الذاتية يعود إلى نفسه ويبرز ما فيها من صفات نبيلة وخصائص بارزة وآراء مختلفة وأفكار متعددة متنوعة في كل شيء من الأشياء، لذلك يمكننا القول " بأن الإنسان ليس في استطاعة أن يعيش دائما مشتتا في الخارج، مبعثرا بين الأشياء، بل هو لا بد من أن يعود إلى نفسه بعد الفعل، لكي يزيد من خصب حياته الباطنة، ويضاعف من ثراء عالمه الداخلي، وهكذا يتمثل البعد الداخلي للإنسان بوصفه استجماما لشتات الذات، وامتلاكا لزمام النفس"[2].

هنا يخطر سؤال مهم ببال كل شخص من الأشخاص بأن متى ينبغي لكاتب أن يسجل أحوال حياته ويكتب سيرته الذاتية التي مر بها من الطفولة والصبا وحتى الكهولة؟ وما هو الهدف والغاية وراء كتابة سيرته الذاتية؟ وكذلك ما هي الدوافع التي تدفعه إلى تدوين كتابة السيرة الذاتية؟ إذا انتقلنا إلى الجواب على هذا السؤال المهم

[1] هيكل، الدكتور أحمد، في الأدب واللغة، ص: 44

[2] شرف، الدكتور عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص: 12/11

الذي ينشأ في أذهاننا كما ينشأ في أذهان كل من يرغب في قراءة السيرة الذاتية فيمكن القول " إن كل سيرة ذاتية فإنما هي تجربة ذاتية لكل فرد من الأفراد، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج وأصبحت في نفس صاحبها نوعا من القلق الفني والتوتر الأدبي وأصبحت تلح عليه للإفضاء بها للناس دون أي حرج، فإنه لا بد أن يكتب سيرته الذاتية "[1].

ويؤكد على ذلك الأستاذ تهاني عبد الفتاح شاكر بقوله " قد يكتب الإنسان سيرته الذاتية استجابة لدوافع خارجية، وهذه الدوافع تمثل بالرغبة في تعليم الآخرين وتوجيههم، وذلك يحدث عندما يرى كاتب السيرة أن حياته تصلح لأن تكون عبرة للآخرين، وتتمثل أيضا بالرغبة في الدفاع عن النفس، وذلك حين تتوجه أصابع الاتهام إليه بسبب أفعال ينسب إليه عملها، ففي هذه الحالة يكتب الكاتب سيرته ليبرر أفعاله أمام الآخرين أو ينفي قيامه بها، وقد يلح الأصدقاء عليه لكتابة سيرته الذاتية فيكتبها إرضاء لهم "[2]. والمراد والمقصود من كتابة السيرة الذاتية كما يقول عبد العزيز شرف " تحقيق ضرب من التوافق بين العزلة الباطنة، والعالم الخارجي وذلك حينما ترتد الذات إلى نفسها واكتسبت عمقا وخصبا "[3].

ولا شك فيه أن كتابة السيرة الذاتية تحرضنا على التفكر والتدبر على المجتمع، وإعادة التفكير حول بيئتنا في الماضي والحاضر، وحول الناس، وعاداتهم، وتقاليدهم، وسياساتهم، واقتصادهم، وعلاقاتهم، ومناسباتهم التي ظهرت في تلك الفترة من الزمان، وفيما يلي من العوامل الدافعة إلى كتابة السيرة الذاتية وهي كالآتي:

- إن الهدف والغاية التي تحققتها السيرة الذاتية عن كاتبها هي تخفيف العبء عن عاتقه بنقل التجارب الشخصية والخبرات الفائقة إلى الآخرين والدعوة إلى المشاركة فيها والحنين إلى الماضي واسترجاع الفترات الماضية وكسب المال.

---

[1] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة، ص: /95

[2] شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، ص: 26

[3] شرف، الدكتور عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص:11

- فإذا كان يشعر الكاتب بالاستبداد والاضطهاد من المجتمع الإنساني فإنه يميل بطبعه إلى الحديث عنه.
- وإذا أحس الكاتب بوقع خطيئاته وسيئاته أراح ضميره الشخصي بالاعتراف بها ويخمد نفسه بالإعلان عن تلك الخطايا والسيئات التي ارتكب بها خلال حياته.
- وقد تناول الكاتب بعض هذا الموضوع لاستظهار جوانب حياته وتبرير صنيعه وتسويغ الأعمال التي قام بها، وقد يكون الدافع وراء كتابة السيرة الذاتية إيضاح موقف الكاتب من الحياة والمجتمع، وإبراز المقدرة الفنية والموهبة القصصية الأدبية.
- وإذا فشل وأخفق أو هزم أو اتهم فيرضى ضميره النفسي وهو يبدي بالاعتذار والتعليل والتبرير لما حصل عليه.
- وإذا مر بصراع نفسي أو روحي أو فكري ويخرج من هذا سالما فأراد أن يرسم صورة لذلك الصراع النفسي والتوتر القلبي وأراد أيضًا أن ينهى قصته وحكايته بالهدوء الذي يعقب العاصفة والاستبشار الذي يأتي إليه بعد اليأس والقنوط.
- وإن الأمور التي تدفع الكاتب إلى كتابة سيرته الذاتية هي رغبته الفطرية بالخلود، وهذه الرغبة تشتد عنده عندما يشعر بالتفرد والتميز، ففي هذه الحالة يقوي إحساسه بأنه إنسان يستحق البقاء[1].
- ويعد المحرك العام لكتابة السيرة الذاتية هو بيان الأحداث والوقائع التاريخية المهمة التي عاصرها الكاتب أو السارد وبيان دوره فيها أو تأثره بها، ولكن الشيء المهم في كتابة السيرة الذاتية هو تسجيل التاريخ المعاصر للكاتب أو السارد ودوره الفعال الذي لعبه فيه وهذا هو المحرك العام لكتابة السيرة الذاتية.

هذه هي بعض العوامل التي تحرض الكاتب على تسجيل السير الذاتية والتراجم الشخصية.

[1] شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، ص:25

نشأة السيرة الذاتية:

قبل أن نتحدث عن السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث والقديم، ونشأتها، وتطورها، يليق لنا أن نلقي نظرة خاطفة سريعة على السيرة في الآداب العالمية واللغات الأجنبية حتى نتأكد من أهميتها وقيمتها في الشرق والغرب معا. حينما نلقي نظرة عميقة على هذا الفن الأدبي فيتضح هذا الأمر أن الآداب العالمية لم تكن تعرف هذا الفن قبيل القرن الثاني، لذلك لا نرى أي نموذج من النماذج للسيرة قبل القرن الثاني إلا ما نجده من ومضات خاطفة وصورة باهتة في روايات الأبطال والملوك والإمبراطوريات مثلما نجد في حكايات العهد القديم والملاحم الإغريقية والأسكندونوفية والقصص القديمة الذاخرة بالأعمال الخارقة للعادات والتقاليد والمملوءة بأعمال البطولة والفتوة مثل كلمات القديسين، وقد نرى مثل هذه القصص، والحكايات، في الشرق والغرب مثل: مهابهارتا، وبنج تنترا في الهند، وبنجو في الصين، وداستان في آسيا الوسطى، وقنكي في اليابان، ونرى سيرة الملوك والأمراء والإمبراطوريين في صورة لوحات على قبورهم مثلما نرى في جمهورية مصر العربية.

لا يخفى على من له أدنى إلمام بتاريخ السيرة أن الآداب العالمية قد تعرفت على السيرة حينما كتب الكاتب الروماني فلوطارخس (Plutarch) نظير الحيوانات (Parallel of life)، حيث جمع المؤلف ثلاثة وعشرين ترجمة إغريقية، وثلاثة وعشرين ترجمة رومانية. وهو أول كاتب أدرك الفرق بين التاريخ والسيرة، ومن الجدير ذكره الفلسفي والمؤرخ فلورطاخس (Plutarch)، وتاكيتوس (Tacitus) وسويتينيوس (Suetonius) يعدون من أهم رواد السيرة والترجمة في الأدب العالمي، فكتب تاكيتوس المؤرخ الروماني عن القائد الروماني (Agricola، وكتب حياة أجريكولا، وكان بينه وبين المؤلف علاقة صهر فحماه في هذا الكتاب الذي يعد نموذجا مثاليا قيما رائعا للتراجم في الآداب القديمة، وكتب سويتينيوس (Suetonius) حياة الأنثي عشر إمبراطوريا رومانيا (Life of the Cears)، وفي الواقع أن هذا الكتاب هو سيرة رائعة لحياة الأباطرة الذي يعد من أهم الكتب التي كتبت حول هذا الموضوع.

ومما يجدر بالذكر أن الأدب الإنجليزي لم يعرف هذا الفن الأدبي باسم السيرة مع أنه أتى فلورطارخس (Plutarch) بهذا الفن في القرن الثاني، وتركت أقلام الأدباء والكتاب كتبا رائعة في هذا الفن الأدبي، ولكن ظلت السيرة تعيش مختلطة بالتاريخ إلى أن عرف درائن الفن وسماه السيرة (Biography) عام 1863م، ومن السير المتميزة في القرن التاسع عشر حياة شارلوت برونتي (Life of Charlotte Brone) لسيدة جاسكل (Mrs. Gaskell) 1887م، وكتب انتوني فرود (Anthony Froude) المؤرخ الإنجليزي سيرة صديقه توماس كاليل (Life of Thomas Carlyle) التي طبعت فيما بين 1882– 84، وهي سيرة جديرة بالإشادة والتقدير تناول فيها المؤلف الجوانب الشخصية والعامة بغاية من الصراحة والدقة والأمانة. وكتب توماس كارليل (Thomas Carlyle) سير وتراجم رائعة شيقة مثالية ومنها الماضي والحاضر (Past and Present) 1843م.

عندما ألقينا نظرة عابرة على النشأة لسيرة الذاتية في اللغة العربية وجدنا أن الباحثين الدارسين المحققين يوجد لديهم اختلاف قوي حول الزمن الذي نشأت فيه السيرة الذاتية وتطورت على الصعيد العالمي، إن بعض الباحثين والمختصين بهذا الفن يعتبرها من أقدم الفنون الأدبية نشأة، والبعض الآخر يعدها من أحدث الأجناس الأدبية المتميزة مثل الرواية والقصة والقصة القصيرة والمسرحية والمقالة وغيرها من الفنون الأخرى. أما الذين يعدونها من أحدث الفنون الأدبية فهم الذين يرون أن السيرة الذاتية لها بناءا خاصا وهذا البناء لم يبدأ ظهوره إلا في نهاية القرن الثامن عشر. وأما الذين يعتبرونها من أقدم الفنون الأدبية المتميزة نشأة فهم الذين يرون أن كل كتابة نثرية أدبية يتحدث فيها مؤلفها أو كاتبها عن حياته الفردية هي سيرة ذاتية. وهناك فريق يدعي عن نفسه بأن السيرة الذاتية هي وليدة الحضارة المصرية القديمة ويقيم الدليل والحجة على الحضارات المصرية القديمة التي تصل إلينا آثارها القديمة التي كانت توجد في تلك الفترة من الزمان، منهم ول وايريل ديورانت، وشوقي ضيف وغيرهما.

يرى ول وايريل ديورانت " أن هناك برديات من الأدب المصري القديم، يرجع تاريخها إلى عام 2000 ق. م. يحتوي بعض منها على قطع من السير الذاتية "[1]. وإن الأديب المصري شوقي ضيف يبين أن أقدم صورة للسيرة الذاتية هي ما كان ينقشها المصريون في قديم الزمان على شواهد قبورهم ثم يشير إلى اشتهار الفراعنة بهذه النقوش المنقوشة في الجدران للقبر فهو يقول " لعل أقدم الصورة للترجمة الشخصية تلك الكلمات التي كان ينقشها القدماء على شواهد قبورهم فيعرفون بأنفسهم، وقد يذكرون بعض أعمالهم، واشتهر المصريون في عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم وفي معابدهم وهياكلهم من تواريخهم وأفعالهم وكانت تسري هذه الروح في الأمم القديمة من حولهم "[2].

ويعترف فيليب لوجون أن البذور للسيرة الذاتية قديمة جدا في الحضارات الإنسانية، لكن مع ذلك أن لوجون يرفض الدراسات التي تحاول أن تتناول السيرة الذاتية منذ نشأتها الأولى حيث يقول " إن الأبحاث ذات النمط السلالي، التي تعزل عنصرا ملائما في الوقت الراهن من أجل تتبع آثاره بالرجوع إلى التاريخ، لها إذن طابع وهمي تماما مثل أبحاث الاشتقاق والدلالة التاريخية التي تقوم على كلمة معزولة، فتطور نظام اللسان في مجموعه هو الذي يمكن أن يكون موضوعا للتاريخ "[3]. وأما الذين يقولون إن السيرة الذاتية هي ثمرة العصر الجديد فمن أشهرهم جورج George May الذي يرى أن تعريف السيرة الذاتية صعب جدا، ويقول " إن هذا الجنس الأدبي حديث نسبيّا، بل لعلَّه أحدث الأجناس الأدبية "[4]. ويفترض جورج ماي أن هناك فكرة مقبولة من طرف كثير من الباحثين مفادها أن السيرة الذاتية ظاهرة غربية خاصة بامتياز، غير أنه يشير إلى صعوبة الاتفاق حول زمن ظهورها استنادا إلى تاريخ معلوم[5]. ويؤرخ لنشأة السيرة

---

[1] المرجع نفسه، ص: 27

[2] ضيف، شوقي الدكتور، الترجمة الشخصية، ص: 7

[3] لوجون، فيلب، السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، ص: 73

[4] المبخوت، شكري، سيرة الغائب، سيرة الآلي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين، ص: 11

[5] الشاوي، عبد القادر، الكتابة والوجود السيرة الذاتية في المغرب، ص: 11

الذاتية باعترافات جان جاك روسو ويقول " إن السيرة الذاتية شهد في نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 وفرة من الأعمال المقتفية لخطى روسو، ومرد ذلك إلى ما لقيته " اعترافاته " من نجاح وحظوة، فكانا أمارتين على قيام السيرة الذاتية باعتبارها سنة أدبية، ومن ثمة أصبح مؤلّف روسو رمزا لنشأة جنس أدبي جديد"[1].

ويؤيد شوقي ضيف جورج ماي بكل تأكيد بقوله حيث يقول " إن السيرة فن مستحدث عند العرب، قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبية التي قرءوا آثارها، وخاصة اليونان، فإن بعض متفلسفهم ترجم لنفسه، وتحدث عن كتبه، وحاكاهم متفلسفو العرب، واتسعت المحاكاة، فدخل فيها العلماء والمتصوفة ورجال السياسة، وكان لكل طائفة منهجها الخاص، فالفلاسفة والعلماء، إنما عنوا بالتحدث عن حياتهم الفلسفية أو العلمية وما ألفوا وخلفوا من مصنفات، وقلما وقف شخص منهم عند طفولته ونشأته والمؤثرات الخارجية المختلفة التي وقعت عليه وأثرت في حياته "[2]. وفي هذا الصدد يذكر ريم العيساوي " أن الترجمة نشأت عند الغرب كجنس أدبي مستقل منذ قرنين، ويذكر جون بيلنغ أن روبرت شوسي هو أول من استعمل مصطلح الترجمة الذاتية Autobiography وذلك سنة 1805م وأدخل فيها جمع الكتابات الشخصية التي تتناول وقائع حياة الكاتب بغض النظر في رغبته في تصوير نفسه "[3].

ولكن كثيرا من الباحثين يختلفون مع جورج ماي في ذلك ومنهم محمد عبد الغني حسن الذي يرى أن العرب قد قاموا بعمل كبير في مجال الترجمة الذاتية وأنهم قد سبقوا في هذا المجال قبل الغرب حيث يقول " فحين بدأ فن التراجم يظهر في إنجلترة وفرنسا بصورة ساذجة، كانت التراجم العربية الإسلامية قد بلغت حدا من الكثرة والتنوع وسعة المجال والافتنان في موضوعات التراجم لا يقاس به بداية غير منتظمة الخطي في الآداب الأوربية، ففي القرن الثاني عشر الميلادي كان كتاب "الاعتبار" للفارس

[1] المبخوت، شكري، سيرة الغائب، سيرة الآلي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين، ص: 22

[2] ضيف، شوقي الدكتور، الترجمة الشخصية، ص: 5

[3] العيساوي، ريم، فدوى طوقان نقد الذات قراءة السيرة، ص: 11

العربي المسلم أسامة ابن منقذ (488هـ- 584هـ) يعد نموذجا عاليا للمذكرات والتراجم الذاتية، قبل أن يكتب بيبيس الإنجليزي وريتز الفرنسي مذكراتهما بقرون، وفي القرن نفسه كان الشاعر عمارة اليمني يؤلف كتاب " النكت العصرية " يترجم فيه لنفسه كما يترجم لغيره من الوزراء ورجال الحكم في أخريات العصر الفاطمي، وفي القرن الثالث عشر الميلادي كان كتاب" وفيات الأعيان" لابن خلكان المتوفى في سنة 681هـ يسجل كسبا رائعا في ميدان التراجم للرجال على اختلاف ألوانهم وثقافتهم "[1].

ويرى يحي عبد الدايم أن البدايات الأولى الحقيقية كانت عند هيوم 1777م وجيبون 1796م واللذان كان لهما أبلغ الأثر في تطوير الترجمة الذاتية في الأدب الإنجليزي[2]. وكذلك في العصور الوسطى نجد " اعترافات القديس أغسطين " التي تعتبر قمة الاعترافات الدينية وقد حذا حذوها من كتب بعده، وهي تذكر بما احتوته من صراحة وصدق، وقدرة على الاستبطان والتعرى النفس والأصالة[3]. كما يرى عبد العزيز شرف أن اعترافات القديس أغسطين Saint Augustine (354-440) تستحق لقب أقدم سيرة ذاتية باقية[4]. عندما ندرس الآداب كلها وخاصة الأدب الغربي فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة هو أن الأدب الغربي قد خلف لنا في العصور الوسطى أربعة آثار مهمة يعدها النقاد أقرب الكتابات الذاتية إلى التراجم الذاتية في مفهومها الحديث، وهي ما كتبه أبيلا وولشمان، وجيرا دوس كامبرونسيس، وبترارك، والإمبراطور تشالز الرابع، وهذه الوثائق الأربع يمكن أن يلاحظ قربها من الطريقة الحديثة، بدرجة أكثر من اعترافات القديس أغسطين[5].

وقد رغب العديد من الأدباء والعلماء الغرب إلى كتابة السيرة ولا سيما السيرة الذاتية والترجمة الشخصية في القرن السادس عشر فكتب سر تهوماس مور (Sir

---

[1] حسن، محمد عبد الغني، التراجم والسير، ص: 11

[2] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 19

[3] المرجع نفسه، ص:13

[4] شرف، الدكتور عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص: 139

[5] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 14

Thomas More) كتابا رائعا باسم "تاريخ رتشاد" (History of Richard) وذلك فيما بين 1543– 1557م، وكتب ويليام روفار (William Roper) كتابا بعنوان " حياة سر تهوماس" (Life of Thomas) في عام 1558م، ودون صوويل بيبس (1703– 1637م) يومياته ومذكراته، وأن هذه المذكرات واليوميات تعد أول خطوة في كتابة التراجم الشخصية وما تلاها من أنواع التراجم، وبعد القرن الثامن عشر قرنا على الخصوص اتجهت فيه السيرة الذاتية اتجاها أدبيا فنيا، وتأثرت بتطور ملحوظ في الأدب والسياسة والصناعة والتجارة وأصبحت السيرة الذاتية أقرب إلى الديمقراطية حيث تناول الكتاب والأدباء حياة الصغير والكبير في التراجم والسير، ولم تزل ولا تزال تتقدم وتنمو وجعلت تظهر جلية واضحة المعالم فكتب جونسن (Johnson) كتابه الشهير بعنوان "حياة الشعراء" (Life of Poets) عام 1779– 1781م، وترك حونسن على فن كتابة السيرة الذاتية أثرا بالغا، لذلك في بعض الأحيان نرى أن عددا كبيرا من الكتاب اتبعوا على المنهج الذي قد اختاره هو أثناء كتابة السيرة والترجمة، ثم تطورت السيرة الذاتية في القرن العشرين إلى أن بلغت قمة الرقي والإزدهار.

ذكرنا آنفا مما يتعلق بنشأة السيرة الذاتية في الأدب الغربي قديما وحديثا وأما اللغة العربية أغنى اللغات في هذا الفن الأدبي التي قد حظيت بنصيب وافر من السير والتراجم، واهتمت الحضارة العربية بتسجيل البطولات والمغامرات التي أتى بها أبناء العرب كل الاهتمام، واعتنت بإخلاد مآثرها وأيامها، وحروبها، وعهودها، وحسبها، ونسبها، وتراثها العلمي، والشعري، والفني. كما ظهرت الملامح الأولى للسيرة في شكل الشعر في لغات عديدة حية، كما نرى في الشعر الجاهلي ومضات بدائية للسيرة والترجمة، ووردت هذه الومضات البدائية ضمنا لحكاية المغامرات، والحروب، وذكر المفاخر، والمكارم، والشرف، والكرامة، والفتوة، والشجاعة. ولما جاء الإسلام، وجعل العرب يشدو بكمة الإسلام، ونزل القرآن الكريم، فلمحنا لمحات يسيرة وطلعات خاطفة سريعة حيث أورد القرآن الكريم أخبار الملل الغابرة والأمم الخالية وأكثر في حكاية قصص الأنبياء والتابعين الصالحين والأمراء والملوك، فهذه القصص والروايات التي

زخرت بها سور القرآن الكريم يمكننا أن نعدها أمثلة بدائية لأدب السيرة في اللغة العربية.

يعد فن السيرة الذاتية من أهم الفنون الأدبية مثل الفنون الأخرى في الحضارة العربية منذ أقدم العصور كما يقول محمد عبد الغني حسن " ظلت أوربا عقيما في كتابة التراجم منذ عصور الظلام إلى خيمت عليها في القرون الوسطى، على حين أخذ التاريخ الإسلامي يأخذ مكانه في الوجود، كما أخذ الإسلام– دين العرب وغير العرب– يظهر في كل أرض استظلت بلواء الإسلام، وأخذت التراجم تظهر منذ القرن الثاني للهجرة، ثم أخذت على توالى العصور تكثر أنواعها، ويتضخم عددها، حتى بلغت من الكثرة في التراث العربي حدا لم تبلغه في أي تراث لأمة أخرى معروفة التاريخ في القديم والحديث"[1]. ولو تصفحنا كتاب الأغاني للأصفهاني فنحن نجد مجموعة كثيرة من الروايات والأخبار وذكر الأنساب والأيام والحروب والمجالس ومادار من طرف ونوادر وإن كان المقصود من إيضاح الأصوات المغناة من الجاهلية إلى القرن الرابع.

ومن الثابت أن فن السيرة الذاتية ليس جنسا أدبيا مستحدثا كما يرى البعض من الأدباء الغرب والعرب معا بل هو فن قديم يأتي من ظهور الإسلام حتى يومنا هذا، ولو نلقي نظرة استقصائية على الكتب التي تتعلق بتاريخ السيرة الذاتية فنجد أن بعض الكتاب القدماء من أعلام الفكر والأدب والثقافة قاموا بتدوين السيرة الذاتية في عصورهم المختلفة، ومن أهم الكتب للسيرة الذاتية العربية القديمة " الاعتبار" لأسامة بن المنقذ، و" المنقذ من الضلال " للإمام الغزالي " وفيات الأعيان " لإبن خلكان، وكذلك نحن نجد العديد من العلماء والأدباء والكتاب البارعين في العصر الحديث الذين توجهوا إلى كتابة السيرة الذاتية بأسلوب حديث رائع أنيق من أمثال: الدكتور طه حسين وكتابه "الأيام" والأستاذ أحمد أمين وكتابه الشهير" حياتي" والأستاذ عباس محمود العقاد وعمله القيم " أنا " والشيخ عزيز ضياء وكتابه المعروف " حياتي مع الجوع والحب والحرب " في

[1] حسن، محمد عبد الغني، التراجم والسير، ص: 11

ثلاثة أجزاء، وفي بلادنا الهند الشيخ أبو الحسن علي الندوي وكتابه النادر" في مسيرة الحياة " في ثلاثة أجزاء وغيرهم الكثيرون.

الفصل الثاني

أدب السيرة الذاتية في الأدب العربي

عرفنا فيما سبق أن السيرة الذاتية هي أن الكاتب يكتب تاريخ حياته، ويسرد أعماله القيمة، وآثاره الخالدة المتميزة، وأيام طفولته، وصباه، وكهولته، وما يجري له من أحداث، ويشاهده من وقائع، ويصادفه من أمور شتى في حياته، وأن هذا الفن لون من ألوان الأدب ذو خصائص وصفات بارزة، ويقدم معلومات هائلة في ثوب أدبي متفاوت حسب استطاعة الكاتب ومؤهلاته العلمية والأدبية وتعد كتب السيرة الذاتية من أهم المصادر التاريخية والاجتماعية لأن الكاتب يستمد الحقائق والمعلومات القيمة النادرة من مشاهداته الحية الواقعية، ويقوم بتصويرها على أوراق كتابه تصويرا نابضا بالحياة مما يجعل قراءة الكتب للسيرة الذاتية ممتعة ومسلية وغنية بالمعلومات القيمة النادرة المتنوعة التي لا نجدها في مصادر أخرى بصورة عامة. هنا نرى من المناسب أن نذكر السيرة الذاتية في الأدب العربي في ثلاثة مراحل اعتمادا على المواد المتوفرة لدينا وهي كالآتي-

المرحلة الأولى: السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم

عندما ندرس ونطالع تاريخ أدب السيرة الذاتية العربية الخاصة بالنشأة والتطور للسيرة الذاتية في الأدب العربي القديم فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة هو أن هناك من الباحثين والمحققين من ينكر وجود أصول السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم مثل جورج ماي، وهناك من الباحثين من يعترف كل الاعتراف تلك الأصول للسيرة الذاتية في الأدب العربي مثل عبد الرحمن بدوي، ولكن أنه ينسب وينتمي إلى فرس وموالي كما يرى عبد الرحمن بدوي في كتابه " الموت والعبقرية " فهو يقول " بأن الشعور الغامض بالشخصية لدى الساميين هو السبب في عدم تبلور فن الترجمة الذاتية عند العرب عكس الشعوب الآرية الذين افسحوا لهذا اللون الأدبي مجالا واسعا في ميدان نشاطهم الفكري والكتابي حتى ارتفعوا به إلى فن من فنون الأدب العليا، فإن شعورهم

بشخصيتهم هو شعور قوي واضح (ويظهر غايته المقصود بقوله) وإن الكتاب في العربية الذين كتبوا في هذا الباب قليلون وأغلبهم ليسوا عربا خلصا بل ينتسبون إلى الجنس الآري من فرس وموالي على اختلاف أجناسهم "[1]. لذلك فلا خلاف بين الباحثين في أن هذا الجنس الأدبي مطروق في الأدب العربي القديم، وللعرب فيه انتاج يعكس مدى اهتمامهم به، وصلنا مضموما في كتب الطبقات والتراجم[2].

ولا نلاحظ بين هؤلاء الباحثين سوى اختلافات جزئية تتعلق، في المجمل، بطبيعة هذا الاهتمام مع الإلحاح على أن اتصال العرب بغيرهم من الأمم، من خلال الترجمة في العصور القديمة أو من خلال الاحتكاك المباشر بالحضارة الغربية، يمثل عنصرا أساسيا في تطور الفن المذكور لديهم[3]. وإن المعيار الذي يجعل الاستناد إلى التاريخ ممكنا، هو نموذج السيرة الذاتية الأوربية ظهورا وتطورا، وهكذا فإن التسليم بوجود السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم أو الحديث لا يكون إلا من باب الاعتراف، الضمني أو الصريح، بالخصائص النوعية التي حققها الجنس السير ذاتي في الآداب الأوربية والإنجليزية بالخصوص، وهو ما قد ينطبق أيضا على ثماثل الدوافع والبواعث، تاريخية واجتماعية ونفسية، التي سهلت ظهور هذا الجنس هنا أو هناك[4].

ويمكننا القول إن كتابة السيرة على العموم والسيرة الذاتية على الخصوص فن نشأ في الأدب العربي بعد ظهور الإسلام تحت مؤثرات عديدة متنوعة أهمها محاولة تسجيل حياة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وأن سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم تعد من البداية الحقيقية الأولى لفن السيرة عند العرب والمسلمين كما يرى الدكتور إحسان عباس " إن سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كتبت تحت مؤثرات تتميز لعاملين كبيرين هما: الأول: إن سيرة الرسول جزء من السنة فهي والحديث مصدران هامان من مصادر التشريع، ومنهما تستفاد الأحكام، ولذلك فلا بد من جلائها في دقة

---

[1] بدوي، عبد الرحمن، الموت والعبقرية، ص: 115

[2] الشاوي، عبد القادر، الكتابة والوجود السيرة الذاتية في المغرب، ص: 26

[3] المرجع نفسه، ص: 26

[4] المرجع نفسه، ص:26

بالغة، لكي تكون أعماله– إلى جانب أقواله– مشرعا واضحا لرجال الشريعة وأهل الافتاء والقضاء. والثاني: إن المسلمين كانوا قد ورثوا نظرة الجاهلية إلى التاريخ، وهي نظرة قائمة على " الأيام " وطبيعة الحرب وشؤون القتال، ولذلك اهتم كتاب السير قبل كل شيء بمغازي الرسول، وتصوير ذلك الدور الحربي الذي أدى إلى انتصار المسلمين في النهاية "[1].

ولقد سار على هذه السنة النبوية الشريفة عدد كبير لابأس به من المؤرخين والكتاب الذين بحثوا في الرجال وصفاتهم حتى قد نشأ علم الرجال والجرح والتعديل عندهم، لذا نحن نرى العدد الكثير من المدونات والمعاجم للشعراء والأدباء والفقهاء والعلماء والكتاب والمؤرخين العرب الذين قد اهتموا بكتابة سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم اهتماما بالغا نخص بالذكر منهم على سبيل المثال: عروة بن الزبير، وأبان عثمان، ووهب بن منبه، وعاصم بن قيادة، وسرحبيل بن سعد، وابن شهاب الزهري، وعبد الله بن حزم، وموسى بن عقبة، وعلى الرغم من ذلك أن معظم الكتب التي تمت كتابته على أيدي هؤلاء الأدباء والكتاب قد بادت وضاعت وتلفت مع مرور الزمن، ولم يصل إلينا أكثر من جزئها، ثم جاء محمد بن اسحاق ليسجل أوثق ما قام بالكتابة في السيرة النبوية في تلك الفترة من الزمن، كما نعتمد على أن " سيرة ابن اسحاق" تعتبر من أهم الأساسية للمعلومات عن حياة نبينا الأمي محمد صلى الله عليه وسلم.

ولقد عد الباحثون في القرن الثاني الهجري لظهور فن السيرة الذي بدأت فيه كتابة سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وأول من استخدم لفظ السيرة هو أحمد بن يوسف بن الدابة– الكاتب المصري– حيث كتب كتابا في " سيرة أحمد بن طولون "، ولعل هذه هي أول مرة ينتقل فيها استعمال لفظة السيرة من سيرة النبي الكريم صلى الله إلى غيره من الرجال، وفي أوائل القرن الرابع الهجري وبعد كتاب ابن الدابة بزمن وجيز ظهر كاتب كبير ومؤرخ شهير اسمه عبد الله البلوي فلم تعجبه " سيرة ابن طولون " كما ألفها سلفه أحمد بن يوسف الذي كتب سيرة ابن طولون على المذهب الذي رأه صالحا

[1] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة،)، ص:14

لسير الرجال، وله طريقة في تحليل الحوادث وتعليلها والتعليق عليها وإبداء شعوره الخاص نحوها.[1]

وأما بالنسبة للعصر الإسلامي فإن أول قطعة أدبية من السيرة الذاتية وصلت إلينا هي ما رواه سلمان الفارسي (36هـ-656م) عن نفسه، وقد أورد هذه القطعة الخطيب البغدادي في كتابه "تاريخ بغداد" وأسندها إلى ابن عباس، تحدث سلمان الفارسي في هذه القطعة من السيرة الذاتية عن نسبه، وحب والده له وخوفه عليه، ثم عن أسباب تركه الدين المجوسي واعتناقه النصرانية، وتحدث عن تبشير الأسقف النصراني له بأنه قد أظله زمن نبي جديد، وقد ذكر له الأسقف صفات ذلك النبي فوجدها سلمان في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم[2]. ولا شك فيه أن هذه القطعة من السيرة الذاتية هي أول بذرة للسيرة الذاتية غرسها سلمان الفارسي في القرن الأول الهجري، وبعدها نجد باقة من قطع السير الذاتية متناثرة في كتاب " الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، وكتاب "طبقات الشعراء" لابن سلام الجمحي وكتاب " معجم الأدباء" لياقوت الحموي وغيرها.

وفيما بعد قد اهتم المؤرخون المسلمون بكتابة تراجم الرجال بعد تسجيل الأحداث السياسية العامة اهتماما بالغا كابن الجوزي المتوفي سنة 579هـ في كتابه " المنتظم "، وابن الأثير المتوفى سنة 630هـ في كتابه " الكامل"، والذهبي المتوفى سنة 654هـ في كتابه " تاريخ الإسلام"، وكذلك ابن ثغري بردي في كتابه " النجوم الزاهرة"، والأسيوطي في كتابه " حسن المحافرة"، والجبرتي المتوفى سنة 1323م في القرن الثالث عشر للهجرة، كما أن بعض الأدباء والكتاب والمؤرخين أدخلوا تراجم الرجال في كتب الشروح الأدبية والنحوية واللغوية كما فعل ابن نباته المتوفى سنة 768هـ في شرحه لرسالة ابن زيدون المسمى " شرح العيون " والبغدادي المتوفى 1093هـ في

[1] حسن، محمد عبد الغني، التراجم والسير، ص: 28

[2] شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، ص: 39/38

"خزانة الأدب". كما أن المؤرخين المسلمين قد اهتموا كل الاهتمام بالطبقات في التراجم والسير، وقاموا بتسجيل المغازي والسيرة النبوية الشريفة، وسيرة ابن هشام علامة بارزة في هذا المجال المنوال كما يرى روزنتال " من الواضح أن التراجم أسهمت في كتابة التاريخ الإسلامي منذ بدايته، واستطاعت بمرور الزمن أن تظفر بمكانة رفيعة، ويرجع هذا إلى عدة أسباب خاصة منبعثة من المحيط الإسلامي فسيرة الرسول كانت منبعا امدها بمادة لبناء صرح شامخ للإسلام، وقد اعتمدت رواية تفاصيل حياة الرسول على أفراد كان قبول راواياتهم يتوقف على ما يعرف من تاريخ حياتهم"[1].

ومن أشهر كتب طبقات الصحابة كتاب ابن الأثير " أسد الغابة في معرفة الصحابة "، والعسقلاني في كتابه " الإصابة في تمييز الصحابة "، و" طبقات الفقهاء " للشيرازي المتوفى سنة 476هـ، و" طبقات الشافعية الكبرى " لتاج الدين السبكي المتوفى سنة 771هـ، وكتاب " طبقات القراء " ألفه أبو عمرو الداني المتوفى سنة 444هـ، وكتاب "غاية النهاية في رجال القراءات " قام بتأليفه شمس الدين الجزري المتوفى سنة 833هـ وغيرهم كثيرون.

ومع تقدم العلوم والفنون في العصر العباسي بدأ الاهتمام بكتابة الترجمة الذاتية التي اطلع عليها العرب في الأدبين الفارسي واليوناني. وقد عرف عن الفرس أن ملوكهم كتبوا سيرهم الذاتية ووصاياهم لأبناءهم كما ذكر مسكويه في كتابه " تجارب الأمم " بأن كسرى أنوشيروا ألف كتابا في سيرته وسياسته وعرف بهذا الكتاب وذكر انتصاراته على الروم والترك والديلم، والمثال الآخر الذي كان له أثر كبير في باب الترجمة الذاتية هو كتاب " كليلة ودمنه " لابن المقفع، يرى شوقي ضيف أن العرب تأثروا في كتاباتهم بسيرة جالينوس وبروزويه كما يعبر عن عواطفه وخواطره بقوله " وليست ترجمة جالينسو ولا ترجمة كسرى أنوشروان كل ما قرأه العرب من تراجم شخصية أجنبية فإنهم قرءوا في

[1] روزنثال، فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، ص: 142

كتاب "كليلة ودمنة" الذي ترجمه ابن المقفع من الفارسية ترجمة برزويه رأس أطباء فارس الذي نقل للفرس هذا الكتاب عن أصوله الهندية "[1].

ومن كتب التراجم والسير في الأدب العربي القديم كتاب " المنقذ من الضلال " لأبي حامد الغزالي المتوفى عام 505هـ. ولا شك في أن الغزالي يعد من أكبر عقلية الذي خدم الشريعة الإسلامية والتصوف في وقت معا، فقد وقف حياته على التوفيق بين هذين الاتجاهين. ولد الغزالي في طوس من أعمال خراسان عام 1058م، ترجم لحياته العقلية في رسالته المسماة بـ" المنقذ من الضلال"، كما يرى شوقي ضيف عنه وغيره من المتصوفة الذين قاموا بكتابة سيرهم الذاتية إذ يقول " إنما يعنى المتصوفة بوصف سيرتهم الصوفية، وقد يذكرون بعض تجاربهم، وقد تتحول بعض كتبهم إلى تجارب خالصته، ولكنها جميعا ليست من الترجمة الشخصية بمعناها التام، وهي الترجمة التي تعنى بالشخص ووصف حياته وحقائقها بكل ما صادفه فيها من شر وخير وبؤس ونعيم، يكاد يكون لكل صوفي حديثه عن تصوفه وبعض تجاربه، وسنكتفي ممن جاءوا بعد الغزالي بثلاثة هم ابن الفارض المتوفى سنة 632هـ/ 1234م وابن عربي المتوفى سنة 638هـ/ 1240م والشعراني المتوفى سنة 973هـ/ 1565م"[2].

ومنها كتاب " معجم الأدباء " لياقوت الحموي وقد ترجم البيهقي لنفسه في كتابه " شارب التجارب " وهو مفقود، إلا أن ياقوت نقل لنا في كتابه " معجم الأدباء " هذه الترجمة[3]. ومنها رسالة أبي حيان التوحيدي المسماة بـ" الصداقة والصديق " التي نجد فيها بعض الملامح الذاتية والنفسية لمؤلفها، فإنه يعبر عن شعوره ووجدانه بالاغتراب والوحدة بين أبناء مجتمعه، إذ إنه أصبح يجد نفسه دون مؤنس أو رفيق، فصار بعد نفسه غريب الحال، غريب الخلق، مستأنسا بالوحشة، قانعا بالوحدة، معتادا للصمت، ملازما للحيرة، يائسا من الحياة وقد بدت شخصية أبي حيان من خلال كتابه شخصية متشائمة، يائسة، لا تدع للعمل منفذا للعبور إلى أعماقها، لذلك فقد انتهى به الأمر إلى

---

[1] ضيف، شوقي الدكتور، الترجمة الشخصية، ص: 8

[2] المرجع نفسه، ص: 77

[3] المرجع نفسه، ص:43

انتظار الموت وتوقعه في كل لحظة، وكأنه لم يكن يجد حلا للأزمة النفسية التي يعيشها إلا الموت، بل إن أبا حيان يعجب من مقدرته على الكتابة مع كل ما يعانيه من ألم ويأس[1].

وكذلك نجد رسالة " لفتة الكبد إلى نصيحة الولد " لابن الجوزي (597هـ)، فإن هذا الكتاب يتحدث فيه ابن الجوزي عن نفسه في سياق النصح والإرشاد لابنه وهو يفعل ذلك بهدف تعليمي وتربوي كما يقول " فينبغي لذي الهمة أن يترقى إلى الفضائل، فيتشاغل بحفظ القرآن وتفسيره وبحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وبمعرفة سيره وسير أصحابه والعلماء بعدهم، ليتخير مرتبة الأعلى فالأعلى، ولا بد من معرفة ما يقيم به لسانه من النحو ومعرفة طرف مستعمل من اللغة "[2]. ومنها كتاب "السياق في تاريخ نيسابور" لعبد الغافر بن إسماعيل الفارسي، المتوفى سنة (529هـ)، فإنه يعد من أكبر العلماء والكتاب في مجال اللغة العربية وآدابها والتاريخ والحديث[3].

وكذلك نجد من أقدم الكتب المهمة التي وصلت إلينا وتحتوي على شيء من الملامح النفسية لصاحبها هو كتاب " طوق الحمامة في الألفة والآلاف " لأبي محمد علي بن حزم الأندلسي (994م- 1064) الذي يعد من أكبر علماء الأندلس ومن أكبر علماء الإسلام في الأندلس تصنيفا وتأليفا وترجمة تحشية. قد اشتهر بعلمه وفقهه، وقدم في كتابه الشهير " طوق الحمامة في الألفة والآفاق " صورة حية عن حياة المجتمع الأندلسي، وحياته الشخصية. يعد هذا الكتاب من الكتب المهمة في الترجمة الذاتية، وفي الواقع أن الكتاب هو رسالة عن الألفة والآلاف إلى الحب والمحبين، ويشتمل على ثلاثين فصلا، وكل فصل من الفصول يدور حول الحب والغرام كما أوضحه ابن حزم الأندلسي في مستهل الكتاب " قسمت رسالتي هذه على ثلاثين بابا، منها في أصول

---

[1] شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، ص: 46/45

[2] الجوزي، أبو الفرج، من روائع النصائح والوصايا لفتة الكبد إلى نصيحة الولد، شرح وتحقيق أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ص: 31/30

[3] أبو زيز، بكر بن عبد الله، العلماء الذين ترجموا لأنفسهم، ص: 30

الحب عشرة، ومنها في أغراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر بابا، ومن هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة الذكر، ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة وهما: باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف، ليكون خاتمة ايرادنا وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[1].

وإن الرسالة من حيث التبويب محكمة البناء، ولكن ابن حزم يوسع فيها من مدلول الحب، وفي معرض الاستشهاد يقص قصصا عن الصداقة مثلا، وقد يحكي في بعض الأحيان حكايات من الأدب المكشوف، وهي قليلة في الكتاب، ثم هو يبالغ في استطراف شعره، وربطه بالأحداث التي يقصها، وفي كثير من الأحيان لا يكون شعره إلا كلاما منظوما، فيضع مقارنة غير ملائمة مع الحكايات المروية– ويتبسط أحيانا في الشرح والتفصيل حتى يخرج إلى تقرير أمور بديهية مستغنى عنها[2].

وأما قيمة الكتاب الأدبية والفنية فهو يعد من أهم كتب التراجم والسير التي كتبت بشجاعة وجرأة وقد رسم ابن حزم الأندلسي صورة واقعية من حياته هو ومن حياة الناس ببلده حول موضوع واحد هو " الحب " مخفيا أسماء بعض الأشخاص حينا مصرحا بها في أحيان كثيرة، وهذه الناحية من الكتاب هي أقوى ما فيه، لأنها تضمنت اعترافاته الذاتية وتجاربه وتجارب من حوله في شؤون عاطفية، فكان ذلك من أجمل ما سجلته كتب التراجم العربية في هذا الباب، فالكتاب من بعض نواحيه " ترجمة ذاتية " تصور شجاعة صاحبها في الحديث عن نفسه وعن مجتمعه، كما تدل على نوع دقيق من الاستبطان النفسي، ومن دراسة عارضة لنفسيات الآخرين، ثم إن هذا الكتاب يحتوي نظرة في الحب تشبه أن تكون مفلسفة أفلاطونية، وهي من الحب العذري لم يكن كثير الشيوع في الشعر الأندلسي من قبل[3].

---

[1] الأندلسي، على بن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ص: 10/9

[2] عباس، احسان الدكتور، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص: 311

[3] المرجع نفسه، ص: 309

ومن السير السياسية التي نجدها في التراث العربي القديم هي سيرة الأمير عبد الله بن بلقين(483هـ) آخر ملوك بنى زيري في غرناطه، دون المؤلف سيرته الذاتية تحت عنوان " التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة " حيث تحدث عن أسرته وعائلته ونشأته السياسية ليدافع عن نفسه أمام الآخرين، والذين كانوا يدعون بأنه تسبب في سقوط غرناطة و" لقد كان عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيري الملك الثالث والأخير لمملكة غرناطة التي أسسها فرع منحدر من عائلة بني زيري البربرية الصنهاجية، وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة، ولد في سنة 447هـ (1056م)، وعين عند وفاة أبيه بلقين سيف الدولة في عام456 هـ (1064م) كولي عهد لجده الأمير باديس بن حيوس، ثم اعتلى بعده عرش غرناطة في سنة 469هـ (1077م) بينما أصبح أخوه تميم المعز أميرا مستقلا في مالقة، ولم تكن دولة الأمير عبد الله إلا سلسلة طويلة من الاضطرابات في داخل مملكته، والمشادات المسلحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين، والمواطئات مع ملك قشتالة ألفونش السادس"[1].

أما كتابة عبد الله لمذكراته، فقد كانت أثناء إقامته الإجبارية في اعمات، وإن هذه الترجمة الشخصية تكون أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويرا، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة، وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التي يحاول فيها المؤلف أن يبرر موقفه السياسي أمام الأخطار التي كانت تهدم مملكته، فإن كتاب " التبيان" يقدم لنا سردا مفصلا جدا لجميع الحوادث التي أدت إلى استيلاء ألفونش السادس على مدينة طليطلة عام 478هـ/1085م، وإلى تدخل المرابطين في شبه جزيرة إبريا في السنة التالية[2]. كما أن مذكرات عبد الله بلقين هي وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول، يساعد بصورة أفضل من كتب التأريخ التي ألفت من بعد على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعي والسياسي في الأندلس قبل معركة الزلاقة وبعدها، وعلى التقدم الذي حققه في هذا الوقت أنصار استرجاع إسبانيا المسلمة

[1] بلقين، عبد الله، مقدمة مذكرات الأمير عبد الله، تحقيق ليفي بروفنسال، ص: 8/7

[2] المرجع نفسه، ص: 8

إلى النصرانية، ومن جهة أخرى، إن قص الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضا أمر جديد هام جدا[1].

ويقول يحيى إبراهيم عبد الدايم عن هذه السيرة الذاتية لعبد الله بن بلقين " أما الأمير عبد الله فإن سيرته الذاتية تمدنا بأطوار شخصيته المختلفة، وتنقل إلينا انعكاس الأحداث والوقائع على ذاته في سرد أدبي يثير في النفس أكبر قدر من المتعة الأدبية، لأن أعظم ما يمتاز به الأمير عبد الله، هو أسلوبه الأدبي العذب، المعتمد على الحوار الفني المحكم، الذي يستعيد فيه في تمثل قوى، ما دار من حديث بينه وبين نفسه، أو بينه وبين الآخرين، أو بينهم وبين غيرهم"[2].

وفي هذا المضمار نجد عمارة بن علي الحكمي اليمني المتوفى (569هـ)، الذي كتب كتابه الشهير" النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ". يمثل المؤلف فيه سيرته الذاتية وحياته السياسية، وأن صاحب الكتاب هو ممن تحول إلى مذهب تشيع فصلب في جماعة من أصحابه في عهد صلاح الدين والحمد لله رب العالمين، وهو غير معدود في العلماء ولكن في ذوي الرتب السياسية[3]. تحدث فيه صاحب الكتاب عن نسبه، وعائلته، ودراسته، وتجارته، وما أصابه فيها من فوز ونجاح، وتقدم وإزدهار، وأخيرا تحدث عن حياته السياسية التي قضاها في بلاده، وهكذا تحدث فيه عن علاقاته الودية والأخوية السياسية بوزراء مصر، استغرق هذا الحديث كله معظم صفحات الكتاب بسبب كثرة الأشعار العربية التي قالها فيهم. ولد عمارة اليمني في سنة 515هـ وطلب العلم مدة بزبيد في اليمن، وكان هو شاعرا فصيحا وفقيها، حج في سنة 549هـ وهناك قد التقى بأمير مكة المكرمة قاسم بن فلتيتة الذي أرسله إلى مصر ثم عاد إلى مكة المكرمة ومنها إلى مسقط رأسه اليمن، ثم عاد عمارة إلى مصر وعاد إلى سيرته في مدح الدولة العبيدية الفاطمية، التي تولى العاضد حكمها بعد موت الفائز في سنة 555هـ/1660م، وتقلبت الأوضاع في مصر في السنوات الأخيرة من عمر العبيديين

[1] المرجع نفسه، ص: 9/8

[2] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 41

[3] أبو زيز، بكر بن عبد الله، العلماء الذين ترجموا لأنفسهم، ص: 31

الفاطميين، وتلقب معها عمارة، فقد كان مألوفا أن يتولى الوزراة من يتمكن من التغلب على خصمه أو خصومه، ومدح عمارة الوزراء المتغلبين، هجاهم بعد قتلهم أو الانقلاب عليهم، لا فرق عنده في ذلك بين الصالح وابنه العادل أو ضرغام أو شاور[1].

وأما شخصيته الممتازة في هذا الكتاب فإنها تعد من أبرز شخصية كبيرة عبقرية من هؤلاء الوزراء كما يقول " قد أتيت على نبيذة يسيرة من الفقر العصرية، فيما شاهدت من أحوال الوزراء المصرية، وأنا ذاكر في هذا المختصر نتفا جرت لي مع أقارب الوزراء وأكابر الأمراء، فما منهم إلا من كاثرته، وعاشرته، وبلوت سمينهم وغيثهم وقويهم وورثهم، وانكشف المصقول من الصدى، والجيد من الردي"[2].

وكذلك جاء في هذا المجال كتاب موسوم بـ" الإحاطة في أخبار غرناطة "، قام بتأليف هذا الكتاب لسان الدين بن الخطيب البغدادي. تحدث فيه عن نشأته وترعرعه ومشايخه، كما تحدث فيه عما صدر له من تشريعات ملوكية، وما كتب من وسائل ومؤلفات، ونحن نجد فيه أن الخطيب قد اهتم اهتماما بالغا بذكر نماذج من شعره، أنه يذكر الغرض الشعري ثم يتبعه بما قاله من شعر فيه. وفي الحقيقة أن هذا الكتاب قد اشتمل على تراجم جمة، وصلت إلى خمسمأة ترجمة، تخص علماء وأدباء أندلسيين ومغاربة، إذ تولى لسان الدين بن الخطيب التعريف بهم، وتسليط الضوء على انتاجهم الأدبي والفكري، حيث سجل في كتابه هذا عينات ومختارات وافية من إنتاجهم الأدبي: الشعري والنثري[3].

كما نجد المؤيد في الدين هبة الله بن موسى بن داود الذي كتب سيرته الذاتية باسم " السيرة المؤيدية "، وقد قسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام ففي القسم الأول تحدث عما كابده من المشاق في فارس وعن الدسائس التي كانت تحاك ضده في بلاط أبي كاليجار وما كابده من المشاق في مسيره إلى مصر، ثم أخذ في كتابة القسم الثاني في

---

[1] المقالات: هيثم الكسواني، "عمارة اليمني: شاعر سني يمدح الفاطميين" مجلة الراصد، العدد السادس والثمانون – شعبان 1431هـ المقالة المنشورة على شبكة.www.alrased.net/main/article.aspx?selected_article_no=3928

[2] اليمني، عمارة بن أبو الحسن، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، ص: 93

[3] الخطيب، لسان الدين أبوعبد الله محمد، الإحاطة في أخبار غرناطة، الجزء الأول، ص: 5

أوقات متفرقة، وتحدث في هذا القسم عما كان عليه بلاط الخليفة الفاطمي المستنصر بالله من اضطراب وكيف تلاعب الوزراء وأم الخليفة بالبلاد وبالخليفة نفسه، كما أورد في نهاية هذا القسم صور الخطابات التي تبدلت بين المؤيد وأمراء العرب ثم التي تبودلت بين المؤيد والوزراء في مصر إبان مؤامرة البساسيري، وأما القسم الثالث فقد حدث فيه عن خروجه من الرحبة وما حدث له في حلب ووصوله إلى مصر وما كان من نجاح البساسيري[1].

وإن السيرة المؤيدية تعد وثيقة تاريخية من أهم الوثائق التي عرفها التاريخ وتاريخ القرن الخامس خاصة إذ أن جميع المؤرخين الذين تحدثوا عن قيام الدعوة الفاطمية في بغداد عام 450هـ لم يحدثونا طويلا عن كيفية قيام هذه الدعوة ولا عن المحرك لها بل جعلوا كل حديثهم منصبا على علاقة البساسيري بالقائم بأمر الله وابن المسلمة وطغرلبك[2]. وأما المؤيد فقد أعطانا في هذا الكتاب صورة حقيقية عن كل دقائق هذه المؤامرة أثبت في هذا الكتاب كل الرسائل التي تبادلها مع أمراء العرب من ناحية ومع وزراء مصر من ناحية أخرى، وفي هذه الرسائل تظهر لنا بجلاء حالة العالم الإسلامي في القرن الخامس للهجرة واتجاهات أمرائه وتلاعبهم بالعباسيين تارة وبالفاطميين تارة أخرى، فلا غرو وإذا قلنا إن هذا الكتاب فريد في بابه، وحيد في نوعه، يحتاج إليه كل مؤرخ إسلامي وأديب عربي[3].

وأما أهمية الكتاب للسيرة المؤيدية التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية فهي غنية عن البيان كما اعتقد محمد حسن كامل حيث يقول واصفا الكتاب " فالكتاب على هذا النحو ليس ترجمة للمؤيد فحسب، بل هو مصدر هام للحياة السياسية والاجتماعية في القرن الخامس الهجري، لأن المؤيد ترجم لنفسه من حيث علاقته بالمجتمع الذي عاش فيه، والكتاب قيم جدا في دراسة هذه السنوات الإحدى والعشرون

---

[1] الشيرازي، المؤيد في الدين هبة الله، ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق محمد حسين كامل، ص: 63/62

[2] المرجع نفسه، ص: 63

[3] المرجع نفسه، ص: 64/63

التي كان بها أحداث وخطوب، وكان لها أثر قوي في مجرى الحياة الإسلامية عامة "[1].

وبعد السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين داعي الدعاة نجد أسامة بن المنقذ المتوفى 583هـ، الذي قد قام بكتابة مذكراته التي سماها " كتاب الاعتبار" ففيه تحدث عن حياته التي كانت حافلة بالتجارب والمشاهدات والمغامرات بأسلوب رائع جذاب شيق، وأن هذا الكتاب في المعنى الحقيقي يصور حياة أسامة في نشأته واختباراته الحربية، وشجاعته في محاربة الإنسان والحيوان، وفيه دراسة لبعض الطبائع والنفسيات، بين الرجال والنساء من المسلمين والصليبيين[2].

وفي الواقع أن سيرة أسامة بن المنقذ الذاتية في كتابه " الاعتبار" جاءت ممزوجة بشيء من التاريخ، وعلم النفس، والاجتماع، والبيئة، وطبائع الحيوان، إذ أننا نجد أسامة في كثير من الأحيان، يورد القصص، والأخبار، التي لا تتعلق به بشكل خاص، ومثال ذلك حديثه عن الرجل الذي ضربت رقبته لأنه يزوّر التواقيع، وحديثه عن منزلة الفارس عند الإفرنج، وحديثه عن طبائع الخيل وصفاتها، وغير ذلك من الأحاديث البعيدة عن سيرته الذاتية[3].

وكذلك نرى في هذا المضمار عددا كبيرا لا بأس به من المؤرخين الشهيرين الذين سجلوا سيرهم الذاتية بعنوان مختلف، ونحن نخص بالذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: ابن سعيد المغربي العنسي المتوفى سنة 685هـ، الذي ترجم لنفسه في كتابه "المغرب في حلي المغرب"، والعز ابن جماعة المتوفى سنة 819هـ له كراسة سماها "ضوء الشمس في أحوال النفس" حيث ذكر وقائع أحداثه الذاتية، والفاسي المتوفى سنة 832هـ ، الذي ترجم لنفسه في المحمدين من كتابه الموسوعي العظيم " العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين"، ومحمد بن الجزري المتوفى سنة 833هـ الذي ترجم لنفسه في كتابه القيم أسماه بـ" غاية النهاية في طبقات القراء، وهو مطبوع، وابن

---

[1] المرجع نفسه، ص: 116

[2] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة، ص: 128

[3] شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، ص: 57

حجر العسقلاني المتوفى سنة 852هـ، والذي ترجم لنفسه في كتبه النادرة بعنوان مختلف منها: الدرر الكامنة، ورفع الإصر، ابناء العمر، والمعجم المفهرس، والمجمع المؤسس، والبقاعي المتوفى سنة 885هـ الذي كتب سيرته في كتابه "عنوان الزمان في تراجم المشائخ والأقران"، ومحمد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفى سنة 1902هـ الذي ترجم لنفسه في كتابه "الضوء اللامع في رجال القرن التاسع".

كما نرى جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد السيوطي المتوفى سنة 911هـ الذي ترجم لنفسه في كتابه القيم النادر المسمى بـ" حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" وترجم لنفسه برسالة مستقلة باسم " التحدث بنعمة الله تعالى" وترجم لنفسه في كتابه القيم "طبقات النحاة الوسطى" وقال فيها "قد أوردت أن يكون لاسمى ذكر في هذا الكتاب تبركا واقتداء بصنيع السلف ممن ذكر اسمه في تأليفه كالإمام عبد الغافر في: السياق. وياقوت الحموي في: معجم الأدباء وابن الخطيب في: تاريخ غرناطة. والتقي الفاسي في: تاريخ مكة. وأطالا في ترجمتهما جدا، وابن حجر في: قضاة مصر. وجماعة لا يحصون. بواسطة: الفلك المشحون لابن طولون"[1].

كما نرى في هذا المجال عددا لا بأس به من العلماء والأدباء الآخرين الذين ترجموا لأنفسهم منهم: محمد بن علي بن طولون الدمشقي الحنفي المتوفى المؤرخ المتوفى سنة 953هـ الذي ترجم لنفسه بكتاب مستقل سماه بـ" الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون" والشعراني الذي كتب سيرته الذاتية في كتاب مستقل سماه بـ" لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق" في مجلدين مطبوع في نحو خمس مأة صفحة طبع بمصر عام 1357هـ بمطبعة عبد الحميد حنفي، وأبو بكر بن أبي القاسم بن أحمد بن محمد الحسيني المعروف بابن الأهدل اليمني المتوفي سنة 1035هـ والذي ترجم لنفسه نثرا ونظما فبأول سماه "نفحة المندل" والثاني أرجوزة سماها "الدرة الباهرة في التحدث بشيء من نعم الله الباطنة والظاهرة، والعيدوروس

[1] أبو زيد، بكر بن عبد الله، العلماء الذين ترجموا لأنفسهم- السيرة الذاتية، ص: 41

المتوفى سنة 1038هـ الذي ترجم لنفسه في كتابه القيم المسمى بـ" النور السافر عن أخبار القرن العاشر" ونجم الدين الغزي المتوفى سنة 1061هـ الذي ترجم لنفسه في كتابه القيم النادر في ترجمة الشيخ الوالد ، وفي كتابه "الكواكب السائرة وغيرهم الكثيرون.

ولعل آخر بذور السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم التي وصلتنا في شكل كتاب خاص بها هي سيرة ابن خلدون المتوفى 808هـ أسماه بـ" التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ". أما عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (1332م-1406م)، فكان مؤرخا عربيا تونسيا شهيرا، تلمذ وخدم الدولة المرينية في فاس بالمغرب الأقصى طوال حياته، ,يعتبر مؤسس علم الاجتماع الحديث، وقد خلف ورائه تراثا علميا أدبيا ما زال تأثيره ممتدا حتى اليوم، والكتاب " التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا " يبدأ به ابن خلدون بنسبه على طريقة أغلب كتاب التراجم المسلمين، فيبين معرفته وأسماء عشرة من أبائه، وأنه ينتسب إلى وائل بن حجر من عرب اليمن في حضر موت، يذكر كل ما يجري معه بكل ايجاز بليغ تاريخي، كما يذكر أن أبي عمارة الذي غلب على ملك شمال أفريقية تيونس قد قتل جده " ولما غلب الدعي بن أبي عمارة على ملكهم بتونس، اعتقل جدنا أبا بكر محمدا، وصادره على الأموال، ثم قتله خنقا في محبسه، وذهب ابنه محمد جدنا الأقرب مع السلطان أبي اسحاق وأبنائه إلى بجاية، فقبض عليه ابنه أبو فارس، وخرج في العساكر هو واخوته لمدافعة الدعي ابن عمارة، وهو يشبه بالفضل ابن المخلوع، حتى إذا استلحموا بمر ما جنة خلص جدنا محمد مع أبي حفص- ابن الأمير أبي زكريا من الملحمة، ومعهما الفازازي وأبوالحسين ابن سيد الناس فلحقوا بمنجاتهم من قلعة سنان"[1].

وكذلك يذكر بعض الأحداث الأخرى المهمة مثل الثورات التي حدثت إبان حكم الأمير عبد الله وتغلب يوسف بن تاشقين والمرابطون على الأندلسي واضمحلال دولة العرب، كما يذكر حول والده من الاشتغلال في مناصب الدولة إلى الاتجاه نحو العلم

[1] ابن خلدون، عبد الرحمن، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص: 14

والمعرفة إذ يقول " وكان السلطان أبو يحى إذا خرج من تونس يستعمل جدنا محمدا عليها، وثوقا بنظره واستنامة إليه، إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين، ونزع ابنه، وهو والدي محمد أبو بكر، عن طريقة السيف والخدمة، إلى طريقة العلم والرباط، لما نشأ عليها في حجر أبي عبد الله الزبيدي الشهير بالفقيه، كان كبير تونس لعهده، في العلم والفتيا، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حسين وعمه حسن، الوليين الشهيرين"[1].

ثم ينتهي ابن خلدون من ذكر موجز عن تاريخ عائلته يعرج على ذكر ميلاده وقراءته فيبين تاريخ ميلاده إذ يقول " أما نشأتي ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمأة، وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أيفعت وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتب أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصاري، وبعد ان استظهرت القرآن الكريم من حفظي، قرأته عليه بالقرآآت السبع المشهورة إفرادا وجمعا في إحدى وعشرين ختمة، ثم جمعتها في ختمة واحدة أخرى، ثم قرأت برواية يعقوب ختمة واحدة جمعا بين الروايتين عنه، تعلمت صناعة العربية على والدي، وعلى أستاذي تونس، منهم الشيخ أبو عبد الله بن العربي الحصايري وأبو عبد الله محمد بن الشواس الزرزاني وأبو العباس أحمد بن القصار وإمام العربية والأديب بتونس أبو عبد الله محمد بحر"[2].

المرحلة الثانية: نمو السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث

عندما قمنا بإلقاء النظر العميق على تاريخ العصر الحديث في الأدب العربي نجد أن القرن الثامن عشر وقعت فيه حادثة عظيمة مؤلمة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي في جمهورية مصر العربية، كانت هي حادثة حملة القوات الفرنسية الغازية بقيادة نابليون في سنة 1798م، وإن هذه الحادثة تعد من أهم الأحداث الجسام في التاريخ العربي الحديث، فقد هزت الشرق العربي الحديث هزة عنيفة، فالشعب المصري الذي كان مقيدا بقيود الخلافة العثمانية منذ القرن السادس عشر بدأ يرى عالما جديدا

[1] المرجع نفسه، ص: 16
[2] المرجع نفسه، ص: 18/17

تمثل بنابليون وجيوشه، وكان نابليون هو الذي أراد أن يفرض استعمارا جديدا لا يختلف عن السيطرة العثمانية وان اختلفت الوسائل التي توسل بها فقد "جاءت حملة نابليون ثمرة رغبة السياسة الفرنسية إذ ذاك في القضاء على النفوذ الإنجليزي في الهند والشرق الأوسط ففتح الشرق العربي عينيه على مدافع نابليون ومعالم مجتمع جديد"[1].

وبعد هذه الحادثة الجياشة فتحت أبواب مغلقة لأهل العرب بصفة عامة وللأدباء العرب بصفة خاصة في جميع العلوم والفنون. وإن السيرة الذاتية العربية عادت إلى التطور والنمو من جديد في ثوب مختلف متفاوت مع مطلع التاسع عشر الميلادي، واتصل العالم الغربي بالعالم العربي من جديد، وأخذ يتزايد عدد البعثات العلمية والأدبية والفنية من قبل العالم العربي إلى العالم الغربي كثيرا جدا كما يذكر تهاني عبد الفتاح شاكر مشيرا إلى ذلك بقوله "وفي نهاية القرن التاسع عشر، بعد أن اتصل العالم العربي بركب الحضارة الغربية، ظهرت إرهاصات هذا الفن في الأدب العربي الحديث، وقد كانت هذه الإرهاصات في معظم الحالات وثيقة الصلة بالموروث التراثي، وفي بعض الحالات متأثرة بالأدب الغربي"[2].

وفي هذه الإرهاصات أول من قام من قبل العرب بكتابة السيرة الذاتية في المعنى الحقيقي هو محمد عمر التونسي الذي ألف أحوال رحلته في حجم كتاب اسمه " كتاب تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان" وقد ظهر فيه الكثير من التأليفات للسيرة الذاتية التي تختلف عن سابقاتها أسلوبا ونوعا متأثرة بالمدارس اللغوية والمعاهد الأجنبية والفنون الحديثة التي أقيمت ذلك الزمن، وبما طرأ على مجمل حياة الشعوب والبلدان ولا سيما في مجال المواصلات والاتصالات والوسائل الحديثة للمعلومات والمعرفة، وهناك قائمة طويلة للكتاب والأدباء الذين أودعوا مشاهداتهم وسيرة حياتهم على أوراق الكتب، من أمثال علي حسن فدعق في كتابه "أيام في الشرق الأقصى"

[1] رفاعي، عبد العزيز: دراسات في الشرق الأوسط، ص: 18

[2] شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، ص: 67

ورفاعة رافع الطهطاوي في كتابه " تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، وصف فيه المؤلف رحلاته وتجولاته وتنقلاته من مكان إلى مكان آخر مع التركيز على رحلة فرنسا، وأحمد فارس الشدياق في كتابه المشهور" الواسطة في أخبار مالطة " الشيخ محمد علي مبارك الذي كتب سيرته الذاتية باسم كتاب " الخطط التوفيقية " ومحمد كرد علي وغيرهم الكثيرون.

أما محمد عمر بن همر بن سليمان التونسي فولد في سنة 1789م، وتخرج على شيوخ الأزهر في مصر، ثم سافر إلى دار فور والسودان، وكتب تفاصيل حياته ورحلاته وتنقلاته في كتاب دعاه " كتاب تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان"، وقد طبعت هذه الرحلة على الحجر في باريس سنة 1850م بهمة المستشرق الفرنسوي بارون (Perron) الذي نقل مضامينها إلى الفرنسوية وذيَّلها بالحواشي، ولما عاد التونسي من رحلته خدم الآداب في مطبعة بولاق فتولى تصحيح مطبوعاتها وتوفي سنة 1274هـ/1857م[1]. وقد بدأ عمر التونسي سيرته بالحديث عن تعلمه للعربية، ثم تحدث عن الوظائف التي شغلها، وبعد ذلك تحدث عن رحلته إلى بلاد السودان " دافور" و" أداي" إذ كان الباعث على الرحلة هو البحث عن والده، الذي غادر مصر حيث تعيش زوجته وولده، ولم يرجع إلى بلده تونس بل سافر إلى دافور[2].

وبعد ذلك نرى كتابا بعنوان " الساق على الساق فيما هو الفارياق " لأحمد فارس الشدياق، الذي يعد رائد السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث. أما الشدياق فكان مارونيا لبناني الأصل، فتح عينيه في عشقوت سنة 1804م، ثم انتقل مع والديه إلى ساحل بيروت سنة 1809م، فاتقن فيه العربية، وجعل يكتب في أول جريدة ظهرت هناك أي " الوقائع المصرية " وفي سنة 1834م دعاه المرسلون الأمير كان مالطة وولوه إدارة مطبعهم فتظاهر بالدين البروتستاني وخدم الرسالة الأميركية بنشاط وطبع في

[1] الأب، لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشرو الربع الأول من القرن العشرين، الجزء الأول، ص:104

[2] شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، ص: 67

مالطة بعض مصنفاته، وألف هناك كتابه المرسوم " بالواسطة في معرفة مالطة " ثم تجول مدة في أوربا وخصوصا في فرنسا وانكلترا فأكرم أهل تلك البلاد مثواه وصنف حينئذ كتابه الفارياق الذي لم يرع فيه جانب الأدب وشفعه بكتاب آخر أجدى نفعا وأصوب نظرا دعاه " كشف المغبا عن أحوال أوربا"[1].

لقد اختار الشدياق عنوان " الساق على الساق فيما هو الفارياق " بكتابه الذي دون فيه جانبا مهما من سيرة حياته، والفارياق اسم منحوت من كلمتي " فارس" و" الشدياق " يأخذ " فار" من فارس و" يان" من الشدياق، وقد جعله صاحب الكتاب كناية عن نفسه، هذا هو الأسلوب الذي يفرقه من آخر، وأن هذا الكتاب يعد من أول السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، وبعد ذلك أراد أن يتحدث عن محامد النساء ومذامهن كما أورد قائلا " فإن جميع ما أودعته في هذا الكتاب إنما هو مبني على أمرين أحدهما إبراز غرائب اللغة ونوادرها، فيندرج تحت جنس الغريب، نوع المترادف والمتجانس، والأمر الثاني ذكر محامد النساء ومذامهن فمن هذه المحامد ترقي المرأة في الدراية والمعارف بحسب اختلاف الأحوال عليها كما يظهر مما أثرت عن الفارياقية "[2].

ويعد كتاب الشدياق هذا من أول كتب السيرة الذاتية الذي ظهر في الأدب العربي الحديث كما يقول إحسان عباس واصفا الكتاب " لعل أول سيرة ذاتية ظهرت في العصر الحديث هي " كتاب الساق على الساق في ما هو الفارياق " للشيخ أحمد فارس الشدياق، وفيها حديث عن تنقلات الشدياق وبعض أحواله ".[3] وقد بين أن هذا الكتاب يفتقر إلى كثير من السمات البارزة للسيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث كما يقول " مما يميز الشدياق رحابة صدره، لتلقي المدنية الحديثة، ونظرته إلى المرأة، وسخريته برجال الدين، ونقده لبعض العادات عند الغربيين والشرقيين على السواء، ولكن غرامه باللغة، وانقياده لطبيعة المقامة، واسرافه في التورية والتلميحات الجنسية، كل هذه تفسد

[1] الأب، لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، الجزء الثاني، ص:212
[2] المرجع نفسه، ص: 3/2
[3] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة، ص: 131

عليه الاسترسال، وتعرقل المتعة في السرد، والمشاهد المصنوعة فيه تربو بكثير على الأمور الواقعية، كما أن الاستطراد في اللغة والنقد والسخرية والحوار والمصنوع، كل هذه تخرجه عن أن يكون سيرة ذاتية بالمعنى الفني"[1].

وقد اشتهر في هذا المجال علي مبارك، الذي دون وقائعه الماضية بعنوان " الخطط التوفيقية "، والجدير بالذكر أن هذه السيرة الذاتية كتبت في نحو ستين صفحة ذكر فيها علي مبارك عن نشأته وتعليمه في مصر وفرنسا، وألقى الضوء على المناصب التي تقلدها في الحكومة وخارجها، وعلى أعماله القيمة النادرة وإصلاحاته في مجال التعليم والتربية. ولد على مبارك عام 1239هـ، ونشأ في قرية برنبال الجديدة الواقعة في الشمال الشرقي للدولتا بالقرب من المنصورة، يصف علي مبارك في سيرته الذاتية القرية، وبحاراتها، ومسجدها، وصناعها. كما يذكر كتاب القرية، وتعليمه، وتربيته، ومنهجه التدريسي، وقسوة الشيخ الضرير الذي كان يضرب الطلاب الصغار، كما يذكر لنا ما وقع لهم من بلايا دفعتهم إلى التشتت وترك أرضهم، ويبين لنا ما لاقاه من صعوبة ومشكلة في دروس الهندسة والحساب والنحو وما لقيه في أول أيامه في باريس من صعوبة حيث لم يكن ينطق اللغة الفرنسية.

ومما لا شك فيه أن السيرة الذاتية لعلي مبارك تعد من أوائل السيرة الذاتية في القرن التاسع عشر بل السيرة الوحيدة التي تمتاز بالخصائص المتكاملة للسيرة الذاتية، وأنه قد كتب هذة السيرة الذاتية بكل صدق وأمانة، و قد صور فيها تصويرا رائعا كل ما رأى أو سمع، وسجل هذه السيرة الذاتية قبل سنوات قليلة من وفاته كما يقول يحي إبراهيم عبد الدايم " أما علي مبارك فقد خلف لنا ترجمة ذاتية هي سيرة كاملة لحياته، إذ كتبها سنة 1889م، قبيل وفاته بأربع سنوات، وأثبت فيها مراحل تعلمه في مصر وفرنسا، وما تولاه من أعمال ووظائف وما أدخله من إصلاحات، خاصة في مجال

[1] المرجع نفسه، ص: 131/130

التعليم في مصر، حتى لتعد ترجمته الذاتية هذه، وثيقة خطيرة في تاريخ التعليم في مصر في العصر الحديث"[1].

وجدير بالذكر أن سيرة علي مبارك قد جاءت بالأرقام والتواريخ والحديث عن أعمال الرى والهندسة مما يبعث في نفس القاريء الملل كما يقول يحي إبراهيم عبد الدايم " لا غرو، فصاحبها هو، أبو التعليم في مصر، وأسلوبها مرسل، متحرر من السجع والتكلف، لكنه لا يخلو من التعثر والقلق في مواضع كثيرة مما يبعد به عن العذوبة والسلاسة اللتين يتوافران للأسلوب الأدبي، ومما يبعدها عن هذا الأسلوب، ما تحفل به من الأرقام، والتواريخ، وأعمال الرى، والهندسة، فتجلب غير قليل من الملل، وقيمتها الأدبية، أقل من قيمتها التاريخية "[2].

ومن الذين كتبوا سيرهم الذاتية في العصر الحديث من أبرزهم رفاعة رافع الطهطاوي صاحب الكتاب " تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، كتبه رفاعة الطهطاوي الذي يعد من قادة النهضة العلمية في مصر في عهد محمد علي باشا، ولد في طهطا سنة 1801م وإليها ينسب، وفيها تلقى علومه الأولى، وفي سنة 1817م وفد على القاهرة، والتحق بالأزهر، ومكث به نحو خمس سنوات أتم فيها دروسه، فلما أتم الحادية والعشرين من عمره أصبح أهلا للتدريس فدرس في الأزهر، وقد كان رفاعة منذ عهده الأول مدرسا ممتازا، فأقبل عليه الطلاب و أفادوا منه، وكانت حلقات دروسه في السنتين التاليتين لتخرجه حافلة دائما بالمستمعين من التلامذة والمشايخ [3]. وفي سنة 1826م اختير عضوا في البعثة العلمية الكبرى إلى باريس لدراسة مختلف العلوم، فأكب على اللغة الفرنسية وقرأ كثيرا من الكتب في الهندسة والعلوم الرياضية والفنون العسكرية والجغرافية والتاريخ، وتمرن أثناء الدراسة على الترجمة، مكث رفاعة ست

[1] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 52

[2] المرجع نفسه، ص:52

[3] السيال، د/جمال الدين، تاريخ الترجمة والحركة والثقافية في عصر محمد علي، ص:120

سنوات وقام بسجل كل ما رآه وقام بتعليق عليه وكذلك دون كتابه الشيهر" تخليص الإبريز في تلخيص باريز" خلال رحلته في فرنسا[1].

تناول الطهطاوي في هذا الكتاب الأمور مما تتعلق بحياته بكل جدية كما أشار يحي إبراهيم عبد الدايم بقوله " فرفاعة يتناول الأمور بجدية شديدة، وعقلية متفتحة للنظر في كل ما هو جديد، والحكم عليه وفقا لما يشير عليه عقله المستنير المتأمل، وإذا "عني" في " تخليص الإبريز " بالقضايا الفكرية، والسياسية والاجتماعية، وشغل بعرضها ومناقشتها على نحو ما سمعه من العلماء والمفكرين الذين كان يداوم مصاحبتهم في باريس أو على نحو ما استخلصه من حصيلة قراءاته حول تلك المشكلات الإنسانية ولذلك، فإن " الذات " في " تخليص الإبريز " كانت محتجبة، لأن " رفاعة " كان لا يستسلم لانطباعاته الشخصية، بقدر ما كان يراعى معالجة ما يشاهده أو يسمعه، ويقرأ عنه معالجة موضوعية ".[2]

وفي هذا الباب نجد اسما بارزا دون سيرته الذاتية بعنوان " خطط الشام " هو محمد كرد علي، الذي ولد في دمشق في سنة 1876م، وكان هو مفكرا سوريا، وكان يعد من رجال الفكر والأدب والصلاح والمدافع عن اللغة العربية، فهو أول وزير للمعارف الإسلامية والتربية الدينية في سورية، وكذلك كان رئيسا لمجمع اللغة العربية في دمشق، أنه قد قام بمساهمة جليلة في صحافة مصر والشام، وأنشأ مجلة " المقتبس" في مصر، وأصدر في الشام جريدة يومية، وأنه ساهم مساهمة في مختلف المجلات العلمية والأدبية والثقافية والاجتماعية، كما ساهم في عالم الأدب والثقافة.

لو استعرضنا ترجمة حياة محمد كرد علي لوجدنا أنه يبدأها من أصل أسرته، ويذكر في كتابه بأنها من مدينة السليمانية، وينسب إلى الأكراد الأيوبية، وقد هاجر جده إلى دمشق للتجارة، وسكن فيها دائما، ومن خلال كتابه ينتقل إلى ذكر ميلاده وتعليمه وتعلمه فيقول " ولدت في دمشق أواخر صفر سنة 1293هـ/ 1876م، من أم شركسية،

[1] محمد الفاروقي وآخرون، تاريخ العربية وآدابها، ص:145

[2] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 71

ولما بلغت السادسة في العمر أخذت بتلقي القراءة والكتابة ومباديء العلوم الإسلامية والحساب والطبيعيات في مدرسة كافل سيباي الأميرية، ونلت شهادتها من الدرجة الأولى، ثم دخلت المكتب الرشدي العسكري فدرست مباديء التركية، وكانت دروس الإفرنسية ناقصة فأتاني والدي بمعلم إلى الدار أخذت عنه نحو هذه اللغة وصرفها على الأصول مدة ثلاث سنين، وبرعت الترجمة من الإفرنسية إلى اللغة العربية وبالعكس"[1].

وبعد دراسة الحياة للشيخ محمد كرد علي يبدو أنه كان صاحب نشاط سياسي ضد السلطنة العثمانية، في إحدى مراحل شبابه فقد لاحقته هذه السلطات واضطرته إلى الهرب من الشام كما يعبر محمد كرد علي عن عواطفه وخواطره قائلا " في شتاء سنة 1323م فتشت الحكومة العثمانية داري في دمشق بحجة أنه علقت مناشير في شوارع البلدة مكتوبة بلغة سلسة، وفيها مطاعن في أحد الأعيان والوالي، ومثل هذه العبارة وهذه الأفكار لا يحسنها ولا يعرفها غيري، فظهر للحكومة افتراء المفترين واكتفت بأن شردتني أياما عن داري "[2].

يعد كتابه القيم الموسوم بـ " خطط الشام " من أهم الكتب في فن كتابة السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، وأن فكرة هذا الكتاب قد ولدت لدى محمد كرد علي إثر النجاح والاستحسان كانا من نصيب تسعة فصول في عمران دمشق، يتناول المؤلف في الجزء الأول من هذا الكتاب تاريخ المنطقة الشامية منذ فجر التاريخ حتى الصليبين ودولة طغتكين وبقايا السلجوقيين، وإذا كان معظم فصول هذا الجزء يتناول الوقائع للتاريخ المعروف، فإن المؤلف يفرد في البداية مقاطع جديدة وغنية يغوص عبرها في تعريف الشام وسكانها ولعاتها قبل أن يتوغل في تاريخها قبل الإسلام، وفي الجزء الثاني يواصل رحلته المشوقة مع تاريخ المنطقة بدءا من الدولة الدورية وصولا

[1] علي، محمد كرد، خطط الشام، الجزء السادس، ص: 334/333

[2] المرجع نفسه، ص: 335

إلى المرحلة المتأخرة من العهد العثماني حتى زمن أحمد الجزار، الجزء الثالث يشمل نهاية الدولة العثمانية[1].

المرحلة الثالثة: تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث

لا يخفى على الدان والقاصي أن مطلع القرن العشرين شهدت فيه الساحة العربية أحداثا متنوعة واضطرابات مختلفة " وأطماعا استعمارية، كفيلة باستثارة وعي الإنسان العربي بذاته، مما ساعد على نمو الشعور بالذات، والإحساس بالفردية التي حثت الأديب على كتابة سيرته الذاتية "[2]. لذلك نرى أن هذا القرن شهد عددا كثيرا من المؤلفات للسير الذاتية والتراجم الشخصية وخاصة في بلاد مصر العربية التي لم تزل ولاتزال تتفوق في هذا المجال بين شقيقاتها الخليجية، يقول شوقي ضيف في هذا الصدد " نمضي في القرن العشرين فنجد كثيرين يترجمون لأنفسهم لا في مصر وحدها، بل في بلدان العالم العربي المختلفة "[3].

إذا قمنا بإلقاء نظرة عميقة على القرن العشرين فيبدوا لنا أن الأدباء والكتاب والقادة الكثيرين توجهوا إلى القيام بكتابة سيرهم الذاتية وتراجمهم الشخصية، ومن الذين دونوا سيرهم الذاتية في القرن العشرين هو أحمد فارس الشدياق الذي كتب سيرته الذاتية باسم " الساق والساق في ما هو الفارياق " كما قلت سابقا، إن هو الكتاب الذي يعده إحسان عباس أول سيرة ذاتية ظهرت في العصر الحديث وفيها حديث عن تنقلات الشدياق وبعض أحواله التي قام بها في حياته، ولكن إحسان عباس يؤكد على أن كتاب " الأيام " الذي كتبه الأديب المصري الدكتور طه حسين هو أول كتاب للسيرة الذاتية بالمعنى الفني في العصر الحديث كما يقول في ذلك " لذلك أرى أن " للأيام " في السير الذاتية الحديثة مكانة لا تتطاول إليها أي سيرة ذاتية أخرى في أدبنا العربي، وخاصة في الجزء الأول منه، لمزايا كثيرة منها: تلك الطريقة البارعة في القص،

[1] مستفاد من (موقع الإنترنت): www.langne_arabe.fr/spip.phpzarticle1305

[2] شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، ص: 74

[3] ضيف، شوقي الدكتور، الترجمة الشخصية، ص: 110

والأسلوب الجميل، والعاطفة الكامنة في ثناياه المستعلنة أحيانا حتى تطغى على السطح، وتلك اللمسات الفنية في رسم بعض الصور الكاملة للأشخاص، والقدرة على السحرية اللاذعة في ثوب جاد حتى تظهر وكأنها غير مقصودة "[1].

وهناك كثير من السير الذاتية والتراجم الشخصية التي ظهرت في الأدب العربي الحديث ولا سيما في القرن العشرين ومنها " أنا " و " حياة قلم " للأديب الألمعي الأستاذ محمود عباس العقاد، أن العقاد كشف فيهما عن مكنونات وداخائل نفسها، فإن كتابيه " أنا " و " حياة قلم " هما أجود وأشهر من أكثر كتبه التي كتبها حول الموضوعات الأخرى، وسيرة ذاتية لطه حسين " الأيام " وهي السيرة الذاتية التي تعتبر من إحدى السير الفنية الجميلة التي كثر عنها الجدل ودونت حولها الدراسات والبحوث النقدية، ومن السير والتراجم للشخصية في القرن العشرين أيضا " سيرة أحمد شوقي المتوفى سنة 1351هـ الذي ترجم لنفسه باسم " مذكرات " والطهطاوي المتوفى سنة 1355هـ الذي ترجم لنفسه في كتابه " الثغر الباسم" ومنها كذلك سيرة ذاتية لأحمد أمين المتوفى سنة 1953م الذي وضعها في كتابه "حياتي"، وخليل الساكاكيني المتوفى سنة 1372هـ هو الذي ترجم لنفسه في كتاب " كذا أنا يا دنيا "[2]. وبعد ذلك كتب إحسان عباس ترجمته الذاتية باسم " غربة الراعي " وكذلك كتب الأديب الشامي السعودي علي الطنطاوي مذكراته باسم " ذكريات علي" وهذه كلها تعد من أحدث السير الذاتية في الأديب العربي الحديث.

وكذلك نجد قائمة طويلة للكتاب والأدباء والقادة والزعماء السياسيين الذين سجلوا انطباعاتهم وخواطرهم ومشاعرهم في أوراق الكتب بأسلوب رائع جذاب، من أشهرهم الأديب المصري العبقري الأستاذ توفيق الحكيم الذي سجل وقائع حياته في سيرته الذاتية بعنوان " سجن العمر" و " زهرة العمر"، وله كتب أخرى تتضمن أحوالها الذاتية وفي طليعتها " عودة الروح "، و"عصفور من الشرق " وغيرها العديد من المؤلفات

---

[1] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة، ص: 131

[2] أبو زيد، بكر بن عبد الله، النظائر، ص: 61/58

والمصنفات ولكن أجود وأحسنها حسب رائي هذان الكتابان له هما " سجن العمر" و " زهرة العمر"، وكتب جبرا إبراهيم جبرا سيرته الذاتية في كتابه " البئر الأولى: فصول من سيرة ذاتية "، وكتب الكاتب المشهور المبدع العلامة يوسف القرضاوي سيرته الذاتية في كتابه المسمى بـ" ابن القرية والكتاب – ملامح سيرة ومسيرة "، وقام بكتابة سيرته الذاتية سلامة موسى باسم " تربية سلامة موسى"، وكذلك هناك سيرة الشباب التي قام بتدوينها الدكتور محمد حسين هيكل في كتاب له المسمى بـ" مذكرات الشباب".

وكذلك نرى في هذا القرن أدباء كثيرين سجلوا انطباعاتهم وخواطرهم في شكل كتاب مستقل نخص بالذكر منهم على سبيل المثال عبد الوهاب المسيري الذي كتب سيرته الذاتية بعنوان " رحلتي الفكرية في الجذور والبذور"، والأستاذ عبد الوهاب المسيري هو مفكر عربي له مؤلفات كثيرة حول الموضوعات المختلفة، وأما في سيرته هذه فيحكي فيها عن نشأته الفكرية في مراحل حياته المختلفة، وأنه يتحدث فيها عن أسرته البرجوجازية ونزعته الماركسية، ثم في الأخير أنه بين انتقاله من بساطة المادية لرحابة الإيمان والإنسانية بأسلوب عميق ساحر سلس، وكما كتب سيرته الذاتية الأستاذ الحائز على جائزة " نوبل " أعني نجيب محفوظ باسم " الثلاثية " و" أصداء السيرة الذاتية "، وقد كتب السيد محمد قطب أحوال مما شاهد خلال الطفولة بعنوان " طفل من القرية " ولصلاح عبد الصبور ترجمة ذاتية في كتاب عنوانه " حياتي في الشعر" وقد كتب لويس عوض ترجمته الشخصية بعنوان " أوراق العمر" وقد قام بكتابة سيرته الذاتية ميخائيل نعيمة في كتابه الشهير بعنوان " سبعون " ولا ريب في هذا الأمر أن هذا الكتاب له أثر نفيس في هذا الفن الكتابي الصاعد، حيث تحدث نعيمة عن رحلة حياته وهي رحلة طويلة ممتعة للغاية يتابعه فيها القاريء على امتداد سبعين سنة كاملة تبدأ من سنة 1889م وتنتهي في عام 1959م.

وعلاوة على هؤلاء الكتاب البارزين نرى عددا كبيرا لا يستهان به من الكتاب الذين قاموا بعمل جليل في فن كتابة السيرة الذاتية العربية بتأليفاتهم الشهيرة من أبرزهم الكاتب والشاعر الفلسطيني إبراهيم نصر الله الذي كتب سيرته الذاتية باسم " السيرة

الطائرة أقل من عدو أكثر من صديق "، وإن السيرة الطائرة واحدة من أروع وأجمل السير الذاتية التي يمكن أن نقرأها، ونجيب الكيلاني الذي كتب مذكراته باسم " مذكرات لمحات من حياتي "، وسهيل إدريس الذي وضع سيرته الذاتية بعنوان " ذكريات الأدب والحب "، وقد سبقت سيرة سهيل إدريس شهرة أدبية واسعة، وتوفيق يوسف عواد هو الذي دون أحوال حياته باسم " حصاد العمر "، وكذلك دون عمر التلمساني أوضاع حياته الكاملة التي شاهدها خلال الطفولة والصبا في كتابه " ذكريات لا مذكرات "، ومنير الغضبان وكتابه الشهير " كشف المستور "، وكذلك وضع عبد الرحمن بدوي سيرته الشخصية في كتاب معنونا بـ" سيرة حياتي "، ومصطفى محمود الذي دون تلك الحياة الشخصية التي قضاها في بلاده وجمع كل أحداثه وأحواله الشخصية في كتاب أسماه " رحلتي من الشك إلى الإيمان"، كما كتب الأديب الفلسطيني إيدورد سعيد باسم " خارج المكان " هكذا صدرت سيرة هشام شرابي بعنوان " الجمر والرماد " وكتب إبراهيم عبد القادر المازني سيرته الشخصية المسماة بـ" قصة حياة " وكذلك اشتهر كتاب " هذه حياتي " للداعي الكبير في القرن العشرين أحمد ديدات، وقد قام عبد العزيز الزيتي بكتابة سيرته الذاتية بعنوان " مذكرات الشهيد" وكتب حماد الحسنات كتابه باسم " ذكريات مرج الزهور" وغيرهم الكثيرون.

وكذلك نرى في هذا المجال الأدباء والكتاب والعلماء الكثيرين والأديبات المسلمات الكثيرات الذين دونوا سيرتهم الذاتية بعنوان مختلف حسب ذوقهم الخاص منهم فدوى طوقان وهي التي كتبت سيرتها الذاتية في جزأين: الأول: رحلة جبلية رحلة صعبة 1985م، وفيه تروي تفاصيل طفولتها وشبابها ونضوج تجربتها الشعرية وتنتهي بالاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية في جزيران 1967م. والجزء الثاني: من سيرة فدوى طوقان بعنوان الرحلة الأصعب 1993م، وفيه تروي عن حياتها وشعبها خلال سنوات الاحتلال الإسرائيلي، وقد صرَّحت فدوى طوقان لرجاء النقاش بأن في حوزتها رسائل، كتبها أنور المعداوي إليها وتكشف عن علاقة حب بين الطرفين، وقد نشرها النقاش في كتاب بعنوان بين المعداوي وفدوى طوقان صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر

1976م، أثار ضجة كبيرة[1]. والسيرة الذاتية المسماة بـ" رحلة جبلية رحلة صعبة "، هي " رحلة فدوى والمجتمع النسوي مع السجن، والسجان، وهي رحلة البذرة التي تشق في الأرض طريقا صعبا، حتى ترى النور، أما الرحلة الأصعب فهي رحلة فدوى، وشعبها مع الاحتلال الصهيوني، وهي رحلة الموت، والشقاء، من أجل استنشاق نسائم الحرية، والاستقلال"[2].

ومما لا شك فيه أن الأحداث هي ركن من أركان السيرة الذاتية ولكل حدث تأثيره في الشخصية التي قامت به، مثلما يؤثر في الشخصيات الأخرى، وقد حرصت فدوى طوقان على سرد الأحداث التي تسلط الضوء على ملامح شخصيتها، أو بعض الشخصيات الأخرى، وتبدأ أحداث السيرة بولادتها عام 1917م، وتنتهي بوفات شقيقها نمر عام 1963م، ومعظم الأحداث في سيرتها هي مواقف صغيرة، تركت بصماتها في شخصيتها، وذاكرتها فدونتها، وفي مقدمة ذلك أن أمها تركتها لرعاية مربية سمرة، وأنها كانت تضربها، وهي تمشط شعرها، وأن أخاها زجرها لأنها كانت تراقب مجموعة من النحل الذي يحوم حول بعض الحلويات، وظن أنها تشتهي تلك الحلوى.[3] وأهم الأحداث التي عاشتها فدوى في المرحلة الأولى من حياتها– دخولها المدرسة ثم حرمانها فيها بعد أقل من أربع سنوات، لأن قلبها خفق لزهرة بل ألقاها إليها في صغير، وهي في طريقها إلى المدرسة.[4]

وإذا قمنا باستعراض السيرة الذاتية لفدوى طوقان لوجدنا أنها قدمت شيئا جديدا هو التعبير عن هموم وأحزان المرأة العربية بصدق وصراحة دون أي خوف أو خجل، فالمرأة العربية لم تكتب هذه الهموم إلا بالرمز والتلميح والإشارة، وجاءت فدوى تبوح بكل شيء في أسلوب بالغ الجمال والعذوبة، وكذلك أنها بينت كل تفاصيل من طفولتها

---

[1] التميمي، أمل، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، ص: 46

[2] شاكر، تهاني عبد الفتاح، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، ص: 94

[3] المرجع نفسه، ص: 96

[4] المرجع نفسه، ص:96

وشبابها ونضوج من تجربتها الشعرية العربية بكل جرأة وتحدي وبصورة واضحة بعيدة عن الغموض والتعقيد، وأن هذه المزايا النادرة تفتقر إليها الكتابات للسيرة الذاتية وخصوصا كتابات المرأة على وجه الأرض.

وهكذا ظهرت كتب عربية عديدة بعد فدوى طوقان في مجال السير الذاتية ومنها ما كتبتها لطيفة الزيات عن سيرتها الذاتية في كتابين هما " حملة تفتيش- أوراق شخصية " و " صاحب البيت " كما كتبت عائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء سيرتها الذاتية بعنوان " على الجسر بين الحياة والموت "، وطبعة أخرى بعنوان " على الجسر أسطورة الزمان "، فهي تذكر أحوال حياتها بأسلوب رائع سلس بليغ وممتعة للغاية، وقد سجلت فيها طرفا من سيرتها الذاتية، بعد وفاة زوجها، وتتذكر فيها طفولتها وصباها القاسية التي عايشتها مع الأسر والأقارب والأصدقاء في جمهورية مصر العربية، كما سجلت خواطرها ومشاعرها وأحاسيسها بفقدان زوجها وتنعيه في كلمات رائعة أنيقة رشيقة. وكتبت نوال السعداوي الملقبة سيمون دي بوثوار العرب سيرتها الذاتية باسم " أوراقي...حياتي" المكونة من ثلاثة أجزاء، فالكاتبة قدمت أحوال نفسها وذاكرتها بطرق متميزة نادرة وأسلوب رائع عميق لا مثيل لها، وكتبت الأديبة المصرية زينب محمد الغزالي الجبيلي سيرتها الذاتية المسماة بـ" أيام من حياتى"، ويعتبر هذا الكتاب وثيقة مهمة وسجلا تاريخيا لحقبة تاريخية مهمة للدعوة الإسلامية، وفيه تفاصيل وأحداث حدثت في فترة ما بين (1964- 1971م)، وتوثيق أسماء بعض رواد الدعوة الإسلامية الذين أسهموا في بقاء بعض التشريعات الإسلامية كالشيخ حسن البناء، وفي سيرتها كذلك صور لمواقف الثبات على المبدأ والدين الإسلامي في حياة الدعاة المعاصرين[1].

وكذلك اشتهر حنا مينه في هذا المجال بسيرته الذاتية وترجمته الشخصية الثلاثية المعنونة بـ" بقايا صور" التي صدرت في عام 1975م، و" المستنقع " في عام 1977م، و" القطاف " التي جاءت لدى الأوساط العلمية والفكرية والأدبية في عام 1986م، ومحمد محمود الصداف بمذكراته " رحلاتي إلى البلاد الإسلامية "، وأمينة

[1] التميمي، أمل، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، ص: 45

السعيد الصحافية المعروفة وإحدى رواد الحركة النسائية في مصر بكتابها " مشاهدات في الهند "، والأديب المصري أنيس منصور بكتابه الشهير " حول العالم في مائتي يوم "، وليلى عسيران بسيرتها الذاتية بعنوان " شرائط ملونة من حياتي"، وليلى العثمان وكتابها المحاكمة: " مقطع من سيرة الواقع " الذي تناولت فيه التجربة التي عاشتها ضد الدعوة التي رفعها عليها الإسلاميون ضد كتابيها الرحيل وفي الليل تأتي العيون، وكذلك اشتهرت هدى شعراوي بمذكراتها، ونبوية موسى بكتابها تاريخي بقلمي، وغيرها من الأعمال السردية الذاتية التى سطرها الأدباء الأفذاذ والكتاب النابغون والشعراء الممتازون والمفكرون البارعون عن مشاهدات حياتهم الذاتية وأعمالهم القيمة وأفكارهم الرائعة وإبداعاتهم الجديدة الشيقة انطلاقا من أن فن السير الذاتية والتراجم الشخصية نوع من التاريخ الفردي الذي يتصل بالتاريخ العام في منطقة الالتماس التي يجاوب فيها لون من ألوان الكتابة للسيرة الذاتية مع ممارسات الواقع المعيشية.

مما لا يختلف فيه اثنان أن أدب السيرة الذاتية في الثقافة العربية الجديدة يعبر عن بعد آخر من أبعاد التأثر بمفاهيم الأدب الأوربى العالمي الحديث وأجناسه الأدبية المختلفة فهو خطوة في سبيل المساهمة في السلسلة الأدبية العالمية، ويلاحظ في العقود الأخيرة ازدياد الانشغال بكتابة السيرة الذاتية من قبل قطاعات واسعة ومختلفة من الكتاب والمثقفين حتى أن مجلة "الهلال" المصرية خصصت خلال تسعينات القرن العشرين بابا شهريا ثابتا بعنوان " سنوات التكوين " ثم جمعت هذه المواد في كتاب مستقل بعنوان " التكوين: حياة المفكرين والأدباء والفنانين بأقلامهم".[1] بفضل هذا الانشغال والنمو والتطور بكتابة السير الذاتية والتراجم الشخصية في الأدب العربي الحديث قد تنوعت الكتابات للسير والتراجم الشخصية وتنوعت أساليب السرد فيها، وأن هذه السير الذاتية العربية تكتب في أكثر الأحيان بصيغة ضمير المتكلم كما نرى على سبيل المثال هذا الأسلوب الأدبي في كتابين شهيرين " رحلتي مع الحياة " و" الذاكرة الموشومة " كتبهما الأستاذ رشاد رشدي، وفي كتاب " في مسيرة الحياة " الذي ألفه

[1] يوسف، محمد، الدكتور طه حسين بصفته مترجما ذاتيا، ص: 30

وصنفه وكتبه الأديب الهندي العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي وغيرها الكثيرة، وفي بعض الأحيان تكتب بصيغة ضمير الغائب كما نرى خير مثال في الكتاب الذي كتبه الدكتور طه حسين باسم " الأيام " وكذلك نرى في تلك السيرة الذاتية التي كتبها الأستاذ سيد قطب باسم " طفل من القرية " وغيرها من الكتب للسير الذاتية التي نجد فيها هذا الأسلوب الأدبي الشيق الأنيق.

إذا قمنا بالنظر والتحليل للسير الذاتية العربية فوجدنا أن السير الذاتية والتراجم الشخصية ليست ذاتية ولا شخصية إلى هذه الدرجة التي يتخيلها البعض من الأدباء والكتاب في العصر الحديث، بل أنها تحويل مرآة ذاتية أو شخصية تنعكس فيها أحوال كاتب السير الذاتية وعلاقته الودية والأخوية مع الأشخاص الآخرين، كما يرى عبد العزيز شرف حيث يقول " إن السيرة الذاتية– وظيفيا– هي تصور الانتقال من مرحلة الاهتمام بالذات إلى فهم العلاقات بالآخرين– أي الانتقال من المركزية الذاتية إلى المركزية الاجتماعية، أي الانتقال إلى مجموعة متشابكة من العلاقات الاجتماعية التي تشتمل على روابط المحبة، وروابط المشاركة، وروابط العمل المشترك والمعتقدات والذكريات المشتركة، والنيات الطيبة المتبادلة بين الفرد ورفاقه من البشر"[1]. وكما كتب إبراهيم عبد القادر المازني في كتابه النادر " قصة حياة" وقال فيه مما قال " ليست هذه قصة حياتي، وإن كان فيها كثير من حوادثها، والأولى أن تعد قصة حياة " يعنى هذا هو يكشف عن ذاته مرآة تتجلى فيها ذوات وصلات الأخرين فهو يقول " أصبحت اعتقد أني أستطيع أن أعرف الناس بنفوسهم إذا وسعني أن أكشف لهم عن عيونهم صورة صادقة– لا مزورة ولا مموهة– من هذا الإنسان الذي هو أنا، والذي هو أيضا كل إمرىء غيري"[2].

فخلاصة القول إن السيرة الذاتية هي فن جميل ترتاح القاريء إلى مواصلة القراءة والمطالعة للسيرة الذاتية التي كانت للرجال أو للنساء، وعندما يقرأ القاريء يجد

[1] شرف، الدكتور عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية،)، ص: 79

[2] المرجع نفسه، ص: 79/78

فيها حكاية حاله حينا وحينا آخر ويجد فيها الأسوة والقدوة ولموعظة العبرة إلى ما يظفر بها من متعة لأن السيرة الذاتية تتضمن تجارب حياة الكاتب أو الكاتبة وتأملاتهما الشخصية الفردية وعلاقتهما مع الأشخاص الآخرين.

الفصل الثالث

أدب السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية

جاء فن كتابة السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية في الوجود في وقت متأخر بالمقارنة مع الدول العربية الأخرى، وأن الباحثين الدارسين المختصين يتفقون على أن المحاولة الأولى من هذا الشكل الفني قام بها هو أحمد محمد السباعي الذي دون سيرته الذاتية بعنوان " أبو زامل" ثم غير عنوانه إلى " أيامي" وكان هذا هو الكتاب الذي كتبه السباعي باعتباره رائدا من السيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي"[1]. ويؤكد على ذلك الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري وآخرون بقولهم " إن أول مغامرة باتجاه فن السيرة الذاتية بمفهومها الحديث تتمثل في " أيامي" لأحمد السباعي، وبطريقة مرتكبة تعزز ما ذهبنا إليه أعلاه، فهذا الكتاب الرائد نشر نصَّه أولاً عام 1372هـ – 1954م بعنوان " أبو زامل " وأراده "تصويرا لحياة جيل كامل" وبعد حوالي عشرين سنة قرر الكاتب أن يضيف إليه بعض المواد المتعلقة بحياته الخاصة وبتطور وعيه وشخصيته ومن نشره في طبعة ثالثة بعنوان جديد يتناسب مع محتوى النص الجديد وذلك عام 1390هـ– 1970م "[2].

ويقول د. محمد إبراهيم الدبيسي في مقدمته الكتاب " السيرة الذاتية لأدباء المدينة المنورة– دراسة نقدية" بأن " الأديب الرائد أحمد السباعي أصدر سيرته الذاتية، بعنوان، (أيامي)، بعد مراحل من المراجعات والإضافات للنص الأصلي (أبو زامل)، الذي كان قد أصدره عام 1374هـ. وبذلك ابتدأ السباعي طرق هذا المسار الفني في الأدب الحديث، على غير مثال سابق مكتمل الأركان في أدبنا الوطني. ثم جاءت سيرة الأديب المديني عبد العزيز الربيع، بعد صدور (أيامي) للسباعي بسبع سنوات، عام

---

[1] Al hazimi Mansour and others, Beyond the Dunes an Anthology of modern Saudi literature . page no. 40.

[2] الأنصاري، الدكتور عبد الرحمن الطيب وآخرون، موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث نصوص مختارة ودراسات، الجزء السابع، ص: 18

1397هـ، وكانت بعنوان: (ذكريات طفل وديع)، وعدت من الأعمال الأدبية الرائدة في هذا الفن"[1].

ومن بعد ذلك لم يزل ولايزال يدون الكتاب والعلماء والرجال السياسيون سيرهم الذاتية أو ترجمة حياتهم بعناوين مختلفة، وعندما ندرس تاريخ الأدب العربي السعودي يبدو لي أن هناك عدد كبير من العلماء الأفذاذ والأدباء الكبار الذين سجلوا انطباعاتهم وخواطرهم ومشاعرهم نخص بالذكر منهم عبد الله السعدون الذي كتب كتابه القيم النادر بعنوان " عشت سعيدا " والأستاذ إبراهيم الناصر الحميدان الذي دون سيرته الذاتية باسم " غربة المكان: صفحات من حياتي"، وسجل الأديب عبد العزيز عبد المحسن التويجري سيرته الذاتية باسم كتاب " حاطب ليل ضجر"، كما كتب الأديب البارع والكاتب المعروف عبد الله بن الخميس سيرته الذاتية بعنوان " شهر في دمشق " و " خمسة أيام في ماليزيا " وكتب أحمد محمد جمال سيرته الذاتية باسم " ذكريات أديب " وكتب الأديب المصقع والكاتب السعودي الأستاذ عبد الكريم الجهيمان كتابين مختلفين يحملان بعنوان "مذكرات وذكريات من حياتي" و " ذكريات باريس" الذي تم إصداره في عام 1980 المصادف 1400هـ، وكذلك سجل سيرته الذاتية الدكتور غازي بن عبد الرحمن القصيبي في كتابين يحملان عنوان " سيرة شعرية " و " حياة في الإدارة " كما أصدر الكاتب الكبير محمد القشعمي سيرته الذاتية في كتاب " بدايات " وأما الأستاذ عبد الرحمن السدحان فقد دون سيرته الذاتية بعنوان " قطرات من سحائب الذكرى " وغيرهم الكثيرون.

ولعل هناك عددا كثيرا من الكتب المهمة التي دون فيها العلماء والأدباء والشعراء سيرهم الذاتية وتجاربهم الشخصية القاسية ولم أقف عليها حتى أن قام الباحثون والمحققون والكتاب السعوديون بدراسات قيمة حول فن السيرة الذاتية فنا ومضمونا وفي مقدمتها ما كتبه الباحث الدكتور عبد الله عبد الرحمن الحيدري في كتابه الهام " السيرة الذاتية في الأدب السعودي" وأن هذا الكتاب هو رسالة علمية قدمها لنيل

[1] الدبيسي، د. محمد إبراهيم، حكي الذات السيرة الذاتية لأدباء المدينة المنورة دراسة نقدية، ص: 09

شهادة الدكتوراه ثم نشرها في شكل كتاب، ونشر بعدها كتابه القيم بعنوان "السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية ببليوجرافيا " ونشر بعده مجموعة من البحوث القيمة في السيرة الذاتية في مقال مكتوب أو بحث في مؤتمر أو ندوة علمية أو حوار تلفزيوني أو إذاعي، وجمع بعض تلك البحوث في كتابه الجديد أسماه " إضاءات في أدب السيرة والسيرة الذاتية: بحوث ومقالات وحوارات" ومنها ما كتبه الدكتور صالح الغامدي بعنوان "السيرة الذاتية في الأدب السعودي" نشرت طبعتها الأولى جامعة الملك السعود الرياض في عام 2013م.

في هذا السياق أرى من المناسب أن أقسم فن كتابة السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية حسب معلوماتي القصيرة المتواضعة إلى ثلاثة مراحل اعتمادا على المواد المتوفرة لدى، وذلك على النحو التالي –

المرحلة الأولى: بداية السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية

يمكن أن تسمى هذه الحقب من الزمان بعصر النشأة والبدايات للسيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي، تمتد هذه المرحلة من الفترة 1391هـ/ 1902م إلى 1373هـ/ 1953م.

عندما نبدأ بمطالعة تاريخ كتابة السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية نجد أنها نعمت بانضمام أجزائها على يد موحد الجزيرة الملك عبد العزيز عام 1925م، ودبّت الحياة نابضة في شتى أمور الحياة، ولم تكن الحياة الثقافية بمعزل عن ذلك، فرأينا الملك عبد العزيز رحمه الله يولي التعليم اهتمامه بإنشاء مديرية للمعارف، ويأمر بإصدار جريدة أم القرى عام 1925م التي تعد أول صحيفة تصدر في العهد السعودي، وتوالت بعد ذلك الصحف والمجلات، فصدرت جريدة صوت الحجاز 1931م، ومجلة المنهل 1936م، وجريدة المدينة 1937م وغيرها، وقد أينعت هذه المنابر الصحفية أدبا وفكرا، ونشأت المقالة وترعرعت، وآتت أكلها، وكان أن ظفرنا بنماذج من المقالات

الذاتية لعدد من الكتاب يعني فيها أصحابها بالحديث عن أنفسهم وتجاربهم، مما يمكن أن نعدها بذور أولى للسيرة الذاتية في أدبنا[1].

وقد ظهرت الجذور الأولى للسيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي على يد محمد سرور الصبان التي ترجم بها لنفسه في عام 1925م ضمن كتابه القيم النادر المسمى بـ" أدب الحجاز" في خمسة عشر سطرا حيث يقول " أنا محمد سرور الصبان، ولدت في أواخر سنة 1316هجرية في إحدى مدن الحجاز– وليس في مكة بالطبع، وتعلمت القراءة والكتابة والتجويد والحساب– فقط لا غير– في جدة ومكة– في المدارس التي كانت موجودة في ذلك الحين وتركتها إلى الحياة العملية من غير أن أتمم دروسي، ولم أكن في حياتي سعيدا قط، بل على العكس كنت معذبا ولا أزال متألما، ولا أدري هل كتب لي في صحيفة القدر أن أتمم ما بقي من عمري كما أمضيت الشطر الأول منه، أو أن هناك حياة سعيدة تنتظرني من وراء حجب الغيب؟ على أني في كلتا الحالتين لا أشعر إلا بالألم، ولا أعيش إلا به، وليس للآمال عندي مجال ولا مطمع... إلخ"[2].

وبعد هذه السطور لا نجد لونا من السيرة الذاتية لخمس وعشرين عاما تقريبا في الأدب العربي السعودي حتى أصدر عبد السلام الساسي بعد إلحاح شديد وإصرار قوي تام من صديقه الحميم كما يعبر عن عواطفه وخواطره قائلاً "ولدت في المدينة المنورة في أوائل سنة 1336هـ وتعلمت القراءة والكتابة في كتاب.. الشيخ محمد بن سالم، وفي عام 1346هـ صحبني أخي... عبد الله الساسي إلى مكة المكرمة فأدخلني مدرسة الفلاح فحفظت القرآن الكريم وجودته إلى أن حزت الشهادة الخاصة بحفظة القرآن... إلخ"[3].

---

[1] أبو معاذ، " نشأة السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية "، **مجلة التلميذ**، العدد05 يوليو عام 2016م، ص: 12

[2] الصبان، محمد سرور، أدب الحجاز، نقلا عن: المقالات: أبو معاذ، " نشأة السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية "، مجلة التلميذ، يوليو عام 2016م، ص: 12

[3] الساسي، عبد السلام طاهر، شعراء الحجاز في العصر الحديث، نقلا عن: المقالات: أبو معاذ، " نشأة السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية "، مجلة التلميذ، العدد05 يوليو عام 2016م، ص: 12

وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية عام 1464هـ/ 1945م تنفس الشعب السعودي- كغيره من الشعوب- تنفس الصعداء فعاودت الصحف والمجلات صدورها عقب التوقف الإجباري الذي فرضته ظروف الحرب، وواصل المواطنون العمل الجاد لمتابعة مسيرة البناء والإصلاح والعطاء لما فيه خير بلادهم وأمتهم، واستقبلت المملكة العربية السعودية أواخر السبعينيات من القرن الماضي وثمانيناته نهضة ثقافية شاملة كبرى على الأصعدة كافتها، فتأسست الإذاعة (1368هـ) وافتتحت كلية الشريعة واللغة العربية بمكة المكرمة كأول تعليم جامعي تشهده البلاد (1369هـ)، وافتتح معهد الرياض العلمي (1370هـ)، وأمر الملك سعود- رحمه الله- بإنشاء مكتبة عامة (1372هـ)، وأنشئت وزارة المعارف (1373هـ) فعممت التعليم في كل مدينة وقرية وهجرة تعليما أفقيا (ابتدائي، متوسط، ثانوي)، فما قامت كلية الشريعة بالرياض عام (1373هـ) وكلية اللغة العربية (1374هـ) بمهمة التعليم الرأسي، إضافة إلى كلية الشريعة واللغة العربية بمكة المكرمة، وفي هذه الفترة وما تلاها بقليل (1372- 1383هـ)، صدرت أحدى وعشرون مجلة وجريدة، كما صدر في هذه الفترة كتابان نقديان مهمان هما: المرصاد لإبراهيم هاشم فلالي (1370هـ)، والتيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية لعبد الله عبد الجبار (1379هـ)، وفي ظل هذا النشاط الثقافي المميز صدرت بواكير كتب السيرة الذاتية لدينا إيذانا بالانطلاقة الأولى نحو التأليف في هذا الفن، مما لم يكن معروفا في العقود الثلاثة السابقة (1344- 1373هـ) إذ لم نرى كتابا واحدا يؤلف في هذا الجنس الأدبي، وإنما هي محاولة متواضعة محدودة لم تتجاوز صورة الترجمة الذاتية الموجزة جدا، أو المقال الذاتي[1].

وفي ظل هذا النشاط الثقافي الأدبي المميز ظهرت البداية الحقيقية للسيرة الذاتية العربية على يد **أحمد محمد السباعي** حين أصدر كتابه القيم النادر المسمى بـ" أبو زامل" عام 1954م. أما الأستاذ أحمد السباعي، فهو الذي يعتبر من رواد الثقافة الأوائل في المملكة العربية السعودية، وفي الحقيقة أن السباعي كان أديبا فذا، وكاتبا

[1] الغامدي، د. صالح بن معيض، والحيدري، د. عبد الله، السيرة الذاتية في الأدب السعودي دراسات نقدية، ص: 247- 249.

كبيرا، وصحفيا لامعا بارزا برز في مجال الصحافة العربية السعودية في المملكة العربية السعودية حتى لقب بـ" شيخ الصحافة العربية في الحجاز"، وكما يعتبر أول من قام بالدعوة إلى كاتبة مسرح عربي سعودي، وكان كتابه " سلم القراءة " يعتبر أول مؤلف عربي يقرر على الطلاب والطالبات للمدارس العربية في المملكة العربية السعودية، وهو الذي يعد من أكبر المؤرخين السعوديين، الذي قام بإصدار العديد من الصحف والمجلات العربية، منح جائزة الدولة التقديرية في الأدب العربي عام 1404هـ واستلم جائزتها من يد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز في حفل أقيم تكريما وتقديرا له في المملكة العربية السعودية.

ولد هذا الكاتب الألمعي في حارة الشامية في عام 1323هـ المصادف عام 1905م بمكة المكرمة، ووالده كان رجلا أميا عمل في مهنة الطوافة في المملكة، ووالدته اسمها "جواهر"، كانت هي أيضا إمرأة أمية، تلقى تعليمه الأولى في الكتاب، وظل على هذا عدة سنوات، حتى بنى الحسين بن على مدارسه في مكة المكرمة وبعض المدن الأخرى، فالتحق الشيخ بالمدرسة المسعى، وحفظ القرآن الكريم في نحو ثلاث سنوات، ثم انتقل إلى المدرسة الراقية في حبل هندي كما يذكر الكاتب عن ولادته وتعليمه وكتابه الذي تلقى منه تعليمه الابتدائي والثانوي، وبعد ذلك قد التحق بمدرسة الأقباط العليا بالإسكندرية، ومكث بها نحو عامين، ثم عاد إلى مكة المكرمة، وخلال هذه الفترة من الزمان فقد والده وهو في سن مبكر، فتحمل مسؤوليات أسرته.

ثم التحق بالعمل الصحفي محررا في جريدة " صوت الحجاز"، ورئيسا لتحريرها، ومديرا للجريدة العربية في العام نفسه، ثم انتقل إلى وزارة المالية حيث عمل فيها مفتشا ماليا، وعمل خلال تلك الأيام سكريترا عاما للإذاعة العربية السعودية عندما أنشئت لأول مرة، ثم ترك العمل الحكومي حوالي عام 1370هـ ، وخلال هذه الفترة كان يعمل في مجال الطوافة، ثم تركه في عام 1368هـ كما كان الشيخ السباعي يشارك خلال هذا الزمان أيضا في الإعداد للنشاط المنبري الذي كان يقام في موسم الحج من كل عام، ويلقي فيه عددا من الخطب العربية، وأنه أسس مطبعة الحرم في أجياد ثم أصدر

منها جريدة " الندوة " في عام 1377هـ ثم أصدر مجلة " القريش " الأسبوعية في غرة جمادى الأولى عام 1379هـ الموافق 1959م، وأن هذه المجلة استمرت في الصدور لمدة أربع سنوات وستة شهور، ثم توقفت عند صدور نظام المؤسسات الصحفية عام 1383هـ/1964م وعند توقف مجلة " قريش " أختير عضوا في مؤسسة مكة المكرمة للطباعة والنشر والإعلام والتي تصدر عنها جريدة الندوة الحالية، كما أنه شارك في عدد كبير من اللجان منها: لجنة دراسة مناهج التعليم، ولجنة الدفاع عن فلسطين، ولجنة تنظيم مكبتة الحرم المكي، كما كان عضوا في جميعة تشجيع الطيران، وعضوا في جمعية الإسعاف الخيري، كما قام الشيخ السباعي بالمشاركة في المؤتمر للأدباء والكتاب العرب في الكويت في عام 1378هـ كما كان له نشاط كبير ملموس في الإذاعة العربية السعودية والتلفاز من خلال بعض الأحاديث التي كانت تذاع له في عام 1395هـ.

قد خلف وراءه ذخيرة علمية حول الموضوعات المختلفة ومن أهمها: المرشد إلى الحج والزيارة، تاريخ مكة (دراسات)، وفلسطين الجن(قصص)، ويوميات مجنون (قصص)، وسلم القراءة العربية، ومطوفون وحجاج (قصص)، وقال وقلت (مقالات)، والأمثال الشعبية في مدن الحجاز، وأوراق مطوية، وسباعيات، ودعونا نمشي، وصحيفة السوابق، فكرة (قصص) وخالتي كدرجان (قصص) وغيرها الكثيرة. وكذلك دون سيرته الذاتية بعنوان " أيامي" وقدم هذا الكتاب في الطبعة الأولى والثانية تحت عنوان " أبو زامل" في عام 1373هـ والموافق عام 1954م، وكان الهدف من ورائه أن يمثل جانبا من سيرته الذاتية وأن يمثل صورا من حياة الجيل الذي كان يعيش معه، لا أريد أن أناقش عنها في هذا الفصل بل سأذكر عن هذا الكتاب، وقيمته العلمية والأدبية والفنية، والعوامل التي تحرض المؤلف على كتابة لسيرته الذاتية، وآراء العلماء المعاصرين وأقوالهم الرشيدة في فصل آخر بكل تفصيل بإذن الله سبحانه وتعالى.

وقد اشتهر في هذا المجال المنوال هو **العلامة أحمد عبد الغفور عطار**، الذي كان أديبا فذا، وشاعرا نابغا، وكان أيضا رجلا اجتماعيا، وشخصية محبوبة لدى العلماء

والأدباء والكتاب السعوديين خاصة، كرس حياته ومواهبه وطاقات نشاطاته العقلية والنقلية، وإسهاماته العلمية والفنية لخدمة البشرية، ويعشق القراءة والكتابة لدرجة كبيرة، وأنه كان يساعد الفقراء والمحتاجين على قضاء حوائجهم الضرورية.

ولد العلامة في منطقة المسمى بـ جبل الكعبة المطل على الحرم المكي الشريف في عام 1334هـ، . ونشأ في حي المسفلة العريق، وكان رغابا إلى القراءة والكتابة منذ طفولته حيث تلقى تعليمه مع بعض الأصدقاء والزملاء من والده الكريم، الذي كان عالما كبيرا بالكتاب والسنة، ودارسا للمذهبي الحنفي، وكان تجار العطور والمنسوجات الحريرية والعمائم. قد التحق بمدرسة الفائزين في السنة التحضيرية، وقد تمكن من حفظ كامل القرآن الكريم على يدي معلمه الشيخ عبد الغفور المقريء، وبعد ذلك أكمل السنة الأولى، والثانية، والثالثة بالمدرسة، وخلال عدة أشهر قد التحق بمدرسة الفلاح، ومدرسة المسعى، وخلال تلك الفترة توفي والده عبد الغفور، وتولت والدته مسؤولية دراسته، وبعد إكمال المرحلة الابتدائية التحق بالمعهد العلمي السعودي الذي أنشأه الملك عبد العزيز، ثم أوفدته الحكومة المملكة العربية السعودية إلى مصر لاستكمال دراسته العليا في كلية دار العلوم بالقاهرة، ولكن أوضاع اقتصاديته اضطرته إلى العودة إلى المملكة العربية السعودية وعلى الرغم من ذلك أنه لم ينقطع عن مواصلة التحصيل العلمي ومتابعة الدراسة والقراءة في كتب الأدب والدين والمختلف المعارف والعلوم العقلية والنقلية وما إلى ذلك من العلوم والفنون الأخرى.

عمل مؤظفا نحو ثلاث سنوات، ثم تحول إلى العمل الصحفي والتأليف والتصنيف، وأصدر جريدة "عكاظ " اليومية في عام 1379هـ/1959م ثم مجلة " كلمة الحق " في عام 1387هـ/ 1967م، ولم يتوقف الشيخ عطار عن التأليف والتصنيف والكتابة في الصحف والمجلات العربية في داخل المملكة العربية السعودية وخارجها. وقد كانت هناك مجلة عربية موسومة بـ " الرسالة " يقوم برئاستها وجمعها وتحريرها بمساعدة زملائه وأصدقائه في المعهد، وحصل على ميدالية البطولة ولقب رئيس التحرير الفخري لجريدة سنترال ديلي نيوز، كما حصل على عضوية المجمع العلمي

السوري وعضوية الثآزر والشرف لذات المجمع، وقد توفي أحمد عبد الغفور عطار في يوم الجمعة الموافق السابع عشر من شهر رجب في عام 1411هـ عن عمر يقارب 77 عاما تقريبا أمضاها في طلب العلم والأدب والمعرفة ومدافعا عن دين الإسلام عن الأعداء للإسلام ووقوفا بجانب الحق الواضح وخدمة البشرية كلها.

اشتغل الشيخ العطار عن نفسه بالتاريخ والسير الذاتية وخلف ورائه آثاره المهمة المتنوعة من الكتب والمقالات والحوارات في هذا الجانب فكتب حول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله أجمعين، كما كتب وألف عن سيرة الملك المؤسس للمملكة العربية السعودية سعود بن عبد العزيز، وكتب عن سيرة المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكتب وألف عن عدة شخصيات كبيرة منها: الهوى والشباب (ديوان شعر) ومحمد بن عبد الوهاب، والخراج والشرائع، وأريد أن أرى الله (مجموعة قصصية) والهجرة (مسرحية) وصقر الجزيرة (في ثلاثة أجزاء) والبيان (نقد أدبي) ومقصورة ابن ديدات (بحث تاريخي أدبي) والإسلام والشيوعية وحرب الأكاذيب، والفصحى والعامية، والإسلام طريقنا إلى الحياة، وآراء في اللغة والزحف على لغة القرآن، والإسلام خاتم الأديان، وبن سعود و قضية فلسطين، والكعبة والكسوة منذ أربعة الآلاف سنة حتى اليوم، و الإسلام دين خاص وعام وغيرها الكثيرة.

وكذلك سجل انطباعاته وخوطره في سيرته الذاتية بعنوان " بين السجن والمنفى" و" عندما اشتغلت بالصحافة ". أما الكتاب " بين السجن والمنفى " يعد من أهم السير الذاتية في الأدب العربي السعودي، أصدره المركز الثقافي العربي في بيروت في أول طبعة رسمية حيث أن العطار كتب كتابه في عام 1936م، وأصدره بصورة غير رسمية في عام 1981م، يبدأ هذا الكتاب بمقدمة قيمة أوضح فيها الكاتب الأوضاع القاسية والصعوبة الشاقة التي واجهها في كتابته خلال سبعة شهور في عام 1936م في سجن الفرن في مكة المكرمة، ثم في سجن المصمك في الرياض، وعندما ثبتت البراءة من التهمة التي اتهم بها وهي الكتابة ضد المملكة العربية السعودية في الصحف والمجلات المصرية آنذاك، فأمر الملك عبد العزيز بإطلاق سراحه من السجن، وعندما أطلق

سراحه من السجن بأمر الملك فيصل بن عبد العزيز، فرح العطار فرحا كثيرا، وشكر الملك شكرا كثيرا، لذلك نرى في مقدمة كتابه " بين السجن والمنفى" يقول العطار وهو يهدي هذا الكتاب إلى الملك قائلا " ولوكان الملك فيصل حيا لأهديت إليه الكتاب، فهو صاحب الفضل في إطلاق سراحي، فهو أجدر من يهدي إليه، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون "[1].

آراء بعض العلماء المعاصرين له عنه

مما لا شك فيه أن الشيخ أحمد عبد الغفور عطار كان عالما إسلاميا، وأديبا فذا، وشخصية جليلة، وداعية شهيرة، ورحالة كبيرة، وكان من المصلحين الربانيين الذين ركزوا جهودهم المتواضعة على النهوض بالمسلمين في العالم العربي، أنه حمل لواء الأخوة الإنسانية، ورفع راية الأمن والسلام في أنحاء العالم كله، أراد بمساعيه الجميلة اصلاح المجتمعات البشرية، وخاطب العالم الإسلامي بأسلوب رائع جميل لا نظير ولا مثيل له، وكما أنه كان محبوبا إلى جميع الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم من أجل ذلك عندما توفي الشيخ عزى به الزعماء المسلمون وزعماء جميع الحركات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على اختلاف مذاهبها ومدارس فكرها، أنه كان يدعو الناس إلى الدين الحنيف الذي جاء به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بأسلوب رصين يقول عنه العالم الكبير الهندي العلامة أبو الحسن علي الندوي " أشهد الله سبحانه وتعالى أني وجدته في كل ما قرأت له من كتاباته، متحمسا في الدفاع عن الدين، وشديد الحب والعظام لمكانة رسول البشرية والسلام صلى الله عليه وسلم، وقد كتب آلاف الصفحات في المواضيع المختلفة ولم ينحرف عن المبدأ، ولم يتجاوز حدود الأدب الإسلامي، ولم يتطرق بموالات الملاحدة والمارقين "[2]. ويقول عنه الملك فيصل بن عبد العزيز " إني أعزك، لأنك أديبنا الكبير"[3].

---

[1] عطار، عبد الغفور، بين السجن والمنفى، ص: 2.

[2] المقلات: بعنوان، الأديب_الصحفي_أحمد_عبد الغفور_عطار www.ikhwanwiki.com/index.php/=title

[3] المرجع نفسه.

وكما كان الشيخ عطار كاتب متعدد المواهب قام بدور فعال مؤثر في الحياة الأدبية والفكرية والإعلامية، وقام بالمساهمة الجبارة في إثراء اللغة العربية والسيرة الذاتية في الأدب السعودي، أنه قرض الشعر وكتب المقالة حول الموضوعات المختلفة كما كتب القصة والمسرحية والرحلات والسير الذاتية، وشارك في ترجمة بعض الكتب الأدبية العالمية، يقول عنه الباحث الدكتور عاصم حمدان " عندما نتحدث عن علم بارز من أمثال أحمد عبد الغفور عطار، فنحن نتحدث عن رمز وقيمة ثقافية، وما أحوجنا اليوم إلى تذكر الرواد من أمثاله، ذلك أن العطار له تاريخ ينبغي أن نعيده ونتذكره نظرا لما أنجزه وقدمه بداية من تأسيس جريدة عكاظ، وانتهاء بمؤلفاته في مجال البحث سواء في التاريخ الإسلامي أو السعودي أو كتاباته عن اللغة العربية وآدابها"[1]. ويقول الباحث الدكتور عبد الله المعطاني في وصف العطار " إن العطار مؤرخا بارزا، وقدم أعمالا بارزة في مجال البحث التاريخي والبحث اللغوي، وهو أحد الرواد الكبار في المملكة، ولعل علاقته بمحمود عباس العقاد انطبعت على شخصيته وهو ما نراه واضحا في مؤلفاته لقد أخلص في البحث والكتابة وكتبه شاهد على ذلك وتكريمه في نادي مكة الثقافي هو تكريم لرمز من رموز الأدب في بلادنا، ولا بد أن تكرم المؤسسات الثقافية لكل الرواد من أمثال العطار"[2].

وقد اشتهر كاتب آخر في هذا المجال وهو الأديب الكاتب الوزير الراحل **السيد حسن محمد كتبي**، الذي يعتبر من جيل الرواد في المملكة العربية السعودية في مجال فن السيرة الذاتية، ولد في شهر شعبان عام 1329هـ بمدينة الطائف ونشأ في مكة المكرمة، حفظ القرآن الكريم، ثم واصل تعليمه والتحق بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة لتلقي دراسة منتظمة، ومدرسة الفلاح مدرسة خاصة تسير على برامج مماثلة لبرامج الدراسة بالأزهر الشريف بالقاهرة، وقد التحق بالقسم العالي المتخصص في دراسة الشريعة الذي أحدثه مؤسس مدرسة الفلاح في بومبائي بالهند وذلك في عام 1348هـ.

[1] صحيفة عكاظ، بتاريخ يوم الثلاثاء 1435/09/11هـ/ 8 يوليو عام 2014م.
[2] المرجع نفسه.

حيث مكث بها ثلاث سنوات، وتخرج من هذا القسم عام 1350هـ، وكانت طفولة السيد حسن محمد كتبي حسب طبيعة الحياة في مكة المكرمة التي ولد فيها وقضى طفولته فيها.

تولى الشيخ حسن محمد كتبي رئاسة تحرير جريدة " صوت الحجاز " في عام 1352هـ بعد عودته من الهند، ثم لم يلبث أن استقال منها، وفي سنة 1353هـ عين مدرسا بقسم تخصص القضاء الشرعي بالمعهد الإسلامي السعودي، وفي سنة 1354هـ عهدت إليه مديرية المعارف أمر تنظيم مدرسة الطائف الحكومية، حيث عين مديرا لها فنظمها على خير ما يرام، وفي سنة 1359هـ عين محررا بديوان الأوراق بوزارة المالية، ثم استقال منها واشتغل في الأعمال الحرة مع شقيقه السيد سامي كتبي[1]. وفي نفس العام انتقل إلى مصر ليشرف على تعليم أولاده في مدارسها حيث قام بتأسيس شركتين سعوديتين تجارتين، وقام بالتأسيس أيضا بطلب من وزير المالية البنك الأهلي السعودي بالقاهرة (مصر) لتنظيم العلاقات الاقتصادية بين المملكة العربية السعودية ودولة مصر الجمهورية عام رجع إلى وطنه وجعل يشرف على أعماله الخاصة به وذلك في عام 1378هـ، وبعد العودة إلى وطنه أسندت إليه وزارة الحج في عام 1390هـ، وفي عام 1393هـ منحه الملك فيصل (وشاح الملك عبد العزيز) من الطبقة الثانية تكريما لجهوده الموفقة في كل مجال من مجالات الحياة، وفي عام منحه وسام " الاستحقاق للخدمة الدبلوماسية وميدالية جوانجهو " بكوريا الجنوبية وكما منحته جامعة سيؤول شهادة الدكتوراه الفخرية في الأدب العربي، كما منح وشاحا أعظم من درجة (النجم اللامع" في جمهورية الصين الوطنية تايوان في عام 1395هـ وكذلك حصل الشيخ كتبي وسام من حكومة ولاية صباح في ماليزيا تقديرا للجهود المبذولة في خدمة الإسلام والمسلمين وكذلك حصل شهادة الدكتوراة في القوانين بباكستان تقديرا وتكريما لجهوده المبذولة في سبيل خدمة الإسلام والمسلمين في العالم كله.

[1] صحيفة المدينة، بتاريخ 2012/03/14 العدد 19487.

يعتبر الشيخ السيد حسن محمد كتبي من الرعيل الأول للأدباء والعلماء والكتاب في بلاد الحرمين والشريفين وله مساهمات كثيرة في عدد كثير من القضايا الإسلامية والقضايا الاجتماعية على سبيل المثال له نشاط مؤثر في قضية الفلسطينية ومحاربة الفكر الشيوعي، وله ذخيرة من المؤلفات المتنوعة في التربية والسياسة والأدب والإصلاح ومن أهمها: كتاب في التربية على قواعد علم النفس، وكتاب السياسة، ونظرات ومواقف، وملامح من شخصية البلاد العربية المقدسة، وسياستنا وأهدافنا، والإسلام لماذا، والإسلام وحقيقة الوجود الإنساني، وشموع على الطريق، ودورنا في رحمة الحياة، وكذلك له كتابين منفصلين حول السيرة الذاتية الأول: بعنوان "هذه حياتي " الذي تم نشره الأول من دار القاهرة للطباعة والنشر والتوزيع في عام 1376هـ/ 1957م، ويشتمل هذا الكتاب على عدة فصول (هذه حياتي، إلى بمباي، الأخذ بالعهد، في غيابة السجن) والثاني: بعنوان " أشخاص في حياتي" الذي صدر في عام 1956م ونشرته صحيفة عكاظ سلسلة بعنوان " حسن كتبي يتذكر" في عام 1998م، كما نشر في صحيفة المدينة سلسلة بعنوان " صفحات مطوية من حياتي" في عام 1995م، يحتوي الكتاب " أشخاص من حياتي " على عناوين فرعية مختلفة داخل عنوانين رئيسيين (في المنزل... في المدرسة... الأخ). وعلاوة على هذا كتب عنه العديد من معاصريه من الأدباء والكتاب في الصحف العربية الدولية والمحلية التي سردت جزءا كبيرا من سيرة ذاته، وقد توفي الشيخ حسن كتبي في المدينة المنورة 8 مارس 2012م وقد دفن بها بناء على وصيته بعد ما قضى فيها سنواته الأخيرة.

آراء الأدباء المعاصرين له عنه

يعد الشيخ السيد محمد حسن كتبي من أكبر الأدباء والعلماء في المملكة العربية السعودية الذي بذل قصارى جهوده لنشر الإسلام والدين الحنيف الخالد إلى يوم القيامة، كما أنه قام بالمساهمة الكبيرة في باب السيرة الذاتية وأن كتابه إضافة في هذا الباب، وعندما نلقي نظرة عابرة على شخصيته المتميزة نجد أن الشخصية المتميزة هي التي وصف بها عدد من الأدباء والكتاب العرب كما يعبر محمد الحميد خواطره ومشاعره

عنه قائلا " الراحل حسن كتبي يعتبر من رموز الأدب والثقافة وقد أثري الساحة الأدبية بعلمه وخدم دينه ووطنه، وقد فقدت المملكة برحيله واحدا من أبنائها الأوفياء المخلصين المتعدد المناقب والمواهب مما يجعل عزاؤنا كبيرا في الأديب الراحل حسن كتبي متعدد المهارات الثقافية والسياسية منذ وقت طويل، حيث ملأت كتبه القيمة المكتبات في الشعر والثقافة "[1].

وكذلك تكتب الدكتورة عائشة الحكمي عن شخصيته المتميزة فإنها تقول في وصف شخصيته الفذة المرموقة " حسن كتبي إنسان مثقف يتمتع بوعي ومسؤولية تجاه العلم والمعرفة وطلاب العلم كاد تكون نادرة، ولقد عرفته منذ أن كنت أعمل على إنجاز بحثي للماجستير عن السير الذاتية للأدباء السعوديين، وكان لي الشرف في التعريف إليه، وقد سعدت بأن أراسله وأتحدث معه عبر الهاتف، وما إن وصلني خبر انتقاله إلى جوار ربه حتى لاح في أذني صوت ذلك المثقف الخلوق والمفكر الوطني النبيل، ثم اتجهت إلى ملف رسائل أدباء بلادي لأعيد قراءة رسالته إلى والتي دائما أمر عليها وأتفحص خطه وكلماته والتي لا أستطيع وصف أهميتها وقيمتها بحق إنه أهم مفكر وطني بكل الأبعاد وخير شاهد خير شاهد مؤلفاته (هذه حياتي- نظرات ومواقف- صفحات مطوية من حياتي) وغيرها من الكتب التي أفصحت عن أفكاره النيرة الإصلاحية المتقدمة.. رحمه الله"[2]. وكما يقول عنه الأستاذ محسن باروم وهو يصف فكرة الشيخ كتبي وآرائه الثاقبة حول الأدب الإسلامي " هو أحد أفراد الرعيل الأول من المفكرين والكتاب الذين أمضوا جل حياتهم في ميادين التوجيه الفكري والتنشئة التربوية لأجيال شعبنا العربي السعودي، وأحد الأدباء الذين أصلوا مفاهيم الأدب الإسلامي في بلادنا بفكره الناضج وثقافته العميقة وتربيته الدينية السليمة ورؤويته الحضارية الشاملة..."[3].

---

[1] صحيفة عكاظ، بتاريخ 1433/02/24هـ/ 18 يناير 2012

[2] المرجع نفسه.

[3] كتاب الإثنينية، عبد المقصود خوجه، حفل وتكريم (جدة: 1404هجـ/1984م).

وقد اشتهر في ميدان كتابة فن السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية الكاتب الكبير **العلامة حمد بن محمد بن الجاسر** الذي ينتمى إلى الكتمة من بنى علي من قبيلة حرب، ولد العلامة في قرية البرود من إقليم السر من منطقة نجد من أب فقير فلاح في عام 1328هـ، ونشأ وترعرع ضعيف البيئة عليلا ولم يستطع أن يحصل على أي مساعدة من أبيه فأدخله في الكتاب من القرية حيث تعلم القراءة وحفظ القرآن الكريم كاملا، ثم في عام 1340هـ، توجه أبوه معه إلى الرياض حيث أنه تعلم قليلا من مباديء العلوم الدينية والفقه الإسلامي والتوحيد، وعاد في عام 1342هـ بعد موت الشخص الذي كان يعيش على كتفه فكفله جده لأمه علي بن عبد الله السالم وكان آنذاك إمام مسجد قرية البرود، وفي 1346هـ ذهب إلى الرياض وواصل دراسته حتى استفاد من مشايخها وعلماءها، وقرأ شيئا من المتون كـ" الآجرومية " لابن آجروم و" الأصول الثلاثة " و" آداب المشي إلى الصلاة " للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكذلك قرأ " ملحة الإعراب " للحريري ثم توجه الجاسر في عام 1348هـ إلى مكة المكرمة، والتحق بالمعهد الإسلامي السعودي، وبعد أن أنهى مرحلة الدراسة في المعهد العلمي الإسلامي بمكة المكرمة توجه إلى الخدمة، وبدأ يعمل مدرسا في ينبع من عام 1353 حتى عام 1357هـ ثم ترك هذه الخدمة وانتقل إلى سلك القضاء فعمل قاضيا في ظبا في شمال الحجاز وذلك عام 1357هـ.

والجدير ذكره أن الشيخ العلامة حمد الجاسر لم ينقطع شوقه وحنينه إلى الحصول على المعرفة التامة بعد أن أنهى الدراسة في المعهد العلمي الإسلامي بمكة المكرمة، بل كان يرغب رغابا شديدا في المزيد من العلوم والفنون حتى وافته الفرصة الثمينة في حياته وسافر إلى جمهورية مصر العربية، والتحق في عام 1358هـ بكلية الآداب في جامعة القاهرة، ولكن الأوضاع الاقتصادية العامة لم تساعده في تلك الكلية في جامعة القاهرة، فتركها قبل أن يحصل على درجتها العلمية والأدبية حيث نشبت الحرب العالمية الثانية واضطرت البعثة السعودية أن يرجع الجاسر من هناك، رجع إلى وطنه وبدأ عمل التدريس فدرس في مناطق عديدة في المملكة العربية السعودية وشغل

في مناصب تربوية مختلفة منها رئيس مراقبة التعليم في الظهران، ثم مديرا للتعليم في جدة في عام 1369هـ وكان أول مدير لكليتي الشريعة الإسلامية واللغة العربية في الرياض، وتوفي الشيخ في 14 سبتمبر عام 2000م.

هذه حقيقة ناصعة لا سبيل لها إلى الإنكار بأن الشيخ الجاسر كان عالما كبيرا، وباحثا مرموقا، و مهتما في اللغة العربية، والتاريخ، والجغرافية، والأنساب، وكان عضوا عاملا في مجمع اللغة العربية في القاهرة والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمان، وكان أيضا عضوا مراسلا في مجمع اللغة العربية بدمشق ومجمع اللغة العربية الأردني في عمان والمجمع العراقي في بغداد والمجمع العلمي في بلادنا الهند، وقد ساهم مساهمة جبارة في ثقافة بلاده، وقد خلف ورائه العديد من الكتب التي تغطى حقولا متنوعة من المعرفة من المصورات الجغرافية والتاريخية إلى أدب الرحلات العربي وكتب السيرة والسيرة الذاتية.

ومن أهم آثاره العربية : كتب في باب أدب الرحلات العربي: " رحلات حمد الجاسر" و" في الوطن العربي" و" إطلالة على العالم الفسيح " و " في سراة غامد وزهران " و" في شمال غرب الجزيرة " وكتب في باب التراجم والسير كتاب " معجم قبائل المملكة العربية السعودية " (في جزءين) و " كتاب البرود " و " جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد " (في جزئين) و" باهلة القبيلة المفتري عليها " وكتب في باب تاريخ البلدان: " بلاد ينبع " و" مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ " كتب في باب التراجم: " مع الشعراء " و" تراجم لبعض شعراء مجهولين " و" ابن عربي موطد الحكم الأموي في نجد " و" رحالة غربيون في بلادنا " وكتب في تحديد المواضع: " المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية " (مقدمة المعجم) جزءان، (قسم شمال المملكة) ثلاثة أجزاء، (قسم المنطقة الشرقية) أربعة أجزاء، وكتاب عن الخيل: " معجم أسماء خيل العرب وفرسانها " وأصول الخيل العربية الحديثة " وغيرها الكثيرة.

وكتب الشيخ الجاسر في باب أدب السيرة الذاتية كتابا قيما أسماه " من سوانح الذكريات "، أما بالنسبة إلى هذا الكتاب فإنه كتاب رائع عبارة عن مذكرات هادئة للشيخ

حمد الجاسر، يتحدث فيه عن فترة مهمة من تاريخ المملكة العربية السعودية ألا وهي فترة تأسيس الدولة، فإن هذه السيرة التي سجلها الكاتب السعودي حمد الجاسر حياته الذاتية نشرتها المجلة العربية ثم جمعها وإعدادها لإدعاة النشر في مجلدين أنيقين بعد وفاة الأديب الأريب حمد الجاسر بإشراف مركز حمد الجاسر الثقافي.

ونجد في هذا المجال **الأستاذ عبد الكريم الجهيمان**، الذي قام بدور فعال مؤثر في مجال التعليم والقضاء والصحافة العربية السعودية والطباعة والأدب والنقد وتأليف المقررات الدراسية في المملكة العربية السعودية، ولد الجهيمان في عام 1912م في قرية غسلة بالقرائن (القرائن اسم يطلق على بلدتي غسلة والوقف كونهما متقارنتان يبعدان عن شقراء حوالي 5 كيلو مترات) بالمملكة العربية السعودية، لأبوين منفصلين، فعاش متنقلا بين قريتي أخواله وأعمامه، عندما بلغ السادسة من عمره دخل كتاب القرية وتلقى تعليمه الأولى من الكتاب في بلدته غسلة، وعندما انقضى عهد الطفولة كان قد ختم القرآن الكريم نظرا وحفظ شيئا منه، ثم انتقل إلى الرياض عام 1925م ودرس لدى مشائخ المساجد لعام واحد، ثم غادر إلى مكة المكرمة في عام 1926م حيث قد التحق بسلاح الهجانة في العام ذاته ولبث فيها مدة عام، ثم انتقل للدراسة إلى المعهد الإسلامي السعودي وذلك بطلب خاص من الملك عبد العزيز، وبعد ثلاث سنوات تخرج من المعهد وانتدب لإنشاء المدرسة النموذجية الأولى في مدينة السيح في عام 1930م.

قد التحق الجهيمان في بداية حياته العملية بالهجانة ثم عمل كونه مدرسا في مدارس مكة المكرمة والمعهد العلمي السعودي، ومدرسة تحضير البعثات، ثم عاد إلى الرياض في عام 1944م ليقوم بتدريس أبناء الأمير عبد الله بن عبد الرحمن كما عمل في مجال القضاء بمكة المكرمة والخرج ثم تولى مسؤولية إدارة التفتيش الإداري في وزارة المعارف، وكذلك عمل في الاستعملات والنشر، وشارك في تحرير الكثير من الصحف والمجلات العربية الصادرة من المملكة العربية السعودية، وأدار شركة الخط للطبع والنشر والتوزيع والترجمة، وكان أول رئيس تحرير لأول صحيفة تصدر في المنطقة العربية الشرقية وهي " أخبار الظهران " والتي تحول اسمها بعد ذلك إلى"

الظهران "، وكذلك عمل كونه مديرا للتفتيش في وزارة المعارف العلمية ثم أصبح مديرا للتعليم الأهلي بالوزارة العربية السعودية حيث أصدر مجلة المالية والاقتصاد.

ولا شك فيه أن الجهيمان كان علامة فارقة في الحياة السعودية وفقا لمجلة " القافلة " التي وصفته بأنه " كان رائدا حقيقيا من رواد الصحافة، وعمودا من أعمدة الكلمة، في الوقت الذي يقف فيه سادنا للأساطير وحافظا للتراث، وحاملا لشعلة التنوير، ومدافعا عن حرية التعبير"[1]. وأنه حصل على العديد من التكريمات تقديرا لمساهماته الجبارة خلال رحلة طويلة مع كتابة الكلمة، وكما حصل العديد من الجوائز والمنح من أهمها: " جائزة وسام الملك عبد العزيز " الذي حصل عليه في مهرجان الجنادرية عام 2001م، وقد توفي الشيخ الجهيمان في 2 ديسمبر عام 2011م، وأنه ألف وصنف العديد من الكتب العربية الأدبية ومن أشهرها هي موسوعة الأساطير الشعبية في شبه الجزيرة العربية (في خمسة أجزاء) وموسوعة الأمثال الشعبية (في عشرة أجزاء) ورحلة مع الشمس، وذكريات باريس، ورسائل لها تاريخ، وكذلك كتب ديوان شعر بعنوان " ابن الطريق " وآخر بعنوان " خفقات قلب " وكذلك كتب سيرته الذاتية بعنوان " مذكرات وذكريات من حياتي".

وأما بالنسبة إلى هذا الكتاب " مذكرات وذكريات من حياتي " فإنه يتناول مقتطفات من حياته حيث يضم مذكرات حياته، وأن الشيخ الجهيمان كان له دورا بارزا من خلال مقالاته الاجتماعية المتنوعة التي كانت مقروءة ومؤثرة على مستوى واسع بين أبناء المملكة العربية وذلك لأنه مما يكتب عن نفسه يكتب بكل صراحة وصدق، وهناك ينشأ سؤال مهم في أذهان كل من يقرأ هذا الكتاب من السيرة الذاتية بأنه لماذا كتب هذا الكتاب الرائع؟ وما هي الدوافع التي تحمله على تدوين قصة حياته؟ وعندما نطالع الكتاب اتضح لنا وجه الكتابة لسيرته الذاتية في مستهل الكتاب حيث يقول الجهيمان " كتبت قد فكرت في كتابة هذه المذكرات عن حياتي منذ خمس سنوات أو ست... ولكنني ترددت في هذا الأمر... قلت لنفسي ماذا يستفيد القاريء من هذه المذكرات...

[1] صحيفة الجزيرة، بتاريخ يوم الإثنين 1436/2/9هـ الموافق 2014/12/1م.

ولكن بعض قرائي طلبوا مني أن أكتب هذه المذكرات... وشجعوني على ذلك... وقالوا إن أي قاريء من قرائك القدامى سيطلع إلى أن يعرف شيئا عن حياتك، وأخيرا استقر رأيئ على كتابة هذه المذكرات... وشرعت في كتابتها منذ سنتين أو ثلاث وأنجزت الهيكل الأساسي لهذا المشروع... ثم أدركني الكسل ونام المشروع وبقي هيكلا عظيما لا حياة فيه ولا روح"[1].

وفي هذا الصدد نحن نرى الشاعر والكاتب **الشيخ حمزة شحاته**، الذي يعتبر من أكبر رواد الشعر الحداثي في الحجاز– المملكة العربية السعودية. ولد في عام 1908 في مكة، حيث كان الشيخ شحاتة يتيم الأب، ونشأ في جدة لدى جاره العم والمربي محمد نور جمجوم، وتلقى تعليمه الإبتدائي في مدارس الفلاح النظامية في جدة، وكان متفوقا في درسه ومتقدما على سنه، وقد أثرت أجواء جدة الانفتاحية في شخصية الشحاته كما فعلت مع بقية أبناء جيله من الشباب في تلك الفترة من الزمان، فقرأ بكتاب التيارات التجديدية والرومانسية العربية في المقر والمهجر، وقد تأثر كثيرا بجبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي، وجماعة الديوان، وأنه قام برحلته إلى الهند وأقام بها لمدة سنتين، وكان مبعوثا لمباشرة الأعمال التجارية لإحدى البيوتات التجارية الجداوية وكان منعطفا تاريخيا في حياته حيث انكب فيها على تعلم اللغة الإنجليزية والتزود بالمعارف والاطلاع على الانتاج الأدبي البريطاني والاستعماري[2].

وجاءت شهرته أمام العلماء والأدباء في المملكة بعد محاضرة قيمة مطولة وشهيرة ألقاها على عنوان " الرجولة عماد الخلق الفاضل " في خمس ساعات متتالية في جميعة الإسعاف الخيري بمكة المكرمة في عام 1940م، وكما اشتهر في الثلاثينات بسجالة الشعري الملحمي مع الشاعر محمد حسن عواد في مكة والذي نشرت أولى فصوله في جريدة البلاد، وفي ذلك الحين انقسم فريق الأدباء الشعراء بين الشاعرين فكان من معاصري الشيخ حمزة شحاتة الأستاذ أحمد قنديل والدكتور حسين

[1] الجهيمان، عبد الكريم، مذكرات وذكريات من حياتي، ص: 7

[2] مستفاد من الموقع : http://www.makkawi.com/Articles/Show.aspx?ID=184

زيدان والأستاذ الشيخ عزيز ضياء والأستاذ محمد علي مغربي وغيرهم الكثير، وهنا تجدر الإشارة إلى أن الشيخ حمزة شحاته كان شديد النفور من الشهرة وعلى الرغم من ذلك قد تأثر به العديد من الأدباء والعلماء الكتبار من أشهرهم الأستاذ أحمد قنديل والدكتور حسين زيدان والأستاذ عبد الله عبد الجبار محمد حسن فقي وعبد الله الخطيب ومحمد عمر توفيق والأستاذ عبد المجيد شبكشي وعبد الفتاح أبو مدين ومحمد سعيد طيب والأستاذ عبد الحميد مشخص والإستاذ عبد الله الخياط والأستاذ الشيخ عزيز ضياء والأستاذ محمد علي مغربي والأستاذ عبد الله الجفري وعبد الله نور والأستاذ محمد صادق دياب وغيرهم الكثير.

ترك لنا آثارا مهمة حول موضوعات شتى منها: الرجولة عماد الخلق الفاضل (محاضرة أخلاقية ونهضوية) وإلى ابنتي شيرين (تحفة في أدب الرسائل الرومانسية) والمجموعة الشعرية الكاملة أو ديوان حمزة شحاتة، وغادة بولاق (ملحمة شعرية كتب مقدمتها الناقد المصري مختار الوكيل، وشجون لا تنهتي (من مطبوعات دار الشعب/القاهرة) حمار حمزة شحاته، إضافة إلى العديد من القصائد والأعمال النثرية الفلسفية والآراء الفكرية التي لا تزال مخطوطة، وكانت موزعة لدى أشخاص محمد نور جمجوم وعبد الحميد مشخص ومحمد علي مغربي محمد سعيد بابصيل. وله كتاب مهم في أدب السيرة الذاتية بعنوان "رفات عقل".

أما هذا الكتاب فإنه يعتبر من أهم الكتب للسيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي، صدر هذا الكتاب في سلسلة الكتاب العربي السعودي التي تنشرها مكتبة دار التهامة للنشر والتوزيع بجدة وذلك في عام 1980م، وقد قام بجمعه الأديب والكاتب عبد الحميد مشخص، وصدر في 104 صفحات، وكتب مقدمته الأستاذ عبد الحميد مشخص، وأنه قد جمع آراء مختلفة للشاعر العربي السعودي حمزة شحاتة، وأن هذه الآراء التي قدمها مهمة جدا، تحدث فيه صاحب السيرة أحوال حياته الفردية وقصة حياته الشخصية بكل صدق وأمانة، يعبر المؤلف عن عواطفه قائلا " يبدو لي أنني أستقبل حياتي، منذ وعيت، حتى هذه الساعة.. كنت أعيش متأثرا بجملة الظروف،

والدوافع، والمقامات.. أسير وأتقهقر.. وأقف.. وأحيانا أعدو بجنون.. وحيث يتاح لي أن أن أتأمل ذاتي، أرى أنني أداة تملي عليها مقدرات حركتها وسكونها.. لم أشعر قط، بتحرير إرادتي.. وحيث بدا للآخرين أنني اكتملت بحكم السن، واتساع أفق التجربة.. وجدت أن ما سمي الإرادة فينا، ليس إلا حاصل ظروف وعوامل ينسحق فيها ما هو ذاتي وداخلي، تحت وطأة ما هو خارجي.. فإن قلت الآن، بصدق، إنني أجهل من أنا.. فلأني لم أستقبل قط، ما أستطيع أن أسميه حياتي.. ولكيلا يعتبر كلامي عن حياتي كلاما يكتنفه شيء من الغموض، أقول.. إني كنت كالجندي الذي قضى أيامه، ولياليه في التدريب والاستعداد لمعركة لم يقدر له أن يخوضها.. أو كالمتعلم الذي قضى شطر عمره للتخصص في مجال معين.. وقضى الشطر الثاني عاملا غير ثابت في كل مجال غير مجال تخصصه.. هذا هو أنا.. وهذا ما أستقبله وأستديره من حياة هذا.." الأنا "[1]. وتوفي في عام 1972م في القاهرة، ونقل جثمانه إلى المملكة العربية السعودية ليشيع مثواه الأخير في مكة المكرمة حيث دفن في 1391/12/15هـ.

آراء بعض العلماء العرب عنه

كان الشيخ حمزة شحاتة أديبا فذا، وشاعرا مرموقا في مكة المكرمة، وكان فيلسوف الحرية في الجزيرة العربية السعودية، كتب عنه الشاعر السعودي محمد حسن فقي في جريدة " المدينة المنورة " عدد 1391/12/15هـ كلمة بعنوان " غربت الشمس " يقول فيها " فوجئت بنبأ وفاة الصديق الكبير الأستاذ حمزة شحاتة منشورا بجريدة البلاد الغراء.. وأذهلني النبأ الفاجع، فلقد كان الفقيد– يرحمه الله– فلتة من فلتات الطبيعة بحق، وكان مفخرة أدبية من مفاخر هذا البلد الثاكل بفقده.. كان إذا تحدث.. أو نظم أو نثر.. نسيج وحده.. وأكاد أقول إنني لم أستمع ولم أقرأ كمثله إلأ في القليل النادر، وما غبطت أحدا قط على ما أوتي بديهة حاضرة، وأدب معجز، وطلاقة مذهلة.. وتفكير

[1] الأعمال الكاملة للأديب الكبير الأستاذ حمزة شحاته، الجزء الثاني، ص: 43

عميق.. ومنطق خلاب.. كغبطي إياه.. كان عزوفا عن الشهرة.. وما كان ليحفل بها، بل كان بها وبمعظم أصحابها من الساحرين"[1].

ويعبر عن عواطفه وخواطره الأستاذ عزيز ضياء بقوله " كان حمزة شحاتة يقرأ ما نقرأ، وصحيح أن ما كان يصل إلى أيدينا من الكتب، كان يصل إليه أيضا، ولكن كيف تأتي ذلك النضج العقلي والفني وهو بين مرحلة الصبا الغض والشباب في فجره دون ضحاه... وكانت مواهب حمزة شحاتة الأدبية في بدء شبابه قد بلغت نضجها واكتمالها، فأخذ يكتب ويحاضر ويتحدث ويحاور، واستوت لغته الأدبية استواء كاملا، ظهرت ملامحه في محاضرته " الرجولة عماد الخلق الفاضل " وكان حمزة شحاتة أديبا بارزا من أدباء المملكة العربية السعودية... وشاعرا مجددا من فحول الشعراء المبرزين الذين عرفوا قدر الحياة فنظروا إليها نظرة فنية تتسم بطابع الفكر والشعور الخيال.. وهو أحد زعماء المدرسة الابتدائية التي تعني بالجوهر، وتأتي بكل جديد مبتكر"[2].

وكذلك نجد من أدباء العرب في حقل أدب السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية **الأستاذ محمد حسين زيدان**، الذي يعد في طليعة المفكرين القلائل السعوديين وأحد أهم جيل الرواد في الثقافة المحلية، ولد في المدينة المنورة عام 1327هـ المصادف عام1914م ونشأ بها، توفيت والدته الحنون عندما كان هو طفلا، فتولت مسؤولية رعايته وتنشئته وثقافته الجدة (ميثاء) وعندما بلغ الثامنة من عمره أدخل في الكتاب حيث تلقى تعليمه الإبتدائي مثل أبناء جيله في تلك الفترة من الزمان، ثم التحق بالمدرسة النظامية الإبتدائية في ينبع البحر، وعاد مرة أخرى إلى المدينة المنورة عام 1337هـ ليلتحق بالمدرسة العبدلية التي سميت فيما بعد بالمدرسة الراقية الهاشمية فنال شهادتها في أواسط عام 1347هـ المصادف عام 1925م، كما تعلم على مشايخ المسجد النبوي الشريف حيث تلقى العلم على أيدي مشايخ الكبار العرب، وكانت القراءة

[1] الأعمال الكاملة للأديب الكبير الأستاذ حمزة شحاته، الجزء الأول، ص: 3

[2] المرجع نفسه.

خير معوان له على بناء شخصيته الأدبية والثقافية، فكان منذ صغره يقرأ بنهم شديد حتى صنعت منه القراءة (أديبا وكاتبا وخطيبا)[1].

بدأ نشاطه الوظيفي بكونه مدرسا في مدرسة دار الأيتام بالمدينة المنورة، ثم تفرغ بعد ذلك للعمل الصحفي، فترأس الشيخ حسين زيدان تحرير البلاد والندوة، وأخير تولى رئاسة تحرير مجلة الدارة التي تصدرها دار الملك عبد العزيز في الرياض، وعمل بكونه مدرسا للتاريخ والمواد الدينية في عام 1346هـ المصادف عام 1927م، ثم سافر إلى بلادنا الهند ومكث هنا حوالي ستة أشهر، وبعد العودة من هنا عين مدرسا للعقيدة السلفية في دار الأيتام، كما عمل سكرتيرا لرئاسة مشايخ الجاوة حتى عام 1360هـ ثم انتقل للعمل محررا مساعدا لرئيس قسم الأوراق بوزارة المالية، ثم تنقل بين عدة وظائف في هذه الوزارة حتى عام 1364هـ حيث انتقل سكريترا لمديرية الحج فمديرا عاما مساعدا فرئيسا عاما لمالية مكة المكرمة، ثم مديرا عاما لشؤون الرياضة ثم مفتشا عاما للحج ثم بعد ذلك عاد مرة أخرى للعمل في وزارة المالية فعين ممثلا ماليا لها في وزارة الداخلية.

وقد اشتهر الشيخ حسين زيدان بلقب زويا الحجاز لاستيعابه الخارق للتاريخ، ولا سيما التاريخ الإسلامي، ولما كان العجوز زيدان يحفل بحكمة الحياة، كان زورب الزحم الفكري، والموسوعة المنتقلة على قدمين، والإنسان الذي لا يعوض، كان زوربا الكاتب المجنح فلم يكن إلا شاعرا ينثر كلماته الموسيقية بين ضلوع الناس، كان زوربا المؤرخ فلم يكن إلا نسابة يعرف أصول وجذور الناس، فيضع التقييم من أجل الحفاظ على القيمة، كان زوربا الكلمة فلم يكن فعليا إلا ذلك الفيلسوف الحيكم إلا أن الشباب كان في روحه ونفسه كقطرات طل، لا تخضع لجغرافية شيخوخته، ولا للجواب الأربع في حياته، بل كانت رؤية العجوز زيدان تتمدد وتعبر المحيطات لأنه يعبر عن إنسانيته[2].

[1] الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد حسين زيدان، (ذكريات العهود الثلاثة)، الجزء الرابع، ص: 5

[2] مستفاد من شبكة: http://www.marefa.org/index.php

كتب الشيخ حسين زيدان العديد من الكتب العربية الأدبية، ومن بعض كتبه الشهيرة : " سيرة بطل "، و "محاضرات عن التاريخ والثقافة العربية "، و " بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة "، و" رحلات الأوروبيين إلى نجد والجزيرة العربية "، و " المنهج المثالي لكتابة تاريخنا "، " ثمرات قلم "، " أشباح ومقالات "، " فواتح الدارة "، " مخلاة الكاتب كشكول القاريء "، و "صور" ، و " كلمة ونصف "، و " قضايا ومقالات في الشرق الأوسط "، وكما كتب سيرته الذاتية باسم " ذكريات العهود الثلاثة " تؤرخ هذه المذكرات لثلاثة عهود وهي العهد التركي والعهد الشريفي والعهد السعودي. ويمكننا القول إن هذه المذكرة لها أهمية تاريخية لأن كاتبها يعتبر من أهم الشهود المعاصرين لهذه الأحداث والتغيرات والتحولات التي جرت في البلاد العربية، وعاصر كاتب المذكرات الشيخ حسين زيدان دخول المدينة المنورة في حكم الملك عبد العزيز، لذلك وثق ما شاهده ورآه عن تلك المرحلة المهمة، ثم استطرد يتحدث عن مجتمع المدينة المنورة وعاداته وتقاليده، وكتاتيبه ومدارسه الدينية وانطلاقها الحركة التعليمية والأدبية والصحافية التي شهدها مجتمع المدينة المنورة والمجتمع السعودي بصورة عامة، كما يقول الأستاذ محمد حسين زيدان " الذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس القصد منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثا عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية، العهد الحميدي، والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال الرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام، ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحبابا يتقاربون وبالعنعنات كثيرا ما يتباعدون.. أكتب هذه الذكريات فيها " الأنا " وإنما كلها الـ " نحن ".[1]

آراء بعض الدارسين المعاصرين له عنه

[1] الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد حسين زيدان، (ذكريات العهود الثلاثة)، الجزء الرابع، ص: 681

كان الشيخ محمد حسين زيدان أديبا، وشاعرا، وناثرا، ومؤرخا، وفيلسوفا، ونسابة، وفقيها، وعلامة في علم الإنسان، وعلم الحديث، ومنابرا للخطابة والمحافل والمجالس، وأنه يعد من طلائع الخطاب الهنضوي في الحجاز، وقد تحدث عنه عدد كبير من الدارسين والباحثين كان منهم الموسيقار غازي على الذي يقول " الرجل هامة تستنير به رؤانا نحن مثقفي المملكة، وكنت أحد قرائه الذين يستمتعون بتمره وجمره ثم إن متعتي وأنا أتابعه والشيخ علي الطنطاوي قبل الأفطار كل يوم قبل أن تداهمنا فضائيات العالم لم تكن تضاهيها متع الدنيا"[1] ويقول العقيد متقاعد شحات مفتي مدير مرور جدة الأسبق الذي ما زالت عضويته الأسبوعية تجمع العسكريين قدماءهم والجدد منهم في منزله العامر في جدة " الرجل رغم عظم مكانته في حياتنا الثقافية والاجتماعية كان متواضعا طيبا (رحمه الله) وأتذكر أنه عندما كنت مديرا لإدارة مرور جدة جاءني يتشفع في استخراج تصريح قيادة لشاب لا يعرفه من قبل.. فجأة دخل علي في مكتبي ففززت ناهضا لاستقباله ليطلب التوسط لهذا الشاب، قلت له لن أسمح لك مجددا بالقدوم إلى مكتبي فإذا أردت مني شيئا أتيتك أنا إلى منزلك في أي طلب لك "[2].

كما يقول الأستاذ عبد المقصود خوجه في وصفه " مما لا شك فيه أن الأستاذ زيدان قد أثرى تاريخنا العلمي بالعديد من مؤلفاته وبالكثير الكثير مما كتبه في الصحف والمجلات، وبأحاديثه في الإذاعة، وبما شاهدناه له من برامج ممتعة في التلفاز، وبما استمتعنا به من خطبه البليغة وبما متعنا به في مجالسه من أحاديث وحوار"[3]. وكذلك يقول عن ذكرياته الأستاذ عبد الكريم محمود الخطيب "وأجمل ما في هذه الذكريات أمانة تاريخية صادقة أوردها أستاذنا وأثبتها لهذه الأجيال القادمة "[4].

---

[1] صحيفة عكاظ، بتاريخ 1433/02/24هـ/ 18 يناير 2012.

[2] المرجع نفسه.

[3] كتاب الإثنينية، (جدة: عبد المقصود خوجه، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1983/02/28م)

[4] الحكمي، د. عائشة يحيى، السيرة الذاتية عند أدباء المملكة العربية السعودية في مرحلة الطفرة، (1390-1418هـ) ص: 158

ثم قد اشتهر في هذا المجال المنوال المفكر الإسلامي الفذ **الأستاذ أحمد محمد جمال**، الذي يعتبر رمزا من رموز الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، وهو الذي كان معروفا بآثاره المتصلة وثقافته الإسلامية الخالصة، وأنه قد أثرى الساحة الأدبية والفكرية والثقافية بالعديد من الكتب المتنوعة، ولا شك فيه أن الشيخ أحمد جمال كان رجل علم وفضل قدم خدماته الجليلة للأجيال المسلمة وقضى حياته كلها دفاعا عن العقيدة الإسلامية وتأصيلا للثقافات الإسلامية الخالصة بين الشبان المسلمين العرب، ولد في عام 1343هـ المصادف عام 1924م بمكة المكرمة، ونشأ بمحلة المسعى في مكة المكرمة، وبدأ دراسته الإبتدائية بمدرسة المسعى التحضيرية، وكان من أساتذته الأستاذ علي حمام الذي درس منه واستفاد منه نحو أربعة سنوات، وبعد أن أنهى دراسته الإبتدائية توجه إلى المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة، وتخرج منها في عام 1359هـ وبعد ذلك قد استفاد من الأستاذ العالم الكبير علوي مالكي حيث درس عنده تفسير القرآن الكريم، وبعده أنه لم يتمكن من إتمام تعليمه العالي، لذلك قد توجه إلى العمل الحكومي، وعمل كونه كاتبا بارعا في إدارة القضاء بمكة المكرمة ،ثم ترك العمل الحكومي بعد عدة سنوات.

وبعد ذلك عمل سكريتيرا لتحرير جريدة البلاد السعودية وكتب ثلاث مقالات في جريدة حول قضية فلسطين، ثم عاد إلى العمل الحكومي مرة أخرى في عام 1372هـ وعين مديرا مساعدا لقسم الثقافة والتعليم بوزارة الداخلية كما عين رئيسا لقسم الجوازات والجنسية بوزارة الداخلية وهكذا عين عضوا في مجلس الشوري بمرسوم ملكي صادر في عام 1375هـ، وقد اختير عضوا في لجنة وضع النظام الأساسي للحكم في عام 1381هـ إلى جانب اختياره عضوا في اللجنة الثقافية لرابطة العالم الإسلامي وعضوا بمجلس الأوقاف والمجلس البلدي بمكة المكرمة في المملكة العربية السعودية، وقد اختير أستاذا للثقافة الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة عام 1387هـ ثم بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وظل مدرسا في هذه الجامعة إلى وفاته، وتوفي في عام 1413هـ والمصادف 1993م بمكة المكرمة،.

ومن الصعب لنا أن نحصر أعمال وإنجازات هذا الرجل العالم الفاضل النزيه والكاتب الكبير فأعماله في نشر تعاليم الدين الإسلامي كبيرة وكثيرة جدا كما أن أعماله الأدبية والثقافية وكتاباته العلمية الإسلامية والصحافية فاقت الآفاق، نحن نذكر هنا بعض الكتب المهمة منها: " أدب وأدباء"، و" استعمار وكفاح "، و" الإسلام أولا "، و" الاقتصاد الإسلامي" ، و" تاريخنا الإسلامي لم يقرأ بعد "، و" الجهاد في الإسلام: مراتبه ومطالبه " ، و" خطوات على طريق الدعوة "، و" الصحافية في نصف عمود " ، و" فكرة الدولة في الإسلام " ، و" في مدرسة النبوة "، و" القرآن الكريم: أحكمت آياته "، و" القصص الرمزي في القرآن الكريم" ، و" قضايا معاصرة في محكمة الفكر الإسلامي "، و" كرائم النساء: أمثلة من أمجاد الأموية "، و" ماذا في الحجاز "، و " مجتمعنا العربي كما ينبغي أن يكون "، و" من كشمير إلى فلسطين "، و" خطر الصهيونية والصلبية على الإسلام "، و" مهمة الحكم المسلم "، و" نحو تربية إسلامية "، و" نحو سياسة عربية صريحة "، و" نساء وقضايا" و" نساؤنا وتساؤهم " و" وداعا أيها الشعر" و" يسألونك " وغيرها.

وسجل قصة حياته بعنوان " قافلة العمر"، كما سجل حياته اليومية في مذكراته بعنوان " ذكريات أديب " وأن هذه الذكريات تمت نشرتها في شكل حلقات استغرقت مدة تسع سنوات تقريبا، وكانت بداية قصة الكتابة ترجع الفضل إلى دعوة من رئيس قسم تحرير مجلة " المنهل " أن يدون الأدباء والكتاب العرب تجاربهم اليومية تأريخا وإفادة للشبان المسلمين القادمين العرب فاستجاب الشيخ أحمد محمد جمال طلبه ثم بدأ كتابة الذكريات التي نشرت بعد ذلك باسم "ذكريات أديب". تحدث فيها الكاتب مراحل متعددة من حياته الأدبية لذلك أسماها " ذكريات أديب" كما أبدى فيها بداياته الأدبية والثقافية والفكرية، وأظهر فيها أدبه ونسبه وأسرته ونشأته وبيئته العلمية التي نشأ فيها، ثم توالت الأجزاء التي قد اشتملت على حياته العلمية والأدبية والثقافية ضمن ذكريات عالم أو حوار مع علماء، كما قدم فيها صورة ومشاهد أخرى متعلقة من حياته الأدبية والثقافية

والفنية، فيمكننا القول إن الكاتب قد تحدث فيها عن أحواله بدءا من نعومة أظفاره حتى وفاته.

وكذلك نحن نرى في هذا المجال في هذه المرحلة من المراحل **الأستاذ محمد حسن فقي**، الذي كتب سيرته الذاتية في كتاب قيم أسماه " السنوات الأولى: ترجمة حياة محمد حسن فقي "، ولد هذا الشاعر والكاتب العربي السعودي في عام 1332هـ الموافق عام 1914م في مكة المكرمة، ونشأ يتيما حيث توفيت والدته وهو رضيع وكان عمره في ذلك الوقت لم يتجاوز سبعة أشهر، وعندما بلغ عمره ستة عشر عاما توفي والده أيضا، وكان عليه أن يعاصر الحياة ليعمل إلى جانب تحصيله الدراسي، وأن يصبح مسؤولا منذ بواكيره الأولى عن عائلة مكونة من أخواته البنات، عاش الشيخ فقي في مكة وتعلم في مدرسة الفلاح، ثم انتقل مع أسرته إلى جدة حيث درس بمدرسة الفلاح أيضا، ثم عاد مرة أخرى إلى مكة المكرمة وأكمل دراسته هناك، وبعد تخرجه من المدرسة عهد إليه وهو في سن مبكرة تدريس الطلبة في المدرسة وكان بعضهم يفوقه عمرا، وكان يدرسهم الخط العربي والجغرافيا والأدب، وحاول وهو الفني اليافع أن يوسع مداركه فانفتح على أعمال الأدباء الكبار كطه حسين وعباس العقاد والمازني وأحمد أمين والرافعي وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمه[1].

عمل الشيخ فقي بصفته أستاذا بارزا للأدب العربي والخط العربي بضعة أشهر بمدرسة الفلاح، وقد قام بالمساهمة الكبيرة في تحرير جريدة " صوت الحجاز " ثم جريدة البلاد، وكان الشيخ فقي يعتبر أول مدير عام لمؤسسة البلاد الصحفية ثم عين رئيسا لتحرير جريدة " صوت الحجاز" ثم توجه إلى العمل بوزارة المالية والاقتصاد الوطني فقضى شطرا كبيرا من حياته متنقلا في وظائفها ثم عين مديرا عاما بها، ثم كان الشيخ حسن فقي عين سفيرا للمملكة العربية السعودية في أندونيسيا. خلف ورائه مآثره الخالدة منها: " المجموعة الشعرية الكاملة " (في 7 مجلدات كبيرة)، و" مطالعات وأفكار في

[1] جريدة الشرق الأوسط، (العدد 9442) بتاريخ يوم الإثنين 19 شعبان 1425هـ 4 أكتوبر 2004

الكتب والحياة " (في جزءين)، و" مذكرات يومية " (في ثلاثة أجزاء)، و " رمضانيات فيلسوف "، و " هذه هي مصر"، و" مذكرات وأفكار حول الحياة"، و " ملحمة شعرية في رحاب الأولمب"، كما أنه سجل سيرته الذاتية بعنوان " السنوات الأولى: ترجمة حياة محمد حسن فقي " (في جزئين)، وهذا العمل الشيق إضافة في باب السيرة الذاتية في الأدب السعودي.

وكذلك نرى في هذه المرحلة من الزمان عددا كبيرا لا بأس به من الأدباء والكتاب والشعراء العرب المشهورين الذين سجلوا سيرتهم الذاتية بعناوين مختلفة ومتنوعة ونخص بالذكر منهم أحمد علي الذي كتب ذكرياته باسم " ذكريات أحمد علي"، وهناك كتاب آخرون منهم عبد الرحمن بكر الصباغ الذي كتب ذكرياته باسم " ذكريات مدرس"، والأستاذ محمد عمر توفيق الذي كتب سيرته الذاتية في شكل كتاب قيم أسماه بـ" 46 يوما في المستشفى"، والأستاذ عبد القرعاوي الذي كتب سيرته الذاتية باسم " ذكريات نصف قرن "، وكذلك نجد في هذه المرحلة من الزمان الأستاذ عزيز ضياء الذي دون قصة حياته الشخصية في شكل كتاب أسماه " حياتي مع الجوع والحب والحرب " (في ثلاثة أجزاء)، وأن هذا الكتاب هو الذي سيكون موضوعنا البحث لذلك نحن لا نريد أن نبحث عن الكاتب والكتاب في هذا الفصل بل سنناقش عنه في باب آخر بقدر من التفصيل.

المرحلة الثانية: نمو السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية

تمتد مرحلة نمو السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية من عام 1374هـ المصادف 1954م إلى عام 1390هـ المصادف 1970م. وعندما قمنا بإلقاء نظرة عميقة على هذه الفترة من الزمان نجد أن هذه الفترة قد أنجبت بعض أهم الكتاب والأدباء والمؤلفين المعروفين الذين قاموا بمساهمة في حقل أدب السيرة الذاتية، وبذلوا قصارى جهودهم المتواضعة في اكتشاف المعلومات الهامة، وقد سجلوا تجاربهم الموسعة في شكل كتاب قيم معروف في باب أدب السيرة الذاتية في المملكة، وهم كثيرون، ومن أبرزهم **الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري**، الذي قد اشتهر في

مجال أدب السيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي، وأما بالنسبة إلى ملامح من حياته الشخصية فهو أديب سلفي وأديب سعودي، ولد في مدينة شقراء بمنطقة نجد من المملكة في عام 1357هـ، تلقى تعليمه الإبتدائي في شقراء، وحصل بعدها على شهادة الثانوية العامة من معهد شقراء العلمي، ثم التحق بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وتخرج من كلية الشريعة، ثم واصل تعليمه، والتحق بمعهد العالي للقضاء بالرياض، وحصل على شهادة الماجستير في علم التفسير، عمل في إمارة المنطقة الشرقية بالدمام، ثم في ديوان الموظفين العام.

ترك الشيخ ابن عقيل الظاهري لنا ذخيرة من الكتب العربية الأدبية ومنها: " من أحكام الديانة "، و " تخريج بعض المسائل على مذهب الأصحاب "، و " تباريح التباريح "، و " تخريج حديث (لا صلاة للفذ خلف الصف) و " تحقيق بعض المشكل من حديث " (الصيام جنة) و " كيف يموت العشاق " و " نظرية المعرفة " و " المرأة " و " ذئاب تخنق ولا تأكل " وغيرها كثيرة.

وكتب الشيخ ابن عقيل الظاهري أيضا سيرته الذاتية بعنوان " شيء من التباريح "، وفي الواقع أن هذا الكتاب مجموعة مقالات نشرها الشيخ في أوقات متفرقة عن ذكرياته وحياته وأحداثه التى مر بها ثم جمعها في شكل كتاب سماه " شيء من التباريح " ، والكتاب وضع فيه الشيخ بعضا من تجاربه الحية والأحداث التي مر بها في حياته العامة والخاصة، تحدث فيه الكاتب عن شيء من التباريح التي كتبها في هذه الزاوية، وتحدث في البداية عن قرار فصله من المجلة وتأثيره عليه، ثم أردف الكاتب بقصيدة طريقة لغازي القصيبي وسعد العوفي حول نفس موضوع المقالين السابقين ثم يتوجه إلى سرد بعض الذكريات الحية الطريفة التي شاهدها في حياته خاصة عند رقابة التلفاز ومالاقاه من العنت فيها، ثم يتحدث عن بعض الشؤون الثقافية والاجتماعية، كما يتحدث وهو ينتقد بعض الشعراء الذين قرضوا الشعر العربي في عصره، كما يبين أمام القاريء بكل صدق وأمانة عن تجربته المرة في ترك التدخين ومعاناته الشديدة.

وقد ظهر اسم بارز في هذا المجال وهو **الشيخ عبد العزيز بن محمد علي الربيع** (1926– 1981)، الذي ولد في المدينة المنورة، ونشأ بها ومصر، وتلقى التعليم الإبتدائي في مدارس المدينة المنورة حيث حفظ القرآن الكريم، ثم توجه إلى مكة المكرمة لمواصلة التعليم حيث أكمل تعليمه الثانوي في عام 1326هـ، وفي عام 1364هـ قد انتقل إلى مصر، والتحق بكلية دار العلوم (جامعة القاهرة) حيث حصل على شهادة البكالوريوس في اللغة العربية والدراسات الإسلامية، ثم على دبلوم في التربية من الكلية نفسها في عام 1370هـ، وبعد العودة من مصر إلى وطنه عمل بصفته مفتشا لمدارس منطقة المدينة المنورة ثم مديرا للتعليم بمنطقة المدينة المنورة منذ عام 1374هـ حتى وفاته عام 1402هـ.

قام الشيخ الربيع برئاسة لجنة المملكة لمؤتمر الدراسات الاجتماعية الخاص (عمان والأردن) وقد قام بالمشاركة في مؤتمر الوزراء العرب للتربية والتخطيط (طرابلس وليبيا) كما قد قام بالمشاركة في مؤتمر اليونسكو (باريس) في عام 1974م، وقد قام بالمشاركة في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي نظمته جامعة الملك عبد العزيز بجدة وفاز في هذا المؤتمر على الميدالية الذهبية وعلى براءة الريادة في النقد الأدبي باعتباره رائدا من رواد الأدب العربي في المملكة العربية السعودية، وكان الشيخ الربيع عضو لجنة تأسيس كلية التربية بالمدينة المنورة التابعة لجامعة الملك عبد العزيز، كما أنه قام بالمساهمة في عدد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية وكان له نشاط أدبي بارز في النقد الأدبي.

قد خلف الشيخ عبد العزيز بن الربيع ورائه كتبا كثيرة حول الموضوعات المختلفة منها: " دراسة مطولة عن ديوان قدر ورجل "، و" الخلق الفاضل في صدر الإسلام " (تأليف مشترك)، و" دراسة من ديوان همسات قلب "، و" التربية عند العرب قبل الإسلام "، و" المدينة المنورة – دراسة وصفية ومختصرة "، و" الفنون التعبيرية "، و"مناقشات ومناوشات "، و" صور وملامح "، و" كتب ومؤلفون" و " قصائد في حياته "، و" رعاية الشباب في الإسلام"، كما شارك في عدد من المؤتمرات داخل المملكة

وخارجها، منها : مؤتمر المعلمين العرب– الإسكندرية، مؤتمر الوزراء العرب للتربية والتخطيط– ليبيا، مؤتمر اليونسكو– باريس، المؤتمر الثاني عشر للكشافة العرب– تونس، المؤتمر الأول للأدباء السعوديين–جدة، وتقديرا وتكريما لجهوده الثقافية والعلمية والأدبية فقد نال الميدالية الذهبية من جامعة الملك عبد العزيز بجدة باعتباره أحد الأدباء الممتازين الفائقين في المملكة العربية السعودية، كما له كتاب رائع جميل حول فن كتابة السيرة الذاتية باسم " ذكريات طفل وديع " وكانت له أيضا مؤلفات مخطوطة في النقد والتراجم والتربية، وعشرات المقالات نشرت في المجلات العربية السعودية.

أما الكتاب " ذكريات طفل وديع" للأستاذ عبد العزيز الربيع فهو يعد من أهم انتاجاته الأدبية التي دونها بعد تجربة شديدة من حياته، يقع الكتاب في مئتين وخمس وثمانين صفحة، وقد تم طبعه الأولى في عام 1397هـ– 1977م، و وقد تم طبعه الثاني في العام الذي توفي صاحب السيرة أي في عام 1402هـ، جاء الكتاب في عدد كبير من المقالات القيمة التي كتبها في الجرائد والصحف والمجلات المختلفة الصادرة من المملكة وخارجها، وكل من هذه المقالات النادرة يدور حول أحداث متنوعة ما مر بها صاحب السيرة خلال الطفولة والصبا، عندما نطالع هذا الكتاب يبدو لنا أحيانا تكمل بعضها بعضا وأحيانا تبدو مستقلة ولكنها تدور حول محور رئيسي واحد وهو حياة صاحب السيرة الذاتية منذ كان طفلا صغيرا في الكتاب والمدرسة إلى أن أنهى دراسته فيها، تدور المقالات من هذا الكتاب حول ثلاث موضوعات وهي: الحرم النبوي، والمنزل والمجتمع، ثم المدرسة في المدينة المنورة.

آراء بعض النقاد المعاصرين عن الكتاب

يعبر الأستاذ بكري شيخ أمين عن عواطفه وخواطره حول الذكريات في إطار السيرة الذاتية قائلا " يخيل إلينا أن عددا من العوامل دفعتني إلى الشهادة الطبية في الكتاب، منها ما هو خارج عن الكتاب ذاته، ومنها ما هو متصل به اتصالا مباشرا، فالكتاب أولا تأليف في السيرة الذاتية وهو مجموع ذكريات لطفل وديع وهذا الطفل هو عبد العزيز الربيع، وحديث الذكريات خليق أن يجذب القاريء ويشدّه ما بقي الكاتب

يكتب"[1]. وكذلك ذكر جواد الطاهر دخول هذا الكتاب في إطار السيرة الذاتية حيث يقول " لو عاش لكتب ذكريات الكهل وذكريات الشيخ وكان لديه الكثير من شؤون الحياة والفكر والعلم والأدب مما يقوله "[2].

وجاء اسم بارز في هذا المجال هو **الأستاذ زاهر بن عواض الألمعي**، الذي يعد من أعظم العلماء الأفذاذ في المملكة، وكان هو عضو جمعية حقوق الإنسان وعضو سابق في مجلس الشوري السعودي في دورته الأولى، ألف هذا الأديب عددا من الكتب العربية، وله العديد من الدواوين الشعرية، وله اهتمامات متنوعة بالدراسات الإسلامية والتاريخية، وله مساهمة جليلة في المؤتمرات والندوات والاجتماعات داخل المملكة وخارجها، ولد في عام 1354هـ لمحافظة رجال ألمع بمنطقة عسير، ودرس فترة قصيرة بالكتاب، ثم قام بالسفر إلى مدينة جيزان، والتحق بالجندية وقد بدأ حياته بكونه جنديا في عام 1370هـ، وأنه التحق بمعهد شقراء العلمي في عام 1377هـ، وتخرج منه عام 1381هـ، ثم التحق بكلية الشريعة بالرياض، وحصل على شهادة الليسانس من هذه الكلية في سنة 1386هـ، كما حصل على شهادة الماجستير والدكتوراه من جامعة الأزهر بمصر عام 1389هـ وكان موضوعه في الماجستير " النسخ في القرآن الكريم "، وكان هو أول رجل سعودي حصل على درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر في عام 1393هـ وكان عنوان الدكتوراه بجامعة الأزهر" مناهج الجدل في القرآن الكريم".

وأما حياته العملية الوظيفية فهي نموذج يحتذي في العمل الدؤوب والنشاط المتجدد تقلب في مناصب علمية وإدارية عديدة، جلها في مجال التدريس والتعليم ابتداء من المرحلة الإعدادية والثانوية وانتهاء بالجامعة، فقد عمل مديرا لمعهد نجران العلمي ست سنوات، ثم انتقل للتدريس في كلية الشريعة بالرياض، فعميدا لشؤون المكتبات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمدة ست سنوات، فأستاذا في الدراسات العليا بكلية أصول الدين في الجامعة نفسها، فعميدا لكلية الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة

---

[1] الحكمي، د. عائشة يحيى، السيرة الذاتية عند أدباء المملكة العربية السعودية في مرحلة الطفرة (1390-1418هـ)، ص: 139

[2] المرجع نفسه، ص: 139

الإمام محمد بن سعود بأبها، وكان قد انتدب لفترة وجيزة من قبل وزارة التعليم العالي للعمل في الملحقية التعليمية بكندا، وآخر ما تقلده من المناصب عمله عضوا في مجلس الشوري، كما أنه عضو في لجنة الشؤون الإسلامية بالمجلس[1].

وإذا تطرقنا إلى جهوده العلمية والأدبية نجد أنها غزيرة ومتعددة الجوانب والحديث عنها ذو شجون منها كتب ومؤلفات وبحوث علمية أكاديمية ومنها ما هو محاضرات ومقالات أدبية وثقافية وفكرية، ومنها ما هو ندوات متخصصة، ومنها ما هو مساهمات ثقافية وعملية في وسائل الإعلام بأنواعها من صحافة، وإذاعة، وتلفاز، ومنها مشاركات فعالة في المؤتمرات واللقاءات العلمية والتعليمية داخل المملكة وخارجها، ومنها مقابلات صحفية حول الفكر والأدب ومنها أمسيات شعرية في مختلف المنتديات الأدبية والعلمية داخل المملكة العربية السعودية وخارجها.[2]

وقد ترك لنا ذخيرة علمية أدبية كثيرة منها: " مناهج الجدل في القرآن الكريم "، و " دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم"، و" تحقيق كتاب " (استخراج الجدال من القرآن الكريم) لعبد الرحمن بن نجم المعروف بابن حنبلي، و " مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بزينب "، و " علوم القرآن الكريم دراسات جامعية "، و " مع الشباب في تنمية القدرات والمواهب" وله دواوين شعرية منها: " على درب الجهاد" (ديوان شعر)، و " الألمعيات" (ديوان شعر)، و " من نفحات الصبا" (ديوان شعر)، وكما له بحوث ودراسات منها: آثار الحج في ترابط الأمة الإسلامية ومكتباتنا الإسلامية ورحلة مع الشاعر عمر بهاء الدين الأميري وحوار وردود أدبية وإلى متى هذا الزيف ورحلة الثلاثين عاما، وأما الكتاب " رحلة الثلاثين عاما " فيعتبر من أوليات الكتابات من السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية.

ومن أبرز الأدباء والكتاب الذين سجلوا سيرتهم الذاتية هو **الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين**، الذي يعد من رواد العمل الثقافي بالمملكة العربية السعودية، وهو الذي ولد

---

[1] كتاب الإثنينية، حفل وتكريم للأديب الدكتور زاهر بن عواض الألمعي بتاريخ 1417/07/21هجـ/ 1996/12/02م).

[2] المرجع نفسه.

في مدينة " بنغازي بليبيا " في عام 1344هـ، ونشأ بها وحفظ في أحد كتاتيب مسقط رأسه من القرآن الكريم من سورة الناس إلى سورة الحج، ثم هاجر إلى المدينة المنورة، والتحق بمدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة حيث درس فيها المرحلة الابتدائية ثم دخل غمار الوظائف الحكومية في إدارة الجمارك من عام 1366هـ إلى عام 1383هـ، وبعد الحصول على العلوم الإبتدائية والعليا شغل منصب النادي الأدبي الثقافي بجدة حيث أن النادي الأدبي شهد في عصره نشاطات وإسهامات متنوعة، وقد ساهم مساهمة جبارة في إصدار عدد من الدوريات الشهيرة على مستوى العالم العربي كجذور الخاصة بنقد الثراث العربي ونوافذ الخاصة بالترجمة للأعمال الأدبية والفنية، كما أصدر صحيفة " الأضواء " بالاشتراك مع السيد سعيد باعشن عام 1377هـ، وفي عام 1379هـ أصدر مجلة " الرائد " حيث استمرت إلى عهد المؤسسات ثم احتجت، وعمل متعاقدا مع وزارة الخارجية في سفارة المملكة العربية السعودية بليبيا، كما أنه عمل بكونه مديرا في إدارة صحيفة عكاظ في عام 1391هـ وأصبح مديرا للعدد الأسبوعي من صحيفة عكاظ في عام 1393هـ كما عين مديرا لإدارة البلاد للصحافة والنشر في عام 1396هـ، كما أن الشيخ مدين اختير عضوا منتدبا لمجلس الإدارة بعد إنشاء دار البلاد للطباعة والنشر في عام 1402هـ لمدة ثلاث سنوات وفي العام نفسه اختير رئيسا لنادي جدة الأدبي الثقافي.

ومن مؤلفاته الشهيرة، " في معترك الحياة " (دراسات أدبية)، و" تلك الأيام" (تجربة صحافية)، و" أمواج وأثباج " (نقد أدبي)، و" الصخر والأظافر" (دراسات نقدية)، و "حمزة شحاتة ظلمه عصره" (قراءات تأملية)، و " هؤلاء عرفت"، و " أيامي في النادي"، و" لن أسافر"، ودون مذكراته بعنوان " حكاية الفتى مفتاح ". يبدأ هذا الكتاب بمقدمة شيقة من الأديب الناقد الدكتور عبد الله بن محمد القدامى حيث يكتب في مستهل الكتاب " صنع من الإخفاق نجاحا ومن ايضاح هوية ومن الجوع رغبة في العلم والمحبة والعمل، لا تشبع في حياة أبو مدين فهو لا يرتوي ولا يقنع وهونهم للعمل

ومزيد من العمل وموالاة العمل بالعمل، هذه هي الصورة التي تترسخ في ذهن كل من عايش هذا الرجل الصدوق الصادق "[1].

كما نرى في هذه الفترة من الزمن الكاتبة والأديبة **سلطانة عبد العزيز السديري**، التي تعد من رائدات الحركة النسائية في المملكة، لها ريادة في عدة مجالات، ومن أهمها ملتقاها الثقافي الشهري حيث تعد هذه الأميرة سلطانة أول من أنشأت صابونا ثقافيا نسائيا في المملكة العربية السعودية ولا سيما في الرياض، وكذلك تعد هي أول من أصدرت ديوان شعر في منطقة الخليج والجزيرة العربية في عام 1956م، وأول من أقامت أمسية شعرية، في دولة الكويت، وأن الأميرة لها أعمال متنوعة فهي من أوائل مؤسسات الجمعيات الخيرية النسائية وعلى رأسها جمعية الوفاء النسائية، وكذلك لها أعمال في مجالات العناية والرعاية لثقافة الأطفال، وقد صدر لها العديد من الدواوين والمؤلفات العربية الشهيرة ومن أمثال " ديوان عبر الصحراء 1376هـ "، و" ديوان سحابة بلا مطر"، و" ديوان قهر الكويت "، و" الحصان والحواجز"، و" ديوان عيناي فداك"، و " مجموعة قصصية" (صورة من المجتمع) و " بين العقل والقلب " (مجموعة مقالات)، و" ديوان على مشارق القلب " وكتبت سيرتها الذاتية بعنوان "مذكرات كاتبة" بأسلوبها الرائع الشيق.

وكذلك قد اشتهر في حقول عدة ولا سيما في حقل فن كتابة الترجمة الشخصية **الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر**، الذي يعد أول شخص سعودي حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة لندن كما أنه يعتبر عميد الوزراء السعوديين، وكان هو الذي عاصر من ملوك المملكة العربية السعودية بدءً بالملك فيصل إلى الملك عبد الله بن عبد العزيز، ولد هذا الأديب المصقع والكاتب الفذ بمدينة "عنيزة " بمنطقة " القصيم " بالمملكة العربية السعودية، وتلقى جزءا من دراسته الابتدائية بمدينة عنيزة وجزءا من دراسته الثانوية في المدرسة السعودية الابتدائية، والمعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة، وتخرج منها حاملا لشهادته الثانوية عام 1365هـ، وحصل على الليسانس من

[1] صحيفة الجزيرة، بتاريخ 30 رجب 1426هجـ العدد 12029.

دار العلوم بجامعة القاهرة عام 1371هـ، وعلى الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن في عام 1380هـ، وعين في العام نفسه 1380هـ الذي حصل فيه على شهادة الدكتوراه من جامعة لندن أمينا عاما لجامعة الملك سعود، ثم وكيلا لها، ودرس إلى ذلك تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب، وانتقل من الجامعة رئيسا لديوان المراقبة مدة عامين تقريبا، ثم وزيرا للمعارف– التربية والتعليم– ثم وزير دولة وعضوا في مجلس الوزراء[1].

وكان للدكتور الخويطر عبر رحلته الوزارية والإدارية رحلة مشرفة أخرى، هي رحلة بصحبة الكلمة والإبداع الأدبي والإنتاج التأليفي باعتباره رجل علم وثقافة وأدب نهل بوعي عميق معرفيا وثقافيا من معين الحياة الإدارية ومدارسها وقنوات الثقافة التي عاصرها برؤية مسؤول أمين، وأديب مرهف الحس، ومبدع نابغ، فدبجت براعته كثيرا من المؤلفات التاريخية والأدبية التي تبلغ الثلاثين مؤلفا من بينها: كتابه الشهير " الدسم المادة "، و" الغزير النفع "، و" الكبير التأثير في عقلية الشباب العربي" الذي عكف على قرائته والاستفادة منه والتشبع بالرسالة التي يحملها وهو " أي بني" وقد قارن فيه المؤلف بين الماضي والحاضر[2].

وكذلك أن الشيخ عبد العزيز الخويطر أودع رسائل قيمة إلى الشباب بكلمة صادقة نابغة ورؤية ثاقبة أحكمتها التجارب المتصلة التي عاشها في ميادين المعرفة ودراسة التاريخ والتراث الإسلامي الثقافي كما يقول عن نفسه " أي بني... لن تجد أنصح لك مني فالابن بضعة من أبيه وفلذة كبده التي يطربها ويسعد بسعادتها، فاسمع نصحي تسلك طريق النجاة، يا بني! إني محدثك عن حقيقة مذهبك ومصدقك الخير، اعلم يا بني! أن دينك ليس كبقية الأديان، بل هو مزيج منها جميعا فالليهودية نصيب منه، وللنصرانية حظ منه، وللمجوسية أوفر الحض والنصيب، فأخذ من اليهودية الحقد

---

[1] الأميني، نور عالم خليل، مقالة " أديب العربية الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر" المنشورة في مجلة " الداعي" (2014 العدد) بتاريخ ذي الحجة 1435هـ المصادف أكتوبر 12 السنة 38 ص: 46

[2] المرجع نفسه، ص: 46

والكراهية، وأخذ من النصرانية الشرك والحلول والسذاجة ومجالفة العقول، وأخذ من المجوسية عبادة الذات وتقديس البشر"[1].

خلف ورائه كتبا عديدة حول موضوعات شتى ومن بعضها: " الشيخ أحمد المنقور في التاريخ "، و" عثمان بن بشر"، و" الملك الظاهر بيبرس" (باللغة العربية والإنجليزية)، و" تحقيق كتاب " (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر)، و" تحقيق كتاب (حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية) لشابع بن علي، ومن حطب الليل (جزءان)، و" قراءة في ديوان محمد بن عبد الله العثيمين "، و" إطلالة على التراث" (سبعة عشر جزءا)، و" ملء السلة من ثمر المجلة" (أربعة أجزاء)، و" لمحة من تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية"، و" دمعة حري"، و" رصد لسياحة الفكر" (أربعة أجزاء)، و" بعد القول قول"، و" النساء رياحين"، و" للقراءة في الإجازة"، و" هنيئا لك السعادة" وكذلك سجل سيرته الذاتية بعنوان " أي بني" مقارنة بين ماضينا وحاضرنا (في خمسة أجزاء) ووسم على أديم الزمن– لمحات من الذكريات (في ست وثلاثين جزءا).

انطباعات المعاصرين له وعنه

مما لا يختلف فيه إثنان أن الشيخ الخويطر احتل مكانة مرموقة بين المثقفين والأدباء والعلماء والشعراء النابغين في المملكة وخارجها، وكان تكريمه وتقديره في المهرجان الوطني للتراث والثقافة تعبيرا عن الاحترام الكبير والامتنان البالغ اللذين تكنهما المملكة العربية نحوه من أجل تفانيه في خدمات البلاد العربية السعودية وثقافتها وأدبها وتأريخها وتراثها العربي، كما يبدى انطباعاته الدكتور مرزوق بن تنباك عنه قائلا " يعد الدكتور عبد العزيز الخويطر واحدا من الوزراء الذين عملوا لسنوات طويلة، وتقلد عددا من الوزارات طوال مسيرته كوزارة المعارف والصحة والتعليم العالي والمالية ووزارة الزراعة، عاصر طوال مشواره الحكومي خمسة من ملوك المملكة وهم الملك سعود، ثم الملك فيصل، وبعده الملك خالد، والملك فهد، وأخيرا الملك عبد الله، واكتسب خبرة كبيرة

[1] مستفاد من هذا الموقع: Alburhan.com/Article/index/6346

في العمل الحكومي والإداري ومع ذلك لم يسلبه هذا العمل المتواصل والجهد الكبير حبه للتأليف والكتابة، فقد قدم العديد من الكتب والمؤلفات التي حملت في جزء منها رؤيته لكثير من القضايا، وفي جزء منها قدم لنا خلاصة خبرته وتجاربه وسيرته الذاتية كما في كتابه الموسوعة السيرة الذاتية "وسم على أديم الزمن"[1].

ويعبر عن انطباعاته وخواطره ومشاعره الدكتور محمد آل زلفة اعترافا بمنزلته ومكانته العالية في العلم والأدب " يعد الراحل الدكتور عبد العزيز الخويطر من أوائل الأكاديميين في السعودية وممن حصل منذ وقت مبكر لتأسيس هذا الكيان العظيم المملكة العربية السعودية على شهادة الدكتوراة في تخصص التاريخ، وتخرج على يده عدد كبير من الطلاب والدارسين في مجال التاريخ، وخاصة ممن التحق منهم بجامعة الرياض سابقا وجامعة الملك سعود حاليا حيث درس في جميع المراحل البكالوريوس والماجستير والدكتوراه وبرحيله نفقد علما من أعلام المملكة الذين قدموا لهذا الوطن الكثير، فخلال مسيرته الرائدة في مجال الإدارة ومن خلال الحقائب الوزارية التي شغلها كان أنموذجا فريدا في الإدارة والعمل والبذل والإخلاص والتفاني وكان صوت العقل والخبرة بعد أن ظل لسنوات في منصب وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء، فرحمه الله رحمة واسعة وخلف الوطن فيه خير"[2].

وعلاوة على هؤلاء الأدباء المرموقين والعلماء النابغين نرى في هذه الفترة من الزمان عددا ضخما لا بأس به من المؤلفين والشعراء والرجال السياسيين الذين كتبوا سيرتهم الذاتية بأسلوب رائع خلاب وشيق، نخص بالذكر منهم حسن عبد الحي قزاز الذي كتب سيرته الذاتية بعنوان " مشواري مع الكلمة "، والأستاذ البارع حسن نصيف الذي دون قصة حياته باسم " مذكرات طالب "، والأستاذ عبد الرحمن السدحان الذي قام بكتابة سيرته الذاتية باسم " قطرات من سحائب الذكرى"، ومرام مكاوي الذي ألف وصنف بعد تجربة من الحياة ذكرياته اليومية بعنوان " مذكرات: على ضفاف بحيرة

[1] صحيفة المدينة، (العدد 19487) بتاريخ 2014/05/28م.

[2] المرجع نفسه.

العايد بارك "، كما نرى الأستاذ منصور الخريجي الذي كتب سيرته الذاتية بعنوان " مالم تقله الوظيفة: صفحات من حياتي"، وسعيد محمد بوقري الذي سجل قصة حياته في شكل كتاب مشهور أسماه بـ " من ذكرياتي"، وكذلك كتب فهد المارك سيرته الذاتية باسم " الرجل الذي كان سببا لامتداد أجلي"، والأستاذ محمد القشعمي الذي كتب سيرته الذاتية بعنوان " بدايات " وغيرهم الكثيرون.

المرحلة الثالثة: تطور السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية

كما قمنا بتقسيم كتابة فن السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية إلى ثلاثة مراحل عبر العصور، وقدمنا بعض المعلومات المهمة ايجازا في القسمين الأولين عن البدايات والتجديد والنمو لأدب السيرة الذاتية في المملكة حسب مؤهلاتي العلمية الناقصة، فنريد من هنا أن نذكر عن مرحلة التطور لسيرة الذاتية في المملكة، وتمتد هذه الفترة من عام 1391هـ المصادف 1971 حتى الآن.

عندما ألقينا نظرة خاطفة على هذه المرحلة من الزمان فالأمر الذي يتضح أمامنا بقوة تامة هو أن هذه المرحلة من المراحل ظهر فيها عدد كبير لا يستهان به من الكتاب والأدباء والشعراء والجغرافيين والمؤرخين السعوديين المرموقين الذين طافوا الأرض شرقا وغربا، وبذلوا قصارى جهودهم المتواضعة في تطور أدب السيرة الذاتية، وكان لكل أحد من الكتاب والأدباء والشعراء العرب كتاب قيم مستقل (في حجم مطبوعة أو مخطوطة) يعتبر من أهم الكتب في مجال فن كتابة السيرة الذاتية في المملكة، ومن أشهرهم السفير والدبلوماسي والوزير السعودي **الدكتور غازي بن عبد الرحمن القصيبي**، الذي يلقب بـ" شيخ اللؤلؤ " ،حيث كان يميز اللؤلؤ الجيد من الردي، كما كان وكيلا سياسيا للملك عبد العزيز في البحرين والكويت والإمارات المتحدة الأمريكية، كما كان له العديد من الإسهامات الاجتماعية والسياسية والإنسانية، كما كان حريصا على نشر العلوم والمعرفة من خلال تبرعه وبمطابعة العديد من الكتب العربية على نفقته الخاصة.

ولد القصيبي بمدينة الإحساء في عام 1359هـ والموافق عام 1940م بالمملكة العربية السعودية، وقضى في الأحساء سنواته الأولى كما يتحدث الشيخ القصيبي عن مولده وطفولته المبكرة فيقول " ولدت في الهفوف، بالأحساء ذات يوم من أيام سنة 1359هـ، دعني أعترف من البداية، أني أشعر بتأنيب ضمير هائل نحو الهفوف، لذنب لا يد لي فيه، هذا الذنب هو أنني لا أكاد أذكر من طفولتي فيها شيئا، خرجت منها في سن الخامسة، أي أنني قضيت فيها خمس سنوات أو تزيد قليلا، يقال لي إني كنت طفلا وديعا مسالما يقضي معظم أوقاته في اللعب مع الحمام، أو بعدة نجارة، لا أذكر الحمام، ولا أذكر عدة النجارة.. ويكاد كل ما أذكره عن الهفوف بساتينها الجميلة دروازتها العتيدة "أم السعف والليف" الأسطورية التي تطير بعد أن يخيم الظلام، التمر والليمون والتين والخوخ يكاد كل هذا يرجع إلى مكان خارج الذاكرة، كنت ولا أزال استجدي الهفوف المغفرة لعقوق الذاكرة "[1].

تلقى الدكتور القصيبي مراحل التعليم الأولى بالمنامة في البحرين، ثم انتقل إلى جمهورية مصر العربية، وحصل على شهادة ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة، ثم حصل على درجة الماجستير في العلاقات الدولية من جامعة جنوب كاليفورنيا التي لا يريد أن يواصل الدراسة فيها بل كان يريد دراسة القانون الدولي في جامعة أخرى من جامعات الولايات المتحدة، ثم توجه إلى الولايات الأمريكية ودرس فيها ثم توجه إلى لندن ودرس بجامعة لندن العلاقات الدولية، وكان متميزا وفائقا في دراسته، وكان رغابا شديدا إلى الحصول على أعلى وأرقى الشهادات الدراسية، كما حصل على عدد كبير من القبولات من الجامعات المختلفة، عاد الشيخ من لندن بعد الحصول على شهادة الدكتوراه في عام 1970م وعين مدرسا ورئيسا ثم عميدا لقسم العلوم السياسية بكلية التجارة في جامعة الملك سعود.

انتقل الدكتور القصيبي في عام 1394هـ من العمل الأكاديمي إلى العمل الإداري ليعمل مديرا عاما لمؤسسة الخطوط الحديدية، ثم وزيرا للصناعة والكهرباء في

[1] القصيبي، غازي عبد الرحمن، سيرة شعرية، ص: 323

عام 1395هـ ، ثم وزيرا للصحة في عام 1403هـ إلى ان انتقل من العمل الوزاري عام 1984م إلى العمل الدبلوماسي سفيرا لبلاده في البحرين، وفي عام 1992م انتقل إلى بريطانيا سفيرا لبلاده، ثم عاد إلى موطنه المملكة العربية السعودية عام 2003م، وعين وزيرا للمياه والكهرباء، ثم عين في عام 2005م وزيرا للعمل وبعد معاناة مع المرض قد التحق بالرفيق الأعلى في الخامس من شهر رمضان من عام 1431هـ الموافق للخامس عشر من أغسطس 2010م عن عمر يناهز السبعين[1].وقدم العديد من الإصدارات الشعرية المتميزة والتي تتمثل في ما يلي: " أشعار من جزائر اللؤلؤ "، و" قطرات من ظمأ"، و" في ذكرى نبيل"، و" معركة بلا راية "، و" أنت الرياض"، و" قراءة في وجه لندن"، و" عقد من الحجارة"، و" المجموعة الشعرية الكاملة"، و" رود على ضفائر سناء "، و" قصائد مختارات"، و" البراعم "، " حديقة الغروب"، "أبيات غزل"، وغيرها.

خلف القصيبي ورائه عدة كتب من أهمها: " شقة الحرية "، و" دنسكو"، و" أبو شلاخ البرمائي "، و" العصفورة "، و" سبعة "، و" سعادة السفير"، و" الجنية "، و" العودة سائحا إلى كاليفورنيا "، و" هما "، و" رجل جاء وذهب "، وكما خلف ورائه المقالات الصحفية المتنوعة في شتى العناوين منها: في عين العاصفة التي نشرت في جريدة الشرق الأوسط، كما أن له مؤلفات أخرى في التنمية والسياسة وغيرها منها: و" التنمية ": و" الأسئلة الكبرى "، و" عن هذا وذاك"، و" باي باي لندن " ومقالات أخري، الأسطورة ديانا، و100من أقوالي غير المأثورة، وثورة في السنة النبوية، وحتى لا تكون فتنة وغيرها الكثيرة.

وقد سجل الدكتور سيرته الذاتية بعنوان " حياة في الإدارة " و" سيرة شعرية " التي صدرت طبعتها الأولى في عام 1400 هـ الموافق عام 1980م وطبعت بتبويب جديد وإضاءات ملحوظة في ثلاثة أجزاء في عام 1408، وأنا اعتقد أن هذا الكتاب عمل قيم للدكتور القصيبي يحكي فيه عن موهبته الأدبية والعوامل المؤثرة في الارتقاء

[1] صفراني، الدكتور محمد، غازي القصيبي حياته ومختارات من شعره، ص: 7

مشيرا إلى الوراثة في تكوين شخصيته الفذة المتميزة، وقد التزم بالتدرج الزمني في تطور الأحداث والوقائع الخاصة به، كما ذكر عن مراحل حياته، ومكانته، في ذاته، ومشاعره، ووجدانه. ولم يخلو هذا الكتاب من مفاجآت الكاتب وجسارته وموهبته في الرأي والنقد، على الرغم من ذلك أنه لم يكن متخصصا في الشعر العربي، والأدب، والنقد، والبلاغة، والنحو، والصرف. كما أنه لا يمثل عن نفسه في هذا الكتاب بكونه سفيرا، ودبلوماسيا، ورجلا سياسيا، بل أنه يمثل كونه شاعرا، كما يذكر الكاتب في مقدمة الكتاب " سيرة شعرية " قائلا " يمثل هذا الكتاب سيرتي الشعرية يقف عند هذا الحد لا يكاد يتجاوزه، بمعنى أن الكتاب يتحدث عني كشاعر فحسب، لا كتلميذ، ولا كمدرس، ولا كعميد كلية، ولا كإداري، ولا كعضو في مجلس الوزراء، ولا كسفير، ولا كأخ، ولا كزوج، ولا كإبن، وفي كل تجربة من هذه التجارب، وكثير غيرها، ما يكفي لكتابة مؤلف، ومنها في مجموعها تتكون السيرة الذاتية الكاملة"[1].

وعندما نطالع هذا الكتاب نرى أنه تحدث فيه عن مراحل حياته، وسيرته الشخصية، وتطوره الاجتماعي، والفكري، وآثارها، في تكوين تجربته الشعرية العربية، كما تحدث عن البيئة التي فتح فيها عينيه، وعاش فيها، كما ألقى الضوء على المدرسة، والمنزل، والجامعة، والمؤسسة التي تلقى منها التعليم والتربية. ومن العوامل التي تدفعه إلى كتابة سيرته الذاتية هي التي كما أوضحها القصيبي في مقدمة كتابه – سيرة شعرية " قائلا " الهدف من الكتاب متواضع ومحدد، لقد قلت في أكثر من مناسبة وأكرر هنا إنني لا أعتبر نفسي شاعرا عظيما، ولا أتوقع أن أصبح في يوم من الأيام شاعرا عظيما، إنني لا أطمع أن يكشف الكتاب عن جوانب خفية من عبقرية متقدة، ولا أن يوضح للنقاد والقراء ما اختلفوا فيه من أمري، ولا أن يضيف أسماء جديدة إلى قوائم المعجبين في هذا كله من الاعتداد بالنفس ما لا أحسه من نفسي، ومن الغرور الأبله ما لم يطف لي ببال، إن هدف هذا الكتاب– ببساطة– هو أن يكون عونا للباحثين

[1] القصيبي، غازي عبد الرحمن، سيرة شعرية، ص: 7

الذين يتعرضون على نحو أو آخر لاشعاري، ودليلا أمام قاريء الشعر العادي يسهل له عملية السفر داخل دواويني، إن كان يزمع القيام بمثل هذه الرحلة"[1].

أراء بعض الكتاب المعاصرين له عنه

مما شك فيه أن الشيخ الدكتور القصيبي يعتبر من أحد كبار الداعمين للعلم والمعرفة، قد قام بالجهد والسعي لنشر العلوم والمعرفة، كما أنه بذل قصارى جهوده في نشر الأدب والفن بإسهاماته الأدبية والنثرية والشعرية، كما تتحدث واصفا سيرته الذاتية الأديبة خيرية السقاف كقولها " على حسب ما أراد المؤلف أن يكون لمسيرة تجربته مع الشعر لأنه بطبيعته ارتباط الشاعر في وحدة إنسانية اجتمعت له التجربة متكاملة فخلص منها إلى عرض جوانب حياته الشخصية، وركز على ما فيها من مواقف لعبت دورا بارزا في تكوين تجربته الشعرية الأمر الذي قرب الكتاب لأن يندرج تحت السيرة الذاتية "[2].

كان الشيخ القصيبي سفيرا قضى أكثر حياته في البلدان الأخرى خارج المملكة، كما عمل وسيطا للاتصال الدبلوماسي بين الملك عبد العزيز والبريطانيين ولثقة الملك عبد العزيز فقد أصدر أوامره بأن يكون وكيلا له في البحرين، وأما العمل الدبلوماسي في البحرين فقد كان له دور كبير وعمل قيم في البحرين حتى يتحدث عنه شارلز بلجريف قائلا " عبد الرحمن رجل أكثر استنارة وعلى قدر كبير من الثقافة، وله مهارة فطرية في التعامل باللؤلؤ، وهو يتكلم بعض الفرنسية والإنجليزية، ويشرف على إدارة شؤون المؤسسة التجارية في باريس"[3].

وقد اشتهر في هذا المجال المنوال قائد القوات للمملكة العربية السعودية **الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز**، الذي ولد في عام 1948م بمكة المكرمة، وتلقى التعليم الابتدائي منها، ثم واصل تعليمه حتى حصل على درجة التأهيل العسكري دفاع

---

[1] المرجع نفسه، ص:7

[2] الحكمي، د. عائشة يحيى، السيرة الذاتية عند أدباء المملكة العربية السعودية في مرحلة الطفرة (1390-1418هـ)، ص:144

[3] جريدة الرياض، (العدد 16881) بتاريخ يوم الجمعة 17 ذي القعدة 1435هجـ/12 سبتمبر 2014م.

جوي من أكاديمية ساندهيرست العسكرية الملكية، ثم حصل على الدورات العامة والتخصصية في مجال الدفاع الجوي بالولايات المتحدة الأمريكية، وكما حصل على درجة الماجستير في العلوم العسكرية من كلية القيادة والأركان العامة من فورت ليفنوورث بالولايات المتحدة الأمريكية، ثم حصل على دورة الحرب من كلية الحرب الجوية في ماكسومل بالولايات المتحدة الأمريكية.

شغل منصب نائب وزير الدفاع حتى إعفاءه في إبريل عام 2013م، وأنه تولى خدمته العسكرية من عام 1965م إلى عام 1999م العديد من المناصب العسكرية للقوات العربية السعودية. وأن الأمير حصل على العديد من الأوسمة الوطنية من أمثال: أنه حصل على وسام الملك فيصل من الدرجة الرابعة، ووسام الملك فيصل من الدرجة الثالثة، ووسام الملك عبد العزيز من الطبقة الأولى، وهكذا منح له العديد من الأوسمة من دولة الكويت، وفرنسا، واليمن، والأردن، والبحرين، والإمارات العربية المتحدة، وأمريكا، وعمان وغيرها من البلدان العربية والغربية على السواء، وله عدد من المقالات والحوارات المنشورة في الصحف والمجلات المحلية والدولية، وكما له محاضرات قيمة ألقيت في عدد كبير من الجامعات والكليات العسكرية والمدنية المحلية والإقليمية والدولية، ومن مؤلفاته القيمة: " مقاتل من الصحراء "، وهو سيرته الذاتية في السياسة والاستراتيجية.

أما كتابه القيم " مقاتل من الصحراء " فإنه يعتبر من أهم الكتب للسيرة الذاتية في الأدب السعودي، كما هو إضافة في باب أدب السيرة الذاتية في المملكة، كما أنه يعد من أوثق المصادر التاريخية التى تناولت حرب الخليج، وأن هذا الكتاب يروي في أسلوب شيق مثير ظروف نشأة الأمير، وخبراته التعليمية، وتدرجه على المناصب المتنوعة القيادية في القوات العسكرية في المملكة، وفي الواقع هو كتاب قيم عسكر محض حيث يخاطب العسكريين والقادة للقوات العسكرية والمدنيين على السواء، كما أنه عرض فيه رؤية مستقبلية إلى المنطقة العربية ومنطقة الخليج بناء على استقراء دقيق واع للأوضاع السياسية والعسكرية والجيوبوليكية التى واكبت على حرب الخليج العربي.

وقد جاء اسم بارز في هذا المجال المنوال وهو **الشيخ عبد العزيز مشري** الذي يعد من الجيل الثاني من الكتاب البارعين والأدباء السعوديين والمثقفين الطليعيين الذين اتسمت تجربتهم بالمغايرة والجدة والأصالة، ولد الأديب المصقع الأستاذ عبد العزيز صالح محمد مشري الغامدي في قرية صغيرة من قرى الجنوب السعودي تسمي " محضرة " بمنقطة الباحة في عام 1953م وعاش فيها طفولته وتشبع من تقاليدها، لكنه اضطر بدافع الحاجة للعمل وإثبات الذات للخروج منها إلى المدينة، وبدت القرية في أعماله اللاحقة وكأنها تسكن داخله بكل تقاسيمها وتضاريسها، وحتى اللوحات الفنية التي كان يرسمها وهو الفنان في تلوين مساحات الرؤية البصرية بلوحات معبرة تستنطق المعاني الإبداعية التي يفرغها في رواياته وقصصه، كانت تلك اللوحات تشير إلى عنفوان القرية في داخله، و في بداية العشرينات من عمره عمل في الصحافة السعودية وشارك في عام 1975م في تحرير ملحق "المربد" ذانع الصيت الذي كانت تصدره جريدة " اليوم" في الدمام وخلال تلك الفترة عرف بغزارة إنتاجه، وكان يسابق الوهن والضعف والمرض الذي كان يغزو أطراف وأجزاء جسده[1].

وأن الشيخ مشري قد أصدر كثيرا من الدراسات العلمية والأدبية، وقدم للساحة الثقافية عدة أعمال أدبية كان أولها " المنتخب من أدب العرب " وفي حين أنه أصدر أول أعماله القصصية القيمة باسم " موت على الماء " وهكذا قدم أمام القارئين كتبا كثيرة على الموضوعات المختلفة منها: " أسفار ابن السروي" (قصص)، و" زهور تبحث عن آنية" (قصص)، و" رواية الحصون" (رواية)، و" جارودينيا تتثاؤب من النافذة" ، و" رواية "، و" الغيوم ومتانة الشجر" (رواية)، و" مكاشفات السيف والوردة" وله روايات قيمة من بينها " الوسمية" (رواية)، و" ريح الكادي" ، و" الحصون" ، و" في عشق حتى" ، و" بوح السنابل" (قصص)، و" أحوال الديار" (قصص) و" صالحة" ، وقد ترك لنا أيضا مجموعة من المخطوطات الروائية القيمة منها رواية بعنوان " المغزول" ، والقصة

[1] جريدة "الشرق الأوسط" بتاريخ يوم الأحد 16 جمادي الثاني 1431هجـ 30 مايو عام 2010م العدد 11506).

القصيرة في المملكة كما ترك لنا عددا كبيرا من اللوحات الرئيسية والرسومات المخطوطة العربية، كما أنه كتب سيرته الذاتية بعنوان "الكتابة والقرية".

وهكذا قد ساهم الشيخ مشري في كتابة المقالة الصحفية عبر زاويته (تلويحة) في أكثر من صحيفة سعودية، كان آخرها الجزيرة وعبر ملحقها الثقافي الذي آثر الراحل الكتابة فيه منذ حوالي أربع سنوات وكان النادي الأدبي الثقافي بجدة قد أقام حفلا تكريميا للمشري العام الماضي، تخللته العديد من المناقشات والمداخلات الأدبية حول تجربة الكاتب الروائية والقصصية وريادته في هذا الشأن، كما أصدرت جريدة الجزيرة ملحقا ثقافيا خاصا بإبداع، وقدمت مؤسسة الجزيرة الصحفية درعها تكريما لجهد الأستاذ المشري في الأدب السعودي[1].

قد أصيب بمرض السكر في وقت مبكر من حياته، وأدت مضاعفات المرض والعقاقير الطبية مع مرور الزمن إلى التأثير على البصر، واختلال توازن حركة المشي والفشل الكلوي واضطراره لغسيل الدم ثلاث مرات في الأسبوع، وكذلك تعرضه لضغط الدم، وقد توفي الشيخ مشري في مستشفى الملك فهد بجدة بتاريخ 2000/05/07م رحمه الله، وكان إلى جانبه شقيقه الوفي أحمد مشري وصديقه المخلص سعد الدوسري وقد روي جثمانه الثري في مقبرة الفيصلية بجدة، ويقع قبره في الجهة الشرقية من المقبرة على مسافة أربعة أمتار من الجدار الشرقي ثمانة أمتار الجدار الشمالي[2].

وكذلك قد اشتهر في هذا الباب **الدكتور عاصم حمدان** الذي دون سيرته الذاتية بعنوان "حارة المناخة: صورة أدبية للمدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري"، وهي التي نشرت طبعتها الأولى دار القبلة للثقافة الإسلامية جدة في عام 1414هـ الموافق 1993م، وأن الدكتور عاصم حمدان ولد في عام 1373هـ الموافق 1953م في المدينة المنورة، ونشأ بها، ثم التحق بالمدرسة حيث درس الابتدائية والثانوية، وبعد أن أكمل قد التحق بجامعة أم القرى، وحصل على شهادته البكالوريوس في عام 1396هـ، ثم توجه

[1] مستفاد من هذا الموقع: http://aljsad.org/forum36/thread147254

[2] مستفاد من هذا الموقع: http://www.marefa.org/index.php

إلى المملكة المتحدة، والتحق بجامعة مانشيستر بالمملكة المتحدة، وحصل على درجة الدكتوراة والماجستير في عام 1986م، حيث كان عنوان رسالة الدكتوراه " أدب المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري" دراسة نقدية اعتمادا على المصادر المعاصرة مع تحقيق لواحد من هذه المصادر وهو كتاب "الأخبار الغريبة فيما وقع بطيبة الجيبة" لمؤلفه الشهير جعفر بن هاشم الحسيني المدني.

وتدرج خلال مسيرته في العديد من الوظائف بعد حصوله على الدكتوراه، حيث يعمل حاليا أستاذا مشاركا في قسم اللغة العربية، بكلية الآداب بجامعة الملك، ومن بين المناصب التي تقلدها مستشار غير متفرغ لمعالي وزير الحج للشؤون الثقافية في وزارة الحج، كما عمل رئيسا لتحرير مجلة " الطلاب " الصادرة عن نادي الطلاب السعوديين في بريطانيا عام 1409هـ الموافق 1986م، ورئيسا لتحرير مجلة "الحج" الصادرة عن وزارة الحج، ويعمل الآن بكونه مستشارا لهيئة تحرير مجلة "الحج". وعمل عضوا بلجنة الإشراف على مجلة الآداب المملكة بجامعة الملك عبد العزيز لفترتين متتاليتين، كما عمل عضوا بمركز تدرب العاملين في شؤون الحج والعمرة من العام 1417هـ إلى العام 1420هـ، وعمل باللجنة العلمية لمؤتمر الأدباء الثاني المنعقد بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، كما عمل عضوا باللجنة العلمية لندوة الإعلام في الحج، التي أشرف عليها مجلس الإعلام الأعلى مع مركز أبحاث الحج بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وعمل ضمن اللجنة الاستشارية لتكريم سمو الأمير عبد الله الفيصل والتي خصصها دار الصباح احتفاءا بشعره 1422هـ الموافق 2001م.[1]

وأما بالنسبة إلى نشاطه العلمي والفكري والصحافي فإنه قد شارك في الندوة الأولى التي عقدتها رابطة العالم الإسلامي- الأحد 1411/10/21هـ للبحث في سبل تطوير أجهزة الإعلام برابطة العالم الإسلامي، حيث قدم ورقة في تلك الندوة بعنوان " ملاحظات حول أجهزة الإعلام برابطة العالم الإسلامي"، وعمل عضوا في اللجنة العلمية لندوة الإعلام في الحج، والتي عقدت بإشراف جامعة أم القرى بمكة المكرمة،

[1] الأعمال الكاملة للأديب الدكتور عاصم حمدان علي، الجزء الأول، ص: 5

والمجلس الأعلى للإعلام في 1416/6/26-17 هـ. كما عمل لفترتين متتاليتين عضوا في هيئة تحرير مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الصادرة عن جامعة الملك عبد العزيز، كما أنه قد شارك في لجنة الإعداد لمشروع المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين المنعقد في رحاب جامعة أم القرى عام 1419هـ، كما اختير عضوا في اللجنة العلمية للمؤتمر نفسه، وهكذا أن الشيخ حمدان يكتب زاوية أسبوعية في صحيفة المدينة المنورة بعنوان" رؤية فكرية " وأخرى باللغة الإنجليزية في صحيفة عرب نيوز بعنوان " In Focus "[1].

نال الشيخ حمدان عدة جوائز من بينها جائزة على عثمان حافظ كأفضل وأحسن كاتب مبدع صحفي في عام 1996م، ونال درع نادي المدينة المنورة الأدبي، وشهادته التقديرية تقديرا لجهوده المتواضعة في مجال الثقافة والتربية الأدبية بجانب تكريمه وتقديره في منتدى الإثنينية بجدة بتاريخ 1424/11/5هـ. وقد خلف ورائه كتبا قيمة حول موضوعات مختلفة من أهمها " التأمر الصهيوني على الإسلام " الصادر عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في عام 1409هـ، " المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ " إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي 1421هـ الموافق 1991م، " حارة الأغواث: صورة أدبية للمدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري " الناشر دار القبلة بجدة 1414هـ، " نحن والآخر " إصدارات نادي المدينة الأدبي عام 1415هـ " دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والغربي" نشرته نادي المدينة الأدبي 1418هـ الموافق 1997م، و" هتاف من باب السلام " الصادر من دار جدة في عام 1421هـ و" ذكريات من الحصوة " نشرته شركة المدينة للطباعة والنشر بجدة في عام 1422هـ الموافق 2001م، وقراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري، تقدم الأستاذ الناقد عبد الله عبد الجبار المطبعة المحمودية في 1424هـ.

وقام بتدون قصة حياته الشخصية في كتاب أسماه " حارة المناخة: صورة أدبية للمدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري "، فإن هذا الكتاب كتاب قيم، ومن أهم

[1] المرجع نفسه، ص: 5

الكلام أنه إضافة في باب فن كتابة السيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي، حيث يذكر المؤلف عن المناخة، وهي ذلك المكان الفسيح الذي يقع غرب المسجد النبوي الشريف إلى الشام، كما يبدي رأيه الشديد الأستاذ الدكتور نزار عبيد مدني عن الكتاب بقوله " إن كتاب الدكتور عاصم حمدان ليفيض على قارئه في كل فصل ولعا بالمدينة التي تغذي وجدانه يحبها، وتعلقت نفسه بساحاتها، ودورها، ودروبها، ومرابعها، ومجالس الخير فيها، ولا غرو في ذلك، فهذه بقعة من الأرض ما تغيرت، تضم في أحشائها رهط السابقين من الرجال، الذين حين رأوا عرفوا آمنوا، وحين آمنوا انطلقوا بالنور فأضاءوا الأرض، لم يلووا على شيء، ولا التوت أعناقهم لغير السماء، ولقد شدني الكتاب وأثار في نفسي العديد من الذكريات والمشاعر والأحاسيس عن المدينة ماضيا وحاضرا ومستقبلا، تذكرت فيما تذكرت كتابا كنت قد قرأته فيما مضى من الزمن يصف فيه المستشرق النمساوي محمد أسد، الذي من الله عليه بالإسلام، الوضع الذي كانت عليه المدينة وأسواقها وسمات أهلها منذ ما ينيف على الستين عاما، وصفا أحسب أنه لا يزال يميز المدينة إلى وقتنا هذا، بل وأكاد أجزم أنه سيظل أبدا سمة من سماتها وعلامة من علاماتها الفارقة "[1].

رأي الدارسين في العمل

إن الأستاذ الدكتور عاصم حمدان علي كان رجلا أكاديميا مرموقا، وعضو هيئة التدريس بجامعة الملك عبد العزيز، وله أسلوبه الخاص في الكتابة عن سيرته الذاتية، و كتابه "حارة المناخة: صورة أدبية للمدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري" يؤرخ للحركة الأدبية والحلقات العلمية والأدبية في المدينة المنورة، وأما في مجال البحث العلمي والأدبي فقد كان له نصيب من المؤلفات العربية الكثيرة في الدراسات المقارنة وتاريخ الأدب العربي السعودي، كما يقول عنه الأستاذ حسين محمد بافقيه " يمكن القول إن عاصم حمدان من الكتاب المعدودين الذين أولعوا بـ" السيرة الذاتية " فأعماله المتوالية مسكونة بـ : الأمكنة المنهارة " في سيرة تلك الأمكنة وهي

[1] المرجع نفسه، ص 31

سيرته هي كذلك (إلى أن يقول) وبينما هيمنت الأمكنة المقدسة على سيرته كان من السائغ أن يتحول أناس عاصم حمدان إلى أناس مضمخين بألق تلك الأمكنة تحفهم بـ(بركتها) وتلقي في روعهم "حكمتها " فأناسه حكماء ".[1] ويقول عنه الناقد والأديب محمد البيسي " بعد الأستاذين الرائدين محمد حسين زيدان وعزيز ضياء يجيء الأديب المدني عاصم حمدان ليسجل بعض ذكرياته وبدون أجزاء من سيرته الذاتية دون أن يتبع ذات المسار الذي اصطنعه الأديبان الرائدان "[2].

وكذلك يذكر عمله الأستاذ محمد صلاح الدين قائلا " أخي الدكتور عاصم.. قد لا يعلم الكثرة الغالية من قرائه أن وراء كتاباته التاريخية والأدبية والفكرية ومعاركه في بعض الأحيان نفسا كريمة زكية تفيض على كل من حولها بالمودة والرحمة، وتعيش هموم الأمة وآلام الناس، وأن وراء هذه الكتابات قلبا كبيرا عامرا بالغيرة على حرمات الله، ومواريث الأمة، وثوابت الدين، من أهم ما تتميز به كتابات أخي الدكتور عاصم.. تلك العناية الشديدة بالتأريخ لمجتمعات المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، والتأسيس لما ساد هذه المجتمعات من خلائق النبوة والتلاحم والتراحم والتكافل، وما وطد وشائحها من المروءة والمثل العليا التي عاشت بها هذه الأجيال سعيدة راضية، لكن ما لا يعرفه قراءة الدكتور عاصم أن الكتاب يعيش في واقعه هذه المثل ويمثلها في حياته "[3].

وقد اشتهر في هذا المجال **الأستاذ أحمد قنديل** الذي ولد في عام 1329هـ، وعندما بلغ الشيخ قنديل السابعة من عمره ألحقه والده بمدرسة الفلاح حيث تفتحت فيها مواهبه العلمية والأدبية والدينية والاجتماعية وحيث تأصلت ثقافته العربية وأن هذا القول موثوق به على الرغم مما ذكره صديقه الحميم الكريم الأستاذ حمزة شحاته حيث يقول " وحظ قنديل متواضع مثله، وفيه دليل على أنه مظلوم النشاط والكفاءة، والذنب في هذا ذنب إمعانه في بلديته، وذنب استسلامه واطمئنانه فقد كان حين كان تلميذا راضيا

[1] جريدة البلاد العربية، (بتاريخ 28 جمادى الأول 1435 العدد41735).
[2] المرجع نفسه.
[3] كتاب الإثنينية، حفل وتكريم سعادة الدكتور عاصم حمدان علي، رقم 262 بتاريخ 1424/11/06هـ/ 2003/12/29م.

بقسمته، وراضيا عن حكم أساتذته فيه، قد يقضي في الصف الدراسي أعواما، ما تندت من فمه كلمة اعتراض، أو احتجاج، أو تظلم، حتى تدفعه الصدف إلى صف غيره، أو تدحرجه درجة، ولا أحسب أن تلميذا أبلى من عمره في الدراسة مثلما أبلى من عمره في الدراسة فقد دفعه أهله إليها قبل أن تنبت أسنانه، وغادرها بلحية تسترسل على صدره، تفترش معظمه وسائره"[1].

وأما ميول أحمد قنديل الأدبية فقد غرستها ونمتها في نفسه مطالعاته الواسعة الغزيرة وقراءاته الخاصة فقد كان شغوفا منذ نعومة أظفاره بقراءة القصص والسير الشعبية كسيرة عنترة بن شداد وأبي زيد العلالي وسيف بن ذي يزن، وكان رغابا إلى قراءة أحداث التاريخ وأساليب المنطق وقواعد النحو كما أنه كان محبا لآداب اللغة العربية، وقد درس المتنبي وابن الرومي والبحتري، وأنه لم يكتف على قراءة الأدباء العرب القدامى بل أنه قد مال إلى قراءة بعض أدباء الغرب أيضا مثل شكسبير، وبايرون، وجيته، وولبير، ونيتشه وغيرهم، وبعد أن رغب في تعلم اللغة الإنجليزية بعد كبره فالتحق في أثناء وجوده في مصر بـ" فكس سكول " فترة قليلة، ثم انقطع عنها، وعلى الرغم من قلة حصيلته في هذا المجال فقد كان يأتي ببعض القصص الإنجليزية ويحاول أن يقوم بترجمتها، ومما ساعده على الإفادة من تلك الثقافة، قوة حافظته وميوله لأدب التراث العربي الأصيل الذي حفظ منه الكثير عن ظهر قلب.

وعندما ألقينا نظرة عميقة على حياته وجدنا أنه كان مغرما بالرحلات المتكررة إلى البلاد العربية والغربية، لذلك أنه قد قام برحلة سياحية إلى مصر، وأوروبا، واليونان، وإيطاليا، وسنغافورة، والصين. وكان محبا للقراءة، وشغوفا بها، وقد انصبت قراءاته الأولى عندما كان طالبا في مدرسة الفلاح على كتب الدراسة الأدبية، كما انكب على قراءة دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين من أمويين وعباسيين وغيرهم، وخلف ورائه ذخيرة من الكتب الأدبية من أهمها: " كما رأيتها "، و" يوم ورا يوم "، و" كتاب من جزءين"، و" أبو عرام والبشكة "، ومخطوطة كتاب مثل " اليوم"، و" دهاليز وحكايات"،

[1] الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ أحمد قنديل، الجزء الأول، ص: 5

و" الديك الأحمر"، و" السطر الأخير"، و" برنامج والحلوة المرة "، وكذلك كتب سيرته الذاتية باسم " الجبل الذي صار سهلا " فإن هذا الكتاب عبارة عن لوحات فنية نثرية تنقل القاريء إلى ذكريات قديمة مثل: أحوال المواصلات التقليدية، وأحوال الحج، وأحوال المعيشة اليومية، وأحوال الأكلات والمشروبات اليومية التي قد اشتهرت بها البلاد العربية واللعاب والرقصات والملابس الشائعة، وكذلك أحوال المناسبات والاجتماعية والثقافية والعادات والتقاليد المروجة في كل شؤون المجتمع من العرب.

وأن هذا الكتاب مملوء بلوحات قديمة ذات أسلوب أدبي فيه النثر والشعر العربي والذكريات واللمسات الفنية، يذكر الكاتب المبدع الشاعر قنديل لبعض أصدقائه، وأن الكتاب يتجلى فيه أسلوبه الساحر الرائع الجذاب والخلاب كما أوجز الأستاذ قنديل الحديث عنه قائلا " ليس هذا الذي تقرأ هنا، قصة ولاهو رواية.. بالمعنى الحديث.. ولعله.. نوع من.. حكاية مطلقة.. حكاية من نمط ساذج مبتكر.. نابت فيه الفقزة والاستطراد مناب قاعدة التسلسل، والوحدة، والموضوعية، فلا حبكة.. ولا عقدة.. ولا مفاجأة فيه.. إطلاقا.. هو بهذا المفقود.. من الموجود خواطر.. وسوانح مبعثرة.. ذكريات متناثرة.. متباعدة كالأيام ذاتها.. ربما كان أقرب شبه لهذا الذي تقرأ.. إنه أوراق خريف تتحات.. وتتساقط من شجرة عمر مكتوب "[1].

وقد جاء في هذا المضمار اسم **الأستاذ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري،** الذي يعتبر من أهم الشخصيات الثقافية والأدبية والفكرية المرتبطة بتاريخ الدولة السعودية الحديثة، ولد هذا العالم الفاضل الأستاذ التويجري في حوطة سدير عام 1336هـ ثم انتقل إلى المجمعة بينما كان عمره ست سنوات، بدأ عمله متطوعا في صفوف جيش الملك عبد العزيز، وفي عام 1350هـ عين مشرفا على بيت مال المجمعة وسدير والزلفى بأمر من الملك عبد العزيز، وفي عام 1357هـ عين رئيسا لمالية المجمعة وسدير والزلفى بأمر من الملك عبد العزيز (رحمه الله) وفي عام 1381هـ عين وكيلا للحرس الوطني بموجب المرسوم الملكي رقم 2232/21/6 بتاريخ

[1] المرجع نفسه، ص: 4

1381/5/28هـ وبتاريخ 1397/7/4هـ صدر المرسوم الملكي رقم أ/108 بتاريخ 1395/7/4هـ بتعيينه نائبا لرئيس الحرس الوطني المساعد بالمرتبة الممتازة، وبتاريخ 1397/7/5هـ صدر الأمر الملكي رقم 177/1 بتعيينه نائبا لرئيس الوطني المساعد بمرتبة وزير.[1]

وأن الشيخ التويجري قد شغل عددا من المهام القيادية في الدولة، من أبرزها عضو مجلس الأمن الوطني، اللجنة التحضيرية بالمجلس الصادر بالأمر رقم 8/1659 بتاريخ 1399/10/14هـ وعضو مجلس القوى العاملة الصادر بالمرسوم الملكي رقم م/31 بتاريخ 1406/5/10هـ ونائب رئيس مجلس إدارة مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالأمر الصادر برقم 2429 بتاريخ 1405/05/28هـ ونائب رئيس اللجنة العليا بالحرس الوطني الصادر بالأمر رقم 87/م بتاريخ 1411/7/22هـ وعضو اللجنة العليا لإعداد نظام المناطق الصادر بالمرسوم الملكي رقم 92/100 بتاريخ 1412/8/27هـ ونائب رئيس هيئة الإشراف على مجلة الحرس الوطني، وكرسي الزمالة باسم الشيخ عبد العزيز عبد المحسن التويجري بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية، ويعني ذلك توفير فتح دراسة للطلاب المتفوقين من مختلف أنحاء العالم للدراسة في جامعة هارفارد وبالأخص طلاب العالم العربي والإسلامي، وشهادة تقدير من جامعة جورجيا الحكومية بالولايات المتحدة الأمريكية كإحدى الشخصيات المشاركة بالدراسة المتعلقة بصانعي القرار الاستراتيجي[2]. وعلاوة على هذا أنه قد حصل على العديد من الأوسمة والجوائز والمنح والميداليات، وقام بالعديد من المشاريع الخيرية داخل المملكة العربية السعودية وخارجها.

وله مؤلفات كثيرة حول الموضوعات المختلفة منها: " في أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء "، و" حتى لا يصيبنا الدوار "، و" منازل الأحلام الجميلة "، و" أبا العلاء ضجر الركب من عناء الطريق "، و" خاطرات أرقني سراها "، و" ذكريات

[1] سيدو، الدكتور أمين سلمان، عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري حياته وآثاره وما كتب عنه، ص: 15

[2] المرجع نفسه، ص:16

وأحاسيس نامت على عضد الزمن "، و" الإنسان رسالة وقاريء "، و" عند الصباح حمد القوم السري "، و" رسائل خفت عليها الضياع "، و" عزيزي النفط "، و " رسائل وما حكته في بيني "، و" أجهدتني التساؤلات معك أيها التاريخ "، كما أنه كتب سيرته الذاتية أسماها "حاطب ليل ضجر" (في جزئين) صدرت طبعتها الأولى في عام 1408هـ/ 1987م.

لو استعرضنا الكتاب فوجدنا أنه قد اشتمل على جزئين، وأن الجزء الأول يقع في ثلاثين ومأتي صفحة تقريبا، وأن الجزء الثاني يقع نحو خمسة وخمسين ومأتي صفحة، وأن الموضوعات التي ذكرها صاحب الكتاب فإنها جاءت في شكل رسائل وكل رسالة من الرسائل تبدأ بكلمة أبوي صاحبها يوجه إلى أبويه حواء وآدم وينتظر الرد عليه من أبنائهما، كما نلاحظ في سيرته الذاتية "حاطب ليل ضجر" حيث يقول صاحبه " أبويّ: أحذف بحجر الجبل كل المارين به لأنه ما فكر واحد منهم أن يصعد ويرتفع إلى قمته ليرى منازل العقبات كيف هي وبم توحى إلى من صعد إليها...؟ ما أكثر ما جرجرت نفسي في اتجاه الصعود، ولكن السيقان التي لا جناح لها كجناح العقاب عجزت أن ترفعني إلى فوق، ومن سفحه جلست أخط هذه الرسالة والخوف يحيط بقلمي من تداعى أحجار الجبل عليه فتحطمه وتحطم يدي التي تحمله... فأفواه العبر في أفواه القلم وعضات السبع لا شيء بالنسبة لعضات القلم فهو الذي إذا عض أوجع وإذا وعظ أبكى"[1].

ومن الملاحظ أن هذه الرسائل نوع متفرد من السير الذاتية التي تفتقد الرابطة الموضوعية وأن الشيء الوحيد الذي يوحد موضوعها هو عقل الأديب وذاته كما يقول الأديب الدكتور حسن ظاظا في مقدمة هذا الكتاب " الكاتب لا يغيب عن فكره الظاهر والباطن أن الكتابة عمل، وأنها كأي عمل من أعمال الإنسان العامة شرطها الإتقان،

[1] التويجري، عبد العزيز بن عبد المحسن، حاطب ليل ضجر، ص:9

هو الشيخ العربي الكريم الذي يرى أن الكتابة دعوة، ووليمة وزاد فكري وروحي، ومن تمام الكريم أن يتأنق في تقديمها، لكي تجتمع لها الدساسة والجمال"[1].

وقد اشتهر في مجال أدب السيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي الأديب والروائي والقاص السعودي **إبراهيم الناصر الحميدان**، الذي يعد رائدا من رواد الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية منذ بداية السبعينات الهجرية 1370هـ حتى الآن، ولد هذا الروائي والكاتب في بلدة " الزبير" جنوب العراق في عام 1349هـ، وتلقى تعليمه في كتاتيب قرية الزبير، ومنها حصل على التعليم الإبتدائي في عام 1366هـ المصادف 1947م، وأنه عمل في طفولته مع والده وإخوته في مهنة التجارة التي كان يمقتها إذ يميل إلى قراءة كتب الأدب العربي التي كانت تزخر بها مكتبة جده، وقد توجه الشيخ الحميدان مع أسرته إلى البصرة ببغداد ودرس في مدارس بغداد المرحلة الأولى من الأعدادية ثم انقطع عن الدراسة والقراءة ثم عاد إلى وطنه الأصلي " السعودية " مع أبيه وإخوته وبدأ يعمل في شركة الزيت العربية الأمريكية المسماة بـ" أرامكو" وفي بعض الأحيان كان يعمل في شركة مد الأنابيب " التابلاين"، وبعد ذلك قد توجه إلى الرياض حيث عمل بالمستشفى العسكري بالرياض حيث تعرف على ممرضة سورية أعجبت به وأعجب بها، ثم ترك العمل وقد التحق ببنك الرياض في عام 1385هـ الموافق عام 1966م وقد تعرف في هذا البنك على صديق كان يعمل في صحيفة سعودية في الحجاز وحكى له قصته حدثت له مع ابنة أحد رؤساء التحرير في جدة في المملكة العربية السعودية.

وأن الشيخ إبراهيم الحميدان قد قام برحلات عديدة إلى عدة دول عربية وغير عربية منها: الكويت ومصر اليونان وغيرها، وقد توفي عن عمر ناهض الثمانين عاما بعد رحلة طويلة بالانتاج الأدبي في مجال الأدب والقصة والرواية بالإضافة إلى مساهماته الثقافية والتربوية المتعددة في مجال الكتابة التلفزيونية والإذاعية، وقد وصفه الدكتور محمد عبده يماني في تكريم الحميدان باثنينية الشيخ عبد المقصود خوجه في

[1] المرجع نفسه، ص:7

جدة في عام 2003م قائلا " إن هذا الإنسان في رأئي لو أمعنا النظر في إنتاجه، لرأينا الصدق في التعبير، ولرأينا روعة الأداء القصصي وبساطة الأفكار التي طرحها، حتى في " أرض بلا مطر" تشعر بأنه كأنما يضع النقاط على الحروف، إنني من الناس رغم أن فارق السن بيني وبين الأستاذ إبراهيم ليس بذلك الفارق الكبير، إلا أننا ممن تربى على هذا الأدب، وأنا ممن يعتز بمثل هذا الأدب منذ أن قرأنا ومرت الأيام وسقيفة الصفا وروايات إبراهيم الناصر"[1].

خلف ورائه ذخيرة علمية من الكتب الأدبية منها: " أمهاتنا والنضال"، و" ثقب في رداء الليل "، و" أرض بلا مطر"، و" سفينة الموتى "، و" غدير البنات "، و" عذراء المنفى "، و" غيوم الخريف"، و" عيون القطط" ، و" رعشة الظل" ، و" نجمتان للمساء" ، و" الغجرية والثعبان" و" دماء البراءة" ، وكذلك قد سجل تجربته الحياتية بعنوان " غربة المكان: صفحات من حياتي"، وأن هذا الكتاب تم إصداره من دار السمطي للطبع والنشر والإعلام بالقاهرة في طبعته الأولى عام 2009م، والكتاب الذي تحدث فيه الكاتب بعض المشاهد من سيرته الذاتية بدء من ولادته ونشأته بقرية الزبير بالعراق حتى تفرغه للكتابة الأدبية والثقافية والاجتماعية مرورا بدراسته في المدارس الابتدائية من الإعدادية إلى الثانوية وكما ذكر فيه سفره للعمل في الكويت ثم في الظهران ثم في الرياض ثم في المنطقة الشرقية كما ذكر تنقلاته ورحلاته المتنوعة في عدة وظائف حكومية وغير حكومية، كما يقول الشيخ إبراهيم الحميدان عن نفسه عن تجربته الذاتية " في بداياتي الأدبية كنت أبحث عن أي توجه رومانسي حالم مما ينتشر عادة في الفن الشعري، حيث وجدت فيه ضالتي المنشودة بينما كنت أهيم في عالم الخيال في ذلك الجوء السرمدي من أفق القرية الوادعة، لولا أن كتب السرد كانت أكثر تواجدا حولي مما جعلني اتفاعل معها بالتدريج، لكنت ضمن طائفة الشعراء اليوم" [2].

---

[1] كتاب الإثنينية 256 بتاريخ 1423/11/17هجـ المصادف 2003/01/20م.

[2] صحيفة اليوم الإثنين الموافق 9 فبراير 2004م العدد 11196

رأي الدراسين المعاصرين له عنه

مما لا شك فيه أن الشيخ إبراهيم الناصر الحميدان يعتبر واحد من مؤسسي الرواية السعودية العربية وأحد أهم رموزها منذ كتب في مطلع الستينيات، قدمت حول أدبه كثير من الدراسات والبحوث العربية، وقد وصفه عدد كبير من العلماء والأدباء المعاصرين له كما يقول عنه الناقد والكاتب الدكتور عالي بن سرحان القرشي " إن فقد المشهد الثقافي للروائي والقاص إبراهيم الحميدان خسارة أدبية كبيرة للمشهد الأدبي في المملكة، مستهلا حديثه بالدعاء له بالرحمة والمغفرة.. (وأردف القرشي) كان الحميدان من أولئك الرجال الذين أرسوا مع دعائم الإبداع دعائم الوعي، لذلك لم يكن إبداعه مجرد هاجس لتكوين اسم، وإنما نجد أن إبداع الحميدان كان يستنهض في الإنسان الشعور نحو حاجاته في الحرية.. والكرامة والتطلع إلى أفق يعالج فيه الإنسان من إطارات كانت تؤطره في العادات والتقاليد وقلة الوعي"[1].

كما يقول الأمين العام لمركز الملك عبد الله بن عبد العزيز للغة العربية الدكتور عبد الله الوشمي واصفا له " أن فقد الحميدان يعد خسارة إبداعية كبيرة، إذ هو الرائد والقامة السامقة وصاحب العطاء المتواصل المتجدد.. (وأردف بقوله) لم يكن الحميدان ذلك المبدع الذي يسحرنا من خلال نصه الإبداعي فحسب، وإنما من خلال نصوص أخرى لا تقل أهمية عن نصوصه الإبداعية، ألا وهي التكامل والاستمرا، عطفا على تجربة الحميدان المتواصلة والمتفقة عطاء إبداعيا.. ومع السنوات الأخيرة من حياته– رحمه الله– ظلت نصوص الحميدان نصوصا متسلسلة إبداعيا، ناضجة في تكاملها الإبداعي، الذي جاء عبر دور تكاملي كان يسهم به الحميدان خلال مسيرته الأدبية عبر المنتديات واللقاءات والمشاركات"[2].

وكذلك جاء اسم **الشيخ عبد الله بلخير**، الذي يحمل عددا من الألقاب مثل " شيخ السياسة والصحافة " و" شاعر الأمة والشباب " في مجال السيرة الذاتية في الأدب

[1] جريدة الرياض بتاريخ يوم الأحد 28 ربيع الآخر 1434هـ الموافق 10 مارس 2013م العدد 16330

[2] المرجع نفسه.

العربي السعودي، ولد في القرن العشرين بلخير في قرية يقال لها "غيل بلخير" بحضرموت في عام 1333هـ الموافق عام 1913م، ونشأ فيها حيث بدأ تعليم القراءة والكتابة والحساب وقواعد الخط العربي، وحفظ القرآن الكريم وشيئا من الحديث النبوي الشريف، وقد انفطر مبكرا على ميدان الشعر العربي والتعلق بها منذ نعومة أظفاره، وقد هاجر مع والده الكريم من حضر موت إلى الحجاز كالكثيرين من أبناء حضرموت وقد استقر المقام في حي الشبيكة بمكة المكرمة حيث أتيحت له الفرصة الغالية للتعليم النظامي بالمدرسة الأهلية، درس بلخير فيها ثم التحق بمدرسة الفلاح التي كان الحاج محمد علي زينل قد أسسها هناك في عام 1911م كما يتذكر الشيخ قائلا " في الشارع كانت المدرسة الوحيدة في محلة الشبيكة، واسمها المدرسة الأهلية، وهي عبارة عن مدرسة تحضيرية أو تمهيدية للأطفال، ويديرها الشيخ الحافظ لكتاب الله، محمد أمين الماحي، وكان التعليم فيها مقتصرا على قراءة القرآن الكريم ومباديء العلوم، وقد التحقت بهذه المدرسة عام 1346هـ/1926م وكان عمري اثني عشر عاما، إذ إنني من مواليد 1333هـ/ 1913م، وكنت ضمن مائة طالب، نتلقى علوم القرآن، وما جد بعد ذلك من علوم مع تطور المدرسة، مثل الحساب، والمحفوظات الأدبية، والخط والمواد الدينية، مثل التجويد، والفقه، والتوحيد، والنحو ومباديء الأدب"[1].

وبعد ذلك قد اختير ضمن بعثة دراسية للذهاب إلى جامعة بيروت الأمريكية لاستكمال حصوله العلمي والأدبي، وأنه عاد بعد استكمال العلم إلى وطنه ليعمل في وزارة المالية ثم توجه إلى الشعبة السياسية بديوان الملك عبد العزيز آل سعود بكونه مترجما بقسم الاستماع حيث كانت هناك إدارة تأسست في منتصف الخمسينات الهجرية 1354هـ سميت بشعبة الإذاعة التي كانت تابعة للشعبة السياسة التي كان لها شأن كبير في ذلك الوقت، وكان الشيخ بلخير له خبرات علمية من أجل ذلك كان الملك عبد العزيز يصطحبه في رحلاته المختلفة داخل وخارج المملكة نظرا لخبراته على اللغة الإنجليزية فقد اعتبره الملك من أهم مترجميه حيث قام بالترجمة للملك عبد العزيز في

[1] باطرفي، خالد محمد، (عبد الله بلخير يتذكر)، ص: 15

لقائه التاريخ الدولي إبان الحرب العالمية الثانية مع الرئيس الأمريكي روز فلت ورئيس الوزراء البريطاني تشرشل، وفي عهد الشيخ بلخير رقيت وازدهرت الإذاعة والإعلام فتم إنشاء مجلة الإذاعة نقل الإذاعة من مكة إلى جدة، وفي ذلك الحين أصدر الملك سعود بن عبد العزيز مرسوما ملكيا بمنح الشيخ عبد الله عمر بلخير رتبة وزير مفوض وعينه مشرفا على المديرية الجديدة للصحافة والنشر.

وكتب كتابا قيما على موضوع السيرة الذاتية أسماه "عبد الله بلخير... يتذكر" فالكتاب يعد من أكثر الكتب العربية الصادرة من دار الناشر السعودي ومؤسس كتاب الإثنينية الأستاذ عبد المقصود خوجه، وأن هذا الكتاب يضم بين صفحاته 720 مجلدا حافلا بالأحداث المميزة والمواقف المعبرة التي قدمها الشاعر الشيخ عبد الله بلخير في شكل صور خاطفة التقطها خالد محمد باطرفي، ذكر فيه الشيخ بلخير سيرته الذاتية عبر فيض من ذكريات لا ينضب معينها، وعلى الخصوص أنه قد عاش في مراحل تأسيس المملكة العربية السعودية، كما أنه شهد على نمو حركات الاستقلال والوعي الوطني وكل الأحداث والوقائع التي هزت المنطقة هزا شديدا بعد الحرب العالمية الأولى، كما يتذكر الشيح بلخير في الصحفة الأولى من الكتاب حكاية تاريخ المدرسة الأهلية والتعليم في المملكة العربية السعودية بدء بـ" المدرسة الأهلية " في مكة المكرمة، مرورا بمدرسة الفخرية الأهلية والصولتية وانتهاء بمدرسة الفلاح في جدة وفي مدرس الصحراء في البادية الحجازية، وأنه يحكي لنا هذه الوقائع والأحداث بكل أسلوب أنيق رائع لا نظير ولا مثيل له.

وعلاوة على هؤلاء العلماء والكتاب والمؤرخين والرجال السياسيين في هذه الفترة من الزمان هناك أدباء آخرون قاموا بكتابة سيرهم الذاتية بأسلوب عربي فصيح ومن أشهرهم الدكتور حمد المرزوقي وهو الذي كتب سيرته الذاتية بعنوان " سفر الخروج "، وكتب حمد إبراهيم الحقيل ذكرياته باسم " مذكرات وذكريات "، وكتب كتابا آخر حول سيرته الذاتية باسم " مذكرات القاضي "، كما قامت بتدوين سيرتها الذاتية الأميرة العربية

ساعة بنت سعيد باسم " مذكرات أميرة عربية "، وكذلك قام بتدوين قصة حياته الأستاذ محمد حسن عواد باسم " مذكرات المنفى " وغيرهم الكثيرون.

وكذلك نرى في هذه الفترة ولا سيما بعد عام 1980م نشاطا ملحوظا ومتلاحقا في مساهمة هذا الفن الأدبي، لذلك نحن نجد أعمالا كثيرة متواصلة حول السيرة الذاتية في خط بياني يكاد يكون متصاعدا، فيمكن لي أن نعتبر المرحلة من 1980 حتى يومنا هذا مرحلة خصبة لفن السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية حيث أصدرت فيها عدة كتب أدبية حول السيرة الذاتية والترجمة الشخصية ومن أشهرها بوح الذاكرة (1420 و1422هـ)، بديات: فصول من السيرة الذاتية (1422هـ)، رحلة الأمل والألم (1432هـ) أيام من حياتي (1424هـ)، خواطر وذكريات (1424هـ)، أتذكر (1425هـ)، وسم على أديم الزمن (1426هـ)، الجزء الأول هـ)، من سوانح الذكريات (1427هـ)، قطرات من سحائب الذكرى (1427هـ)، سيرة ذاتية وثقافية (1427هـ)، أيام العمر: من مكة إلى أدنبرا (1427هـ)، مسيرتي مع الحياة (1428هـ)، ذاكرة من الزمن (1428هـ)، سيف بن أعطى (1428هـ)، من زوايا الذاكرة (1429هـ)، حياة في الحياة (1429هـ)، بعض الأيام بعض الليالي (1429هـ)، كهف أفلاطون: عابرون على، غربة المكان: صفحات من السيرة الذاتية (1430هـ)، مشواري على البلاط (1430هـ)، عشت سعيدا: من الدراجة إلى الطائرة (1430هـ)، بين هؤلاء عشت (1431هـ)، حب الحصيد: ذكريات ومقتطفات (1431هـ)، ذكريات مما وعته الذاكرة (1431هـ)، من حارة الباب إلى أبواب الحياة (1432هـ)، قبل النسيان (1432هـ)، أشق البرقع أرى (1432هـ)، سيرة حياة (1433هـ)، قافية الحياة 1434هـ)، التحول (1434هـ)[1]. وغيرها الكثيرة.

[1] الغامدي، د. صالح بن معيض، والحيدري، د. عبد الله، السيرة الذاتية في الأدب السعودي دراسات نقدية، ص: 254- 255.

الباب الثاني

الشيخ عزيز ضياء: حياته وأعماله الأدبية

الفصل الأول: عصر الشيخ عزيز ضياء – لمحة خاطفة

الفصل الثاني: ملامح من حياة الشيخ عزيز ضياء

الفصل الثالث: جهوده العلمية والأدبية ونشاطاته العملية

الفصل الرابع: إسهاماته في مجالات شتى

الفصل الخامس: أعماله المؤلفة والمترجمة

الفصل الأول

عصر الشيخ عزيز ضياء – لمحة خاطفة

لمحة خاطفة على تاريخ المملكة العربية السعودية:

مما لاشك فيه أن المملكة العربية السعودية لها أهمية كبرى ومكانة عظمى في التاريخ الإسلامي بموقعها الاستراتيجي الجغرافي، وبكونها أرضا مقدسة تقع فيها قبلة المسلمين، وأن هذه الأرض المقدسة تشرفت بوجود الحرمين الشريفين في حدودها " وبلاد العرب أو جزيرة العرب كما تعرف عند العلماء العرب هي الأراضي المحاطة ببحر الهند، والبحر الأبيض المتوسط، ثم دجلة والفرات، ويبلغ متوسط عرض الجزيرة 700 ميل، ومنتهى طولها 1200 ميل، وتزيد مساحتها عن مساحة الهند وبلاد العرب من البلاد القليلة التى حافظت على تقاليدها وعاداتها وطرق معايشها منذ أقدم عصور التاريخ "[1].

وإن جزيرة العرب مشهورة بصحاريها الواسعة وتشغل هذه الصحارى قسما كبيرا من مساحتها وأهم هذه الصحارى: الدهناء، والنفوذ، والصحراء الجنوبية أو صحراء الربع الخالي، وأن هذه الصحارى تصبح بعد الأمطار من أفضل المراعي للحيوانات، ويوجد ببلاد العرب هضاب يبلغ بعضها أكثر من ثمانية آلاف قدم في شمال وجنوبي منطقة البحر الأحمر– مدين واليمن– أما قلب الجزيرة فالارتفاع فيه تدريجي– فمستوى البلاد في نجد يبلغ حوالى 2500 قدم، بينما يصل في بعض الجهات كأجا في الشمال إلى خمسة آلاف قدم، وفي نهاية الجنوب الشرقي توجد هضبة عالية يتكون منها الجبل الأخضر، وفي الوسط الشرقي يوجد مرتفع طويل يقابل الغرب يسمى جبل طويق، ويبلغ ارتفاعه نحو 600 قدم[2].

المملكة العربية السعودية هي تشغل أكثر شبه الجزيرة العربية التي تقع أقصى الجنوب الغربي من قارة آسيا، وهي معروفة بثرواتها التجارية والثقافية والحضارية من

---

[1] وهبه، حافظ، جزيرة العرب في القرن العشرين، ص: 1

[2] المرجع نفسه، ص:2

تاريخها الطويل القديم، وموقعها عظيم الأهمية بأنها تقع على نقطة الاتصال بين القارات الثلاث من أمثال آسيا وإفريقيا وأوروبا، وتصل حدودها إلى الخليج العربي الذي يتصل طريقها بآسيا الوسطى وجنوب آسيا وجنوب شرقي آسيا، إن هذه الأمور الهامة التي تجعلها دولة استراتيجية مهمة بين الدول من العالم العربي، وإن هذه الدولة تشتمل على ثلاثة أقاليم رئيسية وهي الحجاز، ونجد، وعسير، وهناك أجزاء أخرى متفرقة مختلفة لا نود أن نطول الكلام عن هذه الأجزاء الباقية بل نود هنا أن نذكر الأوضاع المتغيرات من هذه المناطق ولا سيما عن أوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية لمنطقة الحجاز، لأنها شهدت تغيرات كبيرة وثورات عظيمة هائلة في الحكم والاجتماع في ذلك الوقت الذي تفتحت عينا الأديب الأريب والكاتب الموهوب الأستاذ الشيخ عزيز ضياء بن زاهد مراد على وجه الأرض.

إقليم عسير:

يقع هذا الإقليم في جنوبي الحجاز غرب شبه الجزيرة العربية، ويمتد من بلاد زهران شمالا إلى ظهران الجنوب جنوبا، ومن تثليث وبيشتة شرقا إلى القنفذة وجازان غربا، ويحد الربع الخالي وإقليم اليمامة من الشرق، ومياه البحر الأحمر من الغرب والحجاز من الشمال وبلاد اليمن من الجنوب، يحتوي هذا الإقليم على بعض المناطق الزراعية، وبكونها مجاورا من بلاد اليمن تمطر السماء مطرا غزيرا في موسم الخريف، وتوجد فيها مدن شهيرة بخصائصها المختلفة بما فيها التجارة والزراعة، وينحصر أبناء المملكة على التجارة والزراعة وصيد السمكات والحيوانات وما إلى ذلك كما يذكر الدكتور عبد الله العثيمين مشيرا إلى ذلك بقوله " وكانت الحياة الاقتصادية في عسير تقوم على أمور عدة أبرزها الزراعة والثروة والحيوانية والسمكية وكانت الزراعة والثروة الحيوانية تتأثران بالعوامل الطبيعية والظروف السياسية المحلية، ولكن وجود الأمطار الموسمية في تلك المنطقة يوحى بأن الحياة الاقتصادية هناك لم تكن سيئة، وكانت منطقة عسير بعيدة نسبيا عن مركز الحركة العلمية في مكة والمدينة واليمن"[1].

[1] العثيمين، الدكتور عبد الله، تاريخ المملكة العربية السعودية، الجزء الأول، ص:26

إقليم نجد:

تعد من أهم الأقاليم في شبه الجزيرة العربية التي تقع في وسط الجزيرة، وإن الحكم السعودي قبل تأسيس المملكة العربية السعودية في شكله الأخير كان مقصورا على هذا الإقليم، ومن الممكن أن نقسم هذا الإقليم إلى أربع مناطق وهي: المنطقة الشمالية، والمنطقة الجنوبية، والمنطقة الشرقية، والمنطقة المتوسطة، وهنا نود أن نذكر تعريفا موجزا بهذه المناطق لأن التعريف الموجز من هذه المناطق ضروري بكونه منطقة عمودية للحكم العربي السعودي في مراحلها المختلفة وهي كما يلى: –

- **المنطقة الشمالية:** هي المنطقة المعروفة باسم " الجبل " وأنها تشهر باسمها الحقيقي " حائل " وملحقاتها، وهذه المنطقة محيطة بجبال وسهول رملية من ثلاث جهات تسمى " النفود " وعاصمتها " حائل " المدينة الجميلة، وتقع بين جبلي " السمراء " و" أجا " المعروف بجبل " السموأل " ذي الشهرة التاريخية وكان مقرا لحاتم الطائي، وأن أراضيها خصبة وفيه شلالات يستفاد منها عند اللزوم، وترابه يحتوي الذهب والنحاس، وهواء هذه المنطقة معتدل جدا وأراضيها المقدسة خصبة وتربتها غنية وماؤها عذب غزير، وتقع فيها غابات من النخيل العذب الناضج وحدائق وبساتين وحقول تنبت الخضر والحبوب على أنواعها، ويتصف سكان هذه المنطقة بالشجاعة والحماسة وهم يشتغلون بالتجارة والزراعة.
- **المنطقة الجنوبية:** هذه هي المنطقة التي يطلق عليها " الرياض " وتشتمل على المدينتين الكبيرتين " العارض " وهي حاليا " العاصمة الرياض" والدرعية وملحقاتهما، وهواء هذه المنطقة الجنوبية حار نسبيا وأراضيها قاحلة ماحلة للغاية، كما كانت أكثر مياهها مالحة، ولكن الآن فقد اتسعت أرجاءها وطابت هواؤها وكثرت مياهها، وهذه كلها أصبحت ممكنة بفضل النهضة العمرانية الحديثة بالجد والنشاط، كما يوجد في أطراف العاصمة غابات من النخيل وبعض القرى الجميلة المزينة بالحدائق المثمرة والبساتين الجميلة، ويحترف أبناء هذه المنطقة الجنوبية التجارة والزراعة وغيرها.

- **المنطقة الشرقية:** إن هذه المنطقة المعروفة باسم " منطقة الأحساء " وقاعدتها " القطيف " وتتألف هذه المنطقة الشرقية بأعظم إمكانيات الري، فهناك ينابيع كبيرة تتدفق بالماء العذب الزلال بكميات هائلة كبيرة، ويقع في واحات الأحساء والقطيف وصفا وتاروت أكبر نبع جار وهو " نبع عين حقل " وأنه يعطي 22 ألفا و500 جالون في الدقيقة الواحدة ولا يزال جاريا متدفقا، ولقد كانت هذه المنطقة في العهد العثماني لواء إداريا مستقلا، وكانت خاضعة لحكم آل سعود ولا سيما في عهد المرحوم الأمير فيصل ابن سعود، ثم استرجعها المرحوم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في سنة 1329هـ.
- **المنطقة المتوسطة:** لقد اشتهرت هذه المنطقة باسم " القصيم " وهي بمثابة القلب من نجد وتتألف من عدة مدن كبيرة منها: عنيزة وبريدة والرس والخبرة والبكرية وشقرا وما يتبعها من مدن وقرى ودساكر، ولها ميزات خاصة من الوجهة الحربية والإدارية والاقتصادية، وهواؤها معتدل، وأرضها خصبة وتربتها غنية جدا ومياهها غزيرة عذبة، ومحصولاتها كثيرة تفيض عن حاجة السكان فيصدرون منها إلى مقاطعات وملحقات نجد، والتجارة والزراعة فيها بتقدم مستمر وسكانها متصفون بالحزم والعزم والصبر والأناة، ويحترف أكثرهم التجارة والباقون الزراعة والصناعة، وفيهم طبقة ثرية، ولا تقتصر تجارتهم على مناطق نجد بل يتجاوزونها إلى العراق وسوريا ومصر[1].

إقليم الحجاز:

تعتبر منطقة الحجاز من أهم مناطق جزيرة العرب لعدة عوامل منها: العامل الديني لوجود الحرم الشريف بمكة المكرمة والمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة حيث يؤمهما كثير من المسلمين لأداء الشعائر الدينية الإسلامية الخالصة، ثم العامل الاقتصادي فالحركة التجارية في ثغور البحر الأحمر ورسوم البضائع المصدرة للحرمين ووفرة الإنتاج الزراعي في المناطق القريبة من مكة المكرمة كالطائف وفي المدينة

[1] المختار، صلاح الدين، تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، الجزء الأول، ص: 24

المنورة يضاف أيضا العامل الاجتماعي فالمجتمع الحجازي أكثر تطورا في شتى مجالات الحياة من المجتمع النجدي الذي تغلب عليه طبيعة التنقل وعدم الاستقرار[1].

ويقع الحجاز من جزيرة العرب في ناحيتها الشمالية والغربية، وهو يمتد من معان مارا برأس خليخ العقبة إلى نقطة بين الليث والقنفدة على شاطئ البحر الأحمر، وأما حدوده من الجهة الشرقية فلم تكن معروفة تماما، بل كانت تمتد وتتقلص تبعا لقوة الأتراك والأشراف، ومبلغ سيطرتها على البلاد[2]. وفي البادية يطلقون الحجاز على المنطقة الجنوبية للطائف، فاذا قالوا: إن هذا البدوى حجازي، يعنون أنه من جنوبى الطائف، وهذه التسمية لها وجه، فإن جبال السراة الممتدة من اليمن إلى الشمال هي حجاز، بمعنى أنها فاصلة بين الغور وهو تهامة ونجد، والمساحة التقريبية للحجاز تبلغ زهاء 700 ميل طولا من الشمال للجنوب و250 ميل عرضا من الشمال للغرب.[3]

مناطق الحجاز:

تشتمل منطقة الحجاز على عدة مناطق طبيعية بعضها البعض وهي كما يلي:

-

- **المنطقة الساحلية:** وهي المنطقة الممتدة بمحاذاة شاطئ البحر الأحمر (تهامه) وتحفها شعاب مرجانية.
- **منطقة جبيلة عالية:** تأخذ في الانخفاض التدريجى حتى تصل إلى ما بين جدة ومكة إذ لا يزيد ارتفاعها هناك عن ألفي قدم.
- **منطقة نجدية:** واقعة بين جبال مرتفعة جدا في الشمال، ومغطاة بالحم والسائل البركاني من العويرض، ولكنها تأخذ في الانخفاض في اتجاهها للجنوب، فيصل ارتفاعها في غريبي مكة والطائف إلى نحو ألف قدم.

---

[1] العتيبي، إبراهيم بن عويض الثعلي، الأمن في عهد الملك عبد العزيز تطوره وآثاره (1319هـ- 1373هـ/ 1904م-1953م)، ص: 36/35

[2] وهبه، حافظ، جزيرة العرب في القرن العشرين، ص: 14

[3] المرجع نفسه، ص: 14

- **الأخدود الرئيسي:** الأجزاء المرتفعة منه مغطاة بالحم كما هو الحال في الخرمة العويرض، خيبر ولكنه لا يزال محتظا بارتفاع لا يقل على خمسة آلاف قدم خلف مكة.
- **المنطقة الأخيرة:** هي أعلى حافة المنحدر الشرقي في اتجاة قلب الجزيرة، ففي المنطقة الأولى والثالثة تقع المدن الآهلة بالسكان، فميناء العقبة والمويلح والوجه، وأملج، وينبغ، ورابغ، وجدة، واللبث واقعة في المنطقة الأولى[1]. وتوجد في منطقة الحجاز واحات خصبة متفرقة هنا وهناك وهي على غالب الأحيان واقعة على خط المنطقة الرابعة والخامسة، ومنها: الحائط والحويط فدك وخيبر والحناكية والطائف ووادي فاطمة والصفراء وغيرها.

ومما لا يختلف فيه اثنان أن منطقة الحجاز هي منطقة تاريخية تعد من أهم الأقاليم لشبه الجزيرة العربية الجغرافية، وتشتمل هذه المنطقة على مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف، وجده، وغيرها من المدن والقرى التي تمتد على ساحل البحر الأحمر، وأن هذه المنطقة لها أهمية كبيرة بكونها مركزا هاما بين مراكز الحضارات القديمة في العراق ومصر والشام واليمن وغيرها، بذلك فقد نشأت عدة مدن تجارية في الحجاز مثل مكة المكرمة والطائف وجدة وخيبر ووادي القرى من أجل تقديم الخدمات لتجار القوافل كما ذكر المقدسي المدن والقصبات التالية حيث يقول " إن الحجاز فقصبته مكة ومن مدنها يثرب، وينبع، وقرح، وخيبر، والمروة، والحوراء، وجدة، والطائف، والجار، والسقيا، والعويند، والحجفة، والعشيرة، هذه الأمهات دونهن بدر، خليص، أمج، بدأ، الحجر، يعقوب، السوارقية، الفرع، السيرة، جبلة، مهايع، وحاذة "[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن منطقة الحجاز تنقسم إلى ثلاثة مناطق وهي: المنطقة الشمالية، والمنطقة الوسطى، والمنطقة الجنوبية. أما المنطقة الشمالية: هي المنطقة التي تمتد من العقبة إلى يثرب وتشتمل على مدن الحجاز الشمالية وتليها

[1] المرجع نفسه، ص: 15

[2] المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص: 69

المنطقة الوسطى وتمتد إلى الطائف، ولهذه المنطقة لها أهمية كبيرة بالغة لأنها تقع فيها أهم المدن للحجاز ومنها: المدينة المنورة، وينبع، ومكة المكرمة، وجدة، ثم المنطقة الجنوبية التي تمتد من جنوب الطائف إلى الليث وغير ذلك.

منطقة الحجاز قبل ضمها:

سوف أتناول البحث عن منطقة الحجاز قبل ضمها بالمملكة العربية السعودية مسلطا الضوء على أوضاعها السياسية والاقتصادية والدينية وغيرها من الأوضاع التي تفتحت فيها عينا الشيخ عزيز ضياء والتي أثرت أثرا قويا في تكوين شخصيته الفذة.

الأوضاع السياسية:

إن منطقة الحجاز كانت تحت حكم الأشراف والمماليك منذ مطلع القرن الرابع للهجرة، وعندما نجح الأمراء العثمانيون في ضم مصر والشام في سنة 923هـ الموافق 1517م فأعلن الأشراف للحجاز ولاءهم للسلطان العثماني سليم الأول وقد أقر السلطان الشريف بركات الثاني على حكم الحجاز كما أشار إلى ذلك علي بن حمد الصلابي في كتابه بقوله " كانت الحجاز تابعة للمماليك وعندما علم شريف مكة بمقتل السلطان الغوري ونائبه طومان بادر شريف مكة بركات بن محمد إلى تقديم السمع والطاعة إلى السلطان سليم الأول سلمه مفاتيح الكعبة وبعض الآثار فأقر السلطان سليم شريف الحجاز باعتباره أميرا على مكة والحجاز، ومنحه صلاحيات واسعة، وبذلك أصبح السلطان سليم خادما للحرمين الشريفين وأصبحت مكانته أقوى أمام الشعوب الإسلامية وبخاصة أن الدولة أوقفت أوقافا كثيرة على الأماكن المقدسة "[1].

وإن العثمانيين لما سيطروا على المنطقة للحجاز في عام 1517م فمنذ ذلك اليوم ما زالوا يهتمون أشد الاهتمام بالحجاز لأن هذ المنطقة كانت مشتملة على الأماكن المقدسة كالمدينة المنورة ومكة المكرمة، وفي أثناء ولاية الشريف غالب بن مساعد دخلت منطقة الحجاز تحت حكم الدولة السعودية الأولى بقيادة الإمام سعود بن

[1] الصلابي، علي بن محمد حمد، تاريخ الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط، ص:333

عبد العزيز في سنة 1218هـ الموافق 1803م، وقد لفت ظهور الدولة السعودية الأولى وإزدهارها واتساع نفوذها وقوتها نظر الدولة العثمانية فقررت العمل على القضاء على الدولة العربية السعودية الأولى فأصدرت الدولة العثمانية أوامرها إلى محمد علي باشا حاكم مصر ثم أرسلته مع الجيش المصري لشن الهجوم على القوات من الدولة العربية السعودية وواجهت هذه القوات بقيادة الإمام سعود بن عبد العزيز، حاصر إبراهيم باشا القوات السعودية، وهزمها ونجح في إعادة الحجاز إلى الدولة العثمانية مرة ثانية في عام 1816م.

وفي أثناء حكم الدولة السعودية الثانية (1824م-1891م) أدرك الإمام فيصل بن تركي أهمية المنطقة للحجاز وتقدم لمواجهتها مما أثار حفيظة الدولة العثمانية، فأرسل محمد علي جيشا بقيادة خورشيد باشا وبعد عدة معارك استسلم الإمام فيصل بن تركي في سنة 1834م، وقد بقى الإمام فيصل في مصر من سنة 1254هـ إلى 1259هـ وكانت نجد تخوض فيها فتنة أهلية بين خالد بن سعود وبين عبد الله بن ثنيان، الذي يريد استخلاص نجد من قوات الأتراك، واستتب الأمر فيها لعبد الله بن ثنيان وهرب أخيرا خالد بن سعود من الرياض إلى الأحساء فالقطيف فالكويت فمكة حيث توفي فيها[1].

وأثناء ذلك تمكن الإمام فيصل بن تركي من الفرار من مصر مرة ثانية، ويقال: إنه تمكن من ذلك بمساعدة عباس باشا الأول، فإنه كان معجبا به وبعقله، فذابت قوة ابن ثنيان، وأسلم له سائر الرؤساء والأمراء، وتمكن بعد مدة قصيرة من استعادة المملكة القديمة ما عدا الحجاز، وقد ساعده على ذلك أولا انسحاب الجيوش المصرية من البلاد العربية، وزوال نفوذهم من تلك البلاد نتيجة لمعاهدة لندن سنة 1840م، وثانيًا مسلك الحكمة والتبصر الذي اتبعه الإمام فيصل مع الأتراك الذين اكتفوا بسيادتهم الإسمية على بلاد العرب، وبذلك عادت الطمأنينة إلى قلوب السكان، وشمل الأمن الطرق

[1] وهبه، حافظ، جزيرة العرب في القرن العشرين، ص: 229

والبلاد التي بسط فيها فيصل سلطانه ونفوذه[1]. وبعد انسحاب قوات محمد علي باشا من وسط وشرقي الجزيرة العربية بداية خفيفة لإعادة الفوضى والفتن والصراعات المحلية والاضطرابات المختلفة إلى تلك الأقاليم، فلم يمنع بقاء ثماني مأة جندي من قوات خورشيد باشا مع الأمير خالد بن سعود أهالي المنطقة من إعلان العصيان والمناداة بإخراج الأجانب من بلادهم[2].

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى في عام 1331هـ الموافق 1914م كانت منطقة الحجاز تحت حكم الشريف حسين وأنه كان الحاكم من قبل الدولة العثمانية في ذلك الوقت، وأن عبد العزيز نظر إلى الجزيرة العربية ودرس الأوضاع الراهنة مما تجري في البلاد العربية في بداية الحرب العالمية الأولى، فرأي أنه في موقف حرج، وكانت الأوضاع للجزيرة العربية معقدة تماما، ولا بد أن يختار طريقا واضحا لأن وجود المملكة العربية سوف يقف على قراره، وصل الأمير بثاقب فكره وسعة نظره وغزارة اطلاعه إلى نتيجة بأن يكون حليفا مع الإنكليز ثم أعلن تحالفه مع الإنكليز بعد تحالف الشريف حسين مع الأتراك، ولم يبق الشريف حسين مع الأتراك حتى أعلن ثورته ضد الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى في عام 1916م، ثم اتصف نفسه بملك على الحجاز ثم ملكا للجزيرة العربية كلها، فاحتج الأمير على هذا اللقب فأجابه الإنكليز أن الشريف حسين يعترف نفسه ملكا على الحجاز فقط ولا على الجزيرة العربية كلها.

هكذا قد وزع الإنجليز مناطق البلاد العربية كلها تحت نفوذ أبناء الشريف حسين، فأدرك عبد العزيز سائر المؤامرات للإنكليز ولكنه ظل ساكتا حتى بدأ الشريف حسين يحتل مناطق من داخل أراضي الدولة السعودية العربية، وهكذا تمكن الأمير بمساعدة الإخوان لتصفية ابن الرشيد كما يذكر الأستاذ بكري شيخ في كتابه " الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية " قائلا "وجهز الأمير جيشا قوامه عشرة آلاف محارب من أهل نجد سنة 1340هـ المصادف 1921م، وسار على رأسه نحو حائل،

[1] المرجع نفسه، ص: 230

[2] الروقي، عائض بن حزام، حروب محمد علي في الشام وأثرها في شبه الجزيرة العربية، ص: 460

حتى إذا وصل إلى تخومها حاول الشمريون مصالحته على أساس أن يبقى لجبل شمر استقلال ذاتي، ويتولى عبد العزيز الشؤون الخارجية، فرفض مصرا على أن يدخلوا فيما دخل فيه أهل نجد فرفضوا، حينئذ ابتدأت المعركة وأنذر السكان بهدم حائل إن لم يسلموا ويتخلوا عن آل رشيد، فاستغاث الرشيديون بالإنكليز وبالحسين فلم يلب أحد، وأخيرا فتحت المدينة أبوابها للسلطان مستسلمة مع أسرتها الحاكمة، فأكرمهم وعفا عنها جميعا، واحتل خيبر ووادي السرحان والجوف "[1].

وقد كان العالم الأوروبى في ذلك الحين منقسما إلى قسمين دول الوفاق (Allied Power) وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا، ودول المحور (Axis Power) ألمانيا، والدولة العثمانية ومن حذا حذوهما، وكانت بريطانيا القوة الوحيدة صاحبة النفوذ في منطقتى الخليج العربي والبحر الأحمر، فقد كان احتلالها لعدن في سنة 1255هـ/1839م، واحتلالها لمصر عام 1300هـ/1882م، قد ساهم في جعل نفوذها يترسخ في شمال الجزيرة وجنوبها من جهة البحر الأحمر، وقد ساعدها على ذلك قوتها البحرية التي لم يكن للدولة العثمانية مثلها، وكانت بريطانيا دائما تسعى أن تجعل المنافذ المائية تحت سيطرتها لا سيما وأنها تتحكم في الطريق إلى الهند مما يهدد ممتلكات التاج البريطاني في شرق وجنوب شرق آسيا.[2]

ومن أهم القوى المحيطة بالحجاز آنذاك الأمير عبد العزيز آل سعود أمير نجد والأحساء، وآل رشيد حكام شمر الذين يدينون بالولاء للدولة العثمانية التي تدعمهم وتشجعهم ضد الإمام عبد العزيز، وكذلك الأدارسة الذين تقع في أيديهم عسير تحت السيادة العثمانية، وقد خاض الإدريسي حربا ضد الوجود العثماني في اليمن وعسير.[3]

خشي الملك عبد العزيز أن يؤثر هذا الصراع الدولي على مناطق شبه الجزيرة العربية ووجد أن الحكمة تقتضي بأن يقف على رأي الأمراء والعرب في تلك الحرب

---

[1] بكري، الدكتور شيخ أمين، الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، ص: 39/38

[2] الجار الله، تركيه بنت حمد ناصر، موقف الملك عبد العزيز من الحرب العالمية الأولى، ص :98

[3] المرجع نفسه، ص: 95/94

العالمية، فكتب رسالة إلى الشريف حسين وابن الرشيد وإمام اليمن ومبارك الصباح قائلا لهم " لقد علمتم ولا شك بوقوع الحرب، فأرى أن نجتمع للمذاكرة علنا ونتفق فتنقذ العرب من أهوالها، ونتحالف ودولة من الدول لصون حقوقنا وتعزيز مصالحنا".[1] أوفد الشريف حسين بن علي ولده الأمير عبد الله إلى حدود نجد للبحث مع موفد الإمام عبد العزيز آل سعود في الموضوع الذي ذكره الإمام في رسالته، ولكن الاثنين سرعان ما افترقا دون أن يتخذا أي قرار كان، بيد أن الوقائع والأحداث اثبتت فيما بعد: أن الشريف كان يتحين الفرص لمهاجمة ابن السعود[2]. وأما ابن الرشيد فقد أجاب على رسالة الملك بصراحة، إذ قال" إني من رجال الدولة فأحارب إذا حاربت وأصالح إذا صالحت" واقترح صاحب الكويت مبارك الصباح على الملك في جوابه قائلا "إن اللورد هاردنغ حاكم الهند قادم إلى البصرة ومن رأيئ يا ولدي أن تقدم إلينا للمفاوضة "[3].

أما موقف الإمام عبد العزيز من هذه الحرب، كان في حقيقته، وباديء الأمر حياديا، فلم يعادي شريف مكة ويحاربه كما أراد الترك ولم يساهم في محاربة الترك في العراق كما أراد الإنكليز، إذ كان يرى أن الخطر يكمن في حائل، لما يريد أين الرشيد به من شر ومكروه تنفيذا لرغبات الدولة العثمانية، فلذا أراد الإمام أن يضع حدا لهذا "الخطر الشمري العنيد" وتأهب للقتال، وكان ابن الرشيد، بدوره تأهب له، وفي الصباح الباكر من اليوم السابع من شهر ربيع الأول سنة 1333هـ (24 يناير 1915م) اصطدم الفريقان في معركة طاحنة ضروس في جراب وكان سمو الأمير سعود بن الإمام عبد العزيز سيد الميدان وفارسه المعلم في هذه الموقعة ورغم صغر سنه[4].

الأوضاع الإدارية:

عرفنا فيما سبق أن منطقة الحجاز دخلت تحت النفوذ العثماني في مطلع القرن العاشر الهجري، فحافظ العثمانيون على الأوضاع السائدة في الحرمين الشريفين ولا

---

[1] المختار، صلاح الدين، تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، الجزء الثاني ص :163

[2] المرجع نفسه، ص: 164

[3] المرجع نفسه، ص:164

[4] المرجع نفسه، ص: 165/164

سيما الوضع الثقافي والاجتماعي والإداري، وكان التقسيم الإداري في أوائل الحكم العثماني للحجاز يختلف عن آخره فمع تسمية الوالي الذي يتم تعينه من استانبول، في البداية بأمير الأمراء وتسمية أمير المدينة المنورة الذي يعين من استانبول بشيخ الحرم وتسمية أمير مكة المكرمة الذي يختار من الأشراف بشريف مكة إلا أنه تغير اسم بعض تلك الوظائف في العهد الأخير، حيث أصبح يطلق على الأول والي الحجاز وعلى الثاني محافظ المدينة المنورة[1].

وأما الأوضاع للإدارية في منطقة الحجاز في أثناء حكم الشريف حسين فإنه قد اهتم اهتماما بالغا بالأوضاع الإدارية في الحجاز، أنه قد تمثل ذلك تأليفه للوزارة عام 1335هـ المصادف 1917م، وأنشأ مجلس الشيوخ الهيئة التشريعية التي ستضع النظم والقوانين إلا أن ذلك التشكيل يعنى مجلس الشيوخ الوزراء لم يكن سوى إطار خارجي، وصورة شكلية لنظام الحكم أمام الناس، إذ أن الشريف حسين انفرد بالتصرف في جميع الأمور صغيرها وكبيرها[2].

عندما ندرس الأوضاع الإدراية في الحجاز أثناء حكم الشريف حسين فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة هو أن هناك قناصل معتمدون على بعض الدول في جدة، وهم المعتمد البريطاني ومعتمد الاتحاد السوفيتي، وقناصل كل من فرنسا وهولندا وإيران والتي كانت مهمتها تسهيل عملية نزوح رعاياهم أو رعايا الدول التي يستعمرونها للحج في الأراضي الحجازية، كما كان هناك تمثيل قنصلي لكل من النمسا وبلجيكا، وكانت مهمة هذا التمثيل تجارية بحته، وبالإضافة إلى أن الدول الهاشمية شاركت في عصبة الأمم وحظيت بأحد المقاعد فيها مما ألزمها الخصوع لقرارات تلك العصبة وميثاقه[3].

وكذلك كان لنظام الامتيازات الأجنبية السائدة في جميع ولايات الدولة العثمانية أثره السلبي على الحجاز في عهد الأشراف الهاشميين، حيث نتج عن تلك الامتيازات

---

[1] صابان، الدكتور سهيل، جوانب الحياة العلمية في الحجاز من خلال بعض الوثائق العثمانية ، نشرت هذه المقالة على شبكة http//www.alukah.net/culture/0/26860/#1x2224gjryea.

[2] الغامدي، محمد جمعان، جدة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود، (1925م- 1953م)، ص: 51

[3] المرجع نفسه، ص: 54/53

تدخلات خاصة في الشؤون الداخلية، وإقامة محاكم أجنبية للفصل في قضايا الأجانب التابعين ليتك القناصل، وكان هذا مظهرا من مظاهر انتفاض سيادة الدولة الهاشمية[1].

الأوضاع الاقتصادية:

مما لا يشوبه شيء من الشك هو أن العثمانيين عندما تسيطروا على الحجاز منذ ذلك اليوم أنهم لايزالون يهتمون اهتماما كبيرا بالحجاز المقدس لأن هذه المنطقة هي التي تقع فيها الأماكن المقدسة للمسلمين كالحرم المكي الشريف والحرم المدني، وكان هذا الاهتمام لم يكن للأماكن المقدسة بل تعداها إلى الناس المقيمين فيها كما يقول الدكتور الصفصافي أحمد القطوري في مقالته التي نشرت على الشبكة لعنوان " قوافل الحج في العصر العثماني" حيث يقول " قد أعفت الدولة العثمانية منطقة الحجاز من أداء الضرائب، بل أقر لها سليم الأول ثلث ماكان يجبي من مصر، كما أوقف خراج اليونان عند فتحه على الحرمين الشريفين، أعفى سكان الحجاز من التجنيد، وأبقت الدولة على الحكم الذاتي المتمثل في نظام الشرافة "[2].

وإن العمل الذي قد فضتله الدولة العثمانية خلال فترة حكمها وقوتها في الاهتمام هو قوافل الحجاج حيث يقول الدكتور الصفصافي " هو قوافل الحج والإشراف المباشر والفعلي على الحج، واعتبرت هذا العمل واجبا يقع على عاتقها باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه، فانشأت قوافل الحج، واهتمت بالطرق، فأقامت الحصول، وحفرت الآبار على طول طرق الحج، وشجعت على إقامة الخانات، وأقامت المخافر، وكانت تشرف على قوافل الحج الرئيسية التي كانت تخرج من أنحاء الدولة كافة في مواعيد مجددة كل عام، وتضع لها قوة تحرسها، يقودها أحد كبار العسكريين الذي كان يسمي سردار الحج وكان على رأس كل قافلة أميرا للحج، وكثيرا ما كان أمير الحج يتولى قيادة الجيش المرافق للقافلة "[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص: 54

[2] راجع للمزيد: http//www.hiramagazine.com/archives/title/29

[3] راجع للمزيد: http//www.hiramagazine.com/archives/title/29

ولكن عندما رأينا في الفترة الأخيرة من حكمها وجدنا أن الأوضاع قد تغيرت ولكن على الرغم من أن الدولة العثمانية ما زالت تهتم كل الاهتمام بمواطن الحجاز وترسل إليهم أثناء حكومتها في الحجاز الحبوب والطعام والأموال بقدر وافر كما يكتب السنجاري في كتابه " منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم" حيث يقول " ثم وصلت إلى بندر جدة مراكب من السويس فيها سبعة آلاف أردب قمح للفقراء وهو أول حب ورد للفقراء بمكة فكتبت جميع بيوت أهل مكة إلا السوقة والتجار، ووزع عليهم ذلك الحب "[1].

وكانت الأوضاع الاقتصادية في الحجاز في عهد الشريف حسين تزداد سوءا، فحاول الشريف حسين أن يعوض ذلك ضرائب باهظة على الحجاز وأهل الحجاز خاصة بعد أن امتنع الإنكليز عن دفع الإعانة والمعونة التي كانوا يدفعونها إليه في أثناء الحرب التي كانت تجري فيها، فأراد الشريف حسين أن يعوض هاذا الخسران الكبير بشكل ضرائب ثم قرر ضرائب جديدة على الحجاز ومواطن الحجاز الذين استنكروا هذه الضرائب ورفضوها يقول أمين الريحاني مشيرا إلى ماكان يتحمل الحجاج الذين يأتون إليها من كافة أنحاء العالم الإسلامي حيث يقول " إن هناك رسوما للحكومة يدفعها الحجاج، وفوق تلك الرسوم كان الحسين يتفاضي المطوفين نصف ليرة عن كل حاج، عمل المطوف بأمر مولاه فأعفى حجاجه من الزيادات ولكنه قد أمر بدفع الرسم نصف ليرة عن كل حاج "[2]. ومن ثم بدلا من أن تنتعش التجارة ويزداد التقارب بين المسلمين خلال مواسم الحج في عهد الشريف حسين كان شبح الجريمة يخيم على المشاعر المقدسة، فالحاكم كان متهاونا بل عاجزا عن قمع الجريمة، والمحكوم كان جاهلا بحقوقه وعاجزا عن المطالبة برفع الظلم عنه مما جعل الفوضى تعم البلاد.[3]

---

[1] السنجاري، علي بن تاج الدين بن تقي الدين، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، الجزء الثالث، ص: 236

[2] الريحاني، أمين، تاريخ نجد الحديث وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما، ص: 347

[3] العتيبي، إبراهيم بن عويض الثعلي، الأمن في عهد الملك عبد العزيز تطوره وآثاره (1319هـ- 1373هـ/ 1904م-1953م)، ص: 37

ولاريب فيه أن القبائل كانت تسطو على الحجاج وتعمل فيهم السلب والنهب والنقب كما أن إهمال المسائل الصحية والشؤون الطبية تسبب في موت كثير من الحجاج الكرام الذين يأتون إليها من كافة العالم بسبب المرض والإهمال، فكانت كل تلك الأمور تسبب في قلة عدد الحجاج الكرام في كل سنة من السنوات.

الأوضاع الاجتماعية:

أما الأوضاع الاجتماعية في منطقة الحجاز فقد كان المجتمع الحجازي أكثر تطورا في شتى مجالات الحياة من المجتمع النجدي الذي تغلب عليه طبيعة التنقل وعدم الاستقرار إلا بعض الواحات التي يعتمد سكانها على الزراعة ولكنها شبه معزوله عن التيارات المجاورة لصعوبة المواصلات[1]. وإن منطقة الحجاز فقد تطورت في شتى المجالات من مجتمعات الجزيرة العربية سوى بعض المناطق، وكانت الزراعة أهم مقومات الحياة الاقتصادية لدى السكان للحجاز، وكانت الحجاز تنتج أنواعا مختلفة من المحصولات الزراعية والخضراوات والفواكه من حقولها وسهولها التي توجد فيها المياه بقدر وافر، ولكن النخيل يعد من أهم الفواكه لدى السكان للمنطقة لأن ثمارها مهمة وقوية في تغذيتهم ولأن كل جزء من النخيل يستخدم في غرض من أغراض حياتهم اليومية في ذلك الوقت، وكانت الزراعة في حينئذ مشكلة وصعبة جدا وكانت عوامل المناخ من أهم دوافع الاستمرار في المنطقة للحجاز.

على الرغم من ذلك أن حكام الحجاز آنذاك لم يستفيدوا من هذه المميزات أمنيا بسبب التنافس القائم آنذاك بين القوى الإسلامية على الحجاز، لأن من يبسط نفوذه على الأماكن المقدسة من حقه أن يلقب بخادم الحرمين الشريفين، علاوة على الصراع بين الأشراف على السلطة في مكة المكرمة والمدينة المنورة والطرق المؤدية إليها وعلى الرغم من وجود النفوذ العثماني، فإن الأمن في البقاع المقدسة والطرق المؤدية إليها كان معدوما وإذا وجد فهو ضعيفا[2].

[1] المرجع نفسه، ص: 36/35
[2] المرجع نفسه، ص: 36

وكان لهذه الخلافات والصراعات على السلطة تأثيرا واضحا قويا على الوضع الأمني للمنطقة وخاصة أثناء موسم الحج، حيث يمر الناس من أزمات شديدة واضطرابات كثيرة كما ورد في مقال مطول في مجلة " المنار" عن الأوضاع الأمنية في الحجاز في عهد الشريف حسين ذكر كاتبه " إن نفوذ الشريف يقتصر على المنطقة الواقعة تحت حكمه وهي جدة ومكة المكرمة وعرفات ولكن لا نفوذ له ولا سلطان على الأعراب بين الحرمين الشريفين، وكانت القبائل الواقعة على طريق المدينة المنورة ومكة المكرمة وبين جدة ورابغ تفرض رسوما على الحجاج وقد تحتجزهم عند عجزهم عن الدفع حتى إن أميرة أفغانية تم احتجازها حتى قام الشريف بالدفع عنها "[1].

ولا شك فيه أن منطقة الحجاز شهدت مقارنة ببقية بلدان شبه الجزيرة العربية عصرا متطورا في عهد الأشراف، انعكس أثره على الحياة الاجتماعية التي غدت أكثر حضارة، ولقد نظر بعض العرب والمسلمين في المشرق العربي إلى الشريف حسين، أيام الثورة وأوائل الحرب العالمية الأولى، نظرة المنقذ المجسد للآمال المستقبلية في الوحدة العربية ذات السيادة الكاملة البعيدة عن السيطرة العثمانية[2]. ومن مظاهر اهتمام الشريف حسين بتنظيم الأوضاع الاجتماعية إنشاؤه مخافر للشرطة عام 1334هـ/1915م على الطريق بين جدة ومكة المكرمة وعلى الطرق التي تربط مكة المكرمة بالجهات الأخرى وأشار رئيس الحجاج الجزائرين في حج عام 1334هـ/1915م إلى أمن الطريق بين مكة المكرمة وجدة، وتلقيهم العناية من رجال الشرطة في المراكز الأمنية القائمة على الطريق، وأنهم وجدوا في مكة المكرمة من عناية أهالي الحجاز حاضرته وباديته أضعاف ما وجدوه من العناية والاهتمام في الطريق، وأن تلك العناية شاملة لجميع حجاج بيت الله الحرام من مختلف أوطانهم وأجناسهم[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص: 36

[2] السباعي، أحمد، تاريخ مكة، الجزء الثاني ص: 99

[3] الردادي، سعود عودة، أمن الحج قبل العهد السعودي، ص: 339/338

ولكن الشريف حسين لم يستمر على سياسته تلك في الاهتمام بتحسين الأوضاع الاجتماعية كما أشار حافظ وهبه في كتابه "جزيرة العرب في القرن العشرين" حيث يقول " كان الشريف حسين يتداخل في كل شيء في مكة ولكنه من طريق غير مباشر، فكان أمر البادية راجعا إليه، يفصل في خصومات البادية، وكان يضع الضرائب على المطوفين والحجاج والجمالة، ويختص بها أو يتقاسمها مع الوالي التركي، وكان الأشراف يمنحون حق التطويف لمن يريدونه من أهل مكة: إما مقابل خدمة قام بها الشخص لهم، أو مقابل مبلغ من المال، وهذا يفسر لنا الثروة التي جمعها الأشراف أثناء حكمهم في الحجاز، وربما كان الشريف حسين في السنين الأولى من حكمه أفضل الأشراف خلقا وأعلاهم نفسا وأنزههم كفا "[1].

هكذا كانت الأوضاع الاجتماعية إجمالا في الحجاز وكانت حال سلطنة نجد على نقيصها تماما من حيث وحدة الشعور بالمسؤولية، واحترام الأوامر الصادرة عن عظمة السلطان عبد العزيز ورجال إدارته، ومن حيث حماية أرواح الرعية وتوطيد العدل، وكثرة الخير وسيادة الأمن في جميع الأنحاء ومساعدة الضعيف من قبل القوي والفقير من قبل الثري[2]. فخلاصة القول إن الأوضاع الاجتماعية في الحجاز في عهد الشريف حسين كانت صعبة لا تحتمل، ومئات من الحجاج الكرام الذين يأتون من أنحاء العالم يسلبون أو يقتلون كل سنة من السنوات، هكذا نحن نلاحظ الأوضاع الاجتماعية لمنطقة الحجاز في عهد الشريف حسين خلال دراسة الكتب التاريخية التي تتعلق بتاريخ الحجاز ونجد وغيرها من المناطق الأخرى.

ضم الملك عبد العزيز للحجاز:

كانت هذه الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية التي شهدتها منطقة الحجاز في تلك الفترة من الزمن بصورة عامة وفي عهد الشريف حسين بصورة خاصة إذا قام الملك عبد العزيز بتوحيد الجزيرة العربية بصفاته الايمانية " كان الملك

[1] وهبه، حافظ، جزيرة العرب في القرن العشرين، ص: 144

[2] المختار، صلاح الدين، تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، الجزء الثاني ص: 295/294

عبد العزيز الذي يحب قومه العرب ويعتز بهم حريصا حتى قبل إتمامه توحيد مملكته على جمع كلمة العرب في السلم أوالحرب على حد سواء. فأرسل في بداية الحرب العالمية الاولى ثلاثة من رجاله إلى أبرز أمراء العرب في الجزيرة آنذاك وهم ابن الصباح في الكويت وابن رشيد فى حائل والحسين بن على في مكة المكرمة يقترح الاجتماع بهم للبحث فيما قد يؤدي إلى درء أخطار تلك الحرب عند العرب وإبعاد التدخل الأجنبي عند مقدراتهم السياسية والاقتصادية ولكن أحدا من هؤلاء الأمراء لم يسمع نداءه "[1].

كان الملك عبد العزيز حريصا على نبذ العنف والشقاق والتشدد إذ كان يحاول القيام بالاتفاق مع القادة العرب والزعماء والسياسيين الآخرين لتوحيد كلمة المسلمين داخل البلاد العربية وخارجها بحيث إنه وقع كثيرا من الوثائق لعقد التحالف والتعاضد والتعاون للدفاع عن الأمة الاسلامية والقيام بتوحيد شمل الأمة، وقد اختار الملك عبد العزيز الأساليب الملائمة لكل منطقة من المناطق العربية يضمها تحت المملكة العربية السعودية، والآن نود أن نذكر بعض مناطق الجزيرة التي ضمها الملك تحت المملكة العربية الحديثة ومنها: –

نجد:

كان الإرث التاريخي من أهم الظروف التي ساعدت الملك عبد العزيز في توحيد نجد، فهو من أسرة أقامت دولة لم تقم مثلها في الجزيرة العربية منذ القرن الثالث الهجري سعة والتزاما بعقيدة التوحيد الصافية وتطبيقا لشريعة الله. فقد أنفق أسلافه أربعين عاما لتوحيد أهل نجد عند تأسيس الدولة السعودية الأولى وأنفق تركي بن عبد الله عامين لصف الدولة السعودية الثانية، وفي خلال عامين ونصف عام تقريبا وحدهم عبد العزيز تحت قيادته[2].

منطقة الأحساء:

[1] كيلانى، كمال، عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامى المعاصر، ص: 99

[2] المرجع نفسه، ص :95/94

سعى الملك عبد العزيز لتوحيد منطقة الأحساء والقطيف كما حاول في توحيد أقاليم أخرى، هذه المنطقة كانت جزء من الدولتين السعوديتين الأولى والثانية... ولها أهمية خاصة استراتيجيا، لأنها منفذ الدولة البحري. واقتصاديا لثروتها السمكية والزراعية[1].

منطقة عسير:

كان سكان عسير من الملبين منذ البداية للدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب والمعجبين بها فلهم جولات وصولات فى الحرب ضد قوات محمد علي وهذه المنطقة أولا كانت تحت قيادة العثمانيين فلما انهزموا في الحرب العالمية الثانية استقل بها حسن بن علي بن عائض الذي بدأ يعمل كنائب للمتصرف تحت وساطة من شريف مكة[2]. وذات مرة حدثت خلافات بين حسن بي عائض و بين رجال من قبيلة قحطان وزهران فأبلغوا الشكوى إلى الملك عبد العزيز فإنه أرسل وفدا ليحل الخلاف بينهم ولكن حسين بن عائض أنكر هذه الوساطة، وإن هذا الرفض بالإضافة إلى غيره من ظروف المنطقة دفع عبد العزيز إلى أن يقرر ضم المنطقة وتوحيدها مع غيرها من المناطق التي تحت إمرته فجحز جيشا بقيادة عبد العزيز بن مساعد ولما وصل إلى تلك المنطقة انضم إليهم المؤيدون للحكم السعودي من أهلها ونجح ذلك الجيش في ضم المنطقة في سنة 1920 م، وقد ثار ابن عائض من جديد بتحريض من شريف مكة ولكن جيشا سعوديا بقيادة الأمير فيصل بن عبد العزيز قضى على تلك الثورة وأخضع المنطة تماما[3].

منطقة جازان:

كانت منطقة جازان تحت حكم الإدارسة الذين وجدوا أنفسهم بعد انسحاب العثمانين بين جارين يطمعان في أرضه إمام اليمن في الجنوب والحسين بي علي في

---

[1] المرجع نفسه، ص95.
[2] المرجع نفسه، ص97
[3] المرجع نفسه، ص 96.

الحجاز فعقد معاهدة مع عبد العزيز أملا في الحصول على مساعدته وبعد قليل طلبوا وضع البلاد تحت حماية الحكم السعودي[1].

منطقة الحجاز:

أما بالنسبة لمنطقة الحجاز فإنها جاءت تحت حماية الحكم السعودي في نهاية المطاف، ومن المناسب أن نذكر تلك العلاقات السياسية التي كانت توجد بين أشراف مكة والحكم السعودي منذ البداية، ولا شك فيه عندما قامت الدولة السعودية خالفها أشراف مكة وعلى رأسهم الشريف غالب، فبدأوا يمنعون أتباعها من أداء فريضة الحج وأعلنوا الحرب ضدها، ولكن انهزم الشريف غالب في الحرب ولم تحاول الدولة العثمانية لإنقاذه من هذه الورطة فبينما أصبحت تلك المناطق التي كانت خاضعة للأشراف محاطة بنفوذ الحكم السعودي شرقا وجنوبا[2].

وقد تكررت تلك الأوضاع والحوادث التي قد كانت حدثت عند قيام الحكم السعودي الأول، فجعل حاكم الحجاز الشريف الحسين بن علي يتحدى الملك عبد العزيز وشن الحرب ضد الملك في نجد كما أن الحاكم منع أهل نجد من أداء فريضة الحج وأغلق التجارة بين المنطقين وعرض التجار الموجودين في الحجاز للمشاكل وضايقهم وجعل منطقة " الحجاز " ملاذا آمنا لخصوم عبد العزيز. وطالب باستعادة السيطرة على عسير بعد ثورة الشريف حسين ضد العثمانيين ومساعدة القوميين العرب له ظن أنه أقوى الحكام في الجزيرة فحاول أن يخضع لنفوذه كل من حوله وقد أدى ذلك إلى نشوب خلاف بينه وبين البعض من حلفائه مثل خالد بن لؤى، ودفعت تصرفات الشريف حسين خالد بن لؤى وأمثاله إلى الانضمام إلى جانب عبد العزيز... دب الوهن في قلب الشريف حسين ومعسكره بينما نمت الثقة في نفس عبد العزيز ومعسكره، وكما

[1] المرجع نفسه، 97.

[2] بكري، الدكتور شيخ أمين، الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، ص :40

تخلت الدولة العثمانية من الشريف غالب وتخلت بريطانيا عن مساعدة الشريف بن حسين مراعاة لمصالحها وللظروف الجديدة[1].

وبالإضافة إلى تراجع القوات وهناك سبب آخر ذكره المؤرخون والكتاب العرب عن فشل الشريف حسين في عمليته حيث أنه أثار غضبا شديدا في نفوس القيادات الإسلامية خارج الجزيرة العربية خاصة في بلاد مصر والهند إذ أنه لقب نفسه بخليفة المسلمين بعد أن ألغى نظام الخلافة على يد نظام الحكم الجديد في تركيا، هكذا استطاع الملك عبد العزيز من توحيد معظم مناطق شبه الجزيرة العربية وشمل الجزيرة ويقر فيها الأمن والاستقرار بعد عصور طويلة من التشتت وعدم الاستقرار.

ولا شك فيه أنه ما من أحد منا يستطيع أن يعرف مجهودات الملك عبد العزيز الجبارة الكثيفة تجاه الوطن والمواطنين إلا من يطلع على أوضاع البلاد العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذلك يتعرف على أحوال أبناء الجزيرة العربية وعاداتهم وتقاليدهم ومعيشتهم اليومية، ولعل كانت هذه هي الأوضاع والظروف والحوادث التي تفتحت في ظلها عينا الأديب الكبير والكاتب الموهوب والمحلل السياسي والمترجم الشهير الشيخ عزيز ضياء بن زاهد بن سلطان بن مراد، ونشأ وترعرع إلى أن وصل ما وصل وقام بإثراء المجتمع بأفكاره العميقة وآرائه الصابتة.

[1] كيلانى، كمال، عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود والإصلاح الإسلامى المعاصر، ص: 98-97.

الفصل الثاني

ملامح من حياة الشيخ عزيز ضياء

يعد الشيخ عزيز ضياء من أكبر العلماء الأفذاذ والأدباء الممتازين في المدينة المنورة الذين خدموا اللغة العربية وآدابها كثيرا في القرن العشرين، كانت شخصيته تمتاز بقدرات متنوعة ومميزات مختلفة في الكتابة والخطابة والدعوة الإسلامية وتنظيم الجمعيات الدينية وتدريس العلوم الإسلامية والأدبية، وكان له دور هام في توطيد العلاقات الودية بين الهند والعرب، ونشاطاته العلمية والأدبية لم تقتصر على نطاق محدود في المملكة العربية السعودية فقط بل امتدت إلى البلاد العربية الأخرى أيضا مثل: بلاد جمهورية مصر العربية والولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية الهند وغيرها من البلاد بواسطة نشر مقالاته القيمة وإلقاء المحاضرات العلمية والأدبية. الأستاذ عزيز ضياء كان عالما وكاتبا وصحفيا ومترجما ومعلقا ومحللا ومذيعا جال العالم ونهل من جامعات ومؤسسات ومجامع علمية ثم أسهم فى مجالات العلم والأدب والفنون المختلفة، وأثرى بما لا بأس به من كتب ومقالات وبحوث علمية وإسلامية وتاريخية باللغات العربية والإنجليزية، وهي اللغات التى يكتب بها.

اسمه:

اسمه الكامل عزيز ضياء بن زاهد بن سلطان بن مراد، وهو أديب متمكن من لغته، وناقد حصيف، واسع الاطلاع في العلوم والآداب الإنسانية، ويعد من الأدباء البارزين في الحجاز الذين يجمعون بين قول الشعر وكتابة النثر القصصي، والمقالات السياسية والأدبية، وترجم العديد من الأعمال الأدبية من الإنجليزية إلى العربية، تغنى بالوطن وعبر عن أمانيه وطموحاته في مقاطع نثرية أشبه بالشعر الحديث، وبدأ رومانسي النزعة في شعره.[1]

[1] ضياء، عزيز، الأعمال الكاملة، الجزء الأول ص:25

عزيز ضياء بن زاهد بن سلطان بن مراد لقد عرف واشتهر باسم " عزيز ضياء " وهو اسم أدبي قد اختاره نسبة وتكريما وتعظيما لمكانة زوج والدته الدكتور ضياء كبير صيادلة الجيش التركي في المدينة المنورة إبان العهد العثماني، الذي تعهده بتربيته والاهتمام به في فترة طفولته، وعن الحادثة التي دفعته إلى اختيار هذا الاسم يكتب عزيز ضياء في إحدى مقالاته، أن زوج أمه حين رآه ذات يوم من الأيام يكتب خطابا لأحد أصدقائه ممهورا باسم " عزيز زاهد " بكى، وأضاف " بكى بكاء الرجولة التي لم تعرف قط كيف تسيل الدموع.. بكى وقال: ظننت أن اسمي لن يفارق اسمك.. إنك ابن زاهد حقا ولكنك ابني الروحي.. وأبنائي كلهم إخوتك وما أظن حقي عليك أقل من حق أبيك عليك". ويتابع عزيز، " فبكيت أنا أياما وشهورا، بل ما زلت أبكي كلما تذكرت أني في هذه المرة وحدها، قد جرحت مشاعر الرجل الذي لم يجرح مشاعري قط بكيت وما زلت أعتبر هفوتي تلك جحودا لئيما ليس بعده جحود، وآليت منذ ذلك اليوم البعيد أن يظل اسمي مضافا إلى اسمه إلى الأبد "[1].

نسبه:

ينحدر نسب الشيخ عزيز ضياء إلى أصول غير عربية، فوالده الشيخ زاهد مراد بن سلطان من أهل بلدة أورنبورغ عاصمة جمهورية تشكاف إحدى الجمهوريات الإسلامية حول نهر الفولجا، وأمه السيدة فاطمة بنت الشيخ أحمد صفا، شيخ حجاج إقليم القازاق في روسيا، وشيخ الطريقة النقشبندية في تلك البلاد[2].

رحلات أسرته المأساوية:

اكتوت أسرته بنيران الحرب شأنها شأن الكثير من الأسر المدينة في تلك الفترة خلال حصار جيش شريف مكة حسين بن علي والقبائل العربية للمدينة والتي بدأ في العام 1916م، فقد اضطرت أسرته لاحقا إلى النزوح إلى الشام في المرحلة التاريخية

---

[1] عنوان المقال: "عزيز ضياء.. اختار لنفسه اسما أديبا تكريما لزوج والدته " جريدة " الاقتصادية " المنشورة على شبكة http://www.aleqt.com/2014/10/15/article_896083.html

[2] الأخشمي، أحمد بن علي بن أحمد، عزيز ضياء حياته وآثاره وما كتب عنه، ص: 13

التي عرفت " بالسفر برلك " وذلك عبر قطار الحجاز كما كان يسميه أهل المدينة، وانتهت رحلة أسرته إلى الشام نهاية مأساوية إذ فقد خلال فترة الإقامة في الشام خالته، وجده لأمه، وشقيقه الأصغر، وقد عاد برفقة والدته فقط إلى المدينة المنورة عقب نهاية الحرب وخروج الجيش التركي"[1].

ومما لاشك فيه أن أسرته كانت من أهم وأكبر الأسر الثقافية إبداعا وشهرة، بل وتأثيرا على المجتمع العربي السعويد، فكان الشيخ عزيز ضياء رحمه الله وزوجته " أسماء زعزوع " " ماما زعزوع " كبيرين في عطائهما الإعلامي والتربوي، وسافرا معا للعمل الإعلامي في الإذاعة العربية في الهند والصين وغيرها من البلاد في النصف الأول من القرن الماضي، ثم عادا إلى إذاعة المملكة العربية السعودية، حيث برز عطاء " ماما أسماء " تربويا، وساهمت بتقديم جيل من الأطفال ذوي العلاقة بالثقافة والإعلام، ثم كانت ابنتهما الإعلامية الكبيرة دلال عزيز ضياء مديرة إذاعة البرنامج الثاني في إذاعة جدة إلى أن تقاعدت رسميا، ولم تزل تواصل على نحو ما متعاونة، ويستفاد من خبراتها الكبيرة، كذلك الفنان الشهير ضياء عزيز ضياء الذي بلغ العالمية بفنه التشكيلي[2].

والده:

والد الشيخ عزيز ضياء كان اسمه الشيخ زاهد مراد بن سلطان، الذي كان هو عالما كبيرا، وزاهدا، ورعا، تقيا، متصلبا في الدين، ضليعا، طويل الباع، راسخ القدم في الفقه الإسلامي، وكان حافظا للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وداعية إسلاميا وهب حياته كله للدعوة الإسلامية كما جاء عنه في ذلك الحوار الذي أجري بين الشيخ عزيز ضياء وأمه الحنون حيث يقول " لا يا حبيبي... أبوك ما كان عسكريا... أبوك، كان عالم.. طالب علم... كان حافظ كتاب الله... وحافظ أحاديث البخاري ومسلم.. زي سيدك أحمد صفا "[3]. وكان يختم القرآن الكريم كاملا في صلاة التراويح ليلة سبع

---

[1] للمزيد راجع إلى ويكيبيديا https://ar.wikipedia.org/wiki/ dated 2/4/2016

[2] http://www.okaz.com.sa/new/issues/20121123/con20121123549886.htm page no. 3/3

[3] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 81

وعشرين من رمضان بالحرم النبوي الشريف يذكر عنه قائلا " أني تشاجرت مع أمي شجارا عنيفا، لأنها وهي تتحدث عنه، وعن الليلة التي صلى فيها التراويح في الحرم النبوي الشريف، وختم الختمة كلها في تلك الليلة من ليالي رمضان، رأيت في عينيها دموعا... مما أشعرني أنها تبكي عليه أو على ذكراه... وسمعتها تتنهد وتترحم عليه "[1]. ويقول عنه في مكان آخر " فإني سمعت منها ومن جدي رحمه الله، وحتى من خالتي أيام مرضها في حلب أنه (زاهد)، وأنه عالم... وأنه (ختم القرآن كله) في صلاة التراويح ليلة 27 رمضان"[2].

والد الشيخ عزيز ضياء كان واسع الثقافة والمعرفة قوي الشخصية شديد الرأي واضح البيان رائع الأسلوب كان شهيرا بين عامة الشعب العربي بعلمه الغزير واطلاعه على العلوم والفنون ولاسيما الأحاديث النبوية الشريفة وما إلى ذلك. وقد كلفته لجنة مشكلة من الدولة العثمانية للرحلة من المدينة المنورة إلى التركستان والقوفاز وتركيا والبلاد المجاورة التي كان لا تزال خاضعة على تحت السلطنة العثمانية لجمع التبرعات من المسلمين لبناء الجامعة الإسلامية في المملكة العربية السعوية التي كان مقررا إنشاءها بناءها في منطقة الحجاز على العموم وفي المدينة المنورة على الخصوص، كما جاء في ذلك الحوار الذي جرى بين عزيز ضياء وأمه يقول " وأبوك يا ولدي، سافر روسيا... قازاقستان.. يجمع تبرعات من المسلمين، عشان يعمل الجامعة الإسلامية، التي أمر بها (الباديشاه) بنفسه.. وهو سافر قبل الحرب بسنة... هوة راح من هنا"[3].

قام أبوه برحلة إلى زيارة عدة بلاد لغرض جمع الأموال والنقود في بناء الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، عندما خرج من المدينة حتى وقعت حادثة الحرب العالمية الأولى وأغلقت الطرق والشوارع التي تؤدي إلى هذه البلاد كلها، ولم يرجع بعد إلى وطنه العزيز وأغلب الظن أنه استشهد أو فقد أو قتل في الطريق الذي يؤدي إلى روسيا وقزاقستان، يذكر عزيز ضياء عنه في سيرته الذاتية بالتفصيل كما يقول " لكن

---

[1] المرجع نفسه، ص: 310

[2] المرجع نفسه، ص: 256

[3] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 81

زاهد سافر إلى روسيا ليجمع من المسلمين فيها هذه الأموال التي اعتزموا أن يؤسسوا بها الجامعة الإسلامية، والأرجح أنه لا يزال هناك ولن نراه قبل أن تنتهي هذه الحرب التي أغلقت الطرق "[1]. ويقول في موضع آخر" ياعزيز.. قلت لك ألف مرة أنو سافر عشان يجمع تبرعات لهادي اللي بيسموها الجامعة الإسلامية... سافر... مع اللي سافروا قبل (سفر برلك) ... وفضل مسافر عشان الحرب... الحرب، اللي قفلت الطريق بيننا وبين روسيا "[2]. ولما صارت الحرب.. ما عاد أحد يقدر يجي من روسيا... ولا أحد يقدر يروح لها.[3] لأن الطرق والشوارع التي تؤدي إليها لا تزال مغلقة من أجل الحرب.

مولده:

تفتحت عينا الشيخ عزيز ضياء بن زاهد بن سلطان بن مراد في زقاق القفل من أزقة حي الساحة في المدينة المنورة يوم الإثنين 12 ربيع الأول عام 1332هـ، المصادف 22 يناير عام 1914م[4]. مولده ومسقط رأسه بلدة المدينة المنورة التي كانت مكتظة بالعلماء الجهابذة والمدارس الإسلامية الدينية والجامعات الحكومية والمؤسسات التعليمية، وقد أنجبت هذه المدينة الطيبة ألوفا من العلماء الكبار والكتاب الأفاضل والشعراء المشهورين والمحدثين الفطاحل الذين كانت لهم مساهمات جليلة وجديرة التقدير في مجال العلم والأدب والمعرفة والتأليف والتصنيف، كما لهم خدمات جليلة منقطعة النظير في بعث الوعي الإسلامي وخلق الصحوة الإسلامية بين الناس في أنحاء العالم كله. ويشرح عزيز ضياء مكان زقاق القفل الذي تفتحت فيه عيناه والذي يقع في المدينة المنورة قائلا "عرفت أن الزقاق الذي يمشون خارجين منه واحدا وراء الآخر، إذ لا يتسع لمشي اثنين في صف واحد، هو زقاق (القفل) من أزقة حي الساحة في المدينة المنورة،

---

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص:20

[2] المرجع نفسه، ص:311

[3] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 81

[4] ضياء، عزيز، عهد الصبا في البادية، ص: 7

وإني قد ولدت في ذلك البيت، كما ولدت فيه أمي وخالتي وعدد من الأخوال يتردد على لسان أمي اسم واحد منهم، مات بعد أن بلغ العاشرة من العمر"[1].

نشأته:

نشأ الشيخ عزيز ضياء نشأة دينية إسلامية صالحة، ولقد تقلب في أعطاف العلم منذ نعومة أظفاره إذ كان جده الأم عالما تقيا ورجلا دينيا شخصية عظيما معروفا بالصلاح والتقوى والفروق عن المنكرات والأعمال التي لا علاقة لها بالإسلام عن بعيد، فاتضح من ذلك كله أنه نشأ في أسرة دينية علمية لها صيت وفضل كبير في الأوساط العلمية والأدبية والثقافية بين العامة والخاصة من الشعب العربي السعودي فإذا كانت الأسرة والبيت لم يحظيا بقسط كبير من المال والثروة والسبب أنه فقد أباه في سن مبكرة بينما كان عمره تسعة أشهر، فتولت أمه الحنون مسؤولية نشأته وتعليمه وتربيته وثقافته العلمية والأدبية.

عندما ندرس حياة الشيخ عزيز ضياء فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة هو أنه نشأ يتيم الأب منذ كان عمره تسعة أشهر تقريبا لذلك كانت حياته مملوءة بالمتاعب المختلفة والآلام المتنوعة والمشاق العديدة والأزمات الشديدة التي أدرك فيها الجوع والفقر والبؤس والمرض والعذاب كما يحكي لنا قصة حياته مصورا رحلة الجوع والمرض والموت والعذاب التي تجرع مراراتها في سني طفولته الأولى وصباه يقول " إني قضيت طفولة فتحت عينها على مآسي الحرب العالمية الأولى، فعرفت الكثير الذي لن يتاح لأحد أن يعرفه إلا إذا عاش تلك الفترة من تاريخ البشر، عرفت الرعب الذي لا يملأ القلب فحسب، وإنما يملأ الأحلام لسنين طويلة من العمر، وعرفت اليتم الذي يعلق عين الطفل بوجه كل رجل يراه، في أمل محموم بأن يكون من يراه هو الأب الذي تؤكد الأم الشابة أنه عائد إلى البيت في الصباح، ثم تعود لتؤكد أنه عائد في الليل... عرفت التشرد.. في الأزكة والشوارع التي يتساقط على أرصفها صرعى التيفوس، والتي تتلاحق في عرضها عربات تجرها البغال وقد امتلأت بجثث الموتى.. والتي تزدحم فيها مواكب

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 16

الجياع.. مئات من الهياكل العظيمة لرجال ونساء وأطفال تمشي في الشوارع، بلا حافز، ولا أمل، ولا هدف سوى الحصول على جرايتها من الخبز الأسود... الذي لا يكاد يصل إلى الأيدي حتى تنهشه أفواه الهياكل العظيمة، في نهم رهيب، مازلت أؤمن كلما تذكرته أن الجوع وحده، يظل أخطر أعداء الإنسان... وعرفت المرض الذي كان يهددني بالموت في كل لحظة، ومع هذا لا أجد من يسقيني نهلة الماء، أو من يطرد عن فمي المفتوح الملتهب أسراب الذباب، لأن أمي، وهي.. مشغولة بدفن من يموتون من الأسرة واحدا بعد واحد، خلال أيام"[1].

كما يقال إن الجوع منبع من كل عيب من العيوب، ومما شاهد الشيخ عزيز ضياء هو أقبح في التاريخ الإنساني، بعض الناس من العرب يموت جياعا، ما كان عندهم أي شيء من الأشياء للأكل والشرب، وقد عمت الفوضى والجوع بين العامة والخاصة من الشعب العربي إلى حد أنهم اضطروا إلى أن يأكلوا كل ما التقت على الشوارع والأزقة كما يصور لنا صاحب السيرة الذاتية بتلك المشاهد قائلا " عرفت الجوع.. الجوع الذي يمزق الأمعاء، الجوع الذي جعل وجبة الخبز الأسود أشهى وألذ وجبة تذوقتها حتى اليوم.. الجوع الذي كبرت فقرأت عنه قصصا وأساطير راعني أنني عشتها حقائق، والجوع الذي يجعل المرء حين يمشي في الشارع أو الزقاق لا ينظر إلى ماحوله أو أمامه وإنما ينظر إلى الأرض وحدها، حيث يتحرى العثور على كسرة خبز أو حبة فاكهة أو عظمة، فلا يكاد يرى ما يبحث عنه فيركض لالتقاط ما رأى حتى تكون الهياكل العظيمة السائرة في الطريق نفسه قد مدت أيديها تتنازع كسرة الخبز، أو حبة الفاكهة العطنة أو العظمة التى زهدت فيها الكلاب، ويبلغ النزاع أو هو الصراع أوجه الأعلى حين تمتد الأيدي التي أخفقت في التقاط هذه اللقمة إلى فم الهيكل العظمي، وإلى شدقيه، وما بين فكيه تستخرج منه ما بقى، ولو أدى ذلك إلى شق الشدقين وتمزيقهما...[2].

[1] المرجع نفسه، ص:11-12
[2] المرجع نفسه، ص:12

ومن خلال مواقف عديدة يفصل الشيخ عزيز ضياء في تسجيل رحلة التهجير التي تمت بحكم فخري باشا من المدينة المنورة إلى البلاد العربية التي كانت لم تزل خاضعة للظلال الخلافة العثمانية، وعندما وصل السارد إلى الشام فقد مات بعض أفراد أسرته واحدا بعد الآخر حتى قام بالعودة إلى وطنه العزيز هو وأمه الحنون، وأنه كان يتذكر تلك الرحلة المطولة وتفاصيلها الموجعة، ويستعيد إحساسه الجارح والقار في أعماقه في تلك الظروف القاسية التي عايشها وحيدا برفقة أمه الحنون فقط كما يذكر قائلا " لقد اكتشفت– مع الأيام– أنها معركتي أنا... إذ خالجني إحساس، بعد خروجها بأني منذ تلك اللحظة أصبحت مع نفسي... (ومع نفسي) هذه كانت ولا تزال حتى اليوم تغني حقيقة أصبحت أعيشها بكل ما تنطوي عليه من قسوة ووحشة وآلام... وهي (الغربة) أو (الاغتراب)... كل السنين التي عشتها مع أمي، في ديار الشام، رغم كل ما تفجر فيها من آلام، أقلَّها الجوع... ومنها موت الذين ماتوا من الأهل، ومنهم جدي وخالتي"[1].

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 10

الفصل الثالث

جهوده العلمية ونشاطاته العملية

دراسته ونشاطاته العملية:

تهجى الأستاذ عزيز ضياء أولى الحروف العربية في كتاب الشيخ محمد بن سالم في المدينة المنورة، حيث تعلم مباديء القراءة والكتابة، وبعض سور القرآن الكريم من أمه الحنون كما يتحدث عنها قائلا " لأني كنت دائما (حافظ اللوح) بل وأصبحت بفضل قراءة سور القرآن الكريم في جزء عم على يد أمي كل ليلة، وحفظها من دون خطأ... أصبحت سابقا لزملائي ليس في (الحفظ) فقط بل في قراءة الخط المطبوع في الجزء، وهو لايختلف، عن الخط الذي يكتبه لى العريف في اللوح "[1]. وبعد أن أمضى حوالي سنتين افتتحت المدرسة الراقية الهاشمية، فالتحق بها ليواصل تعليمه لكنها أقفلت ولما يمضي على التحاقه بها أكثر من عامين[2].

صدر إعلان عام في صحيفة " أم القرى " عن افتتاح " مدرسة الصحة " في سنة 1345هـ في المملكة العربية السعودية وجعل عدد كبير لا يستهان به من الطلاب يتهافتون إليها من أنحاء البلاد، فظنها أهل عزيز ضياء مثل مدرسة للطب، وكذلك ظنها صاحب الكتاب أيضا خاطئا، على كل حال أرسل إليها الشيخ عزيز ضياء للالتحاق بها ولكن الحقائق الناصعة انكشفت بعد الذهاب إليها أنها ما كانت مدرسة للطب بل مدرسة تمريض، فلم يمكث في هذه المدرسة طويلا بل هرب منها بعد بضعة أشهر من التحاقه بها إلى منزل وكيله في محلة الشامية بمكة المكرمة كما أورد الشيخ عزيز ضياء قصة حياته قائلا " زعموا لنا أنها مدرسة طب، وهكذا ظننا خاطئين، واكتشفنا بعد وصولنا مكة، وبقائنا فيها بضعة أشهر، أنها مدرسة تمريض، وانحدرت مدرسة التمريض هذه إلى حد أننا أصبحنا مكلفين بأخذ درجة حرارة المرضى المصابين بالسل، والإسهال، وأمراض أخرى معدية، وكانت النتيجة أني هربت من هذه المدرسة،

---

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 133

[2] المرجع نفسه، ص:16

وحكاية الهروب حكاية طريفة... كنت أن أهرب كان يزورنا بعض الأصدقاء- ممن يكبرني سنا- فقد كنت صغير السن في تلك الأيام"[1]. وهو يحكي لنا قصة رائعة من حياته مزيدا فهو يقول " الحقيقة أنهم في المدينة قالوا إنها "مدرسة صحة".. وما قالوا "مدرسة طب" لكن كلنا فهمنا أنها مدرسة طب، ومع مرور الأيام، لم نعد نشعر بأثر تلك الصدمة العنيفة التي فوجئنا بها ونحن نكتشف أننا في مدرسة للتمريض وليس مدرسة للطب"[2].

وكان لمدير هذه المدرسة الدكتور خيري القباني الذي له فضل كبير وإحسان عظيم في بناء شخصيته المتميزة الفذة لأنه كان يعتني به اعتناء بالغا في القراءة والمطالعة وما إلى ذلك، وعندما ظهرت مواهبه وصلاحياته الموسعة في جميع العلوم والفنون فاختبره أستاذه الفاضل الدكتور القباني ونصحه بأن يجب عليك يا عزيز أن لا تضيع أوقاتك الثمينة في لا يعني، بل عليك أن تستفيد من وقت الفراغ بعد الظهر للقيام ببعض الأعمال اليدوية في مكتبي وكذلك عليك القيام بكتابة على الآلة الكاتبة حتى تتقن فيها وأصبحت مهارات تامة فيها، كما يذكر الشيخ عزيز ضياء بهذه الحكاية بشيء من التفصيل في سيرته الذاتية حيث يقول " ربما كان للدكتور خيري القباني الفضل في هذه الفكرة، يوم اقترح أن استفيد من وقت الفراغ- بعد- بالمواظبة على القيام ببعض الأعمال في مكتبه... وقد لفت نظري أن اقتراحه قد جاء بعد مراجعته لما دونته في كراس المادة التي يدرسها لنا وهي (التشريح)... سألني بعد هذه المراجعة عن المدرسة التي تخرجت منها... وهل كان من دروسها (حسن الخط) و(الإملاء) مما جعلني أدرك أنه معجب بالخط والإملاء في ما دونت"[3].

وفيما بعد لم يزل ولا يزال يبدأ الشيخ عزيز ضياء ممارسة الكتابة على الآلة الكاتبة حتى أتقن فيها وبلغت سرعته أكثر من خمس وثلاثين كلمة في الدقيقة ففرح منه الدكتور خيري القباني فرحا شديدا يذكر عزيز ضياء واصفا محاسنه قائلا " ولا أنسى كم

---

[1] كتاب الإثنينية، حفل تكريم الأستاذ عزيز ضياء في 1983/03/14م.
[2] المرجع نفسه، ص: 268/247
[3] المرجع نفسه، ص: 268

كان إعجابه بي كبيرا عندما وجد أني أصبحت أكتب أكثر من خمس وثلاثين كلمة في الدقيقة، ولا أدري كيف أحصى عدد وزمن كتابة هذه الكلمات... فقد وضع يده على كتفي من موقفه خلفي وهو يردد"[1].

ولم يمكث في هذه المدرسة طويلا إذ شعر بالإهانة في عمله في التمريض في غرفة المصابين بالسل، فحدثت فجأة مشاجرة عنيفة مع أحد المسؤولين عن القسم الذي يعمل فيه، ثم ترك هذه المدرسة وهرب منها بعد قضاء أكثر من سنة واحدة، وبعد العودة منها إلى بيت وكيله في محلة الشامية بمكة المكرمة قد اختفى الشيخ عزيز ضياء فترة من الزمن فيها، كان يسمع خلالها صوت المنادي يرتفع في الشامية، وفي غيرها من محلات مكة المكرمة، وهو يقرأ أبياتا عن اسمه وعمره وملابسه، ويطلب ممن يراه إلقاء القبض عليه وتسليمه لمديرية الصحة العامة في أجياد، فظل مختفيا إلى أن أتيح له السفر بعد الحج إلى المدينة المنورة[2].

وبعد مرور نحو سنة من السنوات أعلنت مديرية الصحة العامة عن وظيفة " مقيد أوراق "، فقام برحلة وظيفية من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ويحدوه الأمل أن يلتحق بها فقدم الأوراق لهذه الوظيفة، ثم أنه دخل مسابقة للكتابة على الآلة الكاتبة التي أقامها مديرية الصحة العامة وحضرها نائب جلالة الملك سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود، وفاز بالدرجة الأولى في المسابقة التي انعقدت في رحابها، وتلقى ثلاثة جنيهات كما يصور لنا هذه الواقعة السارة قائلا " قدمنا الأوراق بعد توقيعها، وكان الأمير لا يزال واقفا أمامنا يتأمل ما بدا أنه يراه لأول مرة، وانقضت بضع دقائق قبل أن يعلن محمود بك نتيجة المسابقة حيث قال: التلميذ عزيز... (52) كلمة في الدقيقة من دون أي خطأ- شفيق أفندي... (43) كلمة مع ثلاثة أخطاء- السيد عيدروس...(35) كلمة من دون أي خطأ، ثم أضاف: الأول هو التلميذ بمدرسة الصحة عزيز، والثاني كاتب الآلة شفيق أفندي، والثالث هو السيد عيدروس السقاف، وما كاد ينتهي من بلاغه

[1] المرجع نفسه، ص:271

[2] ضياء، عزيز، الأعمال الكاملة، الجزء الأول، 25-26

حتى رأيت الأمير يبتسم وهو يقول: ما شاء الله ثم أدخل يده في جيب الصدر من المعطف الأبيض الذي يرتديه، وأخرج منه ما نفحني به وهو ثلاثة جنيهات ذهبا، وتابع يقول: باكر تصلك الهدية التي تستحقها بارك الله فيك"[1]. وفيما بعد قد انتخب الشيخ عزيز ضياء لهذه الوظيفة ثم التحق بها، وتمت تسوية مشكلة هربه من "مدرسة التمريض" مكافأة لنجاحه وفائزته، وخلال عمله هذا لم يزل ولا يزال يتمرن على الكتابة على الآلة الكاتبة حتى أتقن فيها جيدا للغاية.

وكان الشيخ عزيز ضياء لم يكن عمله في الصحة العامة مريحا وممتعا له للغاية، لذلك يريد ويتمنى أن ينتقل إلى أفضل مكان آخر، وعندما قامت الحكومة بنقل مدير الشرطة في المدينة المنورة ليكون مهدي بك مديرا للأمن العام في مكة المكرمة، توجه الشيخ عزيز ضياء بعد تشجيع مهدي بك من مقيد أوراق في مديرية الصحة العامة إلى الوظيفة نفسها إلى مكتب مدير الأمن العام بذات المسمى الوظيفي ثم ترقى إلى أن أصبح كاتب ضبط في مسقط رأسه المدينة المنورة بقسم الشرطة، يحكي لنا قصة حياته الممتعة قائلا " لم يكن عملي بالصحة العامة مريحا فقد كنت أتمنى الانتقال منه إلى غيره، فعندما أعلنت الحكومة في جريدة " أم القرى" عن وظيفة مقيد أوراق، وكاتب آلة في مديرية الشرطة، قبل أن يطلق عليها مسمى الأمن العام، وكان مديرها مهدي بك الذي نقل من المدينة– ومهدي بك كان زوج ابنة العم يوسف بصراوي– الله يرحمه– الأمر الذي شجعني على تقديم أوراقي إلى مديرية الشرطة، لكن المسؤولين في الشرطة طلبوا منى أن استقيل من الوظيفة التي كنت فيها لكي يضمنوا عدم معارضة الصحة، فتقدمت بطلب الاستقالة فرضها باديء ذي بدء، لكنه لما وجد إصراري أشر على طلبي بعبارة تقبل استقالته، وعلى الفور تقدمت إلى مديرية الشرطة لشغل الوظيفة، وعقد امتحان لذلك ونجحت، وربما كان نجاحي في الامتحان مجاملة فقط، وعينت مقيد أوراق في مديرية الشرطة العامة "[2].

---

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 284/283

[2] كتاب الإثنينية، حفل تكريم الأستاذ عزيز ضياء في 1983/03/14م.

وبعد مرور نحو ستة أشهر أو سنة واحدة على التحاقه بالوظيفة احتاجت شرطة المدينة المنورة إلى كاتب ربط للتحقيق، توجه الشيخ عزيز ضياء إلى المدينة المنورة من مكة المكرمة، والتقى بالأدباء الكبار والعلماء والكتاب نخص بالذكر منهم على سبيل المثال: الأستاذ عثمان حافظ، وعلي حافظ، والأستاذ محمد حسين زيدان، والسيد أمين مدني، وغيرهم، والجدير بالذكر أن هؤلاء العلماء الأفذاذ لم يزالوا يفكرون في إصدار جريدة " المدينة " الغراء، ولما وصل إليها استقر الرأي في إصدارها، ثم صدرت هذه الجريدة الغراء ولم تزل ولا تزال تصدر حتى الآن. وبعد ذلك صدرت الأوامر بتعيينه في السلك العسكري فعاد إلى مكة المكرمة وتم تعيينه على وظيفة عسكرية وهي " مفوض ثالث " بعد دورة عسكرية قصيرة وبهذه الرتبة تم تعيينه كونه رئيسا للمنطقة الثالثة بمكة المكرمة يقول عزيز ضياء مذكرا عن ذلك " رجعت إلى مكة فقد طلب مهدي بك مني الرجوع إلى مكة ببرقية سريعة إلى العم يوسف بصراوي، قال له فيها: أرسل عزيزا حالا إلى مكة، وبمجرد مقابلتي له بعد وصولي مكة، قال لي: قررنا تعيينك ضابطا، ثم كلف السيد يوسف جمال بتدريبي مدة أسبوعين أو شهر، حاولت التهرب من العملية، والفكاك من الجندية بشتى الأعتذار، لكنه هون علي الأمر فقبلت، فكنت أتدرب مساءا حتى استطعت أن أتقن حمل السلاح، وبعض العمليات العسكرية الضرورية، عند ذلك استصدر مهدي بك أمرا من الأمير فيصل بتعييني مفوضا ثالثا، ولم أكن أعلم ما يكمن وراء ذلك، لكنني لبست الزي العسكري وشعرت بأنني أصبحت إنسانا آخر"[1].

وعندما ارتدى الزي العسكري بعد تدريب نحو مدة أسبوعين أو شهر صار قلبه فرحا ويظل مسروا للغاية، ولا يزال وجهه يتفتح بشرا، وبدأ يتدرب في كل مساء حتى أتقن في حمل السلاح وبعض العمليات العكسرية الضرورية اللازمة، يصور لنا عزيز ضياء بتلك المشاهد بقوله " لقد فرحت كثيرا عندما ارتديت اللباس العسكري، والذي يزيد الضابط انضباطا تلك التحايا التي تؤدي له، ثم صرنا نركب الخيل أثناء تجوالنا وكان يتبعني ثلاثة خيالة ينفذون أوامري ويتقيدون بتعليماتي، لقد كان لعملي في الشرط تأثير

[1] كتاب الإثنينية، حفل تكريم الأستاذ عزيز ضياء في 1983/03/14م.

في نفسيتي ولعله صاحبني حتى اليوم، فأنا أزعم في نفسي وأزعم لأولادي ضياء وإخوته أنني منضبط جدا، وأتمنى أن يكون من حولي منضبطا أيضا، فأنا منضبط إلى حد أني أحيانا أضايقهم بهذا الانضباط "[1].

ثم بعد عدة سنوات أتيحت له فرصة ثمينة غالية من جديد لمواصلة دراسته وتعليمه بعد افتتاح مدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة، فقصد الشيخ عزيز ضياء العزم على الالتحاق بها ثم استقال من وظيفته في الشرطة نهائيا، والتحق بها، ولكن خطر له أنه يستطيع أن يدرس المرحلة الثانوية كلها وهي (أربع سنوات) في سنة واحدة، فنظرا لتحقيق هذه الفكرة الرائعة قام برحلة تعليمية جديدة إلى القاهرة (منبع العلوم والفنون) في عام 1356هـ حيث قد التحق بمدرسة الخديو إسماعيل، وبدأ دراسته ولكن من سوء الحظ رسب في الاختبار في مادة اللغة الإنكليزية التي كان يظنها أنه أكثر إجادة لها من أية مادة أخرى، وكذلك في اختبار الملحق رسب مرة أخرى في مادة الكيمياء، وبهذا انقطع أمله في الحصول على شهادة البكالوريوس في سنة واحدة من مصر يذكر متحدثا عن هذه القصة بقوله " بالفعل ذهبت إلى القاهرة والتحقت بمدرسة الخديو إسماعيل، وأديت الاختبار نهاية العام، ولكني لم أوفق فقد رسبت في مادة اللغة الإنجليزية التي أحسب نفسي أنني أكثر إجادة لها من أية مادة أخرى، ثم عرفت بعد ذلك سبب رسوبي، فالمدرس الذي كان يقوم بتدريسي اللغة الإنجليزية لم يرشدني إلى المواضيع الهامة، التي كثيرا ما تدور حولها الأسئلة، ولم يعطني نماذج لكثير من الأسئلة التي تضمنها الكتاب المقرر، وذلك خلاف ما كان يقوم به مدرس اللغة الفرنسية التي حققت فيها درجة متقدمة، ورسوبي هذا كان سببا في إيجاد مشاكل صعبة، أحاطت بحياتي كانت نتيجتها قلة مواردي "[2].

ولايمكن لأي شخصية بارزة مرت بشتى أنواع الشقاء ألا يحقق مراده ويحاول كل المحاولات إلى تعبيد الصعوبات والمشقات أمامه لذلك أنه لم يتوقف عند فشله ورسوبه

[1] المرجع نفسه.
[2] المرجع نفسه.

الموقت في مصر بل قام برحلة تعليمية إلى لبنان حيث قد التحق بالكلية الأمريكية في بيروت، وكان من زملاءه فيها الأستاذ عبد الله عمر بلخير، والأستاذ فريد بصراوي، والأستاذ أحمد عبد الجبار، وهم من الشباب السعودي المثقف والذي أسهم في الحركة الثقافية بالمملكة وكان يملؤه الطموح في متابعة دراسة تطابق وتصقل مواهبه وتتوج طموحه[1]. ولكن أن ظروف إندلاع الحرب العالمية الثانية اضطرته إلى العودة إلى المملكة العربية السعودية، حيث أعيد تعيينه في الشرطة وتم تعيينه مرة أخرى، ولكن رغبته الشديدة الملحة نحو مواصلة التعليم والتعلم ظلت تراوده بين الحين والآخر، فقرر عزيز ضياء في ذلك الحين الاستقالة من وظيفته في الشرطة مرة ثانية ليواصل تعليمة وتربيته في شفقة الأساتذة المهرة الذين كانوا يدرسون هناك منذ سنوات مطولة، فالتحق هذه المرة بمعهد التحقيق الجنائي في كلية الحقوق بالجامعة المصرية، ولكن حالت ظروف المعيشة بينه عائقا وازدادت إلى حد أنه عجز عن الإنفاق على نفسه وعلى أسرته فانقطع عن التعليم والتربية في السنة الثانية والنهائية من هذا المعهد فعزم العودة منها إلى المملكة العربية السعودية بدون استكمال الدراسة ليتم تعيينه مرة أخرى في الشرطة كرئيس بقسم التنفيذ.

عندما أسست أول وزارة للدفاع حوالي عام 1345هـ المصادف عام 1937م بوزارة المرحوم سمو الأمير منصور بن عبد العزيز فتوجه إليها الشيخ عزيز ضياء والتحق بها مساعدا للسكريتير الأول كما كان يسمى مدير عام الوزارة في ذلك الحين[2]. ثم عين بعد ذلك بأمر من وزير الدفاع مديرا عاما منتدبا للخطوط الجوية العربية السعودية، ثم تركها ليرافق أفراد أسرته إلى القاهرة في عام 1946م حيث قضى فيها عامين[3]. وخلال إقامته في مصر هناك نشرت جريدة (الأهرام) المصرية العربية خبرا عاما يفيد بها علما بأن السفارة الهندية تعلن عن ضرورتها إلى مذيع ومترجم عربي

---

[1] ضياء، عزيز، الأعمال الكاملة، ص:26-27

[2] صحيفة " عكاظ " بتاريخ 13 نوفمبر عام 2012 العدد 4177

[3] المقالة: بعنوان " معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع والعشرين" المنشورة على شبكة http://www.almoajam.org/poet_details.php?id=4640.

يعمل في إذاعتها في الهند، فقدم طلبا متواضعا لهذه الوظيفة الشاغرة بعد المشورة من زوجته السيدة أسماء زعزوع، وفاز في الامتحان الذي عقد لها بدرجة أتم.

ثم توجه إلى الهند بمرافقة زوجته والتي لا تزال تعمل هنا في بلادنا الهند أيضا كأول مذيعة عربية سعودية من خارج الهند يتحدث عزيز ضياء مذكرا عن هذه القصة بقوله " قد قرأت أم ضياء في الأهرام إعلانا مفاده أن السفارة الهندية تحتاج إلى مذيع يجيد الترجمة من الإنجليزية إلى العربية– قالت لي: هل قرأت هذا الإعلان؟ قلت لها: ما رأيك؟ قالت لي: بل أنت ما رأيك؟ قلت لها: نتوكل على الله، أليس ذهابنا إلى الهند أحسن من بقائنا؟ قالت: بلى لقد أصبت، وكتبت على الفور طلبا إلى السفارة الهندية، ومن العجيب أنني نجحت في الامتحان الذي أعد لذلك وتوجهنا إلى الهند هربا، أو لجوءا، أو طلبا للرزق... وظللت أعمل هناك 22 شهرا، والعجيب أنه منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه الإذاعة في الهند، كلفت بإذاعة نشرة الأخبار بعد ترجمتها"[1]. وعاد إلى المملكة العربية السعودية بعد الإقامة أكثر من سنتين في الهند حيث عين مديرا لمكتب مراقبة الأجانب في مكة المكرمة، وفي أثناء عمله وضع نظاما للإقامة تمت الموافقة عليه[2]. ثم عمل وكيلا للأمن العام للمباحث والجوازات والجنسية، وذلك في 17/2/1372هـ الموافق 5/11/1952م وأثناء عمله وضع نظاما معدلا للجنسية تمت الموافقة عليه أيضا.[3]

أساتذته:

هذه حقيقة جلية لا تخفى على أحد منا بأن الأساتذة هم العمود الفقري في بناء شخصية متميزة فائقة، هم الصائغون الذين يصوغون الأطفال والأجيال كيف ما يريدون ويشاؤون، وأن مفتاح مستقبل الأطفال الصغار ربما يقع في أيديهم، وأن هؤلاء الأطفال هم أمل المستقبل ورجال الغد، وقادة الأيام القادمة ولذا أن دور الأساتذة كبير جدا في تكوين كل شخصية فائقة متميزة ومجتمع إنساني سليم، ومن هذا المنطلق نحن نرى أن

[1] كتاب الإثنينية حفل تكريم الأستاذ عزيز ضياء في 1983/03/14م.

[2] صحيفة " عكاظ " بتاريخ 13 نوفمبر عام 2012 العدد 4177

[3] المرجع نفسه.

الأساتذة الذين تربى على أيديهم الشيخ عزيز ضياء لهم دور حيوي ودور قيادي في تكوين شخصيته المتميزة، وهم في عدد هائل لا ينبغي لنا حصرهم في هذا المجال إلا أننا نخص بالذكر منهم على سبيل المثال أهم من تلمذ عليهم الشيخ عزيز ضياء خلال حياته المطولة واستفاد منهم كل الاستفادة وفي طليعتهم الأستاذ السيد حسين طه، والأستاذ السيد صقر، والأستاذ السيد أحمد صقر، والأستاذ ماجد عشقي، والدكتور خيري القباني، والدكتور حسني طاهر وغيرهم الكثيرون رحمهم الله وأسكنهم في الجنة.

رغبته الشديدة في قراءة الكتب:

مما لا يختلف فيه اثنان أن الطفل الصغير عندما يولد يحب أن يلعب أي لعبة من الألعاب هاربا وفرارا من القراءة والدراسة ولكن أمر الشيخ عزيز ضياء كان مختلفا إلى حد، إنه كان يرغب في القراءة والمطالعة من تلقاء نفسه وأنه كان يفضلها على الألعاب كلها وكان يقضي أوقاته في الدراسة والمطالعة كثيرا، وكان لوالدته دور كبير في بناء شخصيته لأنها ساعدته مساعدة كثيرة في الحصول على الخبرات الواسعة والمهارات التامة والقدرات الفائقة في مجال العلم والمعرفة يقول في واصفا أمه الحنون واعترافا وتقديرا لعظمتها " بفضل الله ثم والدتي وطريقتها تولدت لدي عادة القراءة الدائمة "[1]. وكان أول كتاب عربي قرأه خلال الطفولة هو كتاب " العواصف والعواطف " لجبران خليل جبران، قرأه عندما كان يدرس بمدرسة التمريض بمكة المكرمة، وأثر هذا الكتاب على قلبه الصافي أثرا قويا بالغا حتى قرأه عدة مرات خلال التعليم والتعلم كما يقول عن نفسه " كان أول هذه المؤلفات التي قرأتها عدة مرات كتاب (العواصف والعواطف) " لجبران خليل جبران"[2]. وكان هذا هو السبب بأنه كان يحمل في جيبه كتاب جبران خليل جبران أينما يغدو ويروح يقول عزيز ضياء اعترافا بها " كنت خلال هذه الفترة

[1] صحيفة الجزيرة بتاريخ العدد 4558 في 1405/7/1هـ، ص:17

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 306

كلها لا أزال أحمل كتاب جبران خليل جبران في جيبي، أصطحبه في غدوتي وروحتي"[1].

ومما يجدر بالذكر أن هذا الكتاب أثر تأثيرا إلى درجة أنه جعل يكتب الرسائل إلى أصدقائه وزملاءه ولا سيما إلى صديقه العزيز الحميم محمد نيازي المقيم بالمدينة المنورة محاكيا أسلوب هذا الكتاب الرائع الأنيق، وكان يلقي الإعجاب الكثير والثناء والتعريف من أولئك الأصدقاء والزملاء الذين كانوا يقيمون بالمدينة المنورة، ويرغبون في قراءة هذا الكتاب. وكان الفضل يعود إلى الشيخ الدكتور حسني الطاهر (مساعد مدير الأمن العام بمكة المكرمة) فقد قرأ له بعض كتاباته ورسائله التي يكتبها الشيخ عزيز ضياء إلى أصدقاءه وزملاءه بالمدينة المنورة، حين كان يعمل مقيدا للأوراق في مكتب مدير الأمن العام، فأبدى إعجابه الشديد وشجعه على الاستمرار للكتابة والاحتفاظ بما يكتب لينشر في جريدة أو حتى في الجرائد المصرية كما يذكر متحدثا عن ذلك بقوله " كان الفضل في كل ذلك للدكتور حسني الطاهر رحمه الله، إذ قرأ لي رسالة أو كلاما أكتبه إلى صديق في المدينة، فأبدى إعجابه بما قرأ، وسألني عما إذا كنت أحتفظ بغيرها، فقدمت إليه مجموعة من هذه الرسائل التي كنت أكتبها وأضعها في درج المكتب.. أخذها وعاد إلى مكتبه وبعد أقل من ساعة عاد بها وهو يقول: من هم الذين قرأت لهم من الأدباء–جبران خليل جبران" (ويتابع قائلا) لا توجد في مكة غير جريدة أم القرى ولذلك احتفظ بما تكتب لينشر في جريدة يمكن أن تظهر، أو حتى في الجرائد المصرية... فما تكتبه يستحق النشر فعلا "[2].

وكذلك أهدى له الدكتور حسني طاهر مجموعة من الكتب الأدبية العربية التي كتبها الأديب الألمعي والكاتب الموهوب الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي لتصحيح القواعد العربية: النحوية والصرفية، وكذلك لتحسين لغته العربية، وعندما أعطي الكتاب فأبدى فرحه وسروره بقوله " لقد جاء الدكتور حسني طاهر ومعه رزمة كتب كلها

[1] الإثنينية حفل تكريم الأستاذ عزيز ضياء في 1983/03/14م.

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 306.

للمنفلوطي "النظرات" و"العبرات" و"مجدولين" و"الشاعر" و"في سبيل التاج" و"الفضيلة" ووضعها على المكتب، لقد فرحت بالكتب كثيرا وقال لي الدكتور لكي تصبح كاتبا جيدا، فلا بد من تحسين لغتك، وكتب المنفلوطي هذه فيها كثير من الألفاظ التي تحتاجها، والتي تستطيع أن تعبر بها عن نفسك التعبير الصحيح، فقرأت كتب المنفلوطي أكثر من سبع، أو ثماني مرات، ولقد استفدت من المنفلوطي كثيرا وبالفعل استقامت عباراتي، وصرت أشعر بنفسي أني كاتب"[1].

ومن الدراسة العميقة تبدو لنا أن الشيخ عزيز ضياء لم يكتف على قراءة ودراسة كتب المنفلوطي الأدبية والعلمية والفكرية، ولم تكن مطالعته مركوزة عليها فقط بل أنه قام بمطالعة الكثير من الكتب العربية والمجلات والصحف والجرائد التي كانت تصل إليه في تلك الفترة من الزمان من المملكة العربية السعودية وخارجها كالمقتطف، والأهرام، والمقطم وغيرها من المجلات التي تصل إلى مكاتب باب السلام المختلفة يقول عزيز ضياء مذكرا عنها " لم أقرأ مؤلفات المنفلوطي فقط، وإنما أخذت أقرأ الكثير من الكتب التي أجدها في مكاتب باب السلام، بل وجدت نفسي أتلهف على شراء الصحف والمجلات التي توجد في المكتبات، ومنها الأهرام، واللطائف المصورة والمقطم... كنت أقرأ الصحيفة من الألف إلى الياء... لا أترك خبرا، أو كلمة، أو قصيدة شعر".[2] ومن خلال هذه الفترة من الزمان كان الشيخ عزيز ضياء يداوم على تعلم النحو على يد زميل كان أكبر منه سنًا وكان اسمه محمد سعيد الكيالي يصفه الشيخ عزيز ضياء عن نفسه قائلا "وفي هذه الفترة درست النحو على زميل ولكن... كبير السن يدعي /محمد سعيد الكيالي– كان يعرف النحو كمعرفة سيبويه، وكان رجلا ظريفا جدا، ويحب أبا العلاء المعري كثيرا جدا "[3].

ويقول أيضا في وصف محمد سعيد الكيالي اعترافا بعلو باعه في النحو والصرف والبلاغة فضلا عن العلوم والفنون الأخرى " العجيب أنه كان عالما بالنحو

---

[1] الإثنينية حفل تكريم الأستاذ عزيز ضياء في 1983/03/14م.

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 307

[3] الإثنينية حفل تكريم الأستاذ عزيز ضياء في 1983/03/14م.

والصرف بشكل عظيم، يعني يعتبر عالما من العلماء، ولكنه لا يستطيع أن يكتب عبارة أكثر من سطرين، لقد رأيته يناقش أحد علماء النحو المشهورين في شنقيط وقد أعجب به إعجابا بالغا، وقال: هذا عالم في اللغة العربية والنحو والصرف، لكن الرجل إذا كتب لا يسطيع أن يكتب أكثر من سطرين، ثم يضيق صدره فيوكل إلى كتابة المذكرات الصادرة لمديرية الصحة"[1]. وكان الشيخ عزيز ضياء كغيره من الشباب المتطلع في ذلك الوقت الذين أخذوا في التقاط غذائهم الثقافي من موائد الفكر والثقافة الحافلة والمتنوعة، إذ كانت تصل إلى الحجاز بعض الصحف المصرية الغنية بالمواد الفكرية والأدبية والثقافية كالمقتطف والأهرام والهلال والمصري وروز اليوسف والتي كان يكتب فيها نخبة من أدباء العربية وشعرائه، فكان يحرص على قراءتها ومتابعة ما ينشر فيها[2].

عندما نستعرض حياة الشيخ عزيز ضياء نجد أن اهتماماته كانت متنوعة فهو كان عالما وأديبا وباحثا ومحققا ومترجما وصحفيا مشهورا عالميا، وهو كان يتحدث بثلاث لغات هى: العربية، والإنجليزية، والتركية. وكان يحرص حرصا شديدا على متابعة مجلة " السياسية الأسبوعية " التي كان يرأس تحريرها الشيخ محمد حسين هيكل، حيث نشرت مقالات أعلام الفكر والأدب والمعرفة في العالم العربي ولا سيما أعلام المملكة العربية السعودية، نخص بالذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر إبراهيم المازني، والدكتور طه حسين، والأستاذ مصطفى عبد الرزاق، والأستاذ عباس محمود العقاد، والشاعر إبراهيم شكري، والأستاذ محمد حسين زيدان، والأستاذ حمزة شحاتة، والأستاذ عبد المقصود خوجه وغيرهم، وتجدر الإشار هنا أن الشيخ عزيز ضياء قرأ في هذه المجلة الأسبوعية حول ذلك الاختلاف الشديد الذي ضج حول كتاب " الشعر الجاهلي" للأديب المصري الدكتور طه حسين، فرغب في قراءته ومطالعته رغبا شديدا للغاية، ثم قرأ آراء النقاد المصريين والأدباء العرب المعاصرين حول هذا الكتاب، ثم

---

[1] المرجع نفسه.

[2] الأخشمي، أحمد بن علي بن أحمد، عزيز ضياء حياته وآثاره وما كتب عنه، ص:24

توجه إلى أدب طه حسين وقرأ "حديث الأربعاء" و" الأيام" وكل ما كتبها الدكتور طه حسين من الأدب والثقافة والتاريخ وما إلى ذلك.

وكذلك أنه لم يكتف بقراءة الكتب الأدبية العربية فقط بل أنه قرأ وطالع كل ما يقع في أيديه من كتب الأدب والثقافة والفكر والتاريخ والعلوم والسياسة وعلم الاجتماع وعلم الحساب منذ الخامسة عشرة من عمره، بينما قرأ أدب طه حسين وجبران خليل جبران والأدباء العرب والغرب الآخرين خلال أيامه الطفولة والصبا ولم يمضى يوم من الأيام دون القراءة والمطالعة كما يقول في هذا الصدد " لقد عشقت الأدب وأنا في الخامسة عشرة، ومنذ ذلك اليوم لم يمض يوم دون أن أقرأ فيه جديدا، ففي سن التكوين قرأت لطه حسين، والعقاد، والمازني، ومحمد حسين هيكل، وأحمد أمين، وجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبوماضي، وأفلاطون، في جمهوريته، وأرسطو في سياسته، وهناك أيضا لطفي السيد باشا، ونقولا حداد في كتابه علم الاجتماع، وهانز بياتشيف في كتاب ابن الطبيعة، والرافعي في أوراق الورد والمساكين، وحديث القمر، ووحي القلم"[1].

وكذلك أنه قرأ عدة كتب عربية وإنجليزية مرارا وتكرارا كما قرأ لأناتول فرانس مرة عاشرة على الأقل، وحفظ عن ظهر قلبه تلك الكلمات الرائعة والعبارات الأنيقة والتراكيب النقية الصافية التي جاءت في الكتاب، وكذلك حفظ عن ظهر قلب عن تلك الكلمات المجنحة السليمة الفصيحة التي كانت تنشرها دولة فرانس عن حوار أبطاله وهو كان بافنوس في صراعه الرهيب ننقل بعض الكلمات لعزيز ضياء لكي تتضح هذه الحقائق أمامنا إذ يقول متحدثا عنها في سيرته الذاتية " كنت قد قرأت تاييس لأناتول فرانس للمرة العاشرة على الأقل، بحيث بلغ بي الأمر أن حفظت عن ظهر قلب تلك الكلمات المجنحة التي ينثرها فرانس في حوار أبطاله... وكان بافنوس في صراعه الرهيب، مع أفاعي الجنس التي تنهش صدره، والذئاب الجائعة في أعماق نفسه.. كان

[1] اليمامة عدد 105 في 1390/3/9هجـ ص:13 نقلا عن: الأخشمي، أحمد بن علي بن أحمد، عزيز ضياء حياته وآثاره وما كتب عنه، ص:25

صورة أخاذة، عبقرية الملامح والألوان لمقدرة فرانس كفنان منطلق لا سبيل إلى أن تقف أمام ريشته أية سدود أو قيود... فأنا يومئذ، صورة من فرانس"[1].

وكذلك لم تكن قراءته محدودة على هذه الكتب المذكورة أعلاها بل أنه ركز كل طاقاته على قراءة كتب أدبية تاريخية مختلفة أيضا كما قرأ كتاب " البيان والتبيين " و" البخلاء " و" الحيوان " للجاحظ. وتجدر بي الإشارة هنا أنه لم يكن يكتف على الكتب الأدبية العربية الحديثة المعاصرة فحسب بل أنه توجه إلى التراث العربي القديم منذ مطلع الشباب، وطالع وقرأ معظم الكتب العربية القديمة، وحفظ عن ظهر قلب عن أبيات كثيرة من " المعلقات السبع" مع شروح مختلفة كما أشار إلى ذلك في سيرته الذاتية قائلا " قد يدهش القراء أني في مطالع سني الشباب قرأت " العقد الفريد " وحفظت الكثير من المعلقات السبع مع شروح مختلفة منها شرح الزوزني إلى جانب دواوين فحول الشعراء في العصر الأموي والعباسي، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ابن الرومي، وصريع الغواني، وعمر بن أبي ربيعة، ومهيار الديلمي، وأبو تمام، والبحتري، وابن المعتز، المعتز. ولكثرة ما سمعت عن " الأغاني " ظللت أحاول الحصول على طبعة دار الكتب منه إلى أن اشتريت سبعة عشر مجلدا فقط"[2].

ذات مرة عندما طرح إليه سؤال مهم حول أهم عشرة الكتب الأدبية العربية التي أثرت على مسيرته الفكرية للغاية فذكر بداية أن الكتاب في الأدب العربي الذي أثر على قلبي أثرا للغاية ألا وهو القرآن الكريم الذي تحدى بلغاء العرب والعجم عن آخرهم فأفحمهم وأعياهم عن اتيان سورة واحدة من مثله فضلا عن الكتاب بتمامه، وهو الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على سيد المرسلين صلى الله عليه، وهذا هو الكتاب الذي كان يضعه معه دائما بالنسبة إلى الكتب الأدبية الأخرى يقول " لا بد أن أفرق بين نوعين من الكتب كان لها أثرها في مسيرتي الثقافية: أولهما: تلك الكتب التي شدت اهتمامي، أو جعلتني أتعشق الإبداع وهذه كثيرة لا حاجة إلى ذكرها، وثانيهما: الكتب التي

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص:10

[2] مجلة " اليمامة " مجلة أسبوعية، عدد 1274 في 1414/4/13هـ، ص:7

اكتشفت فيها مسيرة الفكر منذ بدأ إشعاعه عند الإغريق وقبل ما يقرب من ألفي ومائتي سنة، وأهمها: "جمهورية أفلاطون" ترجمة حنا خباز، و" قصة الفلسفة " لويل ديوانت، و" السياسة " لأرسطو طاليس، ترجمة: أحمد لطفي السيد، و" أصل الأنواع " لداروين، ترجمة: إسماعيل مظهر، و"الأبطال" لتوماس كارلايل، و"أميل والتربية" لجان جاك روسو، ترجمة: عادل زعيتر، و"الأحكام السلطانية" للماوردي، و"الملل والنحل" للشهر ستاني، و"الفصل في الملل والنحل" لابن حزم الأندلسي، و"المحلى" لابن حزم الأندلسي، و"مقدمة" ابن خلدون، والكشاف للزمخشري...".[1]

رغبته الشديدة في تعلم الأدب الإنجليزي:

كان الشيخ عزيز ضياء مكبا على دراسة اللغة الإنجليزية منذ نعومة أظفاره، فتوجه إليها بكل رغبة شديدة وعكف على تعلمها منذ سن مبكرة، وكان الأستاذ الذي تعلم منه اللغة الإنكليزية، واستفاد منه استفادة كثيرة هو الأستاذ سعد الدين بشار الذي غرس في قلبه حب الإطلاع على هذه اللغة الأجنبية، وكان يحرص حرصا شديدا على متابعة الأخبار باللغة الإنكليزية من المذياع للحصول على الخبرات الواسعة والمهارات الفائقة على هذه اللغة الأجنبية كما يقول عزيز ضياء " إن الذي حبب إلي اللغة الإنجليزية في الواقع هو رجل اسمه سعد الدين بشار كان جارنا، سمعته ذات يوم يتحدث إلى شخص هندي، يدعي يوسف علي، بلغة سحرني منه إخراج ألفاظها بطريقة تستحوذ على لب المستمع وتؤكد له أن المتحدث متقن للغة ومتمكن منها، فسألت سعد الدين أفندي قائلا: ما هذه اللغة التي كنت تتحدث بها إلى السيد يوسف علي؟ فأجابني إنها اللغة الإنجليزية، فسألته حينئذ هل يمكن أن تعلمني؟ فقال: سأعلمك لكن لو استطعت أن تعمل على أن ينضم أكثر من واحد لنستفيد، وبالفعل حاولت مع بعض الإخوان المشتغلين بالتجارة حتى أقنعتهم على الانضمام معي في دراسة اللغة الإنجليزية عند سعد الدين بشار، وبدأنا نتعلم اللغة الإنجليزية، واستمرت دراستنا تقريبا ثلاثة

[1] صحيفة " المدينة " عدد 8195 بتاريخ1410/3/19هـ ملحق الأربعاء ص:2 نقلا عن: الأخشمي، أحمد بن علي بن أحمد، عزيز ضياء ناثرا، ص:30

أشهر، وبعد انقضاء ثلاثة أشهر اعتذرنا لسعد الدين أفندي، قلت له: إني أرغب أن تأتي إلى مترلي لتعلمي الإنجليزية بدلا من مجيء إليك مقابل خمس ريالات شهريا، وبدأت الدراسة معه"[1].

هذه حقيقة ثابتة بأن الشيخ عزيز ضياء كان عاشقا ومحبا للغة الإنجليزية منذ الطفولة والصبا، وللحصول على الخبرات الفائقة والمهارات التامة كان يحفظ بصورة مباشرة كل المفردات والمصطلحات من الألفاظ الإنجليزية التي تأتي أمامه خلال القراءة والمطالعة، وكان يحفظ عن ظهر قلب مأة كلمة يوميا بشكل عام، ويختبر نفسه كتابة ونطقا وقراءة كل يوم من الأيام كما أورد قائلا " نظرا لتعشقي اللغة الإنجليزية، فقد كنت أحفظ يوميا مائة كلمة ويختبرني فيها قراءة، وكتابة، وتهجيا، ومعنى، وجلست مرة وبدأت أفكر ماذا أفعل حتى أتقن اللغة الإنجليزية؟ كان المذياع قد تم اختراعه في تلك الفترة وبدأ تسويقه، فكنت أستمع إلى الأخبار في البداية فلم أفهم شيئا مما قيل، ولكن اللهجة أعجبتني، ومن ثم بدأت أحرص على أن أقوم مبكرا في ميعاد الإذاعة، صباحا ومساءا أسمع الأخبار وازداد تعلقي بها وعشقي لها، ووجدت أن خير وسيلة قد تمكنني من إتقان اللغة الإنجليزية نطقا وكتابة وقراءة، هي: أن أقوم بحفظ كلمتين أوثلاث وترديدها بنفس اللهجة التي تحدث بها المذيع "[2]. وعندما سافر إلى جمهورية الهند ليعمل في إذاعة الراديو لعموم الهند في دلهي الجديدة كونه مترجما ومذيعا في أواخر عام 1368هـ، فذاك الحين قد زادت قريحته وتمكنه وموهبته على هذه اللغة يذكر مشيرا إلى ذلك بالقول " ثم سافرت إلى الهند لأعمل مذيعا ومترجما بإذاعة دلهي الجديدة، مما كان له الأثر في انطلاق لساني"[3].

أقام في الهند ولا سيما في مدينة دلهي الجديدة ومدينة بومبائي حوالي عامين مذيعا ومترجما، حيثما قرأ وطالع عددا ضخما لا بأس به من الكتب الإنكليزية على الموضوعات المختلفة والعناوين المتنوعة، وتعرف على الأدباء والكتاب الممتازين

---

[1] كتاب الإثنينية حفل تكريم الأستاذ عزيز ضياء في 1983/03/14م.
[2] المرجع نفسه.
[3] المرجع نفسه.

الهنديين الذين لهم يد طولى في كل فن من الفنون ولا سيما في اللغة الإنجليزية، والذين قاموا بعمل جليل في اللغة والأدب والتاريخ والعلوم الأخرى، ولم تكن قراءته محدودة ومرتكزة على كاتب واحد فقط بل أنه قرأ كل ما يقع في أيديه من الكتب المؤلفة باللغة الإنجليزية منذ الطفولة والشباب كما يذكر متحدثا عن ذلك بقوله " كاتب هذه السطور في عنفوان الشباب، وفي قمة الموجة الطامية التي تدفعها الرياح في بحر الثقافة والعلم حيثما شاءت، وكان يزهو بحظه القليل من معرفة اللغة الإنجليزية، ولكنه الزهو الذي يغزي بالاستزادة... وبدافع من هذا الزهو والشوق، لم ير ما يمنع أن يشتري لأي كاتب تقع عيناه على كتبه في مكتبات القاهرة، التي تستورد الكتب الإنجليزية في أواخر الثلاثينات من هذا القرن وكان يجهل مكانة الكتاب والمحديثن أو المعاصرين، ولكن غلاف الكتاب وطريقة عرضه في واجهة معارض الكتب كان يدخل في وهمه أو ظنه أن الكتاب المعروض في الواجهة لا بد أن يكون لأحد كبار الكتاب المحدثين فلا يتردد في الشراء مادام جيبه عامرا بالنقد "[1]. ثم بعد ذلك بدأ يقبل فضلا عن القراءة والمطالعة إقبالا شديدا على الإنجليزية، ولم تكن قراءاته ومطالعاته تلك قراءة خاطفة فقط بل أنه تعمق فيها وحصل على الخبرات الفائقة فيها، ووقف على كثير من نتاج كبار الكتاب وغيرهم على السواء وقد ترجم العديد من الكتب العربية إلى اللغة الإنجليزية وبالعكس.

لا يخفى على المطلعين بالتاريخ المعاصر للغة العربية وآدابها في المملكة العربية السعودية أن الشيخ عزيز ضياء كان أديب اللغة العربية وآدابها يخدمها بكل تفان وإخلاص، ويسعى إلى نشرها وتطويرها سعيا مشكورا، وكان هو معروفا ومشهورا في الأوساط العلمية والفكرية والأدبية بجهوده المشكورة المخلصة في مجال اللغة العربية وآدابها، من أجل ذلك أن الحكومة العربية السعودية قد قررت بمنحه جائزة " فيصل العالمية " في عام 1999م إشادة بخدماته الجليلة خلال كتابه الشهير " حياتي مع الجوع والحب والحرب" (في ثلاثة أجزاء)، واعترافا بجهوده المضنية التي تتجلى في

[1] ضياء، عزيز، جسور إلى القمة، ص:333

المجلة العربية مثل: عكاظ، واليمامة، بالإضافة إلى مؤلفاته العربية. ولكن المنية قد جاءته ومن سوء الحظ لم يحصل عليها في حياته.

وفاته:

قد انتقل إلى رحمة الله عز وجل هذا الأديب، والمترجم، والمحلل السياسي الشهير، وشخصية القرن العشرين صباح السبت 1418/8/6هـ، والموافق 1997/12/6م، بعد معاناة شديدة مع المرض استمرت نحو ستة أشهر. تغمد الله الفقيد بواسع الرحمة والرضوان، وأدخله في فسيح الجنات، وأنزله منازل الأبرار في عليين.

الفصل الرابع

إسهاماته في مجالات شتى

هنا أذكر إسهاماته الأدبية القيمة التي قام بها عزيز ضياء في كل مجال من مجالات الصحافة، والإذاعة، والتلفاز، والندوات، والجلسات، والمؤتمرات الوطنية والدولية وغيرها.

الصحافة العربية:

الشيخ عزيز ضياء كانت لديه رغبة شديدة في الصحافة العربية منذ وقت مبكر، لذلك أنه قام بمساهمة كبيرة وخدمات عظيمة في تطور الصحافة العربية إلى جانب أعماله في عدة وظائف حكومية مدنية وعسكرية كونه مديرا لعموم الخطوط الجوية العربية السعودية في وزارة الدفاع والمفتشة، إذ بدأ حياته بممارسة الكتابة الصحافية والتأليف والترجمة حيث كان أول مقال له نشر هو مقال " الإنسان والأمل "، نشر هذا المقال في العدد السادس بتاريخ 1351/1/10هـ. وفيما بعد لم يزل ولا يزال يكتب في الصحف والمجلات المحلية والدولية ومنها: أم القرى، والمدينة، والأربعاء، والبلاد السعودية، ثم البلاد، والندوة، وعرفات، وعكاظ، والرياض، المنهل، واليمامة، والإذاعة، وإقرأ، والمجلة العربية، والفيصل، والجيل، وغيرها من المجلات والصحف الأدبية الأخرى. يعد عزيز ضياء من أوائل من كتبوا المقال السياسي في جريدة صوت الحجاز (البلاد حاليا) أول صحيفة سعودية.[1] ثم عمل مديرا عاما بصحيفة عكاظ التي كان يصدرها الشيخ أحمد الغفور عطار في الفترة من 1381/1/18هـ إلى 1381/10/21هـ أي العام 1961م وذلك في عهد الأفراد[2].

كما تولى رئاسة تحرير صحيفة المدينة في عام 1964 قبل أن تتم تنحيته بعد 40 يوما فقط على خلفية نشره لوثائق تكشف عن بعض المخالفات المالية بوزارة

---

[1] صحيفة " عكاظ " 23 نوفمبر عام 2012م العدد 4177

[2] المرجع نفسه.

البترول.[1] وخلال هذه المدة القصيرة استطاع أن يلغي عطلتها الأسبوعية ليصدر في كل يوم من أيام الأسبوع بدون أي توقف وانقطاع يقول " الذي يومض في ذهن القاريء لأول وهلة أن الغرض من إصداره الكسب المادي، أو مزاحمة الزميلات على التوزيع، ولكني أؤكد أن هذا كله لم يدخل قط في حساب هذه الصحيفة وتقديرها، وإنما الذي وضعته في الحساب أن الصحافة نوع من الخدمة لا يختلف من حيث علاقتها بالجمهور عن الخدمات التي تقدمها الإذاعة والتلفزيون أو حتى المستشفيات ودوائر الأمن والتلفون والتلغراف، وخدمة يجب أن تستمر حتى في أيام الأعياد"[2]. وقد اختير عضوا بالمجلس الأعلى للثقافة والفنون في رمضان عام 1394هـ وهي عضوية بإرادة ملكية في عهد الملك فيصل، ولكنها توقفت بعد وفاة الأستاذ حسن عبد الله آب الشيخ الذي كان وزيرا للمعارف ثم وزيرا للتعليم العالي، كما هو عضو مؤسس في النادي الثقافي الأدبي بجدة، وقد شغل منصب نائب رئيس النادي في الفترة من 1395هـ إلى 1398هـ، وشغل منصب سكرتير النادي من عام 1395هـ إلى 1397هـ[3].

الإذاعة العربية والتلفاز:

يعد الشيخ عزيز ضياء من أحد الأعلام البارزين المعاصرين الذين لهم سمعة طيبة في الأوساط العلمية والفكرية والأدبية والاجتماعية داخل المملكة العربية السعودية وخارجها، لم يكن نشاطه العلمي والأدبي محدودا على الكلمة المقروءة والمسموعة فحسب بل أنه قام بمساهمات كبرى في الكتابة للتلفزيون العربي، واستخدم قدراته الفائقة ومواهبه الإبداعية في انتاج العديد من البرامج الإذاعية والتلفازية كما كتب العديد من المسلسلات التلفازية العربية السعودية حيث كتب للإذاعة العربية السعودية كمعلق سياسي لحوالي 15 سنة، وكانت له سلسلة من المقالات النادرة في الرد على الهجمات

---

[1] المقالات التي أعدتها الباحثة نورة محمد الحويطي، المنشورة على شبكة -http://www.dr aysha.com/inf/articles.php?action=show&id=2250

[2] صحيفة المدينة العدد 210 في 1384/7/17هجـ نقلا عن : الأخشمي، أحمد بن علي بن أحمد، عزيز ضياء حياته وآثاره وما كتب عنه، ص: 21

[3] الأخشمي، أحمد بن علي بن أحمد، عزيز ضياء ناثرا، ص:24

التي كان يشنها الإعلام المصري على المملكة العربية السعودية خلال فترة ما قبل نكسة 1967م.

وكذلك قام عزيز ضياء بخدمات جليلة ومساهمات مرموقة بتقديم مشروع للنهوض بإذاعة المملكة العربية السعودية عام 1391هـ المصادف عام 1971م بناء على طلب معالي الشيخ إبراهيم العنقري، وكان في ذلك الحين وزيرا للإعلام العربي السعودي، ويقع المشروع في تسعة بنود، ومن بينها: تقديم برامج سياسية عن إسرائيل والمخططات الصهيونية ضد العالم العربي والإسلامي، بهدف نشر الوعي الإسلامي والسياسي، وكذلك العناية والاهتمام بالبرامج الترفيهية، ونشر الثقافة الإسلامية، والدعوة إلى التضامن الإسلامي، وإبراز عنصر المائدة الدائمة للشعوب الإسلامية في حقوقها، هذا بجانب المساهمة في الكتابة اليومية والأسبوعية لعدد من الصحف والمجلات: جريدة الرياض، والمدينة، وعكاظ، والبلاد، والندوة، ومجلة إقرأ، واليمامة، والحرس الوطني، والجيل وغيرها.[1]

ويقول عنه أحد المهتمين بمجال الإعلام " أظن أنه مر بالإذاعة السعودية... إعلامي مفكر، وفنان مثقف، جمع بجدارة أطراف خيوط الفن الإذاعي فلسفة وإعدادا وتقديما وإخراجا وتخطيطا، كما كان عزيز ضياء... ولا أظن أن منزلا وأسرة سعودية صارت (مجمع إذاعات) تضم الأب والأم والأولاد مثلما هو بيت عزيز ضياء دار الخبرة الإذاعية "[2].

وعندما نستعرض حياته نجد أن نشاطاته الإذاعية والتلفاز كثيرة ومتنوعة، حيث قام بتقديم عدد كبير من البرامج المختلفة حول الأدب والتعليم والسياسة والإعلام وغيرها وننقل فيما يلي بعض خدماته ونشاطاته الإذاعية والتلفاز لكي تتضح أمامنا خدماته الجليلة التي قام بها من خلال حياته المطولة: –

[1] ضياء، عزيز، الأعمال الكاملة،)، الجزء الأول، ص:29

[2] الأخشمي، أحمد بن علي بن أحمد، عزيز ضياء حياته وآثاره وما كتب عنه، ص: 173

- التعليق السياسي، هو الذي لم يزل يقدمه الشيخ عزيز ضياء في الإذاعة العربية في المملكة العربية السعودية بشكل يومي خلال الفترة من 1385هـ- 1395هـ.
- كما قدم برنامجا يوميا بعنوان " رسالة إلى أبناء الرافدين " أذيع خلال فترة حرب الخليج، وجاء هذا البرنامج في 163 حلقة أذيع أولها في 1411/2/23هـ، أما الحلقة الأخيرة فأذيعت في 1411/8/16هـ، وتناول في هذه الحلقات عددا من القضايا السياسة.[1]
- وقدم البرامج الثقافات العربية والحضارات العربية السعودية الإسلامية الخالصة السائد بين أبناء الشعب العربي حينذاك، وذلك في أسلوب رائع وشيق رصين، ومنها: مع الليل عام 1383هـ. وروائع الشعر العربي، وأذيع حوالي خلال من بين 1383هـ 1384هـ. وبرنامج في حقيبة السفير في عام 1394هـ، وقصة الأسبوع، وسهرة الليلة.
- وكذلك قام الشيخ عزيز ضياء بتقديم العديد من برامج رائعة في مناسبات مختلفة، ومنها: برنامج أرض النور، لمحات عن حياتهم، كما عرض برامج مختلفة ومتنوعة في مناسبات مختلفة من أمثال: مناسبات العيدين، وغسل الكعبة، وغير ذلك من المناسبات الخاصة بالمملكة العربية السعودية.
- كان يعد الشيخ عزيز ضياء العديد من الأعمال الدرامية، ويقدمها خاصة للصغار والكبار من أبناء العرب على العناوين المختلفة ومنها: الأطلال: دراما اجتماعية في ثلاثين حلقة في شهر رمضان عام 1389هـ. والحصاد: دراما اجتماعية في ثلاثين حلقة في شهر رمضان عام 1399هـ. والكنز: دراما كوميديا اجتماعية في ثلاثين حلقة في شهر رمضان عام 1392هـ. وسر الفانوس: مسلسل للأطفال في الثمانينات الهجرية. والضائعة: مسلسل للأطفال في الثمانينات الهجرية. وكانت أيام: مسلسل رمضاني في التسعينات الهجرية. كما قدم فيها هذا هو الحب، وعطاء الحب، وحياة الخطيئة، وإلى أين؟، والدبوس، ولميس في أرض الأحلام وما إلى ذلك.

[1] المرجع نفسه، ص:171

أعماله الشعرية العربية:

عندما نبدأ بمطالعة حياة الشيخ عزيز ضياء نجد أنه كان كاتبا قديرا، وأديبا موهوبا، ومترجما شهيرا، وشاعرا بارعا، وناقدا سياسيا قد عالج في كتاباته ومقالاته الأكاديمية وبحوثه العلمية والفكرية جميع نواحي الحياة البشرية من سياسة، وأخلاق، وتعليم، وفلسفة، وأدب، وتاريخ، وعلوم منتوعة أخرى، قد أثبت تمكنه وتفوقه لا في علوم التاريخ والترجمة والبلاغة بل في مجال الشعر والنثر، وفي الواقع كان جزل الألفاظ وعميق الأفكار الذي يملك العقل والوجدان معا، كما أنه قام بمساهمة كبيرة في مجال الصحافة والإذاعة على الرغم من مساهماته الكبيرة في الكتابة والتأليف والترجمة من اللغات العربية إلى اللغة الإنجليزية وبالعكس.

والشيخ عزيز ضياء له مساهمة في مجال الشعر منذ نعومة أظفاره، قرض عدة قصائد عربية حول موضوعات مختلفة بأسلوب رائع مما يرغب القاريء أن يقرأها ويطالعها في آن واحد، وعندما يبدأ بقراءتها ومطالعتها يتلذذ في نفسه لذة وحلاوة وطراوة، وكذلك كتب العديد من الأشعار العربية، ونشر له بعض القصائد في اللغة العربية في كتاب أسماه " وحى الصحراء" منها: قصيدة أنشودة عاشق، كما نشر بعض قصائده العربية في بعض الصحف والمجلات العربية السعودية، منها: تحية مصر في جريدة المدينة عام 1937م، وأغاريد قلب في صوت الحجاز عام 1936م، وموجة في جريدة البلاد عام 1971م، وقحف جمجمة في الظلام في جريدة البلاد عام 1973م، وذكرى كارثة الخامس من يونيو 1967م عام 1982م، وعشرون شمعة في جريدة الحرس الوطني عام 1986م، ومن أول قصائده الشعرية العربية نشرت في صحيفة " صوت الحجاز" عام 1355هـ هي بعنوان " ترجيع " وننقل فيما يلي بعض خير نماذج من قصائده في اللغة العربية لكي يتضح أسلوبه الأخاذ إذ هو يقول:-

فلكم رأينا الشمس تنثر تبرها الزاهي النضير

فوق السنابل، والسحاب، وفوق تيجان الزهور

ولكم قضينا الليل نسمع لحن ساقية كرور

ونشاهد النخلات ترقص غانية فخور

ونسامر الصخر الحزين، ونقلق الصمت العسير

بالأغنيات الناعمات تثير مكبوت الحبور

ونقدم قصيدة رائعة أخرى له نشرت بعنوان " أنشودة عاشق " في مجلة " وحي الصحراء" إذ يقول متحدثا عن بلبل وصفاتها البارزة:

غن يا بلبل واعزق يانسيم واسقني يا صاح من خمر الكروم

لحظ من أهواه يرمي بالسهام وفؤادي يتلظى من هيام

في ضلوع شفها وفد الغرام فاسقنيها حرة تجلو الهموم

لا تلمني إنني لست الملوم آه يا قلبي كم عذبتني!

بخفوق ووجيف لايني ولم غربتني عن موطني!

هل ألفت الصد من ذاك الظلوم؟ أم ألفت العيش في هذا الجحيم؟

قد لعمري ذبت من فرط الجوى وفؤادي ذاهب نهب الهوى

ويح دهري حسبه هذا النوى فنيت روحي كما يغني الهشيم

في سعير الهجر والحب الغشوم أين يا حب العهود الماضية؟

حين لا نسمع فيها لاغيه غير تغريد الطيور الشاديه

حين عشنا تحت أفنان النعيم وسمت أرواحنا فوق النجوم

أين يا حب وفاء وحنين؟ ولقاء وعناق كل حين

وحبيس من غرام لايبين هل مضى الكل كما يمضي اليتيم

حين يمني بانتهار من لئيم؟ كم همي دمعي وكم قلبي شكا!

ولسوف العمر يقضى في البكا على يا حبي ترضى علكا

فيسود الود كالعهد القديم ثم يسقى البؤس كأسا من حميم

عل يا حبي ترضى فنعود لحياة ملؤها أنغام عود

ثم نشدوا رغم آهات الحسود غن يا بلبل واعزف يا نسيم

واسقينا يا صاح من خمر الكروم[1].

يمتاز الشيخ عزيز ضياء بكونه شخصية متميزة في مجال العلم والأدب والمعرفة فضلا عن الخدمات العسكرية، كان صاحب مؤلفات عديدة باللغة العربية، وله قدرة متكافئة ومهارة فائقة في اللغة الإنجليزية والتركية، واستخدام ألفاظها وتراكيبها وعباراتها، كان يكتب في أسلوب يمتاز بالسهولة والجزالة والفصاحة، هنا ننقل فيما يلي بعض قصيدة رائعة أخرى له ذات أسلوب أنيق رائع قرضها في أعقاب نكسة الخامس من شهر يونيو عام 1967م، ونشرها بعد ستة عشر عاما في مجلة " إقرأ "، قد اهتم الشاعر كل الاهتمام بالألفاظ المتناسقة والمعاني البديعة والتراكيب السهلة الرضية التي تتلذذ بها الأسماع وتستهوي القلوب يقول:

مشرق الشمس.. وأخبار الإذاعة
جيشنا.. أعظم قوة
ورصدنا للعدوة
ظافرا.. يتلوه قاهر
وشبابا وفتوة
ثم مزقنا الحناجر..
ورقصنا في البيادير
وحفرنا ألف هوة
أهدرت فيها الأخوة
ثم صحنا... من يكابر؟
نحن أبطال نبادر
لا نبالي لا نحاذر
وإلى البحر سنقذف

[1] المقالات التي نشرت بعنوان " معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين " المنشورة على شبكة http://www.almoajam.org/poet_details.php?id=4640 ص:3/3

بالملاعين ونحلف

جيشنا أكبر قوة

...

مشرق الشمس... وأخبار الإذاعة

ذلك يوم

أي يوم

في حياة الحالمين

في الخيام

وفي القصور

وفي عيون الساهرين

بل وحتى في السجون

كل مظلوم مكبل

نسى الغل فأقبل

يسمع الأخبار تنقل

طائرات للعدوة

أسقطت في جوف هوة

عشرات.. بل مئات

زغرد الكل وكبر

إنه النصر المؤزر

عن قريب.. عن قريب

نحن في تل أبيب

جيشنا أكبر قوة

جيشنا أكبر قوة

...

مشرق الشمس وأخبار الإذاعة

والحقائق كالخناجر

كالأفاعي في الصدور

والثكالي.. والنحيب

والأيامى.. واللهيب

واليتامى في الكفور

وسؤال عن حبيب

أهو ميت أم أسير؟

والجواب...؟ في الرمال

والصحاب...؟ في الرمال

والشباب...؟ في الرمال

والحراب؟ في الرمال...

جيشنا أحلام قوة

...

مشرق الشمس... وأخبار الإذاعة

نكسة تلك دهتنا

والأماني.. خدعتنا

فاصبروا.. صبر الرجال

واستعدوا للنضال

عثرتنا سوف تقال...[1].

لم يكن عزيز ضياء شاعرا مقلدا يتبع الشعراء الجاهليين أو غيرهم من الشعراء الآخرين بل أنه شاعرا متميزا يحتل مكانا محترما لدى الأوساط العلمية والفكرية والأدبية في المملكة العربية السعودية وخارجها، قرض الشيخ العديد من الشعر عن تلقاء نفسه

[1] الأخشمي، أحمد بن علي بن أحمد، عزيز ضياء ناثرا، ص:71-73

في اللغة العربية في مناسبات مختلفة، وتمتاز قصائده بنبرة صدق وحس قوي وأسلوب أنيق رائع، وهنا ننقل فيما يلي بعض خير نماذجه الشعرية في اللغة العربية التي امتدح فيها بلاد مصر وحضارتها العربية وثقافتها الإسلامية القديمة ويهوي إليها عدد كبير لا بأس به من أبناء البلاد العربية خاصة، وقد نشرها في مجلة " المدينة " خلال سفره إلى دولة مصر العربية كقوله:-

أيا مصر يا موطن الخالدين ومهد العباقرة النابغين
وجوهرة في جبين الزمان ودرة عقد الحياة الثمين
أرى العلم فيك مديد الظلا ل غزير المناهل للواردين
أراك كأنك أم الحياة وبين ذراعيك تحبو الفنون
أرى الحب فيك الجناح يطوف بجوك خلو الرنين
يريش سهام الهوى والغرام ويأسر قلب التقي الرزين
ويلهمه الشعر أني مشى ويلهمه الفن أني يكون

وله قصيدة رائعة أخرى في الغزل كقوله:

أتانا الصيف يا سمرا وبين يديه أنخاب
كؤوس هوى يدور بها على العشاق أتراب
وهدي شعلة الأشواء ق في شفتيك تأتلق
أرى في وهجها القاني غرامي كيف يحترق
هواي هناك يا عذرا ء فوق الرمل منثور
لآلى كنت أذرفها عليها ترقص الحور
وألحاني مع الأصدا ف آهات لها وهج
وآمالي على الأمواج يحطم كأسها الرهج[1].

[1] المرجع نفسه، ص:71

محاضراته القيمة في الندوات والجلسات:

كان الشيخ عزيز ضياء أديبا بارعا وخطيبا مصقعا ومحاضرا جيدا ألقى العديد من المحاضرات القيمة حول موضوعات شتى، وقد شارك في عدة مؤتمرات علمية وأدبية وفكرية حيث حاضر وخاطب بلغة عربية فصحى، هنا ننقل فيما يلي بعض المحاضرات والخطب التي ألقاها في مكان مختلف وبمناسبات مختلفة: –

- حديث إلى الشباب: هذه المحاضرة القيمة قدمها الشيخ عزيز ضياء في نادي جماعة المحاضرات بجدة في سنة 1356هـ.
- تاريخنا لم يكتب بعد: وهي محاضرة قيمة ارتجالية ألقاها في ندوة علمية انعقدت في المملكة العربية السعودية، ألقى عزيز ضياء هذه المحاضرة وقام بالتأكيد على أن التاريخ لم يكتب باللغة ولا بالأسلوب الذي يمكن أن يتلقاه الجيل الجديد.
- حمزة شحاته حياته وشعره: هذه محاضرة قيمة ألقاها في نادي جازان الأدبي والثقافي في سنة 1399هـ، وقد احتوت المحاضرة على مختلف جوانب من حياة العلامة الشيخ حمزة شحاته، ومولده، ونشأته، ودراسته، وتعليمه، ووظيفته، وأدبه، وأسلوبه الأخاذ، ومكانته المرموقة عند الأدباء العرب المعاصرين.
- الغزو الفكري: كانت محاضرة قيمة نادرة ألقيت في فندق البحيرة بأبها على دعوة من النادي الأدبي والثقافي، جاء الشيخ عزيز ضياء وشارك في تلك الحفلة الكريمة وألقاها، يرى أنه ليس هناك غزو فكري بالمعنى الذي يقصد احتواء الآخر وهزيمته، بل هو رأي الآخر الذي يجب أن يتلقاه الشخص على أنه تعبير عن فكرهم، ثم عليه أن يقيم هذا الفكر[1].
- عندما ظلمنا القنديل: وكذلك قام بإلقاء هذه المحاضرة القيمة في نادي جدة الأدبي، وتحدث فيها عن مختلف جوانب من سيرة أحمد قنديل، وأدبه، وثقافته، وأسلوبه الأخاذ الرصين الذي قد تناول من خلال الكتابة والتأليف، وكذلك قدم بعض

[1] المرجع نفسه، ص:62

إنجازاته العلمية والأدبية التي قام بها الشيخ أحمد قنديل في مجال الأدب العربي المعاصر خاصة.

- أدب المرأة في المملكة: هذه محاضرة قيمة رائعة ألقيت في اللجنة الدينية والثقافية للجمعية الفيصلية النسائية جدة– المملكة العربية السعودية، حيث قام بتسليط الضوء بأسلوب رائع جذاب وبطريقة جذابة خلابة سهلة على أحوال النساء العربيات المسلمات بصورة عامة، وما تعرضت لها من ظلم واضطهاد إبان الجاهلية بصورة خاصة، ثم أحاط بها من عزة وتكريم وتقدير بعد ظهور الإسلام وبعد الخلافة الراشدة.
- الحرية والفن: هذا هو العنوان الذي ألقى عليه الشيخ عزيز ضياء خطبته المرتحلة في النادي الأدبي والثقافي المنعقد بالرياض، وتحدث فيها عن الحرية والفن والأدب بكل تفصيل من التفاصيل.

وعلاوة على هذه المحاضرات المذكورة أعلاه له مشاركات فعالة وخدمات كبيرة في الندوات والمؤتمرات والجلسات والمناقشات المختلفة.

مشاركاته في الندوات والمؤتمرات والجلسات التي انعقدت في أمكنة مختلفة:

إن الشيخ عزيز ضياء له مشاركات علمية أدبية ملحوظة في شتى المناسبات داخل المملكة العربية السعودية وخارجها، قد اشترك في العديد من الندوات والمؤتمرات والمهرجانات التي أقيمت في داخل المملكة العربية السعودية وهي كما يلي: –

- شارك الشيخ عزيز ضياء في مهرجان الشعر والأدب العربي الذي عقد في مدارس الثغر النموذجية يوم السبت عام 1380/10/28هـ، بجدة– المملكة العربية السعودية.
- وقام بالمشاركة في ندوة المفكرين القلائل العرب التي عقدتها جامعة الدول العربية لبحث دور الإعلام العربي في الخارج، والوسائل الكفيلة التي عقدت في الفترة من شهر ذي القعدة عام 1394هـ.

- وشارك في حوار ندوة الأسبوع التي نظمتها صحيفة البلاد حول أدبنا السعودي المعاصر وتقييمه.
- وكذلك قام بالمشاركة في المؤتمر الأول للأدباء والكتاب السعوديين المعاصرين الذي عقد في مكة المكرمة في الفترة من 1-5 من شهر ربيع الأول عام 1394هـ. وقدم الشيخ عزيز ضياء في هذا المؤتمر بحثين قيمين: أولهما: نصف قرن من مسيرة الأدب في المملكة، ودار هذا البحث حول تأكيد فكرة أن وجه الأدب في المملكة خلال تلك الفترة لم يتغير، بل إنه آخذ في التراجع، وثانيهما: حمزة شحاته قمة عرفت ولم تكتشف، ولكن هذا البحث لم يقدمه نظرا لضيق الوقت[1].
- وكذلك قام بالمشاركة في الندوة العلمية الأدبية التي عقدت في وزارة التخطيط في 1402/2/5هـ، حيث قدم بحثا أكاديميا رائعا حول التعليم المعاصر في المملكة العربية السعودية، كما قدم فيها ملحوظات وتعليقات نقدية عن مناهج القراءة والكتابة والتربية والرياضة البدنية وما إلى ذلك.
- شارك في الندوة الثقافية التي عقدتها صحيفة سعودي جازيت بالتعاون مع جمعية الثقافة والفنون حول " إنسان المملكة العربية السعودية وملامحه الاجتماعية " في شهر رمضان عام 1399هـ بجدة.
- وكذلك أنه قام بالمشاركة في الندوة العلمية الأدبية التي نظمت في رحاب جامعة الملك سعود بالرياض في شهر ربيع الأول عام 1402هـ حول " مستقبل الشعر السعودي الحديث " فشارك الشيخ عزيز ضياء في هذه الحفلة الأدبية، وتحدث حول تطور الشعر العربي، ومحاولة التجديد فيه بالخروج عن الوزن والقافية.
- كما شارك في ندوة قراءة جديدة لتراثنا النقدي التي أقامها النادي الأدبي الثقافي بجدة.

[1] المرجع نفسه، ص:64

- وشارك في ندوة حوار الحداثة التي نظمتها صحيفة عكاظ ونشرتها في عام 1407هـ. كما شارك في ندوة مجلة " إقرأ" الغراء حول التعليم العام بالمملكة العربية السعودية وألقى مقالة قيمة.

مكانة الشيخ عزيز ضياء لدى الأوساط العلمية والفكرية والأدبية:

يحتل الشيخ عزيز ضياء مكانة مرموقة لدى الأوساط العلمية والفكرية والأدبية في المملكة العربية السعودية وخارجها، وكان هو عالما كبيرا، وشخصية بارزة، ونجما لامعا في سماء الصحافة العربية السعودية، فلا يسع لباحث أو دارس في الصحافة العربية السعودية أن يغض النظر عن دوره العلمي والأدبي والثقافي والفكري، ويكفي لإبراز مكانته العلمية والأدبية الثقافية والفكرية أنه تولى رئاسة تحرير صحيفة " المدينة " وصحيفة " عكاظ " وغيرها من الصحف والمجلات العربية الأخرى الصادرة من المملكة العربية السعودية.

ليس من المبالغ في هذا القول إنه يعد من العلماء الكبار والكتاب البارعين والفكرين والقلائل والنقاد والمترجمين الذين ركزوا جهودهم المتواضعة على النهوض بالمسلمين في عصرنا الحاضر بتأليفاتهم وتصنيفاتهم وبحوثهم ومقالاتهم المتنوعة. يحتل الشيخ عزيز ضياء مكانة رائدة عظيمة بين الأدباء والعلماء والرجال السياسيين للمملكة العربية السعودية، فهو أحد جيل الرواد الذين حملوا على عواتقهم مهمة النهوض بالحركة الفكرية والثقافية والأدبية والفنية. وكان عزيز ضياء زعيما وقائدا يخوض معركة الحياة الإنسانية كلها ويحل مشاكل المسلمين العرب، وكان له منهج خاص لمعالجة القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكان عضوا في المجلس الأعلى للثقافة والفنون والأدب السعودي، وأنه كان يعد من الأدباء الذين اقترحوا فكرة إنشاء الأندية الأدبية في المملكة العربية السعودية، وكان هو عضو مؤسس لنادي جدة الأدبي حيث قام بمساهمات كبيرة مع الأستاذ حسن عواد في تأسيسه العام 1975م. وقد نوَّه كثير من العلماء المعاصرين بجهده وسعيه وأثنوا عليه ثناء عطرا وفيما يلي

نذكر بعض هؤلاء العلماء الذين عبروا انطباعاتهم وخواطرهم عنه في مقالاتهم المنشورة في مختلف الجرائد والمجلات:-

- أعرب الدكتور فؤاد الفوزان انطباعاته ومشاعره عنه قائلا " يعد الشيخ عزيز ضياء من الأدباء البارزين في الحجاز الذين يجمعون بين قول الشعر وكتابة النثر القصصي والمقالات السياسية والأدبية " كما يقول عنه آخرون من أبناء نفس الوسط الثقافي "عزيز ضياء طافة ثقافية لغير المثقفين العرب قاطبة بعطائها ويعد من أكبر أدباء العرب صاحب جهد ونشاط أدبي وافر"[1].
- ويذكر الشيخ عبد المقصود محمد سعيد خوجه متحدثا عن وصف الأستاذ عزيز ضياء كقوله " أما الشيخ عزيز ضياء فهو من جيل عمالقة المبدعين الذين شكلوا الرعيل الأول من رجالات النهضة الأدبية في المملكة العربية السعودية مثل: عبد الله بلخير، محمد حسن عواد، وغيرهم"[2]. ويذكر معترفا بمكانته العالية كقوله " كان الأستاذ عزيز ضياء رائدا من رواد هذا الجيل الأدبي ككاتب من خلال ما تطالعنا به الصحف والمجلات مما كتب ويكتب لنا من أسلوب بديع، ولعله المعلق السياسي العميق الذي ترى في تعليقه الكثير من بعد النظر، وثاقب الرأى والتصوير الذي يتطابق مستقلا مع نظرته، مما يدل على سعة الأفق"[3].
- وعبر انطباعاته محمد هاشم رشيد عنه بقوله " لعزيز ضياء مكانة متميزة في تاريخنا الأدبي الحديث ذلك لأنه لم يكن بالشخصية النمطية بين أدبائنا، فله من اهتماماته الفنية، وإسهاماته المتعددة في حقول الإعلام المتنوعة من إذاعة وصحافة وتلفاز ما يجعل منه شخصية لها طابعها المتفرد بين الأدباء"[4].

---

[1] صحيفة عكاظ بتاريخ يوم الخميس 1437/8/5هـ 12 مايو 2016م.

[2] ضياء، عزيز، الأعمال الكاملة، الجزء الأول، ص: 15

[3] كتاب الإثنينية حفل تكريم الأستاذ عزيز ضياء في 1983/03/14م.

[4] جريدة البلاد السعودية، العدد 15136 بتاريخ 7،8،1418هـ ص: 8

- ويتحدث محمد هاشم رشيد واصفا خصائص الشيخ البارزة " إن الأستاذ عزيز ضياء– يرحمه الله– في طليعة الأدباء الذين كان لهم حضورهم المتميز وصوتهم القوي المؤثر وشخصيتهم التي لا يمكن الاختلاف على قيمتها الفاعلة في مسيرتنا الثقافية الحديثة "[1].

- وتحدث عنه سعيد السريحي معترفا بصدقه وصراحته في القول والفعل كقوله " كان عزيز ضياء رجلا صادقا صريحا لا يعنيه أن يكون للصدق وقع الصاعقة، وللصراحة حد السيف لم يجامل أحدا، ولذلك كان إذا تحدث قال الذي لا يقوله سوى عزيز ضياء، ولو قال غير ما يقول لأنكره الناس وأنكر هو نفسه"[2].

- ويذكر عنه سعد الحميدين وهو يعترف اهتمامه بالوقت والمواظبة عليه كقوله " كان رحمه الله كثير الاهتمام بالوقت، والاحترام للمواعيد، حريصا على النظام والنظافة والترتيب، وهذا يعرفه عنه كل من عايشه، فهو يهتم بشكل كبير بخصوصية المظهر من اهتمام بالملبس، ونوع النظارة، وشكل القلم كما كان يهتم بالكتابة بطريقة منظمة ومرتبة وخالية من الكشف مع حرص على استخدام الآلة الكاتبة في ذلك، وانتقاء العبارات والألفاظ أثناء الكتابة، بل وفي أثناء الحديث الخاص"[3].

- ويتحدث عنه الأستاذ عبد العزيز الرفاعي الذي كان صديقا حميما له منذ الشباب، ويتجاذب أطراف الحديث معه طويلا خلال السفر والحضر كقوله " الأستاذ عزيز ضياء صاحب قلم رشيق وعبارة بليغة وأسلوب ناصع حي سلس، وهو من أبرز كتابنا، ومن أكثرهم ثقافة واطلاعا، وقد وهب حياته كلها للفكر والأدب والكتابة، وكان فيها من كبار المبدعين، وقد جمع بين الاطلاع على روائع الأدبين العربي والإنجليزي، وذلك ما لم يتوفر إلا قليلا لأدبائنا الكبار، ولقد جمع الله للأب عزيز بين صفاء

---

[1] المرجع نفسه، ص: 8

[2] من كلمته في أمسية تكريم عزيز ضياء في جمعية الثقافة والفنون أقيمت في جدة بتاريخ 1419/01/20هـ.

[3] جريدة الرياض (العدد 7419) بتاريخ 1408/11/23هـ.

الأسلوب وصفاء الفكر، فكتاباته ليست زخرفا ولا بهرجة، بل هناك عمق الفكر، وبروز الهدف "[1].

- وكذلك جاء في الموسوعة العربية العالمية "عزيز ضياء كاتب سعودي عمل في الصحافة والترجمة والتأليف في الأدب والنقد والثقافة العامة، ويعد من أبرز المثقفين وكتاب المقالة في المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية عموما، ومن أوائل الذين عملوا على فتح الثقافة المحلية على الثقافات الأخرى من خلال الترجمة، وظهرت اهتمامات عزيز ضياء الأدبية في وقت مبكر، حيث نشر عام 1937م قصة قصيرة تعتبر من أوائل القصص القصيرة التي تنشر في المملكة العربية السعودية، وبعد فترة طويلة من النشاط الأدبي والثقافي المكثف والمتنوع شارك عام 1971م في تأسيس النادي الأدبي الثقافي بجدة مع زميله محمد حسن عواد"[2].

فخلاصة الكلام أن الأستاذ عزيز ضياء كان أديبا وعالما وناقدا ومترجما يحتل مكانا محترما لدى الأوساط العلمية والأدبية والفكرية في المملكة وخارجها.

[1] جريدة الرياض العدد 6331 بتاريخ 1402/2/9هـ.
[2] الموسوعة العربية العالمية، ص: 351

الفصل الخامس

أعماله المؤلفة والمترجمة

إذا قمنا باستعراض حياة الشيخ عزيز ضياء وتقييم جهوده المشكورة فإننا نرى أنه قد خلف وراءه آثارا كثيرة حول العلوم والفنون المختلفة، وإن كان أكثر آثاره العلمية والأدبية في مجال المقالات العربية، وفي مجال الترجمة من اللغة الإنكليزية إلى اللغة العربية والعكس، وقد ترجم عزيز ضياء مجموعات قصصية ومسرحيات عديدة ومتنوعة، منها: " مختارات من أعمال سومرست موم "، ومجموعة من القصص القصيرة لكتاب متعددين تحت عنوان " النجم الفريد "، و" قصص من طاغور" ضمنها كتاب فيه تسع من أقاصيص الشاعر البنغالي الشهير رابندرانات طاغور وقد نقلها من اللغة الإنجليزية التي أتقنها إلى العربية، وقدم لها بمقدمة عرف فيها بالمؤلف، وأدبه، وثقافته، وعلومه، ومكانته العالية التي أهلته للحصول على جائزة نوبل العالمية، واحرازه لقب فارس من الحكومة البريطانية في العام نفسه.

وكذلك قام عزيز ضياء بترجمة كتاب " العالم عام 1984م " لجورج أوريل، كما ترجم عددا لا بأس به من مسرحيات أوسكار وايلد، وأخرى لألكسندر أوستروفيسكي، ولجان جينيت، وعددا من القصص المعدة للأطفال الصغار، وبعضا من مسرحيات موليير، وقصصا لياسوناري كاوايانا، ويوجين أونيسكو، فقدم بذلك إبداعات سردية ومسرحية من الفرنسية والإنجليزية واليابانية والبنغالية، وذلك من اللغة التي يجيدها وهي الإنجليزية، وهذا الجهد في الترجمة يعتبر من أهم ما تميز به عزيز عن أقرانه من الرواد في المملكة العربية السعودية[1].

وهو إلى جانب تميزه وتفوقه في هذا المجال كاتب شامل من أبرز كتاب المقالة السياسية والاجتماعية والأدبية، بالإضافة إلى إبداعه القصصي في ماما زبيدة وفي مجال السيرة (جسور إلى القمة) وكتابه من حمزة شحاته والترجمة الذاتية الخاصة

[1] الشنطي، محمد صالح، عزيز ضياء ناقدا، مقالة نشرت في جريدة الجزيرة بتاريخ الأحد 23 محرم 1420هـ.

به، فضلا عن إسهاماته الموزعة في الدوريات والصحف والمنابر الثقافية فهو من الثراء والتنوع بحيث يخصب ذلك فيه ملكة الناقد التي نريد أن نتعرف على جوانبها المختلفة، وان بدأ أن معارفه المتصلة بتراث داروين والفارابي وأفلاطون وغيره ليست ذات صلة مباشرة في النقد، والحقيقة أنها رافد مهم في هذا المجال[1].

يمتاز الشيخ عزيز ضياء بصفته شخصية عظيمة فذة في كل مجال من مجالات الأدبية والتاريخية، وصاحب مؤلفات ومصنفات ومترجمات بالعربية والإنجليزية، فيكتب في أسلوب رائع يمتاز بالسهولة والجزالة والفصاحة، وننقل فيما يلي بعض إسهاماته العلمية والأدبية المطبوعة وغير المطبوعة وهي: –

قائمة أسماء الكتب المؤلفة المطبوعة:

1. **حياتي مع الجوع والحب والحرب:** إن هذا الكتاب كتاب رائع لا نظير ولا مثيل له في فن كتابة السيرة الذاتية في الأدب السعودي، يقع في ثلاثة أجزاء، ويشتمل كل جزء منه على أكثر من ستين وسبع مأة صفحة في طبعته الأولى، صدر عن دار البلاد للطباعة والنشر والجزآن الأول والثاني عام 1418هـ، كما صدر الجزء الثالث لهذا الكتاب من دار نفسها في عام 1419هـ، إن هذا هو الكتاب الذي رشح به الشيخ عزيز ضياء لنيل جائزة الملك فيصل العالمية عام 1418هـ، ولكن الموت عاجلته قبل أن يأخذها، تحدث فيه عن سيرته الذاتية، ووعبر فيه عن انطباعاته وخواطره ووجدانه مما رأى وسمع منذ بدايته إلى بلوغه العشرين من عمره، وقدمها بأسلوب رائع يمتاز بالفصاحة والبلاغة مما يرغب القاريء إلى قراءته، وعندما يطالعه القاريء فيشعر في نفسه لذة وطراوة وإبداعا كما يتلذذ من خلال قراءة كتب الرواية والمسرحية والقصة والقصة القصيرة وغيرها، نحن نستطيع أن نقول إيجازا أن هذا الكتاب هو كتاب حكى فيه عزيز ضياء عن قصة ولادته ونشأته ودراسته الابتدائية والثانوية وكفاحه في الثقافة والسياسة والحياة العامة، وتبرز أهميته على كل أحد منا من يقوم بمطالعته ويدرسه، والكتاب ليست فيه قصة حياته فقط بل هو تاريخ عن شاهد أعيان للعصر الذي اندلعت

[1] المرجع نفسه.

فيه الحرب العالمية الأولى، هنا لسنا نستطع أن نناقش كثيرا عن الكتاب بل سنحاول الحديث عن الكتاب ونستعرض خصائصه البارزة بإذن الله تعالى في باب منفصل بشيء من التفصيل.

2. **جسور إلى القمة** : يعد هذا الكتاب من أمتع الكتب التي كتبها الشيخ عزيز ضياء بعد تجارب موسعة وخبرات فائقة في علم من أعلام الفكر والأدب والثقافة والفن، يقع هذا الكتاب في ست وأربعين وثلاثمأة صفحة في طبعته الأولى في سنة 1402هـ المصادف 1981م، وقد قام الأستاذ بترجمة أكثر من سبعين علما من أعلام الفكر والأدب والثقافة والفن من الشرق والغرب الذين عاشوا في عصورهم المختلفة، وقاموا بأعمال جليلة في عدة مجالات من الأدب والفن والثقافة، وعرف بهم بكتاباته ومقالاته المتنوعة، كما قام بالإشارة إلى مختلف جوانب حياتهم الأدبية والفنية والثقافية فضلا إلى علو باعهم وسعة نظرهم وغزارة اطلاعهم على العلوم والفنون، وبتأليف هذا الكتاب المسمى بـ" جسور إلى القمة" قد أثبت تفوقه وتمكنه في علوم التاريخ والترجمة والإعلام والنشر، عندما يبدأ القاريء بمطالعته يتأثر من رصانة أسلوبه، وجودة بيانه، وعذوبة كلامه، وحسن تصديره، يمتاز الكتاب بأسلوبه الرائع لأن المؤلف قد استخدم فيه لغة سهلة، وتراكيب ساذجة، وعبارة بلغية محترزا عن استعمال الألفاظ الصعبة والتراكيب المعقدة من الغموض والتعقيد. فإن هذا الكتاب له مكان خاص لدى الأدباء والعلماء من المملكة العربية السعودية خاصة، يمتاز هذا بإيجازه وتركيزه الخاص، صدر في البداية عن دار التهامة للنشر والتوزيع بجدة ضمن سلسلة الكتاب العربي السعودي.

3. **ماما زبيدة:** هذا الكتاب هو مجموعة القصص القصيرة التي أعدها الشيخ عزيز ضياء لتقديم في برنامج الإذاعة العربية السعودية، وكان يعرضها بأسلوبه الخاص خلال البرنامج الأسبوعي والشهري الذي أذيع في أوائل التسعينات الهجرية من القرن الماضي، صدر هذا الكتاب من قبل دار التهامة للنشر والتوزيع بجدة ضمن سلسلة

الكتاب العربي السعودي تحت رقم 106، كما نشر بعض قصص من هذه المجموعة في صحيفة عكاظ في سنة 1394هـ.

4. **حمزة شحاته قمة عرفت ولم تكتشف:** يعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي كتبها المؤلف حول شخصية صديقه حمزة شحاتة الفذة، الذي يعد في طليعة العلماء في المملكة العربية السعودية، وله مكانة عالية لدى الأوساط العلمية والفكرية والأدبية في المملكة العربية السعودية وخارجها، قدمها في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين البارزين الذي أقيم في سنة 1394هـ بعنوان " حمزة شحاته قمة عرفت ولم تكتشف " وقد تمت طبعته الأولى في ربيع الآخر في عام 1397هـ الموافق سنة 1977م بشكل كتاب. نكتفي على هذا وسنحاول الحديث في فصل منفصل مستقل بإذن الله تعالى.

قائمة أسماء الكتب المؤلفة غير المطبوعة:

1. كان القلب يقول، كلمات شاعرة، في جزء واحد
2. عن أدب برنادشو، في جزء واحد
3. رسالة إلى أبناء الرافدين، مجموعة مقالات إذاعية، في ثلاثة أجزاء
4. آراء في الفن والحب والجمال، تأملات ودراسات قصيرة
5. مع الفكر والمجتمع، مجموعة مقالات متنوعة، في خمسة أجزاء
6. حصاد الأيام، مجموعة مقالات، في ثلاثة أجزاء
7. نثار، مقالات صغيرة ومتنوعة، في جزء واحد
8. بنات شفاه من التراث، في جزء واحد
9. طرائف الأخبار، مجموعة أخبار قصيرة وغريبة، في جزء واحد
10. معلومات شتى: من هو؟ في جزء واحد
11. حديقة الأسرار، وهي رواية متكاملة
12. الأرنب الطائر
13. معظم النار من مستصغر الشرر

14. لبنى والفراشة
15. ساطور حمدان
16. وأدوا الأمانات إلى أهلها
17. سوسن وظلها
18. الهدية التي قدمها سمير
19. أبو الحسن الصغير الذي كان جائعا
20. الأم ياسمينة واللص
21. وقفات مع الفن والجمال والحب

قائمة أسماء الكتب المترجمة المطبوعة

1. **قصص من سومرست موم:** إن هذا الكتاب هو ترجمة من اللغة الإنكليزية إلى العربية، حيث ترجم الشيخ عزيز ضياء قصص متنوعة للكاتب الإنجليزي وليام سومرست موم الذي يعد من أكبر الكتاب في مجال المسرحية في اللغة الإنجليزية، وله كتب كثيرة حول الموضوعات المختلفة، نشرت طبعته الأولى من هذا الكتاب من دار تهامة للنشر والتوزيع بجدة ضمن سلسلة الكتاب العربي السعودي في سنة 1401هـ المصادف عام 1981م، يحتوي الكتاب على تسع عشر ومئة صفحة تقريبا.

قام الأستاذ عزيز ضياء بترجمة نحو ثلاث قصص من أمثال: قصة زوجته الشاعرة، وقصة أمطار، وقصة رجل سعيد، وكتب فيه مقدمة مطولة حوالي أربع صفحات حيث أوضح مكانة سومرست موم العالية، وإسهاماته الأدبية والعلمية في كل مجال من الأدب واللغة، كما ألقى ضوءا كاملا على مآثره التي قام بها في حقول مختلفة من القصة القصيرة والمسرحية والرواية والأدب واللغة وغيرها يقول " يجمع النقاد على أن ويليام سومرست موم، هو أعظم من كتب القصة القصيرة في القرن العشرين، ولكن هذا لا يتعارض مع شهرته الواسعة ككاتب مسرحي، وكاتب رواية من الطراز الأرفع في هذا القرن، وقد يعلل لنجاحه ككاتب روائي بأنه، وقد عاش ألوانا من

التجارب، منذ طفولته وحتى ما بعد أواسط عمره، قد استفاد من هذه التجارب واستثمرها أفضل استثمار في أعماله، فكأن الكثير من هذه القصص والروايات، تصوير وتسجيل لسيرته الذاتية "[1].

يعد أن وليام سومرست موم من أعلام الأدباء الغربيين الذين ثبتوا نقوشهم الثابتة، وخبراتهم الفائقة في كل حقل من حقول العلم والفن، وأن المترجم له مهارات قوية في الترجمة واللغة الإنجليزية، ولا شك فيه أن هذا الكتاب يعتبر من أفضل الكتب في ميدان المسرحية، حينما يطالعه القاريء يتأثر تأثيرا للغاية من أسلوبه وجودة بيانه وعذوبة عباراته وفصيحة جمله وحسن تراكيبه وحسن تصديره، قد استعمل المترجم فيه عبارة فصحى ولغة سهلة وتراكيب رضية، وقد أبعد عن نفسه من استخدام الجمل المعقدة والتراكيب المثقلة التي يصعب فهمها على القاريء عامة.

2. **عهد الصبا في البادية** : يعد هذا الكتاب من أفضل الكتب التي كتبها الكاتب الفلسطيني الأصل إسحاق الدقس، وعرض فيه صورا واقعية من ملامح حياة البادية التي عاشت في حياتها القاسية في بادية صغيرة، وهي صور منفصلة ومجتزأة من مراحل حياته لا يربطها سوى أنها دارت في البادية، وقد قام بترجمة من الإنجليزية إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء بأسلوب فصيح، قدم المترجم بثلاث مقدمات ولكن قصيرة جدا، الأولى: عرف فيها بشيء من الإيجاز عن المؤلف إسحاق الدقس، الثانية: عرض فيها ترجمة لحياته الشخصية الفذة والثالثة: وهي مقدمة قصيرة خاصة بالعمل المترجم، ولم تتجاوز خمس صفحات فقط حيث ذكر قصة تعرفه إلى الكتاب، ودعا فيها إلى الاهتمام والاعتناء بحياة البادية بيئة وسكانا، وتطويرها بما يقربها من حياة الحاضرة، كما أوضح في المقدمة حول الأسباب والدوافع التي تحثه على الترجمة من الإنجليزية، صدر الكتاب في طبعته الأولى ضمن سلسلة الكتاب العربي السعودي تحت رقم 3 عن دار التهامة للنشر والتوزيع بجدة في سنة 1981م، ويقع في اثنتين وسبعين ومئة صفحة.

[1] ضياء، عزيز، قصص من سومرست، ص: 9

3. **قصص من طاغور:** هذا الكتاب هو مجموعة القصص الشيقة التي كتبها الشاعر رابندرانات طاغور الذي ذاع صيته بعمله "جيتنجالي"، نال جائزة نوبل للآداب في سنة 1913م، وأنشأ مدرسة فلسفية ومشهورة باسم فيسفا بهاراتي أو الجامعة الهندية للتعليم العالي في عام 1918م في إقليم شانتي نيكتان غرب بنغال– الهند، قام بترجمة تسع قصص من الإنكليزية إلى العربية، وكتب مقدمة مطولة حوالي سبع صفحات، حيث أوضح عن شخصية رابندرا نات طاغور وحياته وإنجازاته في النثر والشعر، كما أوضح فيها أسباب الترجمة من الإنكليزية إلى العربية، وذكر في مستهل الكتاب متحدثا عن أنه فقد جزء كبير من القصص التي قام بترجمتها رابندارانات تاغور وهي 300 صفحة تقريبا، ولم يبق منها إلا هذه القصص التسع التي تمت نشرتها من دار تهامة للنشر والتوزيع بجدة في أوائل الثمانيات الميلادية، قد احتوى الكتاب على تسع وعشرين ومئة صفحة نشرت طبعته الأولى عن دار تهامة للنشر والتوزيع بجدة في سنة1983م.

4. **النجم الفريد:** يتضمن الكتاب على إحدى عشرة قصة من القصص القصيرة لكتاب البارزين المختلفين الذين قدموا خدمات جليلة في مجال القصة والمسرحية والقصة القصيرة والأدب والتاريخ وما عداها في حقول مختلفة، يمتاز الكتاب بأسلوبه الرائع من بين الكتب الأخرى، أما الألفاظ التي قد استخدمها الترجم فلطيفة وسهلة جدا، وكلماته مختارة بديعة، وتراكيبه أنيقة، وعباراته رضية وممتعة للغاية، صدرت طبعته الأولى عن دار تهامة للنشر والتوزيع بجدة في سنة 1981م، وقد احتوى على ثمان وعشرين ومئة صفحة تقريبا.

وكذلك نشر له بعض القصص المترجمة من اللغة الإنكليزية إلى العربية في العديد من الصحف والمجلات والجرائد العربية الصادرة من المملكة العربية السعودية وخارجها، ومن أهمها: قصة الحلم، وقصة حقائق الحياة، هما للكاتب الإنكليزي سومرست موم، وقصة في انتظار الموت، لآرنست همنجواي، وقصة حلوة الحديث، والعم كابلي، وآفاق السلام، كما أنه ترجم قصة الحب لموبوسان، كما أنه ترجم بعض المقطوعات الشعرية لطاغور بأسلوب رائع خال من التعقيد اللفظي والمعنوي.

قائمة أسماء الكتب المترجمة غير المطبوعة:

1. صفحات من أدب الاعتراف، سير مترجمة
2. القمر الهادي، قصص قصيرة وطويلة للكاتب الإنجليزي كاجي
3. ليس الفقر جريمة، مسرحية مترجمة عن ألكسندر أو ستروفيسكي
4. مظلوم أكثر منه ظالما، مسرحية مترجمة عن ألكسندر أو ستروفيسكي
5. حتى الحكماء يخطئون، مسرحية مترجمة عن ألكسندر أو ستروفيسكي
6. الأغلال، مسرحية مترجمة عن ألكسندر أو ستروفيسكي
7. العاصفة، مسرحية مترجمة عن ألكسندر أو ستروفيسكي
8. جين كليج، مسرحية مترجمة عن الأدب الإنجليزي الحديث
9. اختراع فالس، مسرحية للكاتب الروسي نوبوكوف
10. المصيدة، مسرحية للكاتب فريدريك ديرفيمان
11. الاسم الذي تحب، مسرحية مترجمة للكاتب أوسكار وايلد
12. سالومي، مسرحية مترجمة للكاتب أوسكار وايلد
13. مروحة الليدي وندر مير، مسرحية مترجمة للكاتب أوسكار وايلد
14. أعياد مدينة هندول، مسرحية مترجمة عن ستانلي هانتون
15. الكراسي، من مسرح العبث مترجمة عن يوجين يونسكو
16. الكركدن، من مسرح العبث مترجمة عن يوجين يونسكو
17. الزعيم، من مسرح العبث مترجمة عن يوجين يونسكو
18. مدرسة الزوجات، مسرحية مترجمة عن الإنكليزية لموليير
19. مجموعة مسرحيات للكاتب، جورج برناردشو
20. قصص من سومرست موم، الجزء الثاني
21. السيد والرجل، رواية للكاتب العالمي تولوستوي

هذه هي بعض الأعمال المهمة التي تركها لنا الشيخ عزيز ضياء وراءه، وعلاوة على هذه الأعمال القيمة أنه كتب العديد من الفصول والمقالات السياسية والاجتماعية

والثقافية والقصصية والمسرحية والدينية وغيرها، وكذلك أنه كتب العديد من المقلات الدينية في الدوريات والمجلات المحلية والدولية، وقام برئاسة العديد من الجرائد والصحف اليومية التي صدرت ولم تزل تصدر من المملكة العربية السعودية حتى اليوم.

الباب الثالث

مساهمة الشيخ عزيز ضياء في فن السيرة الغيرية (الترجمة) والسيرة الذاتية

الفصل الأول: نظرة عابرة على مساهمة الشيخ عزيز ضياء في فن السيرة الغيرية (الترجمة) والسيرة الذاتية.

الفصل الثاني: التعريف الموجز عن الكتاب "حياتي مع الجوع والحب والحرب"

الفصل الثالث: كتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب": دراسة تحليلية من حيث الموضوعات

الفصل الأول

نظرة عابرة على مساهمة الشيخ عزيز ضياء في فن السيرة الغيرية (الترجمة) والسيرة الذاتية

السيرة الغيرية (الترجمة)

إن لفظ السيرة والترجمة كلمتان رائعتان في معنى واحد كما ورد في المعجم الوسيط، السيرة " السنة والطريقة، والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، والسيرة النبوية وكتب السير مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة، وأدخل فيها الغزوات وغير ذلك، ويقال قرأت سيرة فلان: تاريخ حياته "[1]. ويقول إبراهيم عبد الدايم " إن لفظي " ترجمة " و" سيرة " كانتا تدوران على معنى " تاريخ الحياة " وقد اتخذ التأريخ للفرد، صورا مختلفة لدى العرب، وكانت " السيرة " أولى هذه الصور، وقصد بها حياة الرسول الكريم ومغازيه وإن لم يمنع ذلك. وجود " سيرة معاوية وبني أمية...لعوانة الكلبى، وقد ظهرت فيما بعد في وقت ظهور "سيرة ابن اسحاق" ثم تعددت أنواع التأريخ للأفراد بعد ذلك، فكان " الجرح والتعديل " و" الطبقات " ثم " التراجم " في العصور المتأخرة التي تلت عصر الرواية والتدوين "[2].

ويرى الباحث محمد عبد الغني حسن أن هناك لا فرق بين كلمتي السيرة والترجمة كما أورد قائلا " ليس في الفروق اللغوية ما يبين الفرق بينهما على وجه التحديد، إلا أن الاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى في هذا، فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة "[3]. وأكد على ذلك إبراهيم عبد الدايم بقوله " نرى كلمة سيرة يصطلح على استعمالها لتدل على تاريخ الحياة الموجز للفرد، وكلمة " سيرة

---

[1] المعجم الوسيط، ص: 486

[2] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 30

[3] حسن، محمد عبد الغني، التراجم والسير، ص: 28

" يصطلح على استعمالها لتدل على التاريخ المسهب للحياذ (ويتابع قائلا) وإذا كان السابقون يفرقون في الاستعمال بين اللفظتين، فإن الإصطلاح الحديث لا يفرق بينهما كثيرا، بل يستخدم إحداهما مرادفة للأخرى، ومن ثم جاء الإصطلاح المعاصر " الترجمة أو السيرة الذاتية "[1].

والحقيقية أن السيرة الغيرية تعد من الفنون الأدبية النثرية وهي " ترجمة الحياة "Biography" هي الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين لجلاء شخصيته، والكشف عن عناصر العظمة فيها، والترجمة في الواقع عملية تحليلية لكل مركز من عناصر كثيرة مختلفة هو الشخصية، ومن خلال هذا التحليل تبرز القيم الإنسانية التي تنطوي عليها الشخصية، والتي يهم الآخرين الاطلاع عليها "[2]. يبدو لنا بعد دراسة التعريفات المذكورة أعلاه أن السيرة الغيرية يراد بها الجنس الأدبي الذي يقوم بكتابته بعض الأشخاص عن حياة غيرهم من الناس، سواء كانوا من الأعلام البارزين والعلماء النابغين والرجال السياسيين الذين عاشوا في الزمن الماضي أو في الزمن الحاضر، والجدير بالذكر أنها تعد من أقدم الفنون الأدبية من السيرة الذاتية، لأنها برزت مع التأريخ والأدب والثقافة، فمنذ وجود الحضارات والثقافات جعل العلماء والكتاب الذين كانوا يتكسبون في بلاط الحكام والسلاطين والأمراء، يكتبون ما كان يجري في زمنهم من تطور وإزدهار، فكتبوا للملوك والأمراء والسلاطين وللحروب والمحاربين والمجاهدين وما إلى ذلك.

إذا قمنا باستعراض حياة الشيخ عزيز ضياء لوجدنا أن له في فن السيرة الغيرية كتابان: الأول: "جسور إلى القمة" والثاني: " كتاب "حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف" ونحن الحديث الآن عن صدد الآخر.

استعراض على الكتاب " حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف "

أما الكتاب " حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف " فهو مقالة قام بإعدادها الشيخ عزيز ضياء بعد مطالعات عميقة حول شخصية حمزة شحاته وأدبه وثقافته

[1] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 31

[2] اسماعيل، عز الدين، الأدب وفنونه دراسة ونقد، ص: 151

ومآثره العلمية والأدبية لتقديمها في المؤتمر الأول الذي عقد في سنة 1394هـ في رحاب جامعة أم القرى في المملكة العربية السعودية، ولكن من سوء الحظ أنه لم ألقاها نظرا لضيق الوقت، على الرغم من أن هذه المقالة تمت طباعته الأولى في شكل كتاب مستقل نظرا لأهميتها في ربيع الآخر في عام 1397هـ الموافق عام 1977م، قد اشتملت على اثنين ومئة صفحة فقط.

أولاً: الدوافع التي حفزته على تأليف سيرته الغيرية

إذا أمعنا النظر العميق على البواعث والدوافع التي دفعتها الكاتب على كتابة السيرة الغيرية لوجدنا أن الأهداف الكبرى التي تدفعه إلى تأليفها هي التعريف بالأدباء والشعراء والعلماء والرجال السياسيين الذين لهم خدمات جليلة ومساهمات كبيرة في كل ميدان من الأدب والثقافة، وإعطاء صورة جلية عنهم معتمدا على الذاكرة أو المشاهدة. والحقيقة أن السيرة الغيرية هي التي يستعين فيها المؤلف بكل ما لديه من وثائق حقيقية حتى يصل إلى داخل النفس التي يقوم بالكتابة عنها، يقول محمد عبد الغني حسن " التراجم هي ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذي يتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر، تعريفا يطول أو يقصر، ويتعمق أو يبدو على السطح تبعا لحالة العصر الذي كتبت فيه الترجمة، وتبعا لثقافة المترجم – أي كاتب الترجمة – ومدى قدرته على رسم صورة كاملة واضحة دقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التي تجمعت لديه عن المترجم له ."[1]

وكلما كانت الترجمة – في قسميها الذاتي والغيري– أكثر أناقة وعناية الثوب البلاغي الذي تلف فيه كانت أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ... والترجمة للأشخاص قديمة قدم الإنسان نفسه، ولا شك أنها ظهرت مع الكتابة في الأمم التي عرفت الكتابة واستخدمتها في مسائل حياتها، أو في مسائل الترف العقلي الذي يجيء بعد استكمال

[1] حسن، محمد عبد الغني، التراجم والسير، ص:9

الضروريات، وكثيرا ما تأتي الترجمة مع التاريخ موازية له في النشأة، لأنها في الحق نوع من التاريخ للرجال على نسق معين[1].

وأما بالنسبة إلى عزيز ضياء فيهدف من ترجمته أن يعرف لنا عن هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين قدموا خدمات جليلة في مجال الأدب والثقافة، وكذلك يكشف الستار عن شخصياتهم الغامضة، ويقدم صورة واضحة عنهم، وكذلك يلقي الضوء على إنجازاته العلمية والأدبية وذخائرهم المفيدة التي قاموا بها بفضل تأليفاتهم وتصنيفاتهم، وكانت من عادته أنه لم يكتف على الترجمة من الشخصيات البارزة فقط بل أنه تحدث عن الشخصيات الأخرى التي لها جولة وصولة في كل ميدان من الأدب والثقافة واللغة والتاريخ.

كتب عزيز ضياء كتابا صغيرا أسماه بـ " حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف " فلعل هذه التوطئة تمكننا من السؤال المهم في أذهان كل من يقرأ هذا الكتاب بأنه لماذا كتب هذا الكتاب؟ وما هي الدوافع التي دفعته على الكتابة عن هذه الشخصية الفذة؟ إن هذه التساؤلات هي التي تأتي في أذهاننا كما تأتي في أذهان الدارسين الباحثين الآخرين عامة والذين يشتغلون في فن كتابة الترجمة الغيرية خاصة. عندما نحاول للإجابة على هذه التساؤلات المتكررة نجدها أن هناك عددا من الأسباب الرئيسية التي حثته على تأليف سيرته الغيرية ومن أبرزها ما يلي: –

- الإعجاب بالشخصية وإنجازاته العلمية التي قد تركها وراءه، ومن خير شواهد على ذلك كتابته حول الأستاذ حمزة شحاتة الذي ولد في عام 1910م، وتوفي في عام 1972م.
- وكذلك إبراز الآثار العلمية والأدبية والفنية والعلوم العقلية والنقلية للأدباء والكتاب الذين قاموا بخدمات جليلة في كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية.
- وميوله واتجاهاته إلى الشخصيات البارزة التي أثرت تأثيرا على شخصية عزيز ضياء، لذلك نرى أنه قد ترجم العديد من أعمال المسرح والرواية والقصة من

[1] المرجع نفسه، ص: 10/9

أبرزها: مختارات من أعمال سومرست موم، وأعمال راسين وموليير، وكذلك قام بترجمة العديد من المشاهير والإعلام في العمل التمثيلي من أمثال: نجيب الريحاني، ويوسف، وغيرهما، وكذلك ترجم عددا لا بأس به من المجموعات من القصة القصيرة لكتاب متعددين تحت عنوان " النجم الفريد "، كما ترجم كتاب " العالم عام 1984م" لجورج أوريل، وترجم عددا من مسرحيات أوسكار وايلد، وأخرى لالكسندر أوستروفيسكي، ولجان جنيت وغيرها الكثيرة.

ثانيًا: الموضوعات أو القضايا التي تناولها الكتاب

ألف الشيخ عزيز ضياء (خال بنات حمزة شحاتة) كتابا صغيرا أسماه " حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف" عن صديقه الحميم الشيخ حمزة شحاتة. وقدمه في مستهل الكتاب كمثل قمة أدبية نابغة ظهرت على وجه الأرض فجأة وزلزلتها ونمت وتطورت إلى حد حتى بلغت إلى قمة الجبال كما يخلص قوله في المقطع التالي حيث يقول: –

" القمة التي أتحدث عنها، ليست قمة من قمم جبالنا، وإنما هي قمة أدبية... والقمة الأدبية التي أتحدث عنها، لم تخضع لما تخضع له القمم من مثيلاتها، على امتداد وتلاحق السلسلة الطويلة من أولئك العباقرة الذين عرفهم تاريخ الأدب العربي، أو تاريخ أي أدب من آداب الأمم في هذا العالم الكبير، إنها القمة التي أخذت العيون بشموخها، وكأنها ولدت قمة منذ درجت على تراب هذه الأرض... أو منذ تفتحت هذه العيون على الأدب، ومنذ تعلقت قلوب الذين عرفوها، وسحر الإشعاع في الحرف، وتعشقت حنان موسيقاه، وسرحت مع أطيافه ورؤاه وانساحت في ألوانه وظلاله، وإن طبيعة كل قمة أن ترى... وأن تملأ العيون، وأن يتلامح هذا الجانب منها أو ذاك"[1].

ثم يذكر متحدثا عنه بأنه كيف عرفه؟ وكيف ازدادت صلته الودية والأخوية بينه يوما فيوما "عرفت حمزة شحاتة ذات مساء، بعد إطلاق سراحه من معتقله في الرياض،

[1] ضياء، عزيز، الأعمال الكاملة، (حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف) الجزء الأول ص: 47/45

مع عدد من شبان تلك الأيام على أثر الفتنة التي شغب بها حامد ابن سالم بن رفادة وانتهت بمقتله وابنيه على مقربة من "ضبا" في الشمال من ساحل البحر الأحمر، في عام ألف وثلاثمأة وواحد وخمسين، وكان من هؤلاء الشبان أستاذنا الشيخ عبد الوهاب آشي، كنت أمشي خارجا من مظلة المسعى، إلى ساحة الصفا، برفقة صديق أرجو ألا تخذلني الذاكرة إذا قلت إنه الشيخ الأستاذ صالح باخطمة وقد كان وأرجح أنه لا يزال رغم صمته، من رجال القلم والفكر، مع الزهد في النشر، وإن كنت لا أنسى له جولات في صوت الحجاز ينشرها بتوقيع المقنع، كنا على موعد لزيارة الشيخ عبد الوهاب آشي لتهنئته بسلامة العودة وبالبراءة مما نسب إليه مع أخواته... وسمعت الشيخ صالح باخطمة يهمس: انظر... هذا الشاب أبو النظارة وأشار بأصبعه وقال هذا أبو عرب... حمزة شحاتة "[1].

يذكر إعجابه وسروره حين قد التقى به أول مرة في إحدى المجالس في المملكة، كما يذكر مشيرا إلى ذلك بقوله " لا بد أن أذكر في هذه اللحظات إعجابي البالغ، بالمثال الذي بدا لي رائعا للأناقة في هندام حمزة وملابسه... كان له ذلك المظهر السري الذي يذكرك بإحساسه المرهف ببواعث الشباب نوازعه وما يستتبعانه من تعلق بالترف، وحرص على التأنق، في إطاره من صرامة الرجولة، ودفقة عنفوانها واعتزاز بالشخصية وإحساس بالوزن الفكري تحلق به مشاعر التنبل، والرفعة، وليس الترفع وصدق العاطفة فيما يفضي به عن ذات نفسه، وخلوصها، وليس افتعالهما أو التظاهر بهما، ويطول الحديث عن مراحل العلاقة بين حمزة، وبين أصدقائه في مكة حين يسكنها وبين هؤلاء وأصدقائه في جدة حين يعود إليها كلما استقال كعادته من الوظائف التي يتقلدها "[2].

وكذلك تحدث فيه بأنه كيف يطول الحديث بينه وبين الأستاذ حمزة شحاتة؟ وكيف كانا يقضيان طوال الليلة من الغسق إلى طلوع الفجر؟ وكيف كانا يقراءان

[1] المرجع نفسه، ص: 52/50
[2] المرجع نفسه، ص: 52

ويطالعان كتبا حول موضوعات شتى؟ وكيف كانا يتكلمان ويتجاذبان أطراف الحديث حول ما لا يحصى من شؤون الفكر والأدب والفن والفلسفة والسياسة والأخلاق والقيم المثالية وغيرها من موضوعات مختلفة؟ وكذلك سلط الضوء فيه عن المناقشة التي جرت بينهما حول آراء أفلاطون وكتابه الشهير " جمهورية "، والفارابي وكتابه بعنوان " المدينة الفاضلة "، وداروين ونظريته في ضوء كتابه " أصل الأنواع "، وأبو الفرج الأصفهاني وكتابه " الأغاني "، والدكتور طه حسين وكتابه "الأيام"، وألقى الضوء فيه على الضجة التي أثيرت عن كتابه الجدلي " في الشعر الجاهلي" كما يذكر متحدثا عنه بقوله " ما زلت أذكر، ولا ينسى رصفائي من الشيوخ، كيف كانت تنقضي الليلة من الغسق حتى الفجر في حوار حول آراء أفلاطون في جمهوريته... ثم حول الفارابي ومدينته الفاضلة، بل حول داروين ونظريته في أصل الأنواع... وما زلت أذكر أول عهدي بكتاب "الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني" ويصدر في هذه الفترة كتاب في الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين ونقرأ في الصحف المصرية، تلك الضجة التي أثيرت... فقرأناها وظللنا ندير الحوار حول آراء الدكتور طه وآراء من ثاروا عليه "[1].

وكذلك تحدث فيه عن تلك المعركة الجياشة حامية الوطيس التي دارت بين الشاعر حمزة شحاتة والشاعر محمد حسن عواد حينذاك. وأما المعركة فإنها تعد من أشهر المعارك الأدبية والفنية المعاصرة التي كانت جارية بين العلماء والأدباء المعاصرين، كما ألقى الضوء على الأسباب والدوافع التي سببت بوقع هذه المعركة الجياشة بين هذين الشاعرين في عصرهما. هنا ينشأ سؤال مهم فلماذا وقعت هذه المعركة الجياشة الضارية بينهما؟ وما كانت نتائجها؟ هذه التساؤلات المهمة التي تأتي في أذهاننا كما تأتي في أذهان الآخرين الذين درسوا الكتاب تماما، ولكن عندما نرجع إلى هذا الكتاب ونقرأه نجد أن صاحب الكتاب لم يذكر الأسباب الأساسية التي حملتهما على المعركة الجياشة بل ذكر بعض أجزائها في ظل جريدة صوت الحجاز التي أصدرت أخبارها حول هذه المعركة التي وقعت بينهما في مجال الأدب واللغة كما أشار

[1] المرجع نفسه، ص: 54/53

عزيز ضياء إلى هذه المعركة تحت عنوان "معركته مع العواد" حيث يقول " لست أذكر كيف وقعت الواقعة بين حمزة رحمه الله وبين الأستاذ محمد حسن عواد... وأهم ما يعنينا الآن تلك المعركة حامية الوطيس التي نشبت بين الشاعرين... معركة هجاء مرير، قد لا نتقبله خلقيا، وقد نضيق به أشد الضيق تجريحا، ومساسا بما للشاعرين الكبيرين من كرامة ووزن وسمعة نقية وخلق كريم، ولكنا لم نكن نملك إلا الإعجاب بأصالة الشعر، وبالابتكار في تناول المهجو، تناولا يغرق في التعريض بقيمة كل منهما، وبالأسلوب الرفيع، في أداء المعاني، وفي التصرف المذهل، في وصف المختلق من الأحداث... وبعض هذا الهجوم قد نشر في جريدة "صوت الحجاز" وهذا أغرب ما يمكن أن يكتشفه اليوم من لم يعاصروا تلك الفترة من مسيرة الأدب في بلادنا "[1].

وكذلك تحدث صاحب الكتاب عن مولد الشيخ حمزة شحاتة وتعليمه وتربيته ومسيرته العلمية والتربوية والخلقية فضلا إلى إنجازاته العلمية المفيدة التي تركها وراءه في مجال الأدب والشعر والنقد والبلاغة والعروض مسلطا الضوء على أبيات كثيرة قرضها حمزة شحاتة أنموذجا، وننقل فيما يلي بعض خير نماذج من أبياته لكي تتضح أهميته: –

سلام النيل يا غاندي وهذا الزهر من عندي

لو ساعفني الدهر لقابلتك في الهند

ولكني كما تدري فقير عاثر الجد

أضعت البيت والقر شين في التهليس والجد

وبعت العنترة الكبرى على صاحبنا السندي

وأما سائر العفش فقد صادرة وجدي[2].

ثم يشرح معنى " وجدي" الذي قد استخدمه حمزة شحاتة في قصائده، كما يتحدث عن شخصية " وجدي " ويقول إن شخصيته شخصية فذة، وشخصية حقيقية،

[1] المرجع نفسه، ص: 56/55

[2] المرجع نفسه، ص: 63

فقد كان أحد ضباط الشرطة في جدة. ثم يأخذ مقتبسا من قصائده العربية وهي كما يلي: –

لقد أوحشتني جدا ومالك سلوة بعدي

كلانا مخفق المسعى وبربندك بربندي

فأرثيك وترثيني لعل رثاءنا يجدي

وقد ضيعني قومي وقد ما أنكروا جهدي

وما بددت من وقت وما فرقت من نقد

ولما طقني الفقر وأضحت أمتي ضدي

توكلت على المولى وعولت على زندي

أبيع الفول والحلبة والفصفص والمندي

فطورا التقي أكلي وطورا أطفح الدردي[1].

وكذلك قدمه عزيز ضياء في هذا الكتاب الصغير كونه كاتبا قديرا، وحكيما ماهرا، وفنانا كبيرا، وشاعرا كبيرا، وبعد إلقاء الضوء على شخصيته المتميزة أنه تحدث عن كتبه ورسائله التي تمت كتابته في أيديه، وتناول محاضراته وخطاباته المؤثرة التي أثرت على المستمعين تأثيرا للغاية بالتركيز على الخطبة التي ألقيت في " جميعة الإسعاف الخيري" بمكة المكرمة، والتي لم تزل ولا تزال تستمر وتتواصل بدون أي توقف أو ركود إلى ساعات متوالية، وبعد عدة سنوات تمت نشرتها من دار التهامة للنشر والتوزيع جدة بعنوان " الرجولة عماد الخلق الفاضل ". ورد الشيخ عزيز ضياء على الكتاب والأدباء الذين اتهموا على الشيخ حمزة شحاتة، وأخذ أكثر أجزاء محاضرته ويقتبسها من كتاب "علم الاجتماع " لنقولا حداد، حيث يقول " كأني– الحديث عن المحاضرة– قرأت للأستاذ محمد حسين زيدان أن حمزة قد ارتكز واستمد عناصر محاضرته من كتاب "علم الاجتماع" لنقولا حداد... وأنا أختزن ما قرأته للأستاذ زيدان إلى هذه اللحظة لأقول له ولمن قد يرى رأيه: إن حمزة كان يتمتع فعلا بمعدة فكرية

[1] المرجع نفسه، ص: 63

جبارية القدرة على الهضم والتمثيل، وكان هذا الكتاب مما تواجد عندنا مع الكثير غيره من الكتب التي ذكرت بعضها، ولكن الفرق كبير جدا بين القدرة على الهضم والتمثيل، وبين العمل المبتكر الأصيل في هذه المحاضرة بوجه خاص"[1].

ثم قدمه في هذا الكتاب كونه فارس الحوار والحديث والرسائل إلى أن يشبهه بسقراط الذي يعد من أكبر الفلاسفة على وجه الأرض كما يقول واصفا الشيخ شحاتة " أما حمزة كأستاذ في الحوار وفي الحديث فليس من يمكن أن يكون شبها له، إلا فيما نسمع أو نقرأ عن كبار الفلاسفة المشائين، كسقراط، وأنا شخصيا لم أعرف له نظيرا حتى اليوم، على كثرة من عرفت في المملكة وفي غيرها من نبغاء باستثناء الدكتور طه حسين، الذي قضيت معه أكثر من نصف ساعة أيام كان مستشارا لوزارة المعارف في مصر، وما يستغرب من حمزة وقد مررنا بخلفياته الثقافية، لا يستغرب بالطبع من عالم كالدكتور طه "[2].

وفي آخر الكتاب أنه تحدث ملقيا الضوء على أشعاره وشوارده من الحكمة، وأقواله المأثورة، ومقتطفاته من المحاضرة، ثم اختتم متحدثا عنه كقوله " الآن... وقد فرغت من تقديم هذه اللمحة عن الشخصية الأدبية عندنا، التي زعمت أنها القمة التي عرفت ولم تكتشف، أعلم أن بين من يقرأون هذا الحديث، من يطالبني بأن أضع أنامله، أو أفتح عينيه، على ما يثبت أنه قمة ويدفع عني تهمة إسرافي في الثناء عليها، مذهب من تجرفه العاطفة وقد فقد ما يخفف من قوة تدفقها ضوابط المنطق والعقل، بل ضوابطا لعلم بمكان القوة ومناجم المعادن الثمينة، التي تدعم بالحجة ما زعمت "[3].

ثالثًا: الأسلوب الأدبي في الكتاب

يمتاز الشيخ عزيز ضياء بصفته شخصية عظيمة في كل من مجالات العلم والأدب والثقافة، وله قدرة متكافئة ومواهب كثيرة في العديد من اللغات الحية، واستخدام ألفاظها وتراكيبها وعباراتها، فكيتب بأسلوب شيق يمتاز بالسهولة والجزالة والفصاحة

[1] المرجع نفسه، ص: 69
[2] المرجع نفسه، ص: 73
[3] المرجع نفسه، ص: 87

والبلاغة وما عداها، وقد نوّه عدد لا بأس به من الباحثين الدارسين بقيمة الكتاب وبجهد كاتبه، وأثنوا عليه ثناءا عطرا كما يقول عبد العزيز الرفاع واصفا الكتاب وكاتبه " إن الأستاذ عزيز يبلغ حقا الذروة في النثر السائغ السلس، القوي الآسر"[1]. إن أسلوب عزيز ضياء الأبي في هذا الكتاب أسلوب قصصي فني بارع ابتعد فيه عن المناهج التاريخية الجافة في عرض السيرة الغيرية، ننقل فيما يلي عبارته لكي يتضح أمامنا أسلوبه الجميل كقوله " في أدبنا قمة عرفت ولم تكتشف وليس وجه الغرابة في أنها عرفت ولم تكتشف، وإنما في أنها القمة، التي لم تخضع لما تخضع له القمم".[2]

وفي الواقع أن الشيخ حمزة شحاتة كان صديقا له، لذلك نرى فيه أنه تارة يثني عليه ثناء عطرا معترفا لمكانته العالية في الأدب والمعرفة، وذكر فيه المكان حيث قد التقى به وعن الزمان المحدد الذي وجد فيه كقوله " عرفت حمزة شحاته ذات مساء، بعد إطلاق سراحه من معتقله في الرياض "[3]. ثم يقول فيه محددا المكان والزمان حيث قد التقي به خلال السفر والحضر " كنت أمشي خارجا من مظلة المسعى، إلى ساحة الصفا، برفقة صديق أرجو ألا تخذلني الذاكرة إذا قلت إنه الشيخ الأستاذ " صالح باخطمة " وقد كان، وأرجح أنه لا يزال رغم صمته، من رجال القلم والفكر، مع الزهد في النشر، وإن كنت لا أنسى له جولات في صوت الحجاز ينشرها بتوقيع المقنع "[4].

يعتبر هذا الكتاب الصغير من أمتع الكتب في موضوع السيرة الغيرية، يتأثر القاريء من رصانة أسلوبه وجودة بيانه وعذوبة كلامه وحسن تصديره وتقديمه ودقة كلامه. ننقل هنا بعض كلمته كنموذج لكي يتضح أسلوبه إذ هو يقول في وصف حمزة شحاته " أعجب من هذا كله، وما أكثر العجيب والأعجب في حياته وخصائص شخصيته، وأحاطته الواسعة بسيرة وحياة بيرناردشو، وبعلاقته بالجمعية الفابية، ويذهب في هذه الإحاطة إلى حد الإعجاب بالكاتب الأيرلندي العظيم، وإن كان يصر على أنه

---

[1] الغلاف الأخير من هذا الكتاب.

[2] ضياء، عزيز، الأعمال الكاملة، (حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف) الجزء الأول، ص: 45

[3] المرجع نفسه، ص: 50

[4] المرجع نفسه، ص: 51

إنجليزي، وحجته أن الرجل، يعيش، وينتج، في إنجلترا منذ غادر مسقط رأسه "دبلن" في صباه، ولم يعد إليها إلا بعد ثلاثين عاما "[1].

[1] المرجع نفسه، ص: 74

الفصل الثاني

التعريف الموجز عن الكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب "

أولاً: تعريف موجز عن الكتاب

يعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي كتبها الشيخ عزيز ضياء عن حياته الشخصية والنفسية وحالته الفكرية العلمية والأدبية، حيث تحدث عن فلسفته منذ سن مبكرة إلى العشرين من عمره، وعن تجاربه العلمية والعملية الأدبية. وفي الحقيقة أن الكتاب هو مجموعة من مقالاته القيمة التي كتبها لمجلات وصحف كثيرة منها على سبيل المثال: مجلة " إقرأ " ومجلة " اليمامة "، تناول فيها أحواله الشخصية والنفسية والفكرية والأدبية وعلاقاته مع الأساتذة والأصدقاء العرب وغيرها، وبعد بضع سنوات أي عام 1985م بدأ الشيخ عزيز ضياء ينشر الجزء الأول من سيرته الذاتية في حلقات سلسلة في مجلة " إقرأ " ما بين عام 1405هـ و1406هـ تحت عنوان (حياتي مع الجوع والحب والحرب) حيث بدأت الحلقة الأولى في العدد 534 في 1405/11/29هـ وانتهت الحلقة الأخيرة في العدد 555 في 1416/5/6هـ في نفس المجلة "[1].

وفيما بعد أصر الدكتور عبد الله مناع على كتابة بقية الأجزاء من هذه السيرة الذاتية العربية القيمة فبدأ الشيخ عزيز ضياء ينشر بقية الحلقات من سلسلة الجزء الأول حيث استأنف الجزء الثاني وبعضا من الجزء الثالث في نفس المجلة ابتداء من العدد 572 بتاريخ 1406/9/7هـ حتى العدد 617 بتاريخ 1407/8/25هـ، حيث كتب ستا وثلاثين حلقة أخرى.[2]

وبعد ذلك توقفت سلسلة هذه الحلقات من سيرته الذاتية تقريبا، ثم بعد بضع سنوات تقريبا بدأت سلسلة نشر بقية فصولها ولكن لم تنشر في مجلة " إقرأ " بل نشرت في مجلة أخرى كان اسمها " مجلة اليمامة " الصادرة في الرياض، وذلك ابتداء من

---

[1] الحكمي، د. عائشة يحيى، السيرة الذاتية عند أدباء المملكة العربية السعودية في مرحلة الطفرة (1390-1418هـ)، ص 158

[2] الأخشمي، أحمد الأجشمي الدكتور، عزيز ضياء ناثراً، ص: 261

العدد 1082 بتاريخ 1405/5/1هـ، فكتب الشيخ عزيز ضياء في هذه المجلة ثلاثة عشرة حلقة، آخرها نشر في العدد 1097 بتاريخ 1410/8/17هـ، وبعد حوالي أربع سنوات أي في عام 1414هـ أصدرت مجلتان رائعتان شهيرتان باسم مجلة " إقرأ " ومجلة " اليمامة " تلك الفصول المتفرقة المنثورة في شكل كتاب رائع بعنوان " حياتي مع الجوع والحب والحرب "، وتمت طبعته الأولى من دار البلاد بعد إلحاح وإصرار شديد من مديرها العام الدكتور عبد الله مناع، ثم ظهر الكتاب في جزئين يشتملان على أكثر من خمس مأة وثمانين صفحة، وبعد نحو عدة سنوات تمت طبعته الثانية من دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع في عام 2012م يضم الجزء الأول من هذا الكتاب أكثر من ثلاث مأة وخمس وستين صفحة، وكذلك يضم الجزء الثاني من هذا الكتاب أكثر من ثلاث مأة وأربع وثلاثين صفحة تقريبا.

وبعد أقل من عام على صدور هذه الفصول المتفرقة المنشورة في الجرائد والصحف المختلفة في كتاب مطبوع استأنف الشيخ عزيز ضياء كتابة ونشر فصول أخرى من سيرته الذاتية في حلقات أسبوعية بصحيفة " المدينة " ابتداء من العدد 11395 بتاريخ 1415/1/3هـ وحتى العدد 11577 بتاريخ 1415/7/9هـ، حيث نشر ستا وعشرين حلقة، وبعد ذلك تمت طباعة هذا الجزء المنشور مع حلقات أخرى لم تنشر بعد وفاة الأستاذ عزيز ضياء في كتاب يشكل الجزء الثالث من سيرته الذاتية، وكانت طباعته في عام 1418هـ، ويقع هذا الجزء في أكثر من مئة وثمانين صفحة، وبذلك تكون سيرته قد جاءت في ثلاثة أجزاء، وضمت أكثر من سبع مأة وستين صفحة[1]. وقد أصدر الأستاذ عبد المقصود محمد سعيد خوجه هذا الجزء الثالث الأخير من هذه السيرة الذاتية في الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء (الجزء الخامس) التي تمت نشرتها من مكتبة عبد المقصود محمد سعيد خوجه جدة – المملكة العربية السعودية.

[1] المرجع نفسه، ص: 262

ومما لا شك فيه أن هذا الكتاب يعد من أهم الأعمال القيمة التي قام بها الشيخ عزيز ضياء في أواخر حياته، هذا الكتاب هو في الواقع مذكرة دون فيها كل ما رأى وسمع وشاهد خلال الحرب العالمية الأولى وحرب الثورة العربية الكبرى، وكان الشيخ طفلا صغيرا عندما بدأت الحرب بين الأتراك والشريف حسين بن علي (شريف مكة)، وتم تهجير عدد كثير من أبناء المدينة المنورة إلى العديد من مدن الشام والبلاد المجاورة لها التي كانت خاضعة تحت السلطنة العثمانية، وبدأت معه رحلة الجوع والفقر والخوف والموت، واستمرت إلى سنوات طويلة ما بين مدينة حلب وحماة ودمشق، وعندما انتهت الحرب عاد الشيخ عزيز ضياء إلى المدينة المنورة وحيدا بمرافقة أمه الحنون بعد موت أخيه الصغير وبقية أعضاء من أسرته في الشام، فهذا الكتاب الذي كتبه المؤلف يحمل الكثير من الآلام والخواطر والمشاعر والتفاصيل عن تلك الأيام اليائسة.

ثانيًا: القضايا أو الموضوعات المهمة التي تعالجها الكتاب

الجزء الأول من هذا الكتاب:

يبدأ الكتاب بمثل فرنسي مشهور " الحياة كالبصلة يقشرها المرأ وهو يبكي ". قدم المؤلف كتابه بإهداء إلى والدته الكريمة فاطمة بنت الشيخ أحمد صفا (شيخ الطريقة النقشبندية وشيخ حجاج القازاق في روسيا)، وأنه يسميها ويدعوها دائما باسم " فقَّم " كما يذكر في مستهل الكتاب قائلا " لم أجرؤ أن أناديها كالعادة " فقَّم "، وهي الكلمة التي أعني بها، أو تعودت منذ ما بدأت النطق أن أعني بها اسمها: " فاطمة "... كان كل من في البيت، جدّي وخالتي وآخرون، ينادونها فاطمة... وإذ لم أستطع نطق الاسم كما ينطقونه، فقد درجت أن أناديها فقَّم... والمضحك بعد ذلك، أني ظللت ردحاً طويلا من العمر، بل إلى أن بلغت مرحلة الشباب، أناديها "فقَّم" فقط.. وربما كان السبب، هو أني لم أكن أشعر بفارق السن بيني وبينها... كانت تكبرني بست عشرة سنة فقط، فهي لا تختلف عن الصبايا، بنات الجيران اللائي كنت أراهن يجلسن معها يواسينها بعد موت جدي في حلب.. فلما بلغت مرحلة الشباب، في مكة، بعد سنين، كانت تبدو هي

فتاة شابة، لم أر ما يحملني على أن أغير شيئا من سلوكي العفوي معها... ظلت هي "ففَّم" وظللت أنا "الولد" لا أكثر ولا أقل...".[1].

على أية حال في الصفحة الافتتاحية من هذا الجزء الأول لم يقل أي شيء سوى " إلى أمي" ثم كتب مقدمة رائعة لا نظير ولا مثيل لها في الأدب العربي المعاصر، والحقيقة أن هذه المقدمة هي عبارة عن رسالة قيمة من جانبه إلى ابنه البار المطيع ضياء عزيز ضياء بعنوان " ولدي "، والتي تنطوي على ست صفحات تقريبا، حيث شرح معنى هذه السيرة الذاتية والبواعث والدوافع الأساسية التي تحرضه على كتابة هذه السيرة الذاتية العريقة، وتحدث فيها بأنه لماذا حاول أن يسرد رحلته من مرحلة الحياة الشخصية في شكل كتاب؟ وما هي البواعث الأساسية التي تحثه على الكتابة عن ترجمته الشخصية النفسية؟ وقد ألقى الضوء على سيرته الذاتية من ولادته ومرحلة الطفولة وأسفاره وتهجيره مع بقية الأسرة من المدينة المنورة إلى الشام على حكم فخري باشا (والي العثمانيين على المدينة المنورة خلال العهد التركي)، وكل ذلك وقع في أثناء الحرب العالمية الأولى.

وكذلك ذكر لنا في هذا الجزء من الكتاب معبرا عن انطباعاته وخواطره التي شاهدها بعينيه وسمعها بأذنيه بين العديد من مدن الشام والمملكة العربية السعودية على حد سواء، وقام بتسليط الضوء على الأحوال والأوضاع التي كانت سائدة في تلك الفترة من الزمان من حالات بعض وفيات أهله وأسرته في جو من الحزن والألم والعذاب والخوف والفقر والجوع الشديد وغيرها، وذكر فيه عن الأحوال السيئة والأحداث والوقائع التي تعرضت لها أسرته وأهل بيته والتي بدأت بسرقة اللصوص لمقتنيات الأسرة والأهل من بيته، وما أعقب ذلك من تطورات ومعايشة ومخاطرة للخوف والجوع والفقر والبؤس والعذاب، وكل ذلك حدث عندما اشتد حصار المدينة المنورة خلال الثورة العربية الكبرى.

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 220

ومما يجدر بالذكر أن المدينة المنورة كانت تحت حكم الدولة العثمانية بقيادة فخري باشا، وأما مكة المكرمة فكانت تحت أيدي الأشراف وفي هذه الأثناء أرسل الشريف حسين بن علي إلى المدينة المنورة، عندما وصل إلى المدينة المنورة مع أول سيارة تدخل فيها وهي سيارته الخاصة، نزل خارج المدينة واتصل بسكان المدينة المنورة، فذلك الحين أحسّت وشعرت الدولة العثمانية الخطر فقررت اختيار القادة المشهورين بالقوة والهزم ليتولى حكم المدينة المنورة، وبعد ذلك أعلن انطلاق الثورة العربية الكبرى ضد الحكم العثماني وذلك في أربع شعبان ألف وثلاث مئة وأربع وثلاثين، وحصرت المدينة المنورة من ثلاث جهات، الجيش الشمالي بقيادة الأمير فصيل الجنوبي بقيادة الأمير علي والشرقي بقيادة الأمير عبد الله بالسكة الحديد، وبنت الوصل بين الحكومة التركية العثمانية في الشام واسطنبول وقام بالبناء مقر الإدارة في المدينة المنورة، وعندما علم الأشراف بذلك الخبر فقاموا بتخريب سكة الحديد مما أدى إلى تعطيل حركة الاتصال بين المدينة المنورة واسطنبول، وقاموا بعد ذلك بإصلاح القطار لاستعادة التواصل بين اسطنبول والمدينة المنورة.

ولما اشتد الحصار في المدينة المنورة، وقلت الأكلات والمشروبات، وعمت الفوضى والطغيان بين العامة والخاصة، فحكم فخري باشا بتهجير أهل المدينة المنورة اختياراً إلى البلاد الأخرى، وكان هناك خيار لمن أراد من أهل المدينة المنورة أن يخرج منها فله ذلك، ومن أراد أن يمكث فيها فله ذلك أيضا، فخرج معظم الناس عن طريق سكة الحديد إلى الشام والأردن وفلسطين والعراق والبلاد المجاورة التي كانت لا تزال خاضعة على يد العثمانيين، وعندما اشتد الحصار شديدا، وقل الطعام والأشياء الضرورية للإنسان، قرر فخري باشا بتهجير أهل المدينة المنورة إجبارياً، ومن هنا بدأت المأسات بين عامة الناس من العرب، وكانت فكرة فخري باشا جعلت المدينة المنورة منطقة عسكرية خالية من المواطنين والسكان، خرج من المدينة المنورة أكثر من ثمانين وألف رجل من الرجال والأطفال والنساء والشيوخ والشيخوخة ولم يبق فيها إلا مئات

فقط، وكانت أسرة عزيز ضياء مع هؤلاء المهاجرين أيضا. وجميع القصة من هذه الرحلة الطويلة موجودة في هذا الكتاب.

ثم ذكر فيه عن الحرب المؤلمة التي أفقدته خالته خديجة التي كان يحبها حبا جما، وكان حبه الأول الحض الدافيء الذي لم ينساه قط، وأفقدته أخاه الصغير الشقيق عبد الغفور الذي مات دون أن يرى أباه الكريم وابن خالته عبد المعين وهو الذي لم يشاهد والده قط، وأنه مات أيضا دون أن يرى أباه، وأخيرا أفقدته جده ذا الشخصية المهابة والقلب الكبير الشيخ أحمد صفا شيخ حجاج القازاق، وكان هو الرجل الذي يحتل مكانة مرموقة في المجتمع العربي السعودي في ذلك الحين، وتحدث فيه عن العودة من مدينة حماة وحلب إلى المدينة المنورة مع أمه وحيدا يصارع الفقر والجوع والخوف والدهشة والعذاب والمرض.

الجزء الثاني من هذا الكتاب:

يبدأ هذا الجزء أيضا بمثل فرنسي " الحياة كالبصلة يقشرها المرأ وهو يبكي" ثم بعنوان " طفولتي التي بدأت مع رياح الحرب العالمية الأولى"، ثم تحدث فيه عن مرحلة الطفولة التي بدأت مع رياح الحرب العالمية الأولى، كما يقول " لا أكاد أبدأ الجزء التالي من قصة (حياتي مع الجوع والحب والحرب)، حتى أجد نفسي، وطفولتي، التي بدأت مع رياح الحرب العالمية الأولى، في مواجهة ما أسميه اليوم (معركة)، كأن الذي عشته إلى تلك الليلة التي انتقلت فيها مع أمي إلى بيت زوجها، لم يكن، "معركة" تزاحمت معها الأحداث، وتراكمت في كل يوم من أيامها المآسي والأحزان" [1].

ذكر في هذا الجزء عن حياته الشخصية الخاصة بزوج والدته يعنى كيف كان اللقاء بينها وبين زوجها؟ وكيف وجده جديدا بعد أبيه الذي فقده خلال الحرب العالمية الأولى، ولم يراه ولم يسمع عنه أي شيء، لأنه قد سافر إلى روسيا وقزاقستان في عصر الأمير سلطان عبد الحميد لكي يجمع الأموال والنقود لتأسيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ولكن من سوء الحظ لم يرجع قط، وغالب الظن أنه قتل واستشهد

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 7

خلال السفر في الطريق الذي كان يؤدي إلى روسيا وقزاقستان وغيرها من البلدان الأجنبية الأخرى.

وقام بتسليط الضوء على الأحداث والوقائع والظروف القاسية المُرّة التي أعقبت رجوعه مع والدته إلى المدينة المنورة، ومعاناته بعد تعرض سرقة اللصوص في البيت، حيث سرق اللصوص كل شيء من الأشياء المتواجدة في المنزل من المنازل، وذكر فيه الأحداث المفاجأة التي تلت في تلك المرحلة وعن الزوج لأمه يعني كيف تزوجت والدته الكريمة بعد العودة من الشام إلى المدينة المنورة برجل كان يعمل بصفته ضباطا في الدولة العثمانية بعد أن حكم بطلاقها من والده الأسبق على المذهب المالكي، وتناول الأوضاع المتغيرة التي طرأت على هذه الأسرة الصغيرة التي تشتمل على عزيز ضياء وأمه وأبيه الجديد الذي كان ضابطا كبيرا في الدولة العثمانية، كما تكلم فيه عن أثر التعليم والتعلم والمنهج للتدريس في المدرسة والكتاب وما جرى له من أحداث ووقائع وظروف متناسية، كما ذكر فيه عن التحاقه بمدرسة الراقية الهاشمية وما جرى له من أحداث وأهوال في تلك الفترة من الزمان.

الجزء الثالث من هذا الكتاب:

يحتوي هذا الجزء الثالث الأخير من السيرة الذاتية نحو مئة وواحد وثمانين صفحة، والذي قسمه الشيخ عزيز ضياء إلى أربع عشر فصلا بدون أي عنوان من العناوين الرئيسية، وكل هذه الفصول المتفرقة مشتملة على الأحوال والوقائع والأوضاع والظروف التي عايشها في تلك الفترة من الزمان، تحدث فيه عن مرحلة الشباب والالتحاق بالمدرسة الراقية الهاشمية مذكرا عن التحاقه بمدرسة الصحة التي كانت لها سمعة طيبة بين الأوساط العلمية والفكرية والأدبية في الملكة العربية السعودية وخارجها، وهي المدرسة التي تقع في مكة المكرمة والتي كان يتهافت إليها الكثيرون من الطلبة الأعزاء من أنحاء العالم وخاصة من البلاد العربية تهافت الفراش على النور، وكانوا ينهلون من منهلها العذب، ويروون من غلتها العلمية، ويستفيدون منها استفادة كاملة شاملة، وهي المدرسة التي كان يظنها أهل بيته مدرسة للطب ولكن الحقائق قد ظهرت

عندما قام مع أصدقائه وزملائه برحلة علمية وتربوية إليها بأنها ليست مدرسة للطب بل كانت هي مدرسة للتمريض فقط.

وحينما قمنا بنظرة ثاقبة على هذا الجزء الأخير وجدنا أن صاحب السيرة الذاتية ذكر فيه عن أستاذه الكريم الدكتور خيري القباني الذي يعد من أكبر العلماء والأدباء الأفذاذ والأساتذة البارعين في المملكة العربية السعودية، وكان له فضل عظيم وإحسان كبير ودور قيادي في بناء شخصية الشيخ عزيز ضياء تأليفا وتصنيفا وترجمة وتحشية مالم يوفق من معاصريه، وهو الذي أتاح له فرصة غالية بعد ما رأى مواهبه العلمية وتفوقه وانشغاله بالقراءة والكتابة للقيام بكتابة على الآلة الكاتبة لكي يكون ماهرا في هذا المجال المنوال، وبعد التحريض لم يزل ولا يزال يقوم بممارسة الكتابة العربية على آلة الكاتبة حتى أصبح ماهرا هذا الفن في أقل وقت من الأوقات، حتى بلغت سرعة كتابته أكثر من خمس وثلاثين كلمة في الدقيقة، وعندما أصبح ماهرا جيدا فيها فرح الدكتور القباني فرحا شديدا، وعبر عن انطباعاته بكل سرور واطمئنان، ومن الجدير بالذكر أنه قام برحلة وظيفية عملية من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وحينما أعلنت الصحة العامة عن وظيفة مقيد أوراق، قدم الأوراق اللازمة لهذه الوظيفة الشاغرة، وفي نفس العام أقيمت مسابقة الكتابة على الآلة الكاتبة على حكم مديرية الصحة العامة بمكة المكرمة حيث حضر فيها نائب جلالة الملك سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود حيث فاز في المسابقة بالدرجة الأولى، وحصل على ثلاثة جنيهات، وبعد ذلك انتخب لهذه الوظيفة المرموقة، والتحق بها وبدأ يعمل فيها بكل غبطة وفرح وسرور، إن هذه هي الوقائع التي نشاهدها في هذا الكتاب والتي ذكرها الشيخ عزيز ضياء بأسلوب منمق خال من التعقيد اللفظي والمعنوي.

وكذلك ذكر فيه عن وظيفته في سلك العمل العسكري، ومن المعلوم للجميع أنه لم يكن مريحا في الصحة العامة، لذلك تجول إلى مكان آخر، وعندما قامت الحكومة السعودية بنقل الشرطة في المدينة المنورة فتوجه إليها والتحق بها وبعد بضع سنوات ترقى إلى أوج الكمال حتى أصبح كاتب ضبط في مسقط رأسه بقسم الشرطة، وبعد أن

أمضى حوالي سنة واحدة على الالتحاق بها احتاجت شرطة المدينة المنورة إلى كاتب ربط للتحقيق، فتوجه إليها وقد التحق بها، وبعد صدور الأوامر بتعيينه في السلك العسكري عاد إلى مكة المكرمة، وتم تعيينه على عسكرية وهي مفوض ثالث. وبعد ذلك وفرت له فرصة ثمينة من جديد لمواصلة الدراسة والقراءة والكتابة فاستقال الشيخ عزيز ضياء هذه الوظيفة ودخل في مدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة، ولكنه خطر له أن يكمل دراسته التي تحتاج إلى أربع سنوات في سنة واحدة، نظرا لهذه الفكرة التي تأتي في ذهنه صمم العزم بالذهاب إلى القاهرة حيث قد التحق بمدرسة الخديو إسماعيل بالقاهرة، ثم تركها من سبب، وتوجه إليها بعد قضاء عدة سنوات، والتحق بها في عام 1356هـ، ولكنه في هذه المرة من سوء الحظ لم ينجح في المادة الإنجليزية التي كان يعتقدها أنه أكثر إجادة لها من أي مادة أخرى من اللغات والتكنولوجيا الجديدة.

وذكر فيه بكل صدق وأمانة عن عادة التدخين، وقد أصبح مدمنا فيها منذ الطفولة والشباب حتى لم يتركها في طول العمر، والقصة من هذه العادة كما يحكيها لنا في هذا الجزء الأخير هي أنه ذات مرة كان جالسا مع الأصدقاء والزملاء له وكلهم كانوا يتذاكرون عن قصيدة من القصائد العربية في الأدب العربي السعودي، في تلك اللحظة غلبت حالة النعاس عليه، ولا يمكن له أن يفتح العينين حتى قال له صديق من أصدقائه لو شربت سيجارة واحدة ليطير عنك النوم صدفة، وبعد ذلك أخذ صديقه بلف سيجارة في ورقة خاصة بالدخان الذي كان في علبة ثم قال له هيا يا عزيز! اسحب منها، رفض الشيخ في البداية ولم يتحكم في نفسه حتى شربها مرة واحدة ومن بعد ذلك جعل يتدخن إلى آخر عمره، وكل هذه القصة الطريفة التي ذكرها الشيخ عزيز ضياء موجودة في هذا الجزء الأخير.

ثالثاً: الدوافع التي تحرضه على الكتابة بسيرته الذاتية

مما لا يختلف فيه اثنان أن فن السيرة الذاتية نوع من ألوان الأدب ذو خصائص بارزة يتحدث فيه الكاتب أو السارد بقلمه المترسل عن وقائعه وأحداثه، ويسرد أعماله القيمة وآثاره الخالدة ومواهبه العلمية والأدبية، وكذلك يذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته

وما جرى له فيها من أحداث الفرح والسرور والألم والحزن والخوف والفقر والجوع وغيرها من الأحوال والظروف القاسية التي حدثت معه في أيام الطفولة والصبا، كما يعرفها لنا قاموس أوكسفرد حيث ورد فيه " An account of a person's life written by that person"[1] أي " كتابة شخص عن تاريخه وقصة حياته بقلم نفسه"، ويستشهد أولحاج بالدوافع والبواعث التي تطرق لها جورج ماي وحصرها في العناصر التالية:-

- **دوافع عقلانية- منطقية:** وتتجلي في التبرير والدفاع، تبرير المواقف، الأفعال، الأعمال والأفكار التي جهز بها الكاتب، إلى جانب ذلك تصحيح، تعديل وتكذيب الإدعاءات الوهمية التي تعرض لها.
- **تقديم شهادة:** يجعل الكاتب حياته الماضية شهادة متميزة التي يجب أن لا تختفي بوفاته نظراً لأهميتها.
- **دوافع عاطفية:** وهي دوافع الشعور بلذة استرجاع ذكريات قديمة، وإعادة إحياء الماضي ومقارنته مع الحاضر فهو بذلك يحن إلى الماضي ويركز على أمور ربما يفتقدها بالحاضر.
- **إيجاد معنى لوجوده:** الرغبة في استرجاع شريط الحياة الماضية لكي يتمكن من فهمها من جهة ويتشجع بالمقابل رغم الأحداث والتناقضات التي عاشها[2].

وبما أن الحديث هنا عن كتابة السيرة الذاتية عند الأدباء والكتاب فإن الإشارة هنا إلى البواعث المتعددة التي تقود الإنسان إلى كتابة السيرة الذاتية فمنها ما يعود إلى أسباب داخلية ومنها ما يرتبط بعوامل خارجية وفي بعض الأحيان يظهر أن هناك دافعا واحدا وراء كتابة السيرة الذاتية كما أورد في كتاب يحي إبراهيم عبد الدايم حيث يقول " وراء كل سيرة ذاتية حافز يلح إلحاحا على صاحبها أن يسجلها، وحين يبلغ هذا الإلحاح مستوى من النضج في نفس صاحبه لا يستطيع معه إلا أن يصور ما تردد في نفسه

---

[1] قاموس أكسفورد مادة (Autobiography) Oxford Dictionary of English,(New Second ، ص: 107

[2] قشقوش، ريم، تأثير كل من شخصية الأب والأم في صقل شخصية بنت الشاطئ (تحليل في سيرتها على الجسر) في إطار مساق: السيرة الذاتية الأدبية، رسالة الماجستير غير منشورة قدمت إلى (قسم اللغة العربية في سنة 12/2011)، ص: 23.

من أصداء الحياة القومية وتجاربها "[1]. وأول ما يهدف إليه كاتب السيرة الذاتية إيجاد رابطة وطيدة وصلة أكيدة ما بينه وبيننا لأنه يثير فينا رغبة ملحة في الكشف عن العالم المجهول كما يقول إحسان عباس " كاتب السيرة قريب إلى قلوبنا، لأنه إنما كتب تلك السيرة من أجل أن يوجد رابطة ما بيننا وبينه، وأن يحدثنا عن ذخائل نفسه وتجارب حياته، حديثا يلقي منا أذنا واعية، لأنه يثير فينا رغبة في الكشف عن عالم نجهله "[2].

وقد تكون الرغبة الفطرية في الخلود من أبسط تلك الدوافع والبواعث التي جعلت الكاتب يتدون قصة حياته الشخصية، وأن هذا الشعور يتولد في مراحل العمر المتقدمة، وهي مراحل يشعر فيها الإنسان على وجه الأرض بموطأة الزمن وما كتبه محمد شكري في مقدمة سيرته الذاتية " الخبز الحافي" مشيرا إلى ذلك حيث يقول " لقد علمتني الحياة أن انتظر، أن أعي لعبة الزمن بدون أن أتنازل عن عمق ما استحصدته: قل كلمتك قبل أن تموت فإنها ستعرف، حتما، طريقها، لا يهم ستؤول إليه، الأهم هو أن تشعل عاطفة أو حزنا أو نزوة غافية... أن تشعل لهيبا في المناطق اليباب الموات"[3].

ومن تلك الدوافع التي تحمل الكاتب على تدوين الأحوال والأوضاع والظروف التي مر بها التبرير للدفاع أو الاعتذار مثل سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة للأمير عبد الله بلقين، والرغبة في اتخاذ موقف ذاتي من الحياة مثل: المنقذ من الضلال للغزالي والتحقق من الثورة أو الانفعال مثل مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي، وتصوير الحياة الفكرية مثل الفلك المشحون في أحوال محمد ابن طولون لابن طولون، والرغبة في استرجاع الذكريات مثل كتاب الاعتبار لأسامة بن منفذ وغيرها الكثيرة، وفي تقسيمه للسيرة الذاتية وفق دوافعها وبواعثها أشار يحي إبراهيم عبد الدايم إلي سير ذاتية ذات طابع فكري، صورت العالم الفكري للمترجم لذاته، وفسرت هذا العالم، وخصائصه،

---

[1] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 132

[2] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة، ص: 94

[3] شكري، محمد، الخبز الحافي سيرة ذاتية روائية، ص: 8

ومقوماته وعكست معاناة الأديب في سبيل التثقيف الذاتي، وهي تراجم خرجت على الموروث والمسلمات في عالم الفكر والأديب نتيجة الاتصال بالثقافة الغربية، ومن تلك التراجم الأيام لطه حسين وسبعون لميخائيل نعيمه[1].

ومما يهمنا في هذا الصدد أن الكاتب أو السارد يجد في السيرة الذاتية نافذة يطل بها إلى العالم الخارجي ووسيلة تظهر دواخله وتكشف كواليس حياته الفردية، ومن الأمر المهم أنه يكشف الأستار عن الأشياء الكثيرة المجهولة التي لا يدريها أي شخص من الأشخاص، وكذلك أنه يخفف الثقل والعبء عن أكتافه بنقل التجربة المرة إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها كما يقول إحسان عباس " الغاية الأولى التي تحققها السيرة الذاتية هي الغاية المزدوجة التي يؤديها كل عمل في صحيح، أعني تخفيف العبء على الكاتب بنقل التجربة إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها، فهي متنفس طلق للفنان، يقص فيها قصة حياة جديرة بأن تستعاد وتقرأ وتوضح موقف الفرد من المجتمع "[2].

وكذلك يرى إحسان عباس أيضا أن الوصول إلى الأهداف أو الفشل في تحقيقها عاملان يبلغان بالتجربة الإنسانية حد النضج، وهذا ما يحدث في نفس صاحبها قلقا نفسيا يقوده إلى كتابة التجربة وتدوينها، ويبلغان بالتجربة حد النضج على شرط واحد: هو اكتمال التصور لأطراف هذه التجربة ورؤيتها عند التطلع إلى الماضي، على أساس من نظرة ذاتية خاصة، ولولا هذا الشرط لكان كل إنسان قادرا على أن يكتب سيرته الذاتية [3].

ومن الدوافع التجارب العاطفية والروحية والفكرية ذات الأهمية التي تحرض الكاتب على كتابة السيرة الذاتية ومن أمثال: " سارة " للعقاد، و" الرحلة الأصعب " لفدوى طوقان، ومن المعلوم للجميع أن التجارب الروحية من أكثر العوامل خلقا للسيرة

---

[1] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 95/85

[2] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة، ص: 9

[3] المرجع نفسه، ص: 95

الجميلة، وجعلها أكثر حيوية وارتباطا بالباطن، وكشفا وتوضيحا عن الذات، وكذلك أن التجارب المؤلمة قد تحمل صاحبها على تسجيلها لتكون شاهدا على تلك التجارب المؤلمة، ومعلما يأخذ منه الآخرون النصائح والعبر ومن أفضل دليل على ذلك نص كتاب " أحلام بالحرية " لعائشة عودة، وهي التي دونت تجربة السجن التي خاضتها كما تقول عن نفسها " أعود للكتابة ربما للتأكد أن تحويل التجربة العملية إلى وعي هو الأهم في التجربة ذاتها، لأنه زبدتها، ولأنه النسغ الذي يمنعها من الذبول والموت، ولأنه وهذا هو الأهم لا يسمح للآخرين بالاستمرار في السيطرة على رواية التاريخ، وتصنيعه بما يتناسب مع أيدولوجية العنصرية "[1].

ومن الدوافع الخارجية الأحوال والأحداث التي تعصف بالمجتمع من حروب وثورات وغيرها، وهي التي تدفع الكاتب إلى تدوين السيرة الذاتية لتعليم الآخرين وتوجيههم وتقديم النموذج المثالي لهم كما ترى فدوى طوقان في سيرتها الذاتية المسماة بـ" رحلة جبلية ورحلة صعبة" حيث تقول " فلعل في هذه القصة إضافة خيط من الشعاع ينعكس أمام السارين في الدروب الصعبة، وأحب أن أضيف هذه الحقيقة وهي أن الكفاح من أجل تحقيق الذات يكفي لملء قلوبنا وإعطاء حياتنا معنى وقيمة، على هذا الطريق الصعب رماني المجهول، ومن هذا الطريق الصعب بدأت رحلتي الجبلية."[2].

وكذلك من الدوافع التي تحمل الكاتب على كتابة السيرة الذاتية الإلحاح الشديد للأصدقاء والأقارب وسؤال الباحثين والقراء وهذا ما صرح به إحسان عباس في سيرته الذاتية "غربة الراعي" حيث يقول " فاتحني عدد غير قليل من الأصدقاء في أن أكتب سيرتي الذاتية، فأخذ اقتراحهم يمثل هاجسا يدور في نفسي، ويستشير ذاكرتي، ولذا توجهت إلى أخي بكر عباس أسأله رأيه في الأمر، فكان جوابه المباشر أن قال: لا أنصحك بذلك، لأن حياتك تخلو أو تكاد من أحداث بارزة، تثير اهتمام القاريء وتطلعاته "[3].

---

[1] العودة، عائشة، أحلام بالحرية من تجربة اعتقال فتاة فلسطينية، الجزء الأول، ص: 200

[2] طوقان، فدوى، رحلة جبلية رحلة صعبة سيرة ذاتية، ص: 9

[3] عباس، إحسان، غربة الراعي سيرة ذاتية، ص: 5

وبما أن الحديث عن الشيخ عزيز ضياء فإنه يعد من أكبر الأدباء والشعراء والعلماء الذين تركوا وراءهم ذخيرة علمية وأدبية في فروع الأدب العربي وخاصة في العلوم الدينية من التفسير والحديث والفقه وأسرار الشريعة، والعلوم العقلية من الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، والعلوم اللغوية من النحو والصرف والبلاغة وفقه اللغة والمعاجم والقواميس، وقاموا بخدمات جليلة في كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية، واهتموا اهتماما كبيرا بهذا الفن الأدبي الرفيع، وبذلوا قصارى جهودهم المضنية في تطور أدب السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية خاصة، وأما الكتاب الذي سجل فيه عزيز ضياء أحوال سفره من الحياة فهو كتاب قيم يمتاز بالسهولة والجزالة والفصاحة، وأنه يعد من الخطط التربوية والتوجيهات الثقافية والمؤشرات الأدبية، وكذلك يعد من أوثق المصادر الجغرافية والتاريخية التي شاهد الكاتب آثارها وانعكاساتها على المجتمعات العربية لذا يمكننا القول إن هذا الكتاب هو وثيقة تاريخية مهمة من طفل شاهد عيان شاهدها وبينها على الأوراق بكل صدق وأمانة.

كتب المؤلف سيرته الذاتية بعد أن تجاوز السبعين من عمره، فاستعاد في ذاكرته القوية أيام مرحلة الطفولة والشباب ومما حدث معه خلالها، ورأى في هذه الحياة عظات وعبر جديرة بأن تسجل وتكتب، فبدأ تدوين هذا الكتابة وألقى فيه ضوءا ساطعا على الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وغيرها من الأحداث القاسية التي عاشها مع الأهل من منزله والأصدقاء والأقرباء والناس الآخرين في المدينة المنورة، والكتاب حافل بأحداث وظروف كما حافل بطرائف من الحكايات والقصص والنوادر والمحادثات والمناقشات، وكذلك فيه تصوير للعادات التقليدية والأخلاق النبيلة والقيم المثالية التي كانت منتشرة في المجتمع العربي في ذلك الحين.

ومما يجدر بالذكر أنه لم يكتف في سيرته الذاتية على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فحسب بل أنه صور فيه كثيرا من الشخصيات البارزة التي كان لها دور قيادي في بناء شخصيته الفذة، فلعل هذه التوطئة تجبرنا على أن نسأل عن أنفسنا بأنه لماذا كتب الشيخ عزيز ضياء سيرته الذاتية؟ وما هي البواعث والدوافع

التي تدفعه إلى الكتابة عن قصة حياته الشخصية النفسية باللغة العربية؟ هذه هي التساؤلات المتكررة التي تأتي في أذهاننا كما تأتي في أذهان الباحثين والدارسين الآخرين على العموم وفي أذهان كل من يرغب في قراءة ومطالعة هذا الكتاب على الخصوص.

عندما نحاول إجابة هذه التساؤلات المتكررة فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة تامة هو أن البواعث الجذرية التي تدفع الكاتب إلى تدوين مذكراته التاريخية بشكل كتاب فمنها في بعض الأحيان غلبة أزمة النفنسية أو تشويق سجل الذكريات الشابة بعد ارتفاع السن أو تشغيل أوقات الفراغ أو طبيعة الأحداث المتناسية والظروف القاسية التي حدثت معه حينذاك، كما ننقل فيما يلي بعض الكلمات لعزيز ضياء لكي يتضح أمامنا هذا الأمر، إذ يقول في مقدمته الكتاب الموسوم بـ "حياتي مع الجوع والحب والحب" متسائلا عن نفسه في الصفحة الأولى من المقدمة موجها الخطاب إلى ابنه البار ضياء عزيز ضياء " ربما رفت على شفتيك ابتسامة حيية، وأنت تقرأ هذه السطور لتمهد بها إلى سؤال تتوق إلى أن تسمع مني الإجابة عنه، وهو: ماهي البواعث التي تحملني على الكتابة عن حياتي؟ ترى هل هذه الحياة تستحق أن يكتب عنها فصل أو فصول.. أليست هي مثل حياة الناس جميعا، سلسلة متلاحقة الحلقات من الاضطراب على وجه هذه الأرض، والكفاح في سبلها الملتوية بحثا عن لقمة العيش بين الملايين من الذين جاؤا من الطريق نفسه، وسلكوا السبل نفسها وركضوا لاهثين، وراء الغاية نفسها؟ وماذا في هذا؟ أي جديد فيه يستحق أن يكتب عنه فصل أو فصول؟ أليس الأجدى، أن استفيد من الوقت الذي أبدده في كتابة هذه الفصول، فأفرغ لعمل من الأعمال الكثيرة، التي يطالبني بأدائها واجبي نحو أسرة ما زالت تتعثر في طريقها الشائك نحو حياة وادعة كالحياة التي ينعم بها الكثيرون ممن أعرف وتعرف من الناس.. ترى هل كانت حياتي قط كحياة هؤلاء الذين لمعوا في آفاق العالم الكبير، ثم وجدوا مداخلهم إلى التاريخ؟ هل بلغ من قوة الصراع الذي أدعيه مع الحياة– وفي

سبيلها– أو من أجل لقمة العيش، في أضيق حدود التعبير، إن كان في يوم ما مثيرا رائعا إلى الحد الذي أستحق معه أن أفرغ للكتابة عنه "[1].

ثم حاول عزيز ضياء للإجابة على هذه التساؤلات المتكررة في مقدمته قائلا " أصارحك يا بني أن هذه الأسئلة قد ظلت تدور في نفسي وظلت القدرة على الإجابة عنها حبيسة في أعماقها وقتا طويلا، وربما يجب أن أقول دهرا أو عمرا، فقد أحسست بالباعث على الكتابة عن حياتي، منذ فرغت من كتابة أول قصة قصيرة، نشرت لي في جريدة صوت الحجاز، كنت يومها شابا تعبث بمشاعري وخيالي لمسات غامضة الاتجاه والغرض، من نوازع اليفع المجنون وأحلامه والمحلقة وراء آفاق، أدرك اليوم بعد أن طويت السبعين، كم كانت بعيدة مترامية الأطراف موحشة، ومع ذلك، كم كانت تبدو قريبة، محددة، واضحة المعالم، غنية بالاحتملات الواعدة، والفرص المواتية، والسبل المفروشة بالورود والرياحين "[2]. ثم يقول وهو يصف حياته الشخصية تلك بأنها قصة التفاهة "ولكن دعني أبدأ قصتي.. وتأهب لتقرأ فصولا من حياة أعجب ما فيها أنها تافهة وأجمل ما فيها أنها قصة التفاهة، يحياها ألوف من أمثالي الصغار التافهين... الذين لم يتح لهم أن يلمعوا في آفاق العالم الكبير، ولم يجدوا مداخلهم إلى التاريخ... ليس في حياتهم بطولة أو مجد، أو مغامرات أو مفاجآت، أو إثارة من أي نوع.. وإنما فيها، حياة الألوف... والملايين من الصغار التافهين"[3].

وكذلك من أبرز البواعث الدافعة إلى كتابة سيرته الذاتية المرموقة ثم نشرها في شكل كتاب مستقل الإلحاح الشديد والإصرار القوي من بعض أصدقائه وزملاءه وخاصة من صديقه الدكتور عبد الله مناع، كما يذكر الدكتور مناع بقوله " مع توقف الأستاذ عزيز عن استكمال قصة (عناقيد الحقد).. كنت أتحدث إليه بأنه آن الأوان لأن يكتب (مذكراته) السياسية بعد أن تهيب الكثيرون عن كتابتها حتى رحلوا.. خاصة وأنه كان قريبا طوال الأربعينات وما بعدها من الأحداث السياسية وتحولاتها، ومن صناع القرار

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 9

[2] المرجع نفسه، ص: 10

[3] المرجع نفسه، ص: 14/13

من الحكام والوزراء والسفراء.. وأنها ستشمل بالضرورة قصة حياته، وقد ساعدني على تحفيزه لكتابة (مذكراته) صديقنا المتشرك الأستاذ محمد سعيد طيب... ليستجيب الأستاذ عزيز، ويبدأ في تزويد (المجلة) بالفصول الأولى من الجزء الأول... من قصة حياته (حياتي مع الجوع والحب والحرب)، فكانت مفاجأتي.. إنها سيرة ذاتية واسعة التفاصيل.. بأكثر منها مذكرات سياسية تتخللها قصة حياته، إلا أنها قصة حياة تقوم على الأحداث السياسية التاريخية التي عاشها وعاشتها (المدينة المنورة).. والعالم بأسره مع نشوب الحرب العالمية الأولى وانطلاق الثورة العربية الكبرى (1916م).. بادئا فيها من لحظة تسليم فخري باشا (المدينة المنورة) للشريف وجيشه، وترحيله لأهلها خوفا عليهم.. إلى الشام على آخر رحلة لـ(سكة حديد الحجاز) إلى دمشق منها إلى حماة وحلب... قد استقبل القراء حلقات الجزء الأول.. بحفاوة أسعدته بقدر ما أسعدتني، وجعلته يكمل بقيتها مطمئنا إلى جدوى ما كان يفعله، لتواصل (إقرأ) نشر حلقات الجزء الثاني من (حياتي مع الجوع والحرب).. ليتوقف استكمال نشرها مع مغادرتي لـ (إقرأ) لتستكمله (يمامة) الدكتور فهد العرابي الحارثي، ولأعكف فيما بعد على طباعة الجزءين الأول والثاني.. في كتابين منفصلين في الوقت الذي أخذ الأستاذ عزيز ضياء يعد فيه الجزؤ الثالث والأخير منها.. بينما كانت صحته تتراجع أمام حالات الاستقساء المتزايدة التي أخذ يعانيها، والتي كان لا يخرج من المستشفى بسببها.. إلا ليعود إليها.. إلا أنه تحامل على نفسه وأكمل (الجزء الثالث) "[1].

ومن العوامل الدافعة التي تدفعه إلى الكتابة لسيرته الذاتية غلبة الأزمة النفسية وطبيعة الحوادث التي مر بها وخاصة قبل بلوغه العشرين من عمره حيثما كانت حياته مملوءة الحوادث المتنوعة والأهوال المختلفة الكثيرة لهذا نراه مذكرا تلك الحوادث المثيرة بقوله " بعد أن فرغت من كتابة القسم الأول من قصة (حياتي... مع الجوع... والحب والحرب). أتساءل ربما للمرة الألف، ماذا في هذه الحياة مما يستحق أن يكتب؟؟؟ وأجد

[1] الدكتور، عبد الله مناع، "عزيز ضيا: العلامة الفارقة.. أدبا وإبداعا وترجمة ...؟" المنشورة على شبكة الإنترنت: http://www.al-jazirah-.com/2016/20160101/cu1.htm

نفسي أميل إلى الاعتذار عن كتابة القسم الثاني فضلا عن الثالث... ليس لأني تعبت، أو سئمت، وإنما لأني أشفق على وقت القراء أن يضيع ويتبدد في ما لا حاجة لهم ولا فائدة، ولا حتى متعة في متابعته، ولأني، أيضا أرى كيف أصبحت ساحة الفكر عندنا، تزدحم بالعطاء يملأ هذا التردد الكبير من الصحف والمجلات، وكيف أصبح الكثير من هذا العطاء يغني الثقفين من القراء، عن متابعة قصص ينقصها وهج الجدة، وتفتقد دفق التطور ونبض الانعتاق من أسر الرسوب أو الغرق، في ركام المندثر من تراث وحكايا الأجيال... على أية حال... لا بد أن أطيل التفكير، والموازنة والتقدير، قبل أن أقدم على كتابة الأقسام أو الفصول الباقية، لتنطوي عليها صفحات كتاب...أو وهو الأرجح– لتظل حيث هي من قحف هذه الجمجمة، كما ظلت طوال سنين"[1].

وكذلك من أبرز الدوافع التي تحمله على الكتابة لسيرته الذاتية كشف الأستار عن بعض الحقائق الناصعة والحوادث الخطيرة التي وقعت أثناء الحرب العالمية الأولى بعيدا عن التوسع، وإبراز خبايا نفسه أمام الناس، لكي يتعاطف مع القاريء من خلال تجاربه الطويلة ونقلها للآخرين، وكذلك من بواعثه مشاركة الحوادث والأهوال التي وقعت معه خلال الثورة العربية الكبرى والحرب العالمية الأولى، حيث فقد أربعة أفراد من أسرته، ولم يبق أحدا منهم سوى عزيز ضياء ووالدته فحسب، كما يذكر متحدثا عن هذه الحوادث " أما عن الذي يستفيده القراء من قصة حياتي مع الجوع والحب والحرب، أو من هذه اللمحات عن أسباب وبواعث الحرب، التي كنت في طفولتي الأولى من الذين عاشوا لفحة من حريقها، فهو اكتشاف مجموعة من الحقائق، أو الأحداث التي تمخضت بطبيعة مسارها عن نتائج، كونت متغيرات خطيرة، بل بالغة الخطورة، ليس في بلادنا فقط، وإنما في جميع بلدان ودول العالم العربي"[2].

ومن اللافت للنظر وليست مبالغة في هذا القول أن هذا الكتاب يعتبر من أفضل الكتب التي كتبها عزيز ضياء في فن السيرة الذاتية، قد احتوى الكتاب على

---

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 147/146

[2] المرجع نفسه، ص: 156

ثلاثة أجزاء، ويمتاز الجزء الأول من هذه السيرة الذاتية من ناحية العبارة واللغة والأسلوب، ويمتاز الجزء الثاني والثالث أكثر أهمية من ناحية التربية والتثقيف العلمي والأدبي والثقافي والأخلاقي للجيل الجديد، ويستحق أن يعد من أهم الكتب في الآداب العالمية الحية، والكتاب قدم المؤلف فيه عن مختلف جوانب من مراحل حياته الشخصية وسيرته الفكرية والعلمية والعملية التي تبدأ بالبيئة التي ولد فيها بالإضافة إلى دراسته وتعليمه والمناصب والوظائف التي تقلدها خلال شبابه، وزوج والدته وولادة أخته الصغيرة وأحوال أسرته وأحزانه وآلامه ودراسته العلمية والفكرية التي حققها ونشرها عابرا أثناء ذلك أجواء التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمع العربي السعودي، ثم مراحل الإحالة على المعاش والمرض والجوع والفقر والخوف والعذاب والموت، وكل ذلك في أسلوب علمي مبسط مشرق خال من أي نوع من الحشو والتعقيد اللفظي والمعنوي، فيمكننا القول إن هذا الكتاب خير كتاب ومرجع تاريخي من شاهد عيان للحرب العالمية الأولى على العموم والثورة العربية الكبرى من البداية إلى النهاية على الخصوص، وما تبعها من نتائج وتغيرات متعددة، وهذه هي لمحات ولحظات لا نستطيع أن نطلع عليها بدون القراءة والمطالعة لهذا الكتاب الرائع.

الفصل الثالث

كتاب "حياتي مع الجوع والحب والحرب": دراسة تحليلية من حيث الموضوعات

الموضوعات السياسية:

يشتمل الكتاب المسمى بـ "حياتي مع الجوع والحب والحرب" على موضوعات تاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وغيرها من الموضوعات الأخرى المعاصرة، يغطي الكتاب الفترة من أواخر العهد العثماني والشريفي والسعودي في المدينة المنورة، حيث رتب عزيز ضياء قضايا عديدة وموضوعات متنوعة من هذه السيرة الذاتية الضخمة حسب ترتيب وقوعها خلال الحصار للمدينة المنورة والحرب العالمية الأولى. ومما لا يختلف فيه اثنان أن الكاتب قد اقتصر في سيرته الذاتية على أحداث حياته الشخصية الأولى ابتداء من سن الرابعة إلى بلوغه العشرين من عمره، لأنه يرى أن في تلك المرحلة من حياته قبل العشرين ما يمكن أن توجد فيه عناصر قصص لا قصة واحدة كما يقول " لكن في الواقع أني، بعد هذه الأعوام الطويلة، مازلت أرى أن في حياتي قبل العشرين ما يمكن أن يملأ فصولا طويلة... أو ما يمكن أن أجد فيه عناصر قصص لا قصة واحدة "[1].

ومن خلال الدراسة العميقة تبدو لنا أن كتاب " حياتي مع الجوع والحب الحرب " خير كتاب ومرجع تاريخي للحرب العالمية الأولى ونذرها، وأن المؤلف قد عرض فيه تجارب حياته المرة التي مر بها في مراحل حياته الفنية وأسفاره داخل المملكة العربية السعودية وخارجها، وفتحت عيناه على أهوال الحرب العالمية الأولى المتغيرة ونذرها حيث رأى وسمع مما يحدث خلالها في العالم كله ولا سيما في المملكة العربية السعودية والشام والبلاد المجاورة لها، وقد شاهد بعينيه " السفر برلك" الذي حدث مع أهالي المدينة المنورة والشام على حد سواء، حيث شعر الجوع الشديد ومعاناته منه، وكانت

[1] المرجع نفسه، ص: 11

المدينة المنورة حينذاك تحت حكم الدولة العثمانية بقيادة فخري باشا، وكانت مكة المكرمة تحت حكم الأشراف، وفي هذه الفترة من الزمان أرسل الشريف حسين بن علي إلى المدينة المنورة، وبعد عدة سنوات أعلن انطلاق الثورة العربية الكبرى ضد الحكم العثماني، وكان على رأسهم الشريف حسين بن علي، ومن خلال الثورة العربية عندما اشتد الحصار على المدينة المنورة فحكم فخري باشا بتهجير أهالي المدينة المنورة إلى الشام والعراق والأردن وفلسطين وغيرها من البلاد المجاورة التي لا تزال خاضعة على السلطنة العثمانية.

وكانت أسرة الشيخ عزيز ضياء بين عدد كبير من أبناء المدينة المنورة الذين هجرهم فخري باشا (والي العثمانيين على المدينة المنورة) إلى الشام وإلى عدة مناطق أخرى، وهناك عانت أسرته مع الأسر الأخرى حياة قاسية الجوع والبرد والفقر والبؤس والحزن والألم والخوف والعذاب، وقد شاهد في الشام وسمع أهوال الحرب العالمية الأولى وآثارها، ومع نهاية الحرب العالمية الأولى قد عاد مباشرة إلى المدينة المنورة بينما قد فقد أربعة أفراد من أسرته، ولم يبق سوى عزيز ضياء وأمه الحنون، وعندما عاد إلى المدينة المنورة فوجد منزله فارغا وقد سرق منه كل شيء من الأشياء، وقد شاهد وسمع مما تركت هذه الحرب على مجتمع الحجاز بصورة عامة ومجتمع المدينة المنورة بصورة خاصة. كما يذكر ما تعرضت له أسرته خلال الشتات في الشام من مصائب ومشاكل وفواجع وأزمات، حيث فتكت الأمراض المنتشرة في زمن الحرب ببعض أفراد أسرته كما يقول واصفا عنها " حين أذكر اللحظات من ذلك الفجر الآخر الذي شهدناه– أمي وأنا– وقد بلغت بنا القافلة، ما كان يسمى (الإستاسيون) في أعلى الغنبرية من المدينة المنورة... كنت أسمع وأشعر بصوت أمي وهي تجهش بالبكاء، ثم ترجو الجمّال أن يقف، وأن ينيخ الجمل، وأن يملأ لها الإبريق الصغير من القربة ماء... لأنها تريد أن تصلي الفجر... كان الجمّال كريماً... استجاب لطلبها فأخرج الجمل الذي نركبه عن مكانه من القافلة، وتنحّى به جانباً قريباً من جدار المسجد– وهو المسجد نفسه القائم في الموقع حتى اليوم– ثم أناخه، وأعانها بأن حملني، وأوقفني على

الأرض، توضَّأت ثم غسلت لي وجهي... كان الماء بادراً جداً... وقالت لي: هيا سوي... زي ما تشوفني أسوي... فاهم؟؟؟ ثم اتجهت إلى القبلة... وقبل أن تدخل في الصلاة... سجدت وقد رفعت (البيشة) عن وجهها... ورأيتها تلعق التراب مرة... ثم ترفع رأسها... ثم تعود، وتلعق التراب مرة أخرى... ثم... للمرة الثالثة... وتابعتها وفعلت كما رأيتها تفعل، عاودتها نوبة البكاء بعد الصلاة... وركبنا الجمل... ولحقنا بالقافلة، والجمَّال يسألها، أين تريد أن يذهب بها... قالت وصوتها يختنق بالبكاء: الساحة يا عم... عند زقاق القفل"[1].

سجل المؤلف وقائعها وأحداثها كلها بالتفصيل مذكرا أحداثها الرهيبة التي حلت بالأسرة، وربطها بالإطار التاريخي والوضع السياسي الذي واكب تلك الأحداث المفزعة. واعتمد الكاتب ولا سيما في الجزءين الأول والثاني ترتيب الفصول بحسب القضايا والموضوعات بحيث قد اختار جملة من الجمل، وحدثا من الأحداث المعينة من مضمون كل فصل من الفصول، وفي كل الأجزاء من هذه السيرة كانت تفاصيل حياة الكاتب الأسرية والاجتماعية والوظيفية والثقافية بالمدينة المنورة محط اهتمامه، ففصل في ذكر العديد من العادات والتقاليد الاجتماعية والتعليمية في المدينة المنورة خلال مرحلة من حياته، وكذلك استوعب الكاتب في هذه السيرة الذاتية إرهاصات تلك الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى والوضع السياسي للخلافة العثمانية، وبدايات تمزق كيانها السياسي ودخولها مرحلة الهزال والمرض والجوع والعذاب كما يذكر قائلا : " ولعمري... ماذا أخطر وأبعد أثرا من أن تمّحى من الوجود إمبراطورية كانت تسمى (الخلافة العثمانية)، تحكم من الآستانة على ضفاف البوسفور والدردنيل شعوباً تنتشر على مساحات من الأرض، من حدود النمسا، إلى مشارف المحيط الأطلنطي، ومن هذه الأرض بامتدادها وترامیها شرقاً وغرباً... وشمالاً وجنوباً أراضي (الحجاز)، أو هي أراضي الحرمين الشريفين... مكة المكرمة والمدينة المنورة...تمّحى من الوجود، في تلك

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 145.

الحرب العالمية، لتظهر على نفس المساحة دول ما أكثرها عدداً ومنها الدولة التي ظهرت في الحجاز"[1].

وكذلك شاهد الشيخ عزيز ضياء وسمع مما حدث في فترة ظهور الملك عبد العزيز على ساحة الأحداث في الجزيرة العربية وتوحيده لأجزائها وانعكاسات ذلك على المجتمع في المملكة العربية السعودية، لذلك حينما نبدأ بمطالعة هذا الكتاب نجد أنه يعد وثيقة تاريخية مهمة من شاهد أعيان عاش في تلك الفترة من الزمان، وقد شاهد بعينيه جميع آثارها وانعكاساتها على المجتمعات العربية كلها، يسرد لنا في هذا الكتاب حياته الشخصية التي مر بها في المدينة المنورة والشام بلغة بسيطة جميلة، ويقدم لنا مرحلة من التاريخ بأسلوب رائع مما يمتاز بالفصاحة والبلاغة.

لو قمنا بإلقاء نظرة خاطفة على هذه السيرة لوجدنا أن هذه السيرة هي قصة حياة الشيخ عزيز ضياء وأفراد أسرته وعائلته مع الجوع والحب والحرب والمرض والحزن والتهجير ومعاناتهم مع ويلات الحرب العالمية الأولى وغيرها، وكذلك هي سيرة قصة المدينة المنورة مع (السفر برلك)، وقصة سقوط الرجل المريض الذي عانى مشكلات متنوعة، وثورة الأعراب ضد تتريكهم قسرا، وإن في هذه السيرة أحاديث مفصلة ومطولة عن الآثار التي قد تركتها الحرب العالمية على المجتمع الشامي بشكل عام والمجتمع الحجازي والمدني بشكل خاص، حينما قد انتشر الجوع الشديد في عدد كثير من مدن الشام وفلسطين والأردن والعراق والكويت نتيجة شح الموارد وانقطاع الجراية التي كانت توزع على هؤلاء المهاجرين الذين قد هجرهم فخري باشا إليها فأصبح الناس يتسابقون في الشوارع والأزقة ولا سيما في مدينة حلب وحماة باحثين عن كسرة خبز ولقمة أكل وحبة فاكهة عطنة، وكان الناس الفقراء لم يزالوا يموتون على الشوارع والمساجد من أجل الجوع والفقر والعذاب كما يحكي لنا المؤلف متحدثا عنها بشيء من التفصيل كقوله " كان الناس، جميعهم، وعلى الخصوص المهاجرين، ونحن منهم... جميعهم فقراء... والذين... كانوا يموتون جياعا أو من الجوع في الشوارع وفي المساجد وفي الطرقات،

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 156

جميعهم من هؤلاء الفقراء، ثم... جاء اليوم الذي أوشك أن ينفد ما بيدها من تلك النقود... وسمعتها تتحدث مع أم شفيقة، عن شيء قالت أمي إنهم يسمونه في المدينة (منسج) وأنها تعرف التطريز عليه، وسمعت أم شفيقة تتهلل مسرورة "[1].

ذكر الشيخ عزيز ضياء في هذه السيرة تلك الأيام القاسية التي تعرض فيها الإنسان من مصائب وكوارث كما يذكر مذكرا عنها قائلا " إنه الجوع... فقد انقطع عنا حتى ذلك الخبز الأسود من الشعير مخلوطا بما أذكر أنه يسمى (الكرسنة) واستطعت أن أدرك في ما بعد أن ما بقي من الدولة العثمانية في حلب، في تلك الأيام هو فلول الجيش، الذي كان يتراجع أمام زحف العرب القوات البريطانية، ولكنه التراجع المحسوب، والعنيد في الوقت نفسه، بحيث كان غياب القصف والانفجارات، يعني تراجع القوات المهاجمة، أو اندحارها في وجه الصمود فترة تصل أحيانا إلى أسبوع أو أكثر، ومن هنا، لم يعد في وسع هذه البقية الباقية من أجهزة الدولة في حلب، أن تواصل تزويد الذين هجرتهم من المدينة، وربما من غيرها من المدن التي حاصرتها القوات المهاجمة في هذه الحرب، بما ظلت تزودهم به من الأغذية التي تحفظ لهم الرمق، كان الجوع شيئا، لا أزال أقول حتى اليوم، إنه أخطر ما يتعرض له الإنسان من مصائب وكوارث... إذ ما أشد ما كان يعانيه جدي، ومعه أمي من آلام، وعذاب، حين يجدان نفسيهما عاجزين تماما عن أن يؤمنا حتى هذا الخبز، ليس لهما، وإنما لي أنا، في المرحلة التي بدأت أشفي فيها من التيفوس..."[2].

وكذلك عندما عم الجوع واشتد في الشام خلال التهجير بينما لم يوجد عند عامة الناس أي شيء من الأشياء للأكل والشرب حتى اضطروا أن يأكلوا الحمير الميتة والخيل التي ماتت بسبب الجوع على الشوارع والأزقة، كما يذكر معبرا عن انطباعاته وخواطره مما رأى وسمع كقوله " سمعت يا فاطمة يا بنتي، الناس، أكلوا الحمير الميتة... والخيل اللي ماتت من الجوع... وبعدين... تدري ايش أكلوا كمان؟؟؟ يا بنتي،

---

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 133

[2] المرجع نفسه، ص: 105/104

أكلوا الكلاب... والبساس...وبعدين...قولوا يالطيف... بعدين فيه ناس وصل بهم الحال، أنهم كانوا يندروا الأموات اللي اندفنوا جديد... يندروهم وياكلوهم... أيوه يابنتي... أكلوا الأموات... ومين يدري يمكن صحيح اللي سمعناه في الشام، فيه ناس والعياذ بالله، أكلوا بزورتهم... يعنى كان لازم يموتوا من الجوع... وكان لازم يلتقوهم مرميين في الأزقة، ويشيلوهم ويدفنوهم... وما هو في البقيع... لا... أنا سمعت أنهم كانوا يحفروا لهم في قبا وقربان وحتى في العيون... ويدفنونهم كل خمسة... وكل عشرة مع بعض... يالطيف... قولوا يا لطيف... هيا نقرأ على أرواحهم الفاتحة "[1].

وكذلك لم تكن الشؤون الاجتماعية مختلفة في المدينة المنورة خلال الثورة العربية الكبرى، وكانت فكرة فخري باشا جعلت المدينة المنورة منطقة عسكرية خالية من السكان والمواطنين، ويكون الطعام والشرب وما فيها للجنود والأفواج، فلما تم تهجير أبناء المدينة المنورة إلى البلاد الأخرى أصبح الحرم خاليا تماما من الناس، وعندما قد انتشر الجوع واشتد في المدينة المنورة فبدأ الناس يأكلون الحمير الميتة والبساس والكلاب والقطط والجيف من الخيل والحمير والخيول التي ماتت في الشوارع والأزقة من المدينة المنورة، يذكر عزيز ضياء مصورا تلك الصورة بقوله " قال الجمال: الناس في المدينة، أكلوا الحمير الميتة... و(البساس) والكلاب... وقالوا إنهم أكلوا الأموات منهم كمان... ولا أنسى أن كلام الجمال، الذي كان يرفع يديه شكرا لله على أنه لم يدخل داخل أسوار المدينة... كان في (البر)... وكان يقوم بنقل الماء(بالقرب) من عيون الصفرا والحمرا... لجنود الباشا... فيعطونه علب اللحم و(القنيطة) التي كان يتمتع بأكلها مع أمه وأخته وزوجته وأولاده... "[2].

وكذلك غادر أكثر من ثمانين ألف شخص من الأشخاص المدينة المنورة، ولم يبق إلا مئات فقط، وبقي الحرم الشريف خاليا تماما، وبدأت المساعدة والمعونة والمشروبات تقل، وقد بدأت الأمور لاتزال تنشر بين أبناء المدينة المنورة، وبدأت

[1] المرجع نفسه، ص: 283/282

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 83

المأسات الكبرى بين الشعب العربي، كما بدأت الحيوانات والقطط والخيول والبغال تؤكل في أنحاء المدينة، بل توصل بهم الحال إلى حد أنهم جعلوا يأكلون الميتة والجثث، وصار الناس يلاحقون ويجرون على الخروج من المدينة المنورة، ومن الذي أراد أن يشتري حوائجه الضرورية له من السوق يؤخذ جبرا ويودع ويرحل خارج المدينة المنورة كما يقول مصورا تلك المراحل من الجوع الشديد " ثم عن الجوع... الذي اضطر الناس معه في المدينة أن يأكلوا حتى الكلاب والقطط... والجيف من الخيل والحمير... أما كيف لم تمت هي بالجوع كما مات المئات والألوف، فلأنها عملت في خدمة ضابط... غادر المدينة مع فخري باشا بعد التسليم "[1].

ومما يجدر بالذكر أن الفقراء كانوا لا يأكلون الكلاب والقطط والبغال والميتة والجيف من الخيل والحمير فحسب بل أن هناك أخبارا طازجة تقول إنهم كانوا يأكلون لحوم أطفالهم، ولحوم البغال الميتة، وقد أكد على ذلك كلمات عزيز ضياء إذ يقول مصورا تلك الحوادث المثيرة " ذلك الجوع الذي جعلهم يأكلون لحوم الخيل والبغال والحمير التي تنفق من الجوع... بل ويأكلون لحوم القطط والكلاب... ولا استبعد صحة أخبار قالت إن بعض الجياع، قد أكلوا لحوم أطفالهم "[2].

وكذلك من أجل شدة الحصار وعدم التأمين عم الجوع وانتشر الفقر بين الناس العرب، وعمت الفوضى والاضطراب بين الجنود والقوات العربية أيضا، وبدأ الناس يتقاتلون فيما بنيهم على أمر تافه، ولم يكن فيهم إخلاص كامل، ولم تكن في قلوبهم الصافية ثقة على الله تبارك تعالى الذي خلقهم في أحسن تقويم، بينما شاعت وانتشرت عملية السرقة في المجتمع العربي على نطاق أوسع، وقد بدأت تسرق آثاث البيوت الثمينة لمقتنياتها، ولم تكن بيوت عامة الناس خالية تماما عن عملية السرقة بينما قد تعرضت أسرة الشيخ عزيز ضياء للسرقة مرتين أولاهما: في مدينة حماة حيث قد جاء بعض اللصوص الأشرار وسطوا على جدران منزله الذي كان يقيم فيه، ويسكن بمرافقة

[1] المرجع نفسه، ص: 146
[2] المرجع نفسه، ص:163

بقية الأفراد من أسرته من أمه الحنون وجده، وقد سرقوا من أثمن الأشياء التي كانت موجودة في البيت حينذاك، إن هذه الأمور قد أثرت على قلبه تأثيرا للغاية حتى لن ينساها أبدا، كما يذكر محاكيا هذه القصة بقوله " لايزال في ذاكرتي عن حياتنا في ذلك البيت من مدينة حماة ليلة رعب وإرهاب لم أنساها قط، لا أذكر الكثير من التفاصيل... كان الظلام حالكا، عندما فتحت عيني وأنا أسمع صوت أمي إلى جانبي ولكنه يكاد لا يظهر... مكتوم، أو مبحوح أو مخنوق، وقد ضمتني إلى صدرها حيث أسست بأنها تضم عبد الغفور أيضا، وعلى مبعدة منا ربما في أحد أركان الغرفة التي تنام فيها، جلبة وحركة وتحطيم وتكسير وأصوات عدد من الرجال يتهامسون، وقد يرتفع صوت أحدهم ولكن سرعان ما يعود إلى الهمس... سمعت صوت أمي ينطلق في صيحة مخنوقة تقول:

- حرامي... حرامي، ياناس حرامي،

- ماكادت... حتى سمعت صوت خالتي في صيحة أخرى باكية مرتعشة، ومعها عدد من سعلاتها المعتادة تقول:

- حرامي... حرامي...

- وما هي إلا لحظات حتى تسلل إلى الغرفة ضوء مصباخ ثم ظهر داخلا من الباب جدي وفي يده فانوس صغير، وفي الأخرى الفأس التي يكسر بها أعواد الحطب التي كان قد اشتراها منذ أيام وقالت أمي إنها للتدفئة في أيام الشتاء، صاحت به أمي وخالتي معا:

- خليهم يا بويا.. خليهم ياخدو اللي يبغوه...

- لكن جدي بدا محتدما وكأنه لم يسمع، واندفع إلى حيث رأيت ثلاثة أشخاص.. إثنان يحملان ما وجدوه في الصناديق... والثالث صرخ في جدي وانطلق في اتجاهه، تبعه الاثنان بما يحملان.. وماكاد الثالث يرى جدي يرفع الفأس في وجوهم، حتى سمعت صوت طلقات مسدس ورأيت زجاج الفانوس يتطاير وينطقي.. ويغمرنا الظلام... ومع صوت الطلقات، وانطفاء الفانوس، صيحات أمي وخالتي

وصراخي أنا وعبد الغفور معا.. كل ذلك تم في لحظات... إذ سمعنا خطوات اللصوص وهم يتراكضون في الفناء الصغير... ثم يسود الصمت... ولم نر أثرا لجدي، نهضت أمي، ومعها خالتي تناديان بصوت يخنقه البكاء:

- أبويا... أنت فين يا بويا؟

- تركتانا.. أنا وعبد الغفور، وعبد المعين حيث نحن على الفراش واتجهتا نحو باب الغرفة وهما تبكيان وترددان:

- أبويا.. أنت فين يا بويا؟"[1].

والجدير بالذكر أن اللصوص ما سرقوا من أغلى الأشياء الموجودة في المنزل فقط بل أنهم قد سرقوا كل ما يملك جده من الأم من النقود الفضية والفلوس الذهبية ومن المجموعة من الشوك والسكاكين والملاعق بعلبتها الأنيقة وعلب الوثائق والحجج، كما سرقوا كل ما تملك خالته من الأقمشة الأنيقة والملابس الغالية من الحرير والقطنية الموشاة في الصنوق، ولم يتركوا في المنزل إلا السقف والأرض، إذ يذكر لنا قصته الكاملة التي وقعت معه في المنزل الذي كان يقيم مع أسرته كقوله " كان اللصوص قد أفرغوا الصندوق الخشبي الأسود الذي تحتفظ فيه أمي بأغلى مقتنياتها ومنها ما يملكه جدي من النقود الفضية والذهبية من كل ما فيه تقريبا ومن تلك المجموعة من الشوك والسكاكين والملاعق بعلبتها الأنيقة، وعلب الوثائق والحجج... كما فتحوا صندوقا آخر لخالتي، وأفرغوا أيضا كل ما فيه ومنه حليها، بل لم يتركوا حتى تلك الملابس الغالية من الحرير والقطيفة الموشاة... وملابس الأطفال وأحذيتهم التي كان جدي اشتراها لنا من الشام، كان جدي في صباح تلك الليلة، يقف على الصندوق الخشبي الأسود بينما تخرج أمي تلك الأشياء التافهة التي زهد فيها اللصوص، وتتناولها منها خالتي، لتعيد ترتيبها... كان عبد الغفور في هذه اللحظات يرتمي على صدر أمي يريد أن يرضع، ومع أنه قد تجاوز سن الرضاعة تقريبا، وأصبح يمشي ويتكلم بفصاحة ملحوظة، فإن

[1] المرجع نفسه، ص: 42/41

أمي لم تحاول فطامه... كانت تحبه وتكره وأن ترفض إرضاعه... وعبد المعين ذلك القادم الجديد كان هو الآخر يبكي وهو في فراشه على الأرض "[1].

وثانيهما: قد تعرضت أفراد أسرته للسرقة عندما قام بالعودة بمرافقة أمه الحنون من بلاد الشام إلى وطنه العزيز، فلما رجع إلى المدينة المنورة وجد منزله خاليا ومسروقا، وقد سرق منزله مع المنازل الأخرى المجاورة لها التي تركها أهلها خلال تهجيرهم من المدينة المنورة إلى الشام، لم يكن يوجد في منزله أي شيء من الأشياء الثمينة والملابس الغالية التي تركها أهله خلال السفر إلى السوريا يقول متحدثا عنها بشيء من التفصيل " الحديث أو الكلام يطول، عن الواقع الذي واجهناه، ونحن ندخل البيت وراء (منكشة) هذه... وباختصار شديد جدا... لم تجد أمي في البيت، من الأثاث أو غيره، إلا(مسندا) واحدا هو الذي بقي من جهاز عرسها... مسندا لا أزال أذكر أنه من قماش يسمي(الدومسك) الحريري... ومعه، (تلبيسه) مطرزة بالقصب... كانت (منكشة) تبكي هي أيضا وتشهق، سمعت أخبار الذين ماتوا... ولم يعودوا... ومن حكاياتها هي، عن موجودات البيت التي لم يبق منها شيء،(أنهم)- ولا أدري من هم؟ بعد خروج فخري باشا- دخلوا جميع البيوت، ونهبوا كل ما فيها... وكانت صادقة في كل ما ظلت تحكيه عن هذا النهب..."[2].

وفي هذه السيرة الذاتية ثمة أحاديث مطولة عن عملية السرقة لمقتنيات الأثاث الغالية يعني كيف سرق اللصوص الأشرار كل ما كان في البيت من أثاث ومقتنيات ثمينة ومن أمانة جده التي تركها في البيت قبل الذهاب إلى الشام؟ كما تحدث فيها كيف نهبوا الأموال التي كانت موجودة في المنازل الأخرى دون بيته؟ وكيف كسروا الدواليب والصناديق التي كانت توجد في منزله وفي المنازل الأخرى الواقعة بقربها؟ وكيف خافت أمه الحنون على أن يرى أحد من الأشخاص الجنيهات الذهبية والفضية التي وضعتها في المنزل آنذاك، لأن اللصوص الذين كانوا يفتشون المنازل، ويبحثون

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص:43

[2] المرجع نفسه، ص: 146

عن الأشياء ذا قيمة غالية ثمينة وينهبونها بعد خروج فخري باشا من المدينة المنورة، كانوا يكسرون الدواليب الكبيرة والصناديق وحتى الحديد القوي باحثين عن كسرة ذهب أو فضة كما يتحدث لنا مذكرا ذلك المشهد كقوله " قالت لي أمي في ما بعد، أنها حذرتها من أن يرى أحد هذه الجنيهات الذهب، لأن الذين نهبوا البيوت بعد خروج فخري باشا من المدينة، كانوا يكسرون الدواليب والصناديق " السيسم " الكبيرة وحتى الحديد، بحثا عن الذهب... بل إنهم قتلوا أحد عبيد بيت الصافي، لأنه قاومهم وهم يكسرون أحد الصناديق"[1].

ذات مرة غابت أمه من البيت لعدة أيام أو أسابيع، ولم تعلمي بأنها كيف وقعت حادثة السرقة؟ وكيف قام اللصوص الأغيار بعملية السرقة؟ وكيف سرقوا كل ما كان في البيوت من أثاث ثمينة ومقتنيات كبيرة؟ كما يحكي لنا متحدثا عن هذه القصة الطريفة بشيء من التفصيل كقوله " إنها كانت تغيب عن البيت أياما وأسابيع، ولذلك فهي لا تدري، أو على حد تعبير أمي– تقول إنها لا تدري– كيف قام اللصوص، بعد خروج الأتراك، بسرقة كل ما كان في البيت من أثاث ومقتنيات، فهي من وجهة نظر أمي، قد فرطت، أو "خانت" الأمانة... أمانة جدي الذي تركها في البيت، وترك عندها جميع المفاتيح... والذي أثار أمي، ظل يثيرها دائما حتى بعد سنين طويلة، من رحيل العجوز وموتها في أحد الأربطة، هو أنها كانت تعلل تصرفها بالأشباح التي كانت تراها في البيت بعد سفرنا، وليس في الظلام أو في الليل فقط، وإنما في النهار... هذا إضافة إلى ذلك"الساكن" الذي أخرجه الشيخ "الزاكور"... ولم تكتف بمزاعم وجود هذه الأشباح في البيت، بل زادت على ذلك أنها كانت تراها حتى في الزقاق... يخرجون من هذا البيت أو ذاك من البيوت المهجورة..."[2].

وكذلك تبدو لنا بعد دراسة عميقة لهذه السيرة أن الشيخ عزيز ضياء خصص في ثنايا هذه السيرة بعض الفصول عن الأسباب والدوافع التي أشعلت نيران الحرب

[1] المرجع نفسه، ص: 212
[2] المرجع نفسه، ص: 234

العالمية الأولى، ومن المعلوم للجميع أن ولي العهد النمساوي الأرشيدوق فرانسوا فرديناند وزوجته الكونتيسة صوفي، اللذان تم اغتيالهما معا في مدينة ساراجيفو في البوسنة على يد طالب يدعي جابر ييلوبرنسيب في عام 1914م، اتهمت النمسا مملكة صربيا بدبير الاغتيال وأعلنت الإمبراطورية النمساوية المجرية الحرب على صربيا وغزتها 28 يوليو عام 1914م، بدأ الغزو بأمر من الإمبراطور فرانس جوزيف الأول إمبراطور النمسا والمجر، وبعد ذلك قررت روسيا الدفاع عن صربيا فأعلنت عن حشدها لقواتها الغازية بالقرب من الحدود النمساوية المجرية.

ولا ريب فيه أن الإمبراطورية الروسية كانت حينذاك تحت حكم القصير نيكولاس الثاني من سلالة رومانوف، قررت ألمانيا دعم حليفها النمسا في تلك الحرب من الحروب ووجهت ألمانيا العديد من الإنذارات والتنبهات لروسيا لسحب أفواجها وجنودها من الحدود النمساوية المجرية، وكانت الإمبراطوية الألمانية في ذلك الوقت تحت حكم القيصر ويلهيلم الثاني، أعلنت ألمانيا الحرب على الإمبراطورية الروسية بعد عدم استجابة روسيا للإنذارات والتنبهات الألمانيا، وكانت دولة روس وإنجلترا و فرانسا تشكل تحالف وتعاون فيما بينهم، وفق معاهدة الوفاق الثلاثي، (Triple Alliance) لذلك أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا واتهمت حيادية بلجيكا ولكسبرج قبل أن تتجه لغزو الآراضي الفرنسية بسبب ذلك أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا ودخلت الحرب إلى جانب فرنسا وروسيا وغيرها من البلاد الأخرى.

ولكن كانت الإمبراطورية النمساوية مركزا لهذه الحرب العالمية الأولى، كما يحكي لنا عزيز ضياء متحدثا عن الحوادث المثيرة التي سببت الحرب بقوله " العلاقة باختصار شديد– وضروري في الوقت نفسه– هي (الأرشيدوق فرانسوا فرديناند)، ولي عهد إمبراطورية النمسا والمجر وزوجته (الكونتيسة صوفي)، اللذان تم اغتيالهما معا في مدينة (ساراجيفو)، وهي مدينة صغيرة على ضفة نهر ملياشكا، وهو نهر صغير يتكون من روافد تصب فيه من الجبال الشاهقة حول المنطقة، وقد اعتبرها الحكم العثماني طوال أربعة قرون العاصمة الإدارية لولاية (البوسنة)... ولكن حين سافر إليها

الأرشيدوق وزوجته واغتيلا فيها بيد(جافريلو نسيب) وهو طالب صربي، كانت مدينة (ساراجيفو) هذه حاضرة من كبرى حواضر مملكة الصرب، التي تتطلع امبراطورية النمسا والمجر إلى القفز عليها وضمها إلى التاج الامبراطوي، تعويضا عن خسائره في مناطق أخرى"[1].

ويطول الحديث عن أسباب اغتيال الأرشيدوق وزوجته في مدينة ساراجيفو، ولكن يمكن القول باختصار إن الحادث كان الشرارة التي فجرت، ليس برميل بارود فقط، وإنما ملايين الملايين من براميل البارود والدمار والفناء في العالم، من أقصاه إلى أقصاه، ومنه تركيا العثمانية، ومعها العالم العربي على امتداد الرقعة التي كان يرفرف عليها علم الخلافة العثمانية من حدود تركيا الطبيعية، إلى مشارف المحيط الأطلنطي... كان اغتيال الأرشيدوق، وزوجته في ساراجيفو (وهي اليوم إحدى مدن يوغوسافيا) الحادث الذي فتح شهية امبراطور ألمانيا(غليوم الثاني) لتصفية حساباته، في البلقان، ومع روسيا، التي كانت ولعلها لا تزال العدو التقليدي لألمانيا... لأن امبراطور النمسا والمجر(والد الأرشيدوق الذي اغتيل في ساراجيفو) قد استنجد به، وكانت طبيعة العلاقة بين النمسا وألمانيا والمجر، تحتم أن يرحب القيصر الألماني، بالوقوف إلى جانب النمسا من دون تردد أو إبطاء...

ليس في هذه اللمحة عن حادث اغتيال الأرشيدوق وزوجته، الذي أشعل نيران الحرب العالمية، مجال لذكر التفاصيل الكثيرة التي ظلت تتلاحق، ليس فقط في منطقة الحادثة وإنما في أوروبا كلها، ومعها إنكلترا وروسيا، ولكن يمكن القول، إن دعم ألمانيا للنمسا، في إعلانها الحرب على صربيا، وإحساس بقية الدول الأوروبية بخطر انتصار المانيا على مصالحها الاستعمارية في العالم، وعلى مصالح وهيبة روسيا في البلقان من جهة وتطلعها إلى المياه الدافئة، عبر مضائق الدردنيل والبوسفور من جهة أخرى... خصوصا وأن فرنسا بالذات لم تنس، حرب السبعين (1870) التي انتصرت فيها ألمانيا انتصارها الساحق المهين بقيادة عبقري القيادة والتخطيط الحربي(بسمارك)... يمكن

[1] المرجع نفسه، ص: 151

القول إن ذلك كان من أهم- أو أهم- الأسباب التي أشعلت نيران تلك الحرب الضروس".[1]

وقد صور انعكاسات انتهاء الحرب العالمية الأولى على المجتمع العربي وخاصة المجتمع السوري، حيث قد انتشرت الأفراح والسرور، وعمت الرقصات الشعبية العربية، وكان الرجال الصغار والكبار يرقصون في الشوارع والطرق والأزقة الضيقة فرحانين ومسرورين بانتهاء الحرب العالمية الأولى كما يذكر لنا المؤلف مصورا تلك الأحداث المتناسية الكثيرة بقوله " مع أن زوج شفيقة قد رفض فرحا بانتهاء الحرب التي لا أدري لما سموها (سفر برلك) وقال إن الأسواق طافحة بالحنطة واللحم وكل شيء، فإنه قبل أن يغادرنا حرص على أن يحذر أم شفيقة، وابنتها الصبية (لطفية)، ومعهما أمي، أن (الدنيا ليست آمنة)، فلا بد من التأكد من إغلاق الباب بالمزلاج الكبير... والأفضل عدم الخروج إلى الشوارع والسبب هو كما قال: " لا أحد يدري، ماالذي سوف يحدث، وكيف سوف يكون تصرف الإنكليز والعرب، الذين بدأوا يدخلون حلب، والكبار منهم، قد دخلوا (السرايا) فعلا "[2].

ولما أعلنت ألمانيا بانتهاء الحرب فبدأ الناس والشيوخ الكبار والأطفال الصغار والنساء العربيات يرقصون الدبكة ويطلقون الرصاص فرحانين ومسرورين كما صور لنا متحدثا عن ذلك المشهد كقوله " مع أن أصوات الانفجارات، قد انقطعت، (السفر برلك) قد انتهى كما قال زوج شفيقة فقد ظللنا نسمع زخات من طلقات رصاص، وعلى الخصوص بعد الظهر من ذلك اليوم... كما ترامت إلى أسماعنا أصوات رجال يهزجو معا... قالت أم شفيقة إنهم الأهالي يرقصون (الدبكة) ويطلقون الرصاص (فرحانين) بانتهاء الحرب، ويبدو أن هذه الفرحة، أو الأفراح، تواصلت إلى الساعة التي استسلمت فيها للنوم، في حضن أمي، كما أصبحت عادتنا، منذ ارتفقنا تلك الغرفة في السطح من بيت (أبوداود) "[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص:152/151
[2] المرجع نفسه، ص: 135
[3] المرجع نفسه، ص: 136

وذكر المؤلف في ثنايا هذه السيرة الذاتية بعض الفصول عن حزب (تركيا الفتاة) الذي فجر ثورة العام 1908م، وتباين الاتجاهات السياسية فيها وصولا إلى الأحزاب العثمانية المتناخرة آنذاك، وقد فجر حزب الفتاة الثورة عام 1908م التي أسقطت السلطان عبد الحميد عن عرش الخلافة ليجلس عليه السلطان والحاكم محمد رشاد ويعيد الحياة إلى الدستور الذي عطّله عبد الحميد كما يحكي لنا قائلا " ذكرت حزم (تركيا الفتاة)، الذي فجَّر ثورة العام 1908م، وهي الثورة التي أسقطت السلطان عبد الحميد عن عرش الخلافة لتجلس عليه في عام 1909م، السلطان محمد رشاد... وتعيد إلى الحياة الدستور الذي عطله عبد الحميد وكان وضعه وقاد حركة إقراره في الإدارة التركية، ذلك الرجل الذي يسمونه (أبو الدستور) والمصلح السياسي الفريد في حياة الخلافة العثمانية، (مدحت باشا).. ومن المفارقات التي تتفجر رهبة وإرهابا، أن مدحت هذا، بلغ مرتبة (الصدر الأعظم) وهو المنصب الأعظم بعد السلطان أو الخليفة فعلا.. ومع ذلك فقد استطاع عبد الحميد أن ينفيه إلى (الطائف) في الحجاز حيث سجن في القلعة، ثم قتل (خنقا) في سجنه "[1].

و" أن ثورة (تركيا الفتاة) التي وقعت في عام 1908م، والتي أعلنت الدستور، والبرلمان أو (مجلس المبعوثان) وفيه حق شعب البوسنة والهرسك (وهو من رعايا الدولة العثمانية) في أن يمثل في هذا البرلمان... كان هذا في تقدير إمبراطورية النمسا، أن هؤلاء الأتراك، الذين سبق لهم أن دقوا أسوار النمسا مرة، والذين ظلوا يحكمون أراضي (صربيا) وشعبها طوال أربعة قرون متتالية، بل ويتاخمون بحكمهم (صربيا) النمسا من دون فاصل وحاجز طبيعي، ونظام الحكم عندهم متخلف كتخلفهم في الصناعة والثقافة وعلوم العصر، بحيث أصبحوا يوصفون بأنهم (الرجل المريض)... ما الذي يمكن أن تتمخض عنه الأحداث على المدى الطويل، حين يظهر عندهم حزب سمي نفسه (تركيا الفتاة) ...بدأ انتفاضته على التخلف، بإعلان الدستور الحكم النيابي؟؟ أقل ما يجب أن تتحسب له النمسا والمجر، هو هذا التطور فليس أقل من

[1] المرجع نفسه، ص: 157

الاستيلاء على (صربيا) كلها، لتظل الحاجز الطبيعي بين الامبراطورية، وبين الأتراك"[1].

وكذلك أنه تحدثنا عن دور (جمعية الاتحاد والترقي) التي لعبت ولا تزال تلعب دورا قياديا في سقوط الدولة العثمانية، كما يذكر لنا متحدثا عن ثلاثة رجال الذين قاموا بدور قيادي في هذه الثورة العربية الكبرى، كقوله " القصة تطول، وقد يمكن أن تختصر، في تصرفات ثلاثة رجال، هم قادة الثورة على السلطان عبد الحميد وهم الذين أسقطوه، وأجلسوا على عرشه السلطان محمد رشاد... ثلاثة هم الذين عرفوا، بقادة أو زعماء (حزب الاتحاد والترقي)... الذي رفع شعارات أو شعارا يسمعه العالم الإسلامي في تلك الأيام لأول مرة وهو (الحرية والعدالة والمساواة)... ولعلي أذكر أن الأطفال في حلب قبيل سقوطها في يد العرب كانوا يرددون نشيدا من كلماته (بالتركية)-: (حريت... عدالت... مساواة) هؤلاء الثلاثة هم (أنور وطلعت وجمال)... وكل منهم يحمل أو منحه السلطان لقب (باشا) ولعلها تعني رتبة اللواء أو الفريق في الجيش لأنهم كانوا عسكريين قبل كل شيء"[2].

ويقول المؤرخون ومنهم أتراك وإنكليز في مقدمتهم مؤلف آخر كتاب عن (أتاتورك) هو (لورد كينروس) الذي صدر في العام 1964... يقولون الكثير عن انحراف هؤلاء الثلاثة عن الأهداف التي أعلنتها ثورتهم، وعن المظالم والأخطاء التي انغمسوا في اقتراحها، وربما أقلها مظالمهم في سوريا ولبنان والمذابح التي مارسوها وإصدار الأحكام بها وتنفيذها شنقا، يعلن على رؤوس الأشهاد بتهم خيانة الدولة (العلية العثمانية)، وهي تهم كانوا يشهرون وثائق ومستندات إثباتها إلى جانب اعترافات تثبت عليهم ما اتهموا به فعلا، ولكن القضية كانت بعد ذلك أو قبله، مفهوم الخيانة من وجهة نظر الاتهام ومفهومها من وجهة نظر المتهمين بها... إذ كان المتهمون والمحكوم عليهم بالإعدام يقومون بالاتصال وربما التآمر أو التخطيط للتآمر، مع أعداء الدولة،

[1] المرجع نفسه، ص: 154

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 157

وهم– في تلك الأيام– الفرنسيون والإنكليز... هدف المتأمرون هو التخلص من الحكم العثماني، بمساعدة الدولتين الاستعماريتين، اللتين تخوضان غمار الحرب في مواجهة ألمانيا، بكل عنفوان قوتها العسكرية ومعها الدولة (العلية) التي ظلت توصف منذ أيام عبد الحميد بـ (الرجل المريض) الذي اتفق الحلفاء سرا وعلنا على ضرورة الإجهاز عليه لاقتسام تركته الكبيرة ومنها العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والحجاز واليمن وليبيا إلى جانب ولاياته في البلقان[1].

هذه حقيقة جلية لا تخفى على من له أدنى إلمام بتاريخ العالم بأن دولة البريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى شجعت العرب على القيام بثورة عربية ضد الدولة العثمانية، ووعدت الشريف حسين بن علي (يقال له أيضا شريف مكة) أمير مكة بإعلانه ملك على العرب، فبدأت الثورة العربية الكبرى في عام 1916م بإعلان الشريف حسين بن علي ضد العثمانيين بمساعدة ضابط لاستخبارات البريطانية أدوارد لورنس واستطاع أبناء الشريف السيطرة على الحجاز، ثم تقدم فيصل بن حسين نحو الشام، ووصل إلى دمشق، وفيما بعد أن الخلافة العثمانية قد لفظت آخر أنفاسها في اليوم الأول من شهر مارس/آذار العام 1924، وهو ذلك اليوم التاريخي الذي تمت فيه موافقة أعضاء الجمعية العمومية الوطنية في أنقره، كما يلقي المؤلف ضوءا ساطعا بقوله " إذا تذكرنا أن المدينة المنورة قد استسلمت بعد أن انسحب مصطفى كمال من موقعه مع بقايا الفيلق السابع بالقرب من مدينة حلب بعد اشتباك رهيب مع القوات البريطانية إلى موقع في اتجاه الجنوب في 25 أكتوبر العام 1918 من حيث استطاع أن يوقف تقدم القوات البريطانية وأن يحتفظ (بقطنا) كموقع قيادة ظل يسيطر على منطقة (انطاكيا)... وكانت تلك آخر معركة خاضتها القوات التركية في الأراضي العربية... إذا تذكرنا ذلك، فإننا نجد أن الخلافة العثمانية قد لفظت آخر أنفاسها في اليوم الأول من شهر مارس/آذار العام 1924، وهو ذلك اليوم التاريخي الذي تمت فيه موافقة أعضاء الجمعية العمومية الوطنية في أنقره، على إلغائها.. أي بعد ست سنوات

[1] المرجع نفسه، ص: 158

تقريبا من آخر معركة خاضتها القوات التركية على آخر قطعة من الأراضي العربية وهي مدينة حلب "[1].

والجدير بالذكر أن عزيز ضياء عبر عن خواطره وإنطباعاته في هذه السيرة الذاتية، وسجل فيها بشيء من التفصيل عن موقف فخري باشا (والي العثمانيين في المدينة المنورة من قبل العثمانيين)، كما سجل فيها بقدر من التفصيل عن موقف الشريف حسين بن علي، إذ يتحدث مقدما رأيه السديد من جهتين، الأول: من وجهة نظر الأتراك والثاني: من وجهة نظر العالم العربي، كقوله " من وجهة نظر الأتراك– وحتى اليوم– كان شريف مكة خائنا، ولو انتصروا في تلك الحرب لكان من الطبيعي أن يكون مصيره هو نفسه مصير الذين اتهموا بالخيانة وحكم عليهم بالإعدام الذي ينفذ شنقا وعلى ورؤس الأشهاد، ولكن من وجهة نظر العالم العربي، في تلك الفترة، كانت ثورة على الظلم الذي قال الشريف حسين في نداء جهه إلى (العرب): (إن الاتحاديين قد مارسوه عليه وهذا إلى جانب خروجهم على أحكام الدين، وإصرارهم على (قتل) اللغة العربية، وإفقار البلاد، ودخولهم هذه الحرب، وليس لهم فيها مصلحة أو فائدة... وإعلانهم الأحكام العرفية و(شنقهم) أحرار البلاد،لا لسبب إلا لمطالبتهم بالحكم اللامركزي (الاستقلال الذاتي) في بلادهم وترويعهم للناس، ونفيهم للأبرياء وسلبهم للأموال، وغير ذلك مما حمله على الثورة عليهم وقتالهم انتصارا للحق ودفاعا عن حقوق العرب)".[2]

وكذلك أنه يذكر لنا الشريف حسين الذي قد التقي بالإنجليز خائنا عن قومه كقوله " لا نحتاج، اليوم، أن نعيد إلى الأذهان، قصة اتصال الإنكليز بالشريف حسين بعد أن اكتشفوا الخلاف القائم بينه وبين الاتحاديين، ولا قصة الوعود الضخمة التي التزموا بها لضمان انحيازه إليهم، وانتفاضه على الأتراك.... لكن قد ينبغي أن نلقي نظرة خاطفة على ما يمكن أن يوصف بأنه حلم، إذا كان لم يتحقق، فلأنه لم يزد على

[1] المرجع نفسه، ص: 162
[2] المرجع نفسه، ص: 159

كونه حلما طموحا لم ير الإنكليز ما يمنع أن يصغوا إليه، وأن يقول مكماهون، إنه قد فهمه وبعث به إلى الحكومة الإنكليزية في لندن، كان الشريف حسين في هذا الحلم الذي بعث به إلى مكماهون يقول: (يطلب من الحكومة البريطانية أن توافق على مقترحاته، وهي أن تعترف باستقلال البلاد العربية من(مرسين) (أدنه) حتى الخليج العربي شمالا، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوبا باستثناء منطقة (عدن) التي تبقي كما هي، ومن البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى سيناء غربا... وأن (توافق) إنجلترا- أيضا على إعلان خليفة عربي للمسلمين "[1].

وفي هذه السيرة أحاديث مطولة عن بطولة وقوات فخري باشا في الدفاع عن المدينة المنورة، وموقفه وامتناعه عن تسليمها، واتخاذه الاحتياط اللازمة للوقوف في وجه الحصار الذي قامت بها القوات والأفواج العربية مما لا يكاد يوجد في مصدر تاريخي ذات وثيقة قوية إذ يقول مصرحا ذلك " ما أكثر القصص التي تصل إلى مستوى الأساطير عن بطولة فخري باشا وقواته في الدفاع عن المدينة المنورة وفي الصمود ليس في مواجهة القوات التي أصبحت في النهاية تطوق المدينة من جميع الجهات تقريبا وإنما في مواجهة الجوع مع انعدام الأغذية بأنواعها واستحالة الحصول عليها بعد أن شلت حركة القطارات بعمليات التخريب المتتالية والتي كم افتخر لورانس في كتابة (أعمدة الحكمة السبعة) بأنه الذي علم العرب كيف يستعلمون الديناميت لتفجيره"[2].

ويصور فيه المؤلف أوضاع المدينة المنورة اقتصاديا ونفسيا، ويصف الأوضاع التاريخية والسياسية للأشراف ،واستعدادات فخري باشا وحركاته التكتيكية، وطريقة إدارته لتلك الأحداث المثيرة الكثيرة إذ يقول مذكرا عن الأحوال التي مر بها عزيز ضياء وذلك قبل العشرين من عمره " وكان قد نقل مقر قيادته، إلى الحرم النبوي الشريف... ومعه

[1] المرجع نفسه، ص: 159
[2] المرجع نفسه، ص: 164/163

أركان حربه وكبار ضباطه، ونقل إلى الحرم، شحنات من الأسحلة الخفيفة، والقنابل اليدوية والديناميت وكميات كبيرة من الذخيرة، التي تكفي للمقاومة، ليس أياما، وإنما شهور بطولها، وكان في الحرم النبوي- على الحصوة، بئر ماء عذب، فلا خوف من الظمأ... أما الأكل أو الغداء، فقد نقل إلى الحرم أيضا كميات كان يدخرها من الأغذية المعلبة والخبز المجفف، تكفي لتموينه مع ضباطه وحاشيته الخاصة من ضباط الصف شهورا طويلة أيضا، وقد تسلح هو نفسه بمجموعة علقها في خصرة، وعلى صدره من القنابل اليدوية... وأمر ضباطه أن يتسلحوا مثله بهذه الأسحلة... ثم أعلن... بعد أن أغلق جميع أبواب الحرم، وقد زرع الطريق إلى كل منها بالألغام.. أنه لن يستسلم أبدا، وأنه سيقاوم كل من تحدثه نفسه بالاقتراب من أبواب الحرم... أو منه شخصيا، بهذه القنابل اليدوية ومعها أصابع الديناميت... وأنذر أيضا أنه قد طوق الحجرة النبوية نفسها بالمتفجرات ولن يتردد في تفجيرها، إذا ما وجد أن لا سبيل إلا ذلك السبيل"[1].

وعلل موقف فخري باشا وإصراره على عدم التسليم حتى بعد أن بلغته أخبار الهندنة وقرب سقوط الخلافة العثمانية بأمرين الأول: بأنه مجرد عناد وكبرياء واعتزاز بالنفس والثاني: هو أن المدينة المنورة مدينة فيها مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمسجد النبوي الشريف ثاني الحرمين الشريفين " فالاحتفاظ بها يرسخ في أذهان العالم الإسلامي أن الخلافة قائمة تؤدي واجبها في الدفاع عن الحرمين "[2]. والذي أكده الشيخ عزيز ضياء وغيره ممن عاصر تلك الفترة من الزمان أن فخري باشا قد رفض التسليم بعد صدور الأمر إليه وأصر على الاحتفاظ بالمدينة المنورة، حتى طال الحصار في المدينة المنورة، وانتشر الفقر والجوع بين أهالي المدينة المنورة، وقد عم الجوع وانتشر الفقر بين الجنود والقوات لفخري باشا، ورأى الضباط بأن هؤلاء الجنود كادوا يهلكون جوعا في المدينة المنورة، وأن فخري باشا سيظل على عناده وكبريائه واعتزاز على نفسه في عدم التسليم، فعمدو إلى إجباره على التسليم، كما يحكي لنا عزيز ضياء هذه

[1] المرجع نفسه، ص: 164
[2] المرجع نفسه، ص: 162

القصة المثيرة مصورا المشهد في هذه السيرة إذ يقول " الذين يقصون تلك القصة، لا يذكرون كم يوما، استمر اعتصام " الباشا " وضباطه على هذه الحالة، في الحرم النبوي الشريف... وأكثر ما يدهشهم، هو شخصيته القوية الرهيبة التي فرضت إرادتها– بكل ما فيها من أخطار– على أولئك الضباط الذين ظلوا تحت أمرته ورهن إشارته في الحرم لا يجرؤون على التقدم بأي اقتراح تشتم منه رائحة الرغبة في الخروج من الأزمنة الصاعقة الماحقة التي فرضها القائد بكل هذه الاحتياط، لكن أخيرا... في لحظات قبيل الفجر، وقد سرقه النوم، ربما دقائق قصيرة فقط، انقض عليه الكبار من أركان حربه... سمروا يديه في قبضات أيديهم، حيث يستحيل أن تصل إلى القنابل أو الديناميت في خاصرته وصدره... ودار ببصره في وجوهم... فأدرك أن لا فائدة في أي مقاومة من أي نوع... فهؤلاء أركان حربه... ولعله قال كلمة أو كلمتين تفيد أن لا حاجة بهم إلى العنف... ترك لهم تجريده من القنابل والمتفجرات "[1].

ويذكر لنا أبرز الشروط التي اشترطها فخري باشا من أجل التسليم مما فيه حماية لجنوده وقواته وللمرضى الذين كانوا في المستشفيات كقوله " أمرهم أن يتصرفوا في إجراءات التسليم، بشروطه التي ألزمهم بأن يتعهدوا بتنفيذها... ومن أهمها، ألا يتقدم أي جندي عربي نحو أسوار المدينة أو قلاعها، وأن تظل القوات المنتشرة على طول الطريق من المدينة إلى بئر درويش حيث تعسكر قوات الشريف عبد الله بن الشريف حسين... أن تظل في مواقعها، إلى أن يتم هو انطلاقه إلى موقع التسليم وهو بئر درويش مع أركان حربه وكبار ضباطه... وأن لا يؤخذ أحد منهم أسيرا، وإنما يخيرون في أن ينقلوا إلى تركيا، أو إلى أي جهة أخرى... ويسري نفس الشرط بالنسبة لبقية القوات في المدينة... أما المرضى في المستشفيات، فتلتزم القوات العربية بتأمين علاجهم ورعايتهم، بمعرفة الأطباء العاملين أصلا في هذه المستشفيات فإذا شفوا، فإن لهم أن يختاروا النقل إلى تركيا أو إلى أي بلد آخر من دون إرغام "[2].

---

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 165

[2] المرجع نفسه، ص: 165

ثم يقدم الشيخ عزيز ضياء أبرز الشروط الأخيرة التي قد اشترطها فخري باشا الذي كان صريحا في فرضه وطلبه وصادقا في قوله وعمله كقوله " لكن شرطا آخر، كان صريحا في فرضه وطلبه الالتزام بتنفيذه وعدم اللجوء إلى محاولة نقصه، وهو أنه قد جرد الحجرة النبوية في الحرم الشريف، من جميع الهدايا التي وجدها فيها، وأنه قد عبأها في صناديق، اشترط ألا يفتحها أحد من القوات العربية، وأن تظل تحت حيازته شخصيا، أينما يذهب، والتزم من جانبه أن يسلمها من دون أن ينقص منها شيء قل أو كثر، إلى المختصين في دار الخلافة في استانبول... قالوا... وقد دون، جميع هذه الهدايا في بيان دقيق ذيله بتوقيعه بالاستلام والمسؤولية، ومن صورتين احتفظ بإحداهما ودفع الأخرى إلى الشريف عبد الله عند التسليم"[1].

ويقول عنه المؤلف في هذه السيرة الذاتية بأنه كان من ضمن تلك المجوهرات التي كانت تعتبر من أهم الجواهر التي كانت تسمي " الكوكب الدري " وهو قطعة كبيرة من الماس، وأنه قد شاهده عن نفسه في متحف " توب كابي" في استامبول كما أورد قائلا " كان من هذه الهدايا جواهر نادرة، ولاتزال نادرة حتى اليوم، منها ما كان يسمي" الكوكب الدري"... وهو قطعة كبيرة من الماس، قيل إنها أكبر من جوهرة "الكوهينوز"الشهيرة في التاج البريطاني... وقد رأيتها شخصيا في متحف "توب كابي" في استامبول مما يؤكد أن الباشا العتيد العنيد، قد سلم كل قطعة من هذه الجواهر، إلى الجهة المختصة في دار الخلافة كما التزم وتعهد "[2].

عندما ندرس الأجزاء الثلاثة من هذه السيرة الذاتية فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة هو أن الشيخ عزيز ضياء لم يكتف على بيان قصة الحرب العالمية الأولى، وقصة حزب تركيا الفتاة، والثورة العربية الكبرى التي قام بها الشريف بن حسين علي ضد العثمانيين بل أنه ذكر الحوادث الكبرى التي شاهدها عزيز ضياء خلال حياته، ومن أبرزها ضم الملك عبد العزيز للحجاز والطائف والنجد، وما وقع من خلال ذلك من

[1] المرجع نفسه، ص: 165
[2] المرجع نفسه، ص: 166

أحداث كبيرة، وما تعرض فيها من مصائب وكوارث عظمى، وكذلك ذكر فيها بأن كيف أقبل معظم الناس إلى شراء ما يحتاجون إلى الحوائز الضرورية اليومية، إذ يقول مصورا انعكاسات تلك الصورة المدهشة المستغربة " لم يطل بنا الانتظار... فقد تسارعت حركة الجنود تبعد الكثيرين عن الوقوف في الطريق... ورأينا مجموعة أخرى من الجنود، ربما كانوا من جنود الباشا يدخلون في ثلاثة أو أربعة صفوف من باب الشامي وعلى أكتافهم أسلحتهم... ثم ما كادوا يدخلون، حتى رأينا الباشا في ملابسه العكسرية على حصان، وإلى جانبه الأمير الشاب في عباءته وعقاله على الشماغ على حصان آخر، وخلفهم عدد كبير من الفرسان والمشاة أدركنا أنهم جميعا رجال الأمير، وخلف هؤلاء فصيل م الجنود، ومر الموكب أمامنا... إلى الباب الذي يخرج منه إلى ساحة المناخة... وترامت إلى مسمعنا، همسات الناس الذين وقفوا يشهدونه... ومنها... الحمد لله ربنا يختار لنا ما فيه الخيرن المهم خلصنا من الحصار... من الخوف ليل ونهار الخ "[1].

الموضوعات الاجتماعية:

حينما نبدأ بمطالعة هذه السيرة الذاتية نجد أنها حملت في طياتها صورة للحياة الاجتماعية العامة مما كانت سائدة في مجتمع المدينة المنورة بصورة خاصة وفي مجتمع العديد من مدن الشام بصورة عامة خلال أواخر العهد العثماني وأوائل الحكم العربي السعودي، مما يجعل هذه السيرة الذاتية وثيقة تاريخية مهمة في دراسة الحياة الاجتماعية في هذه البيئة العربية السعودية والسورية خلال تلك الفترة من الزمان.

استوعبت هذه السيرة الذاتية العديد من مظاهر الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة بصورة خاصة وفي مكة المكرمة والحجاز والطائف وعدن بصورة عامة، تناول الشيخ عزيز ضياء عددا من تقاليده السائدة في مجتمع المدينة المنورة خاصة، حيث تحدث عن الجوع الشديد الذي قاساه في الثلاثينيات الهجرية من القرن الماضي إبان

[1] ضياء، عزيز، الأعمال الكاملة، الجزء الخامس، ص: 78

الحرب العالمية الأولى، وتحدث عن بعض المعتقدات والمفاهيم السائدة آنذاك في المجتمع المدني والمكي، كما اعتنى بوصف الأسواق والمساكن والمنازل والشوارع وأنواع الملابس الرجالية والنسائية المعروفة في تلك الحقبة من الزمان، وقدم صورة أمنية لمجالس النساء العربيات المسلمات وكيف كن يقضين أوقاتهن في البيوت والمنازل، كما يذكر لنا مسلطا الضوء على حفل زفاف إذ يقول " أيوة ياعزيز... وأنا ما نسيت كمان... (السناريّة) فضلت تغني وخالتك ناجية أسعدية، وهي التي كانت تدق العود... وواحدة جارية، بالطار (أبو شناشن) والبنات، كلهم فضلوا يرقصوا (الرجيعي)، الين قريب الصبح... وما وقفهم إلا سيدك لمّا صاح عليهم... هاديك الصيحة، اللي رجّت عضامنا كلنا... وليلتها بعد ماخرجوا الستات، دخل سيدك القاعة، ومسك شِيَس الحمّى كلها...، كان يبغا يكسرها، لكن لحقته خالة فاطمة جادة... أخدتها منو، وقالت له إنَّها هيّة بنفسها رايحة تكسرها، دي كانت شيش غالية... مكسيّة بالفضة من الهند"[1].

لو ألقينا نظرة عابرة على هذه السيرة الذاتية لوجدنا أن في ثنايا هذه السيرة أحاديث مطولة عن أنواع الأطعمة الغذائية المتنوعة والأشربة المختلفة التي كان يتناولها أبناء المدينة المنورة حينذاك مثل: الرز، والخبز المصنوع من دقيق القمح أو من خليط دقيق القمح والرز وغيرها من الأطعمة الأخرى، وكان الناس ربما يتناولون الغذاء والوجبات الثقيلة أقل من ثلاث مرات في طول اليوم، كما أنهم كانوا يتناولون الرز البائت الذي كان ممزوجا ومملوءا بالماء البارد والشرب، وهو الرز الذي بقي بعد تناول العشاء، ثم كان ألقي فيه الماء الطازج في وقت الليل ليبقى بدون فساد إلى الصباح، وفي الصباح يلقون فيه شيئا من الملح، وليأكلونه بكل شوق وحنين ورغبة رغيدة، كما أنهم كانوا يتناولون الحيسة التي كانت تصنع من معجون التمر ومهمس الدقيق بالسمن يذكر الشيخ عزيز ضياء مشيرا إلى هذه الأشياء الغذائية المستغربة بقوله " مالا يزال يذكرني بذلك الصباح " حتى اليوم " رائحة تلك الأكلة التي كانت تملأ أنفي ورئتي– وقد عرفت في ما بعد أنها (الحيسة)، تصنع من معجون التمر ومحمس الدقيق بالسمن...

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 185

وفي ذلك الصباح فقط عرفت أن التي تصنعها هي أمي، وأن الرجل العجوز الذي خفقني على قفاي، لأكف عن مناداتها ففم وأنا أناديها (أمي)، هو أبوها وجدي"[1].

وكان هناك بعض الناس الذين كانوا يتناولون الزمبيل الذي كان مشحونا بالمأكولات والمشروبات، ومنها الدقيق والسمن والسكر والتمر الذي يجعل منه الشعب العربي الحيسة كما يذكر لنا المؤلف متحدثا عنه كقوله " كان ذلك يعني أنها تواجه أزمة جعلتها تنسى كل شيء عن الأكل، رغم أن الزمبيل مشحون بالمأكولات، ومنها الدقيق والسمن وحتى السكر والتمر الذي تصنع منه الحيسة، كانت الشمس قد استقرت صفراء شاحبة، على أطراف " الجلا "... وكأن أمي قد لا حظتني وأنا أرفع رأسي وأرى الشمس... فرفعت هي أيضا رأسها، وقالت- فاتنا العصر، الشمس صفرت..."[2].

وكذلك نرى في هذه السيرة الكثير من أسماء الأطعمة والمأكولات والمشروبات والغذاء والأشياء الغذائية التي تعتبر من مظاهر الحياة الإنسانية مثل: الزنانة التي عبارة عن عصير الرمان الحامض والملح والفلفل الأسود كما يقول معبرا عن انطباعاته وخواطره عما رأى وشاهد في المدينة المنورة " من أغرب الأكلات التي كانت أم شفيقة تتفنن في ابتكارها، أكلة لا أزال أذكرها- ولعلي لا أكره أن أجدها وآكلها... اسمها (زنانة)... وهي عبارة عن عصير الرمان الحامض يضاف إليه الملح والفلفل الأسود، نغمس فيه الخبز ونأكله، في وجبتي الغداء والعشاء، وتعلل أمي الحرص على هذا النوع من الأغذية التافهة "[3]. والطعام الشاهي الذي كان يعم بين مجتمع العرب، هذا النوع من الطعام لا يتم تناوله يوميا بل يتم إعداده أحيانا أو في مناسبات خاصة، وكان يتناول أهالي المدينة المنورة بصورة خاصة وأهالي الحجاز بصورة عامة، وإن هذا النوع من الطعام الشاهي يقال له " التعتيمة " وهي نوع من أنواع الجبن والزيتون والمربي وهي تقدم على الخصوص في السهرات بديلا عن العشاء للضيوف الكرام الذين يدعون كما يذكر لنا عزيز ضياء بقوله " ثم تلك اللحظات التي قضيتها مع بدرية في المطبخ،

---

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 16

[2] المرجع نفسه، ص: 213

[3] المرجع نفسه، ص: 133

حيث نشجع منكشة على تجهيز الشاهي وما يسمى (التعتيمة) وهي ألوان من الجبن والزيتون والمربى و(الشريك أبو السمسم) ومع كل ذلك أطباق طافحة بالعنب... والرمان... والرطب... وهي تقدم في السهرات بديلا للعشاء، الذي جرت العادة أن يقدم للضيوف الذين يدعون... وليس للضيوف الذين يتزاورون من دون دعوة مسبقة... أو بحكم أنهم الجيران والأهل "[1].

ومن أهم المأكلات الشهية التي كانت توجد في سوق العرب بصورة عامة هي ما يسمى بـ " الجبن والخيار" وربما أن هذه الأشياء كانت توجد آنذاك، كما نجدها في الأسواق حاليا، يذكر ملقيا الضوء على هذه المأكلات الشهية الرغبية كقوله" وفي السوق، اشترى أرغفة من الخبز... وكمية من الجبن، والخيار... والطماطم... وقطعة من اللحم، وحمل السلة وعدنا إلى البيت "[2]. وكذلك توجد في أسواق المدينة الكثير من المأكلات التي كانت شهيرة بين الناس بأسماء مختلفة، منها ما يسميها بـ" المعرق أو محشي الباذنجان الأسود والكوسة " والجدير بالذكر أن المأكلات من هذا النوع كان يوزعها جد عزيز ضياء بقدر كاف بين كل فرد من أفراد أسرته كقوله " لم أفهم، شيئا مما يدور حولى، ولكن لم أغفل عن لون أرغفة الخبز التي لا أدري كيف كان، ومن أين يجيئنا بها جدي... عرفت أن عليه أن يذهب هو، أو أمي، أو هما معا، في وقت محدد في الصباح، ليعودا بهذه الأرغفة، ذات اللون الداكن، وفي السلة معها حبات من الطماطم، والخيار والخس... لم أعد أرى على المائدة التي نجتمع حولها، الحساء، أو (المعرق) أو محشي الباذنجان الأسود والكوسة... لم يكن أمامنا إلا أن نأكل ما يوضع أمامنا... فإذا حدث أن جاءت أمي أو خالتي من المطبخ، أحيانا بقدر حساء، ساخن، لا أعرف مم صنع، فإننا ننهمك، في تقطيع أو تفتيت الرغيف من الخبز الداكن، في هذا الحساء، ونلتهمه بشراهة، ونشعر بالشبع بعد أيام من الجوع، لا نتناول في كل

[1] المرجع نفسه، ص: 278
[2] المرجع نفسه، ص: 45

وجبة سوى الخبز، والطماطم أو الخيار، وقد نجد قطعة من الجبن، يوزعها علينا جدي بكثير من الحساب"[1].

وكذلك ذكر عزيز ضياء في هذه السيرة الذاتية عددا كثيرا من أنواع الخضار المعروضة مثل: الدبة، والمديني، والكرمب، والدوش، والفاصولية وما عداها كقوله " وفي سوق الخضرة استوقفتها أنواع الخضار المعروضة، ومنها علب خشب صغيرة ممتلئة بأنواع من الرطب، وأكوام من "الورد"، وأكوام أخرى من حزم النعناع المديني، والمغربي وتلك النبتة العطرية التي تعلمت في ما بعد أنّ اسمها "الدوش"، يعطربها الشاي كما يعطر بأوراق الورد والنعناع، استوقفتها المعروضات، فكانت تقف، تسأل عن سعر هذه أو تلك منها، وتلتفت إليّ أحيانا تخبرني، اسم كل منها، وهي تقول: لمّا أرسلك، تشتري... لا تنسى... هادي "الدبة المديني"... وهادي "الكرمب"... وهادا ورق العنب... وكمان هادا الورد... وهادا "الدوش"... وهادي الفاصولية.... الأخ "[2].

ونحن نراه أنه يذكر الطعام اللذيذ الشهي الطازج الذي كان يتناوله الشعب العربي وخاصة في الفطور مثل: البيض السلوق، وقطعة وافرة من الجبن البلدي، والزيتون، والخبز الصامولي، والشاي، والقهوة، إذ يقول " في صباح اليوم التالي كنا قد جهزنا أنفسنا للانتقال إلى القبان... أو كما قال المنديلي إلى (دار أبي سفيان)، وقبل أن نتناول فطورنا الذي نذهب لتناوله مجتمعين في عنبر من الخشب والورق المقوي، عرفنا في ما بعد أنه صناعة ألمانية- منذ عهد الدولة العثمانية- كان الفطور في العادة: البيض المسلوق وقطعة وافرة من الجبن البلدي والزيتون والخبز الصامولي والشاي يقوم بملء أكوابه من البراد مع السكر من إناء يحمله وهو يحرص على أن يكون وارفرا لا نحتاج إلى المزيد منه رجل سوري أقرب إلى الشيخوخة "[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص: 46

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول ص: 225

[3] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 261

ومن المأكلات الشعبية السائدة بين المجتمع العربي السعودي والمجتمع السوري هي ما تسمى بـ" الشريك والكشكوان " إذ يقول مذكرا عنه " كانت العادة المتبعة، أن توقظني من النوم، (أمي باجي) ... وتأخذني إلى مائدة الإفطار، حيث آكل نصيبي من (الشريك) والجبنة (الكشكوان)، وجرعات من الحليب الذي لا أدري لم لا أحبه- وحتى الآن- ومربى المشمش تصنعه أمي... أو(أمي باجي)... ولكن هذه العادة اختفت في صبيحة هذا اليوم الذي وجدت نفسي فيه على ذلك السرير الوثير..."[1]. وهناك إشارات خاصة إلى نوع من أنواع الخبز الخاص المصنوع من دقيق القمح أو من خليط دقيق القمح الذي يسمى بـ" التنوري" كما جاء في الكتاب " انقضت بضعة أيام، ونحن نحكم رتاج الزقاق، بالمزلاج الكبير ولا يفتح إلا لموفق الذي أخذ يتردد ليقضي حوائج حماته، وحوائجنا... ولكنه، في صباح أحد الأيام، جاء ومعه زوجته، وقد حمل سلة كبيرة، شحنها بالكثير من الأغذية، وعلى الخصوص أنواعا من الخبز، منها ذلك الذي يسمونه(تنوري) ثم اللحم والبرغل، والجبن وأنواعا من الخضار"[2].

ومن المواد الغذائية الرئيسية لمجتمع المدينة المنورة بشكل عام والحجاز بشكل خاص هي ما يسمى بـ" معجن والبخاري" المصنوع من قطع من معجن وقليل من اللحم الطازج، والآخر مصنوع من طبق حلو يصنع من طحين الرز والسكر والأسمر، ويطبخ هذا الغذاء الشهي في مناسبات خاصة كالعيد والزواج وإكرام الضيوف كقوله " قد لاحظت أن ألوان الأكل محدودة لا تزيد عن لونين أحدهما الرئيسي وهو حساء فيه قطع من (معجن) وقليل من اللحم والآخر طبق من الرز (البخاري)... وأمام كل منا طبقه الذي يقدمه لتغرف فيه ما يكفيه... إضافة إلى الملعقة والشوكة والسكين... يستعملها على الطريقة الإفرنجية التي كانت مألوفة عندي، ولكنها لم تكن مما اعتاده الناس..."[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص: 105

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 136

[3] ضياء، عزيز، الأعمال الكاملة، الجزء الخامس، ص: 86

ومن أهم المأكلات الشهية الرغيدة التي كانت مشهورة بين الناس في المملكة العربية السعودية وخارجها في الشام هي " الرز البخاري "، وكانت هذه الوجبة شهية ممتعة ومشبعة للغاية بالنسبة إلى الوجبات الأخرى يقول المؤلف واصفا هذا النوع من الوجبات الرغيدة " كانت وجبة الغداء هي (الرز البخاري) ... ولقد كانت شهية ممتعة إلى حد جعلنا نلتهمها بشراهة... من جانبي أنا، لم يكن في ذهني إلا أني قد وجدت وجبة مشبعة... ولكن الموقف بالنسبة إلى أمي كان مختلفا..."[1].

وكذلك نرى في هذه السيرة الذاتية أحاديث طويلة عن الألعاب المتنوعة التي كانت رائجة بين الأطفال الصغار، مثل " لعبة الكبت "، وأن هذه اللعبة تعتبر من أهم الألعاب شعبية وانتشارا، كقوله " مجموعة الأطفال الذين ألعب معهم، يملأون المنطقة ضجة، فقد كانوا يلعبون ما يسمى (الكبت)... كانت لعبة يمارسها أولئك الذين يكبرونني سنا، ولكني كنت أتمنى أن يسمحوا لي بالمشاركة فيها.. ولاأدري لم كانوا يصرون على أن أبتعد عنهم وأكتفي بـ(الفرجة) ومع الفرجة صيحات الإعجاب، والعجيب، أن رجالا من أعمار مختلفة كانوا يقفون يتفرجون، ويرفعون أصواتهم بهذه الصيحات"[2].

وحدثنا في سيرته الذاتية بشيء من التفصيل عن بعض أهم الألعاب الرياضية التي كانت سائدة في المجتمع العربي السعودي، وكان يزاولها السكان في تلك الفترة من الزمان منها " التزقير والكبت والكبوش"، وأما " الكبوش " فهي الألعاب المتداولة بين الأولاد الصغار، وهي العظام التي تأتي بين مفاصل أرجل الأغنام التي يجمعها الصبي ثم يختار الأكبر منها ويسمونه " البرسي" فيأتي اللاعب وزميله فيخطون دائرة على الأرض، ويرهن كل واحد منهم عددا من الكبوش بقدر الآخر، وهي اللعبة التي ربما كانت تلعب بين الثلاثة والأربعة من الأولاد الصغار بعد ما رسمت الدائرة على وجه الأرض، وأن الأطفال الصغار وخاصة الأطفال الصغار للمدينة كانوا مولعين ومغرمين

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول ص: 184

[2] المرجع نفسه، ص: 344

بهذا النوع من اللعب كثيرا جدا، وكانو يحبونها ويفضلونها على الألعاب الأخرى، إذ يقول واصفا اللعبة " لم يكن عجيبا، أو حتى محل ملاحظة منا نحن الأطفال، أننا أخذنا نتمنى أن تطول أيام هذه الحرب، لنستمع بكل ما أتاحته العطلة من الانصراف إلى اللعب في الشارع... وكانت أهم الألعاب التي برع فيها الأطفال، هي (التزقير...) و(الكبت)... أما الكبوش فقد تطورت، إذ لم يعد اللعب بها بين اثنين فقط، وإنما بين أكثر من ثلاثة وحتى أربعة... وذلك بأن نرسم الدائرة على الأرض، ونقف في اتجاه معين.. ثم يخرج كل منا الكبش أو الكبشين... يضعهما في القطر الذي يقسم الدائرة إلى قسمين ثم نبتعد عن الدائرة خطوات، ونبدأ تصويب (اليغل) إلى الصف من هذه الكبوش... فالذي يصاب ويتزحزح من مكانه بعيدا عن الصف يكون من حق الذي قام بالتصويب... أي هو المكسب، وله الحق أن يكرر التصويب ما دام قد كسب".[1]

ومن المعلوم أن كان هناك العديد من الألعاب الشهيرة التي كان لا يحبها الشيخ عزيز ضياء في أيامه الطفولة ومنها " لعبة الكبت" التي كان لا يحب أن يلعبها مع الأولاد الصغار الآخرين، وكذلك كان هناك أطفال آخرون لا يحبونها قط في أيام طفولتهم لأن القدمين والساقين كان يغرقان في التراب كما يذكر مصرحا ذلك كقوله " كان هذا اليوم، هو أول أيام هذه العطلة التي أغلقت معها أبواب المدرسة الراقية، ولم يخب ظني، إذ ما كدت أقف على باب البيت والتفت هنا وهناك، حتى رأيت عددا من أبناء الجيران، وبعضهم من زملاء المدرسة... مجتمعين، يتحاورون حول(الخط) الذي يرسمونه على الأرض حفرا خفيفا في التراب، للعبة (الكبت)... ولأني لم أكن من عشاق هذه اللعبة، وربما كنت أكرهها لأن قدمي، والساقين، يغرقان في التراب الذي يتصاعد أثناء المبارزة "[2].

وكانت هناك لعبة تقليدية أخرى معروفة بين عامة الناس وخاصة بين المدينة المنورة والحجاز، منها " لعبة القشاع"، والتي تعد من أهم الألعاب التقليدية في منطقة

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 171

[2] المرجع نفسه، ص: 161

الحجاز والمدينة المنورة ومكة المكرمة، وأنها كانت تعتبر خطيرة جدا بين الأطفال الصغار آنذاك، على الرغم من ذلك كان هناك أطفال يفضلونها على الألعاب الأخرى، ويقومون بلعبتها في أيام العطلة، ومن طريقة لعبتها أن يوضع سكين أوحجارة في ما يسمى بالمقلاع على وجه الأرض، ويقذف في وجوه المواجهين، وكان الأطفال الذين كانوا رغابا في لعبتها يستخدمون بعر الجمال بدل من السكاكين أو الحجارة، وكان المؤلف أيضا رغابا شديدا إلى اللعوبة منذ نعومة أظفاره كما يقول مصرحا " كنا نحن الأطفال والصبية قد أخذنا نألفه، فلا يوفقنا عن اللعب... ولكن الذي جد هو أننا أصبحنا نطور اللعب... وانصرف اهتمامنا إلى (القشاع) بين (الساحة) و(المناخة) وهناك لعبة أخرى مضحكة ولكنها هي التي نمارسها بإصرار... وهي القشاع بيننا نحن (أبناء الساحة)... كان أحد أبناء عائلة (البري) من أبناء الساحة هو الذي اقترحنا، أو (علمنا) كيف نمارسها... وهي نوع من القشاع أيضا، ولكن السلاح الذي نتقاشع به ليس الحجارة، أو العصي، والسكاكين، التي (يتقاشع بها الكبار) في المناخة... وإنما هي (بعر الجمال...)"[1]

ويقول مذكرا عن هذه الحكاية الطريفة التي رأها خلال حياته " تفصيل الحكاية يطول... ولكن أهم ما فيها أننا أصبحنا لا هم لنا إلا أن نجمع (بعر الجمال)... نضع البعرة في (المقلاع) نقذفه في وجوه الذين يواجهوننا باعتبارهم أعداء كما يقذفوننا هم، بنفس السلاح... والميدان هو (البرحة أمام السلطانية...) وفي هذه المرحلة كانت أختي قد أصبحت ترافقني، في هذه الاشتبكات... وإذ لم تكن تستطيع التعامل مع (المقلاع)، فقد كانت مهمتها أن تجمع أكبر قدر من (بعر الجمال) وتزودني به (بعرة وراء بعرة) أثناء القشاع... ثم تطورت المسألة إلى مرحلة المشاركة في (القشاع) بين أبناء الساحة والمناخة... فكانت مهمتها، أن تجمع كل ما تستطيع جمعه من الحجارة، قبل موعد القشاع بعد صلاة العصر... تجمعها في كومة، وتضع عليها مجموعة من أوراق البقدونس أو النعناع ليعرف الآخرون أنها تخصني... وكان موقعنا نحن الأطفال في

[1] ضياء، عزيز، الأعمال الكاملة، الجزء الخامس، ص: 75

سن العاشرة، أو أقل، هو مكاننا المختار(الحماطة) التي تشرف على المناخة وهي ساحة المعركة بين الطرفين ليس بالحجارة والمقلاع بل بالعصي الغليظة (المزقرة) التي تعلمنا أن اسمها (النبوت)... ولكل فريق من الفريقين شيخ أو أكثر من شيخ، يسمونه (المشكل) الذي يقود المعركة بمهارته في حركة النبوت وبراعته في النزال، الذي لا أن يصعق الخصم بضربة النبوت في (الرأس) وكثيرا ما تسيل الدماء وتملأ وجهه... ولكنه لا يخرج من المعركة... بل يستل من (حزامه) سكينا يهاجم بها الخصم، أو حتى مجموعة الخصوم من الفريق الآخر فإذا هجم بالسكين تتحول المعركة من قشاع بالنبابيت، إلى قشاع أو التحام بالسكاكين... فيسقط هذا، وذاك على الأرض... أو يهرب من يجد أنه لا سبيل إلا الهرب والخروج ووجهه مغمور بالدماء التي فجرتها الضربة بالنبوت في الرأس، أو الطعنة بالسكين في الوجه أو الكتف... وهنا يرتفع صوت الشيخ (المشكل) وقد يكون هو أيضا جريحا بحيث يسمعه الجميع (الدم مدفون... الدم مدفون) "[1].

وكذلك حدثنا في كتابه الشهير بعض الألعاب التقليدية التي كانت سائدة بين الناس منها " لعبة الطرنبة "،وهي اللعبة التي يلجأ إليها معظم الناس في أوقات الفراغ لممارسة هوايات أو ألعاب لتسلية أنفسهم، وخاصة الأجيال والشبان وكبار السن والشيوخ، وكان هناك عدد لا بأس به من الناس الذين كانوا يمارسون على لعبة الشطرنج، وبعضهم كانوا يمارسون على الطاولة، وكان الشيخ عزيز ضياء مولعا بهذا النوع من الألعاب الجديدة، وأنه كان يحبها ويفضلها على الألعاب الأخرى إذ يعبر عن عواطفه بقوله " كالعادة كانت " الطرنبة " هي لعبتي وكان عبد الغفور، يحفر حفرة في طين حوض الزهر... حين رأيته يستلقي على البلاط... ظننت أنه يلعب، فأسرعت انتهره، وأهيب به أن ينهض قبل أن يجيء جدي فيراه على هذا الوضع... ولكنه ما كاد

[1] المرجع نفسه، ص: 75

يحاول النهوض، حتى رأيته يتهالك، ويعود إلى الاستلقاء... أخذت يده في يدي... فإذا بي أجدها ساخنة..."[1].

وكذلك نرى في ثنايا هذه السيرة الذاتية إشارات إلى عدد كثير من أنواع الأزياء والملبوسات المختلفة التي كانت رائجة بين المجتمع العربي السعودي والسوري على حد سواء، ومن عادات عامة النساء لبس المحرمة للاحتجاب بها أو البيشة والجلباب والملاية، وهناك نوع من الجلباب يسمي الجامة، ولباس جامة مشهورة ومعروفة في مجتمع العربي السعودي، وكذلك مشهورة في بلدنا الهند، كما نرى في الهند أن النساء المسلمات يرتدن، وعندما يخرجن من بيوتهن يلقين عليهن الرداء أو الحجاب أو البرقع، كما نراه يقول مشيرا إلى عادات وتقاليد الملايا كقوله " رأيت فعلا على ضوء شعلة يرفعها أحدهم أكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص، بينهم إمرأتان، إحداهما في (الملاية) التي تشبه تلك التي ترتفقها أمي... والأخرى... والأخرى في ما عرفت مع الأيام أن اسمه (جامة) وهي حجاب المرأة المسلمة في الهند... حجاب له ما تدخل في أعلاه رأسها بالكامل، ثم ينسدل الباقي على جسمها بالكامل أيضا فلا سبيل إلى أن يرى أي مخلوق منها شعرة أو ظفرا "[2].

وكذلك نرى في هذه السيرة الذاتية الملابس التقليدية التي تختص بها، والنساء وخاصة الفتيات كن يلبسن " الجامة "، وهي نوع من الحجاب أو البرقع كما يذكر واصفا الحجاب بقوله " فإذا بـ(البيبي) تلتفت لأرى أنا وجهها لأول مرة... كانت عجوزا حادة السمرة وقد تلفعت بالحجاب الهندي الذي يسمونه (الجامة)... إلا وجهها الأسمر الذي أزاحت عنه ما يحجبه، وقد تناثر عليه شعرها متهدلا من الصدغين إلى العنق... كانت عيناها واسعتين جاحظتين، تحت حاجبين مقرونين بالغي الكثافة... ويبدو كأنها لم ترتح لوجود أمي إلى جانبها، ولا إلى نداءتها الهامسة المتكررة..."[3].

---

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 47

[2] المرجع نفسه، ص: 273

[3] المرجع نفسه، ص: 290

وهناك نوع آخر من الملبوسات والأقمشة التي كانت تقليدية ورائجة فيما بين الشعب العربي وهي التي يسماها " الجنفص "، وهي نوع خاص من الحرير، وهي التي كانت تعتبر من أثمن الأقمشة في المجتمع العربي آنذاك كقوله " هذا إلى جانب عدد من قطع الأقمشة الحرير والقطن... ومن الحرير ما كان يسمى (الجنفص) وهو من أغلى الأقمشة، ومثله المخمل... ولا أزال أذكر لون قطعة (الجنفص) تلك...كانت خضراء خضرة تميل إلى السواد، أعني اللون الأخضر الغامق، فإذا تحركت، تظهر عليها تموجات متباينة التفتح، والعمق...أما قطعة المخمل(القطيفة) فهي أيضا سمعت منها أنها غالية أيضا وقد اختارت لونا أحمر غامقا أيضا "[1].

وعندما ألقينا نظرة خاطفة على مجتمع العربي السعودي نجد أن المجتمع يلبس فيه الرجال وخاصة الشبان ثياب البفت واللاس والقرمسود، والأخيران من الثياب كانا يعدان من أهم الألبسة والأقمشة في تلك الحقبة من الزمان كما يقول متحدثا عن هذه الأقشمة " سرعان ما تجمعت أمامنا على المنضدة، أصناف كثيرة من السراويل والفنايل... اختارت منها أمي ستا من كل صنف... أما الثياب.. فقد جاءها بـ" البفته "... و" اللاس " و" القرمسود "... والأخيران أغلى أنواع أقمشة الرجال في تلك الأيام... وقبل أن تقرر أمي شيئا، أخذني العم اسماعيل في يده... ودخل بي وراء فتيرينة العرض.. ونادي رجلا عجوزا.. وراطنه أن يأخذ مقاسا لثوبي... وفهمنا أن" المغازة " مستعدة لبيع الأقمشة... وأن الخياط يفصلها، ويخيطها في أقل من يومين "[2]. وهناك نوع خاص من الأقمشة والثيابات التي كانت مروجة بين الرجال والنساء، وكانت هي الأقشمة التي يسماها بـ" الجبة والشاية " أما (الجبة) فتنسدل بلونها الأسود، أو البني، أو الأبيض أو حتى الأحمر على ما لعله كان يسمى (الشاية) التي تختلف أنواع أقمشتها بين حريرية كالغباني الحرير بألوانه المختلفة والأصفر أكثرها شيوعا، أو القرمسود، أو اللاس الخ..."[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص: 299

[2] المرجع نفسه، ص: 230

[3] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 26

وكذلك نرى في هذه السيرة الذاتية أن صاحبها ذكر لنا بشيء من التفصيل عن بعض الآداب والسلوكيات التي كانت سائدة بين ناس العرب، ومن آداب السلوك لم يكن الأولاد والأطفال الصغار جالسين مع الضيوف الذين كانوا يقدمون إلى بيوتهم عند وقت الغداء أو العشاء إلا بعد العاشرة من العمر، كان الأولاد الصغار لا يجوز لهم أن يجلسوا أمامهم إلا شاذا كما يقول " ولأعد إلى (آداب السلوك) التي قلت إن الذين يتعاونون على تلقينها إياي، إلى جانب أمي، مجموعة في مقدمتهم تلك العجوز السوداء: (أمي باجي) ومنهم (منكشفة) وهي تلك العجوز التي تركها جدّي في بيتنا في زقاق القفل، أمينة على موجوداته كلها يوم هجرتنا إلى الشام في ذلك "البابور" الذي شحن فيه "فخري باشا" أهل المدينة وهو يستعد لمواجهة الحرب، بينه من جانب، وبين الشريف والإنكليز من جانب آخر، وقد عدنا–أمي وأنا– فقط لا غير لنجد (منكشفة) هذه في البيت، وليس فيه من جميع ما كان فيه، إلا (مسندا) واحدا من الدومسك، من أثاث أمي في زواجها من أبي. ومن آداب السلوك هذه... أن الأولاد الصغار في سن ما قبل العاشرة، ممنوعة تماما من الجلوس مع الرجال، والمقصود بالرجال، هم الضيوف الذين يدعون للعشاء أو الغداء... وكان ضيوف عمي (زوج أمي)، رحمه الله، رجال من طبقة متميزة... منهم زملاؤه من أطباء المستشفى الذي يعمل فيه وكانوا يسمونه (المستشفى العسكري) لأنه كان مخصصا لعلاج العسكر، أي رجال الجيش من ضباط وجنود بمختلف الرتب، ومنهم أعيان من أهل المدينة الذين توثقت بينه وبينهم علاقات صداقة "[1].

ومن آداب السلوك أيضا الحرض على عدم ارتفاع الصوت عند الكلام، ومما يعاقب عليه الطفل، أو الصبي الصغير، أن يضع إصبعه في أنفه، أو أن ينكش أسنانه... فإذا جلس على الأرض، فلا بد أن تكون جلسته (ركبه ونص)... وهي جلسة ما زلت أتقنها حتى الآن– أما ما يجب الاهتمام به، فهو قص أظافر اليدين، فعيب كبير جدا، أن ترى أظافر الأصابع طويلة ومسودة بما اختزنته من التراب... فإذا

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 96

أدخلت مجلس الرجال مطلوبا لأداء مهمة أو لتقديم معلومة عن الكتاب مثلا، فلا بد أن تقبل أيدي الجالسين جميعا... والعجيب أن الرجال في تلك الأيام، كانوا لا يسحبون أيديهم... بل يتركون الطفل يقبلها وأحيانا (وجه وقفا) وأحيانا أخرى ترفع إلى الجبهة[1].

وكذلك حدثنا في هذه السيرة الذاتية بشيء من التفصيل عن بعض الآداب والسلوك التي كانت سائدة في كل مجلس من المجالس وخاصة في مجلس الرجال والشيوخ الكبار في المدينة أو القرية و" منها أن يأخذ كل ضيف مجلسه بحسب سنه، فالشيوخ لهم صدر المجلس ولا يجلس إلى جانبهم إلا من يكون في مثل سنهم حتى ولو لم يكن في هذا الصدر إلا شيخ واحد، فإذا بدأ الشيخ الحديث... كان على جميع الموجودين أن ينصتوا إليه، فإذا حدث أن بدا لأحدهم أن يقاطعه بكلمة فإن العيون تحملق والحواجب تقطب... فيضطر إلى التزام الصمت... إلى أن يطلب منه الشيخ أن يسمع منه ما يريد أن يعلق به، ومنها أن يل أن الذي يرتفق على رأسه العمامة (المدينة)، يلتزم بعدم خلعها إلى أن تنتهي السهرة.. ومنها أن يلتزم الأبناء في سن المراهقة مجلسهم بالقرب من باب الغرفة، مع الحرص على الصمت المطلق، وإنتظار طلب (الكبار) كوب ماء، أو التنبيه بأن يجيء (الشاهي) معطرا بالدوش أو النعناع أو النوامي وأحيانا (بالورد).. ثم هناك من الشيوخ- غالبا من يعرض مجاملة (النشوق) في علبة من الفضة- تعرض على الجار، فإذا أخذ منها حاجته يقدمها إلى من يليه، ثم تعاد إلى صاحبها مع تعليقات الإعجاب، ليس بالعلبة الفضة، وإنما بمادة النشوق... ومع الإعجاب الاستعلام عن مصدرها... ولا أتذكر الآن هذا المصدر ولكنه، في الغالب (مستورد) من المغرب أو إيران وربما من (أوروبا) كانت عادة استعمال هذا النشوق منتشرة في الكثير من بلدان العالم، وقد لا ننسى أن نابليون بونابرت كان يسرق علب النشوق التي يقدمها إليه ضيوفه للاستنشاق منها، وتبقى عبد ذلك (الشيشة) الي لم تكن تظهر كثيرا في مجالس السهرة، وإنما في مآدب الغداء أو العشاء الموسعة، وكانت مادة التدخين فيها هي (الحمى) وهو (التنباك) المستورد- إذا لم تخني

[1] المرجع نفسه، ص: 97

الذاكرة– من إيران ثم مادة أخرى لم أعد أسمع عن وجودها منذ زمن بعيد هي ما يسمى (الكيزرون)"[1].

إذا قمنا بالنظر والتحليل لهذه الفقرات المذكورة أعلاه اتضح لنا هذا الأمر بأن الرجال في مجالسهم كانوا يتناولون ويتدخنون الشيشة، وأن النساء العربيات المسلمات كن كالرجال والشيوخ، وكن يتدخن الشيشة أينما يردن إما سريا إذا كان الزوج موجودا في المنزل أو علنا إذا كان الزوج عاديا للتدخين، كما يحكي لنا الكاتب مذكرا القصة بقوله " من الطريف أن نذكر أن كثيرات من نساء تلك الأيام كن يدخن الشيشة أيضا، إما سرا إذا كان الزوج يمنع، وإما علنا إذا كان الزوج نفسه من الذين يدخنونها، هذا إلى جانب التباهي بجمال الشيشة التي قد تكون مطعمة ومزخرة بصفائح الفضة، ويكون (الرأس) الذي يستوعب الحمى والجمر) مما يستورد من الهند وهو يشبه رؤوس شيشة (الجراك) في هذه الأيام... أما (اللي)– ولا أعرف له اسما آخر فهو مستورد مع الشيشة من الهند، والفن في كسوته بمطرزات ذات ألوان من القطيفة أو غيرها، ومنتهى التباهي في الموقع الذي توضع فيه... إنه في أحد ركني الصدر في المجلس، وبطبيعة الحال، لا تكلف سيدة البيت نفسها (بتعمير الرأس) ورصف الجمر، فالجواري أو في حكمهن من الخادمات هن اللائي يقمن بخدمة الشيشة، بل عدد من الشيش للضيفات في سهرات (ليلة الجمعة) أو (قيلات) الأيام الأخرى"[2].

وكذلك تحدثنا عن صاحب السيرة الذاتية بكل صدق وأمانة مما رأى وشاهد بعينيه في تلك الفترة من الزمان كقوله " كان وقت الزيارة لا يزيد على الساعة تقريبا، أو هكذا كان يخيل إلي... كما كانت " البنت اللي قدي " سمراء أو قمحية أو لا أدري بماذا يوصف لونها... على أية حال لم تكن بيض شقراء كأمها... فهمت في ما بعد أنها شابهت أباها الدكتور ولكنها رقيقة، يغلب على محياها الابتسام... ومع أنها لا تجد فرصة للكلام مع الكبار " الهوانم " اللائي ينصرفن إلى الحديث وشرب القهوة، وتلك

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 324
[2] المرجع نفسه، ص: 325

التي تدخن بشراهة وإسراف، تكاد يدها اليسرى لا تخلو من السيجارة مشعلة تنفث دخانها بعد أن تستنشقه أو هي تسحبه عميقا إلى صدرها... مع ذلك فإنها- أعني البنت- تنتهز فرصة تظري إليها لتبتسم، ولو أنها كانت تعرف اللغة العربية، لما ترددت في التحدث إلي... تلك كانت رغبتها من دون شك، في كل مرة تلاقت فيها نظراتنا..."[1].

الموضوعات الاقتصادية:

وكذلك نرى أن هذه السيرة الذاتية حملت في طياتها للحياة الاقتصادية مما كانت سائدة في مجتمع المدينة المنورة ومجتمع الشام والبلاد المجاورة التي مازالت خاضعة على السلطنة العثمانية، ومما يحمل وثيقة تاريخية مهمة في دراسة الحياة الاقتصادية في هذه البيئة العربية، وعندما نلقي نظرة عابرة على هذه السيرة الذاتية وجدنا أن في ثنايا السيرة ثمة أحاديث مطولة عن مجيدي أو حميدي وهي من الفضة والواحدة منها ربما تساوي عددا من قطع النيكل أو النحاس التي كانت مروجة في تلك الفترة من الزمان يقول " قبل أن أنهض، سمعت نداءه الصارخ مرة أخرى، فنهضت ورحت راكضا... كان واقفا أمام حوض للزهر، وفي يده السلة التي يملأها بما يتسوقه كلما احتاج البيت إلى مواد التموين... ناولني السلة... وأدخل يده في جيب الصدر، وأخرج كيسا من الجلد... تحسه بين أصابعه.. ثم فتحه، وأخرج ما فيه من قطع النقود... لم تكن كثيرة... لعلها أربع أو خمس من هذه القطع التي عرفت فيما بعد أن القطعة منها تسمى (مجيدي... أو حميدي) وهي من الفضة، والواحدة منها تساوي عددا من قطع النيكل أو النحاس... أعاد القطع إلى الكيس، ثم إلى جيبه... ومشى أمامي إلى غرفته من دون أن يتكلم... لبس عمامته وجبته السوداء... وانطلقنا معا إلى الشارع..."[2].

وكذلك توجد في هذه السيرة إثبات وبراهين من الفلوس التي يسماها بـ" المتليك " والذي يقابل الهلله و" البيشليك " والذي ربما كان يساوي عددا من المتليك كما ذكر عزيز ضياء في هذه السيرة بأنه كيف جاء في جيب جده الأم عندما كان يحس الجوع

[1] المرجع نفسه، ص: 23

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص:44

يقول " حتى الجوع، لا بد أن أقول إننا قد ألفناه وتعايشنا معه... ومن حكايات أمي عن تلك الأيام أنها وجدت في جيب جدي رحمه الله وفي محفظته أكثر من عشرين مجيديا... من أنصاف وأرباع هذا المجيدي، إلى جانب كمية من قطع النقد النحاسية، منها ما يسمي (المتليك) وأظنه يقابل الهللة، و(البيشليك) وربما كان يساوي عددا من (المتليك)... تعتقد أنه ادخرها من عمه في (حفر الأختام) لأنه بعد أن سطا اللصوص علينا في حماة، لم يعد يملك شيئا، فكل ما ظل ينفقه علينا قبل وفاته، ما وجدته بعد وفاته في جيبه ومحفظته، هو مما ادخره من دخله المحدود.."[1].

ومن المعلوم أن المملكة العربية السعودية ولا سيما أرض المدينة المنورة كانت تعرف بأنها واحة زراعية منذ القدم حيث اشتغل سكانها بالزراعة والتجارة، والسبب وراء ذلك أن معظم أفراد هذا المجتمع المدني والحجازي كانوا يكسنون في القرى والأرياف، وكان يشتغلون بصورة عامة بالزراعة والفلاحة، ويزرعون أنواعا مختلفة من الحبوب والخضراوات وفقا للمنطقة والفصل، فكانت أبرز المهن والحرف الاقتصادية التي كان يشتغلها عامة الرجال والنساء سويا كانت هي الزراعة والفلاحة كما قلت آنفا، كما ذكر لنا المؤلف مشيرا إلى تلك النساء اللائي كن يعملن في المزارع والحقول الخضبة حاملتين أطفالهن في مهدهن حيث يقول " عندما كان النعاس يتحسس طريقه إلى عيني، كنت لا أنسى "يحيي" وذلك المصير الذي ينتظره من أخيه "حسين"، كنت مع إشفاقي عليه أتمنى لو أنه يعيش معي... ومنطقي أن الغرفة كبيرة... والسرير يتسع لنومنا معا.. ويحي عنده الوافر من الحكايات، عن " البلدان " وهي المزارع، و" السواني " والحمير التي قال إنه يمكن أن يعمل سائقا لها وصاحب المزرعة يضمن له الأكل ثلاث مرات في اليوم... وينام في العشة التي ينام فيها النسوة اللائي يعملن في المزرعة مع أطفالهن... في الواقع أن كنت أتوق إلى حياة كهذه التي وصفها يحيي وعلى الخصوص، أحواض البرسيم، التي قال إنها كالزمرد، وإن كنت لا أدري ما هو الزمرد،

[1] المرجع نفسه، ص: 132

ثم النخل الكثير، ومنه نخلات طويلة يمكن أن يتسلقها ليصل إلى أعشاش " النغاري " الصغيرة التي يمكن أن يبيعها في " سوق الخضرة " كل نغري صغير بربع مجيدي"[1].

ومن أبرز المهن والحرف الاقتصادية التي كانت تشتغل بها عامة النساء هي عملية " التطريز " والتي يسماها عامة الناس في المدينة المنورة بـ" منسج "، وهي المهنة والحرفة التي كانت مروجة بين عامة النساء المسلمات العربيات التي كن يسكن في بيوتهن، وكانت تلك النسوة تقوم ببيعها في الأسواق لبيوت الذوات بعد التطريز بالقلم الرصاص، وجدير بالذكر أن أمه الحنون كانت تقوم بعملية التطريز على الأقمشة أيضا، لأنها كانت لديها معلومات قيمة جيدة عن عملية التطرير كما يقول صاحب الكتاب عن أمه الحنون وعمليتها التطريز " ثم جاء... اليوم الذي أوشك أن ينفد ما بيدها من تلك النقود... وسمعتها تتحدث مع أم شفيقة، عن شيء قالت أمي إنهم يسمونه في المدينة (منسج) وأنها تعرف التطريز عليه، وسمعت أم شفيقة تتهلل مسرورة، وهي تقول لها: إذا كنتي بتعرفي تطرزي، مثل ما عمتقولي... عندما الذوات كلهم بيشتروا.. وفي اليوم التالي، خرجت أمي مع أم شفيقة، وعادت، وهي تحمل (المنسج)، (وشلل)، الحرير الملون، وقالت أم شفيقة إن عندها قطع الأقشمة التي تحتفظ بها من أيام زمان– قبل (السفر برلك)... اقترحت أن تطرزها أمي... وهي تقوم ببيعها لبيوت (الذوات)، ومنذ ذلك اليوم بدأت أرى أمي عاكفة على هذا المنسج، تشد عليه قطع القماش وتطرزها بعد أن ترسم الأشكال التي تريد تطريزها بالقلم الرصاص... أزهار.... وورود... وفروع أغصان صغيرة..."[2].

وكذلك في هذه السيرة الذاتية هناك إشارات وتلميحات كثيرة عن الصنعة والحرفة التي كان يعتمد عليها معظم أفراد هذا المجتمع العربي المدني بشكل عام والمجتمع الحجازي بشكل خاص، وكانوا يشتغلون بها كل الاشتغال في حياتهم، بل يمكننا القول إن الناس الذين كانوا معتمدين على هذه الصنعة والمهنة والحرفة ما كانوا يعتمدون

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 53

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 134/133

عليها دون فائدة بل هم كانوا يعتمدون عليها للحياة، لأن الحياة لها غذاء ضروري وبدون الغذاء لا يستطيع الإنسان أن يعيش حياة ولكن كيف يأتي الغذاء في المنزل بدون كد وجهد؟ لذلك نرى في هذه السيرة أن أحدا من أصدقاء الشيخ عزيز ضياء لما أراد أن لا يواصل قراءته في أيام الطفولة فقالت له أمه بكل صراحة فإن قصدت العزم أن تتواصل القراءة والمطالعة، فعليك أن تعرف العمل حسب ذوقك الخاص ووفق نظري أن صنعة النجار تفيدك جدا في الحياة، كما نشاهد في هذه السيرة أن صاحب الكتاب يحكي لنا عن عمل النجار الذي كان يعمله معظم الناس الذين يسكنون في القرى والأرياف، كما جاء في ذلك الحوار الذي حدث بين أمه وصديقه الحميم الخاص يحيي حيث يقول "عشان فيه واحد نجار هنا في الساحة... شفته بنفسي يسوي (السحارة)، ويبيعها للبدوي بأربعة مجايدة... وأنا شايف أني أقدر أسوي السحارة... والنشابة... وحتى المنسج... أنا أوقف عنده... وأشوفه وهوه بيشتغل... وهوه يبغا واحد صبي صنعة زيي... نهضت أمي، وهي تضع يدها في صدرها، وتجرخ منديلا... تخرج منه مجيديا... تعطيه إلى يحي... وهي تقول:

- هادا المجيدي... وإنت قلت تتوب... أنا رايحة أتشفع لك... ومادام تبغا تتعلم صنعة... أنا كمان أقول لأمك وسيدك حسين... يخلوك تتعلم الصنعة اللي تبغاها، وماكدت أنا أسمعها تتسامح في حكاية تعلم الصنعة حتى أسرعت أقول باهتمام:

- وأنا كمان يا أمي... أنا كمان أبغا أتعلم الصنعة... أنا أعرف دكان هادا النجار اللي بيقول عليه يحي... إنتفضت... وهي تلتفت إلى تقول:

- إنت يوم السبت تروح الكتاب... وتتعلم... وبعدين تشتغل شغل الناس الكبار."[1].

وكذلك في هذه السيرة الذاتية أحاديث كثيرة عن الحرفة والمهنة الاقتصادية التي كان يعتمد عليها أكثر الناس في المدينة المنورة والحجاز، كما نرى في هذه السيرة أن هناك إشارات وتعليقات وتلميحات عن الحرفة والمهنة الاقتصادية التي كانت مروجة

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 47

بين عامة الناس في العرب، ومن الصنعة الاقتصادية المشهورة المروجة في مجتمع العربي ألا وهي " حفر الأختام " وأن هذا العمل الذي يقوم به جده الأم أيضا آنذاك كما يقول مشيرا إلى عمل جده " فمع أن جدي كان يزال قادرا على العمل في حفر الأختام في دكانه بالقرب من (تلك) السرايا، وبما يتجمع له من المال القليل، كان يستكمل ما تحتاجه خالتي من الغداء، ومالا بد منه من المواد الأخرى، كحبات من الطماطم، والخيار، وأحيانا وفي النادر – كمية هزيلة من أوراق الكرنب، تتجنب أمي طهوها، لأن لمائها رائحة عفنة، تضايق خالتي، فنأكلها نيئة بالملح والخل، تعجبنا، فما أسرع ما تلتهم قبل غيرها... ويعلق جدي أحيانا بأنها مغذية لا تقل عن اللحم "[1].

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 91

الباب الرابع

كتاب" حياتي مع الجوع والحب والحرب" و" أيامي" دراسة تحليلية أدبية والمقارنة بينهما

الفصل الأول: العناصر الأدبية البارزة في الكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب "

الفصل الثاني: الخصائص البارزة في الكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب" ومكانته المرموقة لدى الأوساط العلمية والفكرية والأدبية

الفصل الثالث: دراسة تحليلية ومقارنة بين كتابين " حياتي مع الجوع والحب والحرب " و " أيامي" للأديب الرائد أحمد السباعي

الفصل الأول

العناصر الأدبية البارزة في الكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب"

أولاً: الحقيقة والخيال في الكتاب

إن الخيال هو الشيء الذي يعترف العقل الإنساني السليم في الرؤية والتي لا تكون في تصور عقله من عمق معرفته لشيء من الأشياء الذي لا معالم له، والخيال هو الذي يلعب دورا هاما في الفصل بين الأجناس الأدبية والفنية والتميز بين حدودها " الحرية في الخيال هي التي تضع الحد الفاصل بين القصة والسيرة، فالقصص حر في الخلق والبناء يملك أن يتخيل مواقف ومحاورات، وله الحق في أن يصف التيار الداخلي في أنفس الشخصيات التي يرسمها، وقد يلجأ في بناء الشخصية إلى بعض العناصر المستمدة من التاريخ، ككاتب السيرة أيضا ولكنه كثيرا ما يخلق العناصر التي يراها ملائمة لمواقف شخصياته فيتقمص هذا وذاك "[1].

أما كاتب السيرة الذاتية فيستلهم الأحداث التي عاشها معتمدا في ذلك على مصادر متنوعة كالرسائل والمذكرات، والذكريات وشهادات الأحياء وغيرها، فالسيرة الذاتية يجب أن تتصل اتصالا كبيرا بالواقع، وتبتعد البعد كله عن الخيال، فشخصية البطل والشخصيات الثانوية ينبغي أن تكون قد عاشت الأحداث فعلا وأحست بها[2]. ويرى إحسان عباس حيث يقول " أما كاتب السيرة فلا بد له من مذكرات ورسائل وشواهد وشهادات من الأحياء أحيانا يعتمد عليها في كل خطوة، وكثيرا تعوزه الشواهد في أدق المواقف، وكثيرا ما تكون الشواهد التي يعتمد عليها متناقضة أو ناقضة أو منحرفة عن موضعها".[3] وبما أن تذكر كاتب السيرة الذاتية لماضيه أمر مهم يكاد يكون

---

[1] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة، ص: 71

[2] عبد الرحيم، رائد مصطفى، دراسة في سير الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بين زيري في غرناطة، (المنارة للبحوث والدراسات مجلة علمية متخصصة، المجلد 10 العدد 5 كانون الأول)، ص: 326

[3] عباس، الدكتور إحسان، فن السيرة، ص: 91

مستحيلا وهنا يتدخل الخيال يملأ فراغات الأحداث التي يذكرها المؤلف خاصة البعيدة زمنيا كأيام الطفولة[1].

ويلجأ الكاتب إلى مزج الواقع بشيء من الخيال من خلال خلق الأحداث، وإضافتها واختراع أحداث جانبيه، وابتكار أسماء جديدة للشخصيات والاستعادة بأوصاف تختلف عن تلك الواقعية لتوهم القاريء أن هناك تباينا بين الشخصيات الواقعية والمبتكرة والملونة[2].

عندما نقرأ الكتاب نجد فيه كثيرا من المشاهدات والمواقف التي قدمها عزيز ضياء، وصورها لنا بتفاصيلها الكاملة، حتى يبدو كأنها مرت عليها سنون طويلة، وأن الكاتب لم يكتف بوصف المشاهد والمواقف والأحداث فقط، بل أنه يحكي لنا خيالا في شكل حوار طويل يمتد في بعض الأحيان في صفحتين وأحيانا في ثلاث صفحات تقريبا، وأمام تلك التفاصيل الكثيرة هناك كثير من المواقف والحوارات والمشاهدات التي أدركها المؤلف بينما هو في تلك السن المبكرة التي تتراوح بين الرابعة والسادسة من العمر، كما سأل أحد من الباحثين الدارسين قائلا " ترى هل سجلت ذاكرة الأستاذ عزيز ضياء الأحداث بتفاصيلها؟ أم صاغها الخيال؟ وهل يتفق الخيال مع تسجيل الذكريات"[3].

ينفي الشيخ عزيز ضياء أن يكون للخيال دور كبير في هذه السيرة الذاتية، وأنه قد امتزج الخيال بالحقيقة حتى في رصد الحوارات والمناقشات التي وقعت بين الشخصيات البارزة المتعددة، وذلك في إجابته على هذا السؤال حول هذه القضية المهمة يقول " إذا عني أي ناقد يقرأ قصة (حياتي مع الجوع والحب والحرب) بأن يتوخى أثر الخيال في هذه القصة فإنه سوف يخطئ كثيرا إذا بدا له أو ظن أن فيها امتزاجا بين الخيال والحقيقية.. ويضيف قائلا: "وحتى في هذا الحوار... ليس هناك أي

---

[1] محمد، شعبان عبد الحكيم، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص:: 178

[2] الرياحي، كمال، حركة السرد الروائي ومناخاته في استراتيجيات التشكيل، ص: 21

[3] في ركني، زهير أحمد السباعي (مقال) صحيفة المدينة عدد 11359 نقلا عن: الأخشمي، أحمد الأخشمي الدكتور، عزيز ضياء ناثراً، (رسالة الماجستير غير منشورة) ص: 285

خيال أو افتعال... فإني أكتب هذه القصة وقد بلغت السبعين من العمر، وهناك مقولة تقرر أن الذي يبلغ هذه المرحلة من العمر يتذكر أدق التفاصيل في حياته في سن الطفولة... ومن هنا أوكد... أن كل ما جاء في القصة خال تماما من الخيال أو الافتعال، أو التأليف أو التلفيق "[1].

وفي الحقيقة أن نفي الخيال عن هذه السيرة الذاتية مما لا يمكن الجزم به، لأن هو يتعارض مع شبه إجماع من النقاد على ضرورة تواجده في السيرة الذاتية، لأن السيرة الذاتية عمل أدبي وعمل فني لا يستغني عن الخيال، وأن الخيال عنصري جوهري ولكنه في نفس الوقت محدود بحدود الحقيقة، وأن كاتب السيرة الذاتية ولا سيما من الذي يقوم بكتابة سيرته الذاتية يعتمد على العموم في نقل الحقائق الماضية على التذكر وأن التذكر كما قال يحي عبد الدايم " ليس أمرا سهلا ذلولا، وليس هو عملية آلية يسيرة، قوامها التداعي الحر للأفكار، بل هو عملية شديدة التركيب والتعقيد، لأن عملية التذكر تعنى تحويلا إلى الداخل، وتكشيفا تعنى تغلغلا متواصلا لكل العناصر من الحياة الماضية "[2].

وإذا أراد الإنسان أن ينقل إلينا تجارب حياته الماضية فلا سبيل أمامه إلا أن يضع قيودا لهذه التجارب، ويرسم لها إطارا ويعيد بناءها عن طريق " عمليات للتذكر الرمزي " وفي هذه الحالة تصبح الاستعانة بالخيال، أمرا ضروريا للاستعادة الصحيحة كما فعل " جوته " حين اتخذ عنوانا بالترجمة الذاتية هو " الشعر والحقيقة " لأنه لم يعن حين اختار هذا العنوان، أنه أدخل إلى سيرة حياته الحقيقية، الخيال أو الاختلاق أو التزيف، بل إنه أراد أن يستكشف الحقيقة حول حياته، وأن يصفها، ولم يكن لديه من طريقة لإيجاد هذه الحقيقة إلا بأن يمنح الحقائق المتفرقة المشتة من حياته شكلا شعوريا أي شكلا رمزيا[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص: 285

[2] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 6/5

[3] المرجع نفسه، ص: 6

ومن الملاحظ أن الشيخ عزيز ضياء يحفظ عن ظهر قلب حوارات طويلة تمتد في بعض الأحيان إلى ثلاث صفحات وتمتد أحيانا إلى اثنين صفحة، لذلك نراه أنه ينقل في هذا الكتاب وخاصة في الجزء الأول حوارات طويلة جدا، ننقل فيما يلي بعض الحوارات التي جرت بين أمه والقاضي في المحكمة عند وقت زواجها مع زوجها الثاني إذ يقول مصورا ذلك المشهد " وقفنا جميعنا أمام القاضي... حيث بدأ يوجه الحديث إلى أمي:

- إنت يا بنتي اسمك فاطمة؟؟
- أيوه أنا اسمي فاطمة.
- اسم أبوكي؟؟
- أحمد صفا.
- رحمة الله عليه... هادا ولدك؟؟؟
- أيوه هادا ولدي
- واسم ولدك يا فاطمة؟؟
- اسمه عزيز
- عبد العزيز يا فاطمة
- أيوه... عبد العزي... بس أنا، أناديه وأقول اسمه عزيز.
- وكم عمره اليوم يا بنتي
- عمرة ستة سنين وتسعة أشهر
- ما تعرفي متى ولد؟؟
- ولد في صبحية عيد مولد النبي قبل ستة سنين وتسعة أشهر.
- ومين أبوه يا فاطمة يا بنتي؟؟
- أبوه اسمه زاهد بن مراد
- وفين زاهد هادا دحين؟؟؟
- ما أدري فين... ما جانا منه حس ولا خبر

- يعني سافر من المدينة يا فاطمة مع اللي سفرهم فخري؟؟
- لا.. سافر قبل اللي سفرهم فخري... سافر لما كان عمر عزيز تسعة أشهر
- سافر راح فين؟؟
- سافر بلاد القازاق... أورونبوغ... عشان يجمع الفلوس اللي يبغوا يبنوا بها الجامعة الإسلامية... اللي أمر بها السلطان.
- ومن يوم ما سافر ما كتب لكم... ولا أخبركم متى رايح يرجع؟؟
- يمكن كتب لأبويه... لكن أنا ما أدري عنه شيء.
- وطول هادي السنين ما جاكم منه خبر..
- ما جانا منه خبر أبدا
- وطول هاداي السنين ما أرسل لكم فلوس... يعني نفقة لكي وللولد؟؟
- وطول هادي السنين ما سمعنا عنه شيء... وما استلمنا منه فلوس.. ولا شيء
- طيب يا بنتي... ومين اللي يشهدوا انوا الكلام اللي قلتيه هوة الحقيقة؟؟
- الشهود هم... العم محمد سعيد... والعم صادق... والعم إسماعيل..
- الشهود موجودين في المجلس؟؟
- وهنا تقدم الشهود. وكل منهم رفع صوته يقول:
- أشهد أن جميع ما قالته فاطمة بنت أحمد صفا عن زوجها الغائب زاهد بن سلطان بن مراد، أبو ولدها الحاضر عبد العزيز... جميع اللي قالته صحيح...".[1]

ومما يجدر بالذكر أن الكثير من تلك الحوارات الطويلة جاءت بلغة مكسرة ولغة عامية سائدة بين أبناء المدينة المنورة والحجاز، وهذه هي اللهجة التي كان يستعملها أولئك الذين لا ينطقون بأي كلمة من هذه اللغة العربية ولا يحسنون بها من الأتراك والهنود وغيرهم، بل قد جاءت في بعض أجزاء هذه السيرة حوارات مطولة بالتركية

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 343/342

والهندية، ننقل بعض الحوارات التى جرت بين لتافت باجي وجده الأم لكي يتضح هذا الأمر كقوله " بعد صلاة المغرب، التي أداها جدي في غرفته، اعتمر عمامته، وجبته، وعبر ممر قصير، وقفنا أمام باب صغير ولكنه أنيق، مزخرف بنقوش... وسمعنا صوتها المرتعش، وهي تقول: بالتركية:

- بيورونز... بيورونز...
- وهي اللتي تعني: (تفضلوا... تفضلوا...).

قبل أن نخطو خطوة أو أخرى، في ممر صغير... كانت لتافت باجي تدب على عكازها العتيد، وهي تردد عبارات الترحيب: (هوش جيلدينز... صفا جيلدينز... بيورونز.... بيورونز) مما تعلمت، أنه يعنى (أهلا... وسهلا... تفضلوا...) أو شيئا من هذا القبيل..."[1].

ومما يؤيد الاعتماد والثقة على الخيال الذي عرضه الشيخ عزيز ضياء في هذه السيرة الذاتية هو أنه يحكي في سيرته كثيرا من الحوادث والأهوال في العديد من المواضع، كما أنه يحكي أحيانا حادثة واحدة في عدة مواضع وأحيانا نفس الحادثة في موضعين، وفي كل موضع من المواضع جاءت بوصف وحوار مختلفين ومتعددين، كما نلاحظ في هذه الحادثة التي وقعت له مع أمه مساء الجمعة في وقت الليل التي سبقت أول أيام دخوله في الكتاب بعد وجبة العشاء إذ يقول في الجزء الثاني من هذه السيرة " لأول مرة في حياتي فهمت أن هذا اللوح، ليس شيئا ضخما، كتلك الألواح التي ترسل إلى الأفران، لخبز أقراص العيش... وإذ كنت قد فرغت من العشاء... نهضت عن المائدة.. واتجهت للخروج إلى الغرفة التي أصبحت مخصصة لي... وأدركتني أمي فيها... ونبهتني إلى غسل يدي وفمي... فلما فرغت، وعدت إلى الغرفة... رأيتها تقف... وتأخذني في حضنها... تضمني ثم تقول:

- هيا نا يا عزيز... وعبي نفسك للكتاب...
- لكن فين؟ فين الكتاب؟؟؟ كيف أروح له؟؟

[1] المرجع نفسه، ص: 92

- وعادت تضمني.. وتقبلني... وجلست على السرير إلى جانبي وهي تقول:

- أنا... أنا اللي آخذك، وأروح معاك الكتاب... وأنا كمان آخلي إسماعيل يجيبك... هيا لا تخاف... خليك رجال...

نهضت... وغادرت الغرفة... وكلمة (خليك رجال) هذه تتردد في ذهني... إذ تذكرت تلك المرة التي قالت لي فيها هي... ثم بدرية: (إنت رجال البيت) فمن هو الآن رجال البيت؟؟.[1]

ولو ألقينا نظرة خاطفة على هذه السيرة الذاتية لوجدنا أنه عرض نفس الحوادث في موضع آخر من نفس الجزء كما نراه يقول " بعد صلاة العشاء يوم الجمعة، وقد تناولنا- أمي وعمي وأنا- طعام العشاء أخذتني أمي، بيدها إلى الحمام... حيث كان على أرضه "طست" من النحاس واسع كبير.. كما كانت هناك صفيحة فيها ماء أعلم أنه حار.. وتلك هي عملية الاستجمام التي تقوم بها بنفسها إن لم يكن كل يوم، فلا بد أن تتم يوما بعد يوم... لم يكن يضايقني ويحملني على البكاء شيء كهذا الصابون الذي يغمر وجهي ويتسرب إلى عيني.. ثم تلك " الليفة " التي تدلك بها كل جسمي، وعلى الخصوص " القدمين والساقين " وهما في العادة الأكثر اتساخا، لم احتج إلى تفكير لأحزر أنها تعدني للذهاب إلى الكتاب في الصباح، في الغرفة، أخرجت من الدولاب الصغير، الملابس التي تعدها للنوم عادة... ووضعت على منضدة، هناك، ثوبا مطويا من الثياب الجديدة، التي فهمت أنها اشترتها لأرتديها في الصباح...".[2]

إذا قمنا بالنظر والتحليل على هذه الفقرات المذكورة أعلاه فوجدنا أن المؤلف عندما يستخدم الخيال فإنه يخرج عن الحقائق الثابتة والوقائع الأساسية، فأصل الحقائق موجود، فالحادثة التي وقعت له مع أمه في الليلة عند وجبة العشاء لدخوله الكتاب حادثة وواقعة حقيقية ولكن الصياغة لونتها بألوان مختلفة فزادتها بريقا ورواء، وعندما

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 50

[2] المرجع نفسه، ص: 57/56

يستخدم الخيال فإنه يبعث في المواقف والأحداث والحياة والحركة التي تتحول المواقف والأحداث إلى ما يشبه شريطا مصورا يمر بذهن القراء بشيء من التفصيل كما نراه يتحدث في وصف أحد من المشاهد وأن هذا الوصف يؤيد الاعتماد على الخيال إذ يقول " أما هي لتافت باجي... فقد أصرت على أن تقف مرحبة لحظات طالت... ثم جلست على كرسي صغير، في آخر الصالون يواجه جدي... الذي، كانت أمامه منضدة مغطاة هي أيضا بقماش ثمين... ويتوسط المنضدة طبق كبير من البلور الأبيض المزخرف، فيه كمية لا بأس بها من مقشر اللوز والجوز... وحبات فاخرة من البندق... والفستق... وأداة لامعة على طرف الطبق- عرفت بعد عمر طويل- أنها كسارة للبندق...هذه إذا حياة هذه العجوز السوداء، وهي بالنسبة لي أنا بالذات في تلك الأيام السود التي بدأت في البابور الذي ارتحلنا عليه إلى الشام، ولا تزال على ماهي عليه... هي بالنسبة لي لا تقل إبهارا وترفا عن بيت الكيخيا، في ذلك الصالون الفخم الذي تضيئه تلك المصابيح الكبيرة المزخرفة، عندما نجلس فيه وإلى جانبي(مطيعة) تهمس بتعليقاتها على خوفي من السلحفاة "[1].

ويذكر معبرا عن خواطره من مشاهد الرعب والهيبة التي مر بها، وذلك عندما ارتحل برفقة أمه، وبعض أفراد أسرته من بيت الصابوني إلى مدينة حلب، وكان هذا الأمر شاق على أمه كما يقول بكل صراحة " لم يكن هناك ما يستطيع أن يفعله جدي، ليشتري الدجاجة مرة كل ثلاثة أيام، والكفاية من الحليب لعبد المعين، غير أن يبيع ما سبق أن اشتراه من أثاث للبيت يوم انتقلنا إليه من بيت الصابوني... ويوم تقرر الرحيل إلى حلب، كان يوم شقي فيه هذا الجد شقاء جعل أمي وخالتي لا تكفان عن البكاء.. كان يحمل على كتفه، ويلف بعمامته الأشياء التي يذهب بها لبيعها والعودة بثمنها حفنة من النقود، يفتح كفه بعد أن يخرجها من جيبه لتراها أمي... ثم تتناولها وهي تهمس بكلمات، أرجح أنها تطيب بها خاطر، وفي عينيها دموع تجهد ألا تنذرف... فيبتسم، ويضع يده الأخرى على كتفها ثم اسمعه يقول هامسا:

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 93

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا... وعلى الله فليتوكل المؤمنون...
- الله كريم... البابور... في الليل... الله كريم...

وتسأله أمي في نبرة تنم عن خوفها:

- في الليل؟؟؟
- هذا أمر الباشا...
- فخري؟؟؟
- لا.. لا...

وبدا على أمي وخالتي أنهما تخافان السفر في الليل... ودار بينهما حوار، عن المشي من البيت إلى البابور... وتردد ذكر(فيتون) بيت الصابوني... وأن الحصان الذي يجره قد أخذته (الدولة)... ثم (الحرامية) الذين ينتشرون في الليل، وفي أيديهم تلك المسدسات، يقتلون بها من يعترض طريقهم، كما فعلوا ليلة دخلوا علينا، وكادوا يقتلون جدي، حين دخل بفانسه والفأس في يده.."[1].

ثانياً: والصدق والصراحة

إن الصدق والصراحة يعتبران من أهم الشروط الأساسية للسيرة الذاتية إذ ارتبطا بميثاق السيرة بشكل وثيق، فتميزت بهما عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى كالقصة والرواية وغيرها من الأجناس الأدبية المتعددة، لذلك فإن على كاتب السيرة الذاتية أن يبني ما لكتبه على أساس قوي من الصدق والصراحة والتجرد التاريخي، فإذا ضعف عنصر الصدق والصراحة في السيرة الذاتية لم تعد تسمى سيرة ذاتية، ويحتاج كاتب السيرة الذاتية إلى كثير من الميثاق والأمانة والصدق والصراحة التامة، وقبل ذلك هو في حاجة إلى كثير من الشجاعة والجرأة لكي يثبت الحقائق الجلية والوقائع التي لا يرضى عنها الكثيرون.

وإن كاتب السيرة فلا بد له من مذكرات ورسائل وشواهد يعتمد عليها في كل خطوة من الخطوات كما يلخص الدكتور إحسان عباس بقوله " إن كاتب السيرة الذاتية

[1] المرجع نفسه، ص: 52/51

لا يصور نفسه فحسب، وإنما يحكم عليها ويحاول أن يتجرد من الرابطة العاطفية التي تشده بها، فإلى أي حد يمكن أن يكون هذا الكاتب الذاتي صادقا؟ وبعبارة أخرى، ما هي درجة الصدق في السيرة الذاتية، وهل من الممكن للصدق التام أن يتحقق فيها؟ والجواب على هذا التساؤل سهل لا يحتاج كثيرا من التدفيق، فالصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل، والخفيفة الذاتية صدق نسبي، مهما يخلص صاحبها في نقلها على حالها، ولذلك كان للصدق في السيرة الذاتية " محاولة " لا أمرا متحققا "[1]. ومن أكثر السيرة الذاتية تحريا للصدق والصراحة والأمانة في الأدب العربي الحديث هي سيرة محمد شكري المعنونة بـ " الخبز الحافي " وأن هذه السيرة الذاتية ربما تقترب من اعترافات جان جاك روسو، حيث قد استخدم الكاتب في سيرته الذاتية ألفاظا عامية فاحشة ولم يمتنع عن ذكر التفاصيل المحرجة تماما، وهذا الأمر قد يحول بين سيرته الذاتية وبين النفوس المقدسة من الإطلاع عليها.

وعندما نقرأ الكتاب " السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي " نجد أن فيليب لوجون حاول أن يربط عملية الصدق والتجرد والصراحة والأمانة بميثاق السيرة في حقل السيرة الذاتية والترجمة الغيرية كما يقول مشيرا إلى هذه الخصائص البارزة " يكون الميثاق المرجعي، في حالة السيرة الذاتية متماديا، على العموم، على ميثاق السيرة الذاتية، وصعب الفصل، تماما، مثل ذات التلفظ وذات الملفوظ بضمير المتكلم، ولن تبقي الصبغة على الشكل: " أنا الموقع أسفله " بل ستصبح " أقسم بأن أقول الحقيقة " كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة " وقلما يأخذ القسم شكلا فظا وشاملا كهذا: إنها شهادة إضافية على الصدق "[2].

وبعد ذلك أنه أوضح وجهة نظره الثاقب بقوله إذ يقول " إننا نلاحظ ما يجعل هذا الميثاق يشبه الميثاق الذي يعقده أي مؤرخ، أو جغرافي، أو صحافي، مع قارئه، ولكن يجب أن نكون سذجا لكي لا نلاحظ، في نفس الوقت، الاختلافات، إننا لا نتحدث

---

[1] عباس، الدكتور إحسان، : فن السيرة، ص:105/104

[2] لوجون، فيلب، السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، ترجمة وتقديم عمر حلي، ص: 53/52

عن الصعوبات العملية في تجربة التحقيق في حالة السيرة الذاتية: مادام صاحب السيرة الذاتية يحكي لنا بالضبط– وهنا تكمن أهمية محكيه– ما يستطيع هو وحده أن يقوله لنا، إن دراسة السيرة تسمح بسهولة بجمع معلومات أخرى، وتحديد درجة دقة المحكي"[1].

ولا شك فيه أن الصراحة والصدق خاصة في كتابة السيرة الذاتية يحتاجان إلى كثير من الشجاعة والبريئة، وعندما تكون تلك العملية نادرة لدى الكثيرين من الكتاب فكاتب السيرة الذاتية أو" كاتب الترجمة يستطيع أن يتجنب من الوقائع القديمة ما لا يرضي عنه، وبخاصة تلك الوقائع التي لا يعرفها– أو لم يعد يعرفها–أحد سواه، ومن ثم يحتاج كاتب الترجمة الذاتية لكثير من الصراحة، وقبل ذلك هو في حاجة لكثير من الشجاعة، لكي يثبت الوقائع التي لا يرضى عنها، وأغلب ما يكون ذلك متعلقا بحياته العاطفية والجنسية، فإذا كانت لديه الشجاعة لأن يكشف كل ذلك من نفسه، فإنه ربما تحرج من ذكر الوقائع كاملة، لأنها عندئذ تمس شخصيات الآخرين الذين شاركوه تلك المواقف"[2].

وعندما نرجع إلى الصدق والصراحة لعزيز ضياء نجد أنه يفرق بين ما يقوله عن نفسه وما يقوله عن الآخرين من حيث قد التزم الصدق والصراحة والأمانة والتجرد إذ يقول " إن في حياتي أحداثا، إن لم تكن قد وقعت لي شخصيا، فإنها مما كان يقع في الحياة من حولي... مما كان يقع في مجتمع أنا جزء منه وفي بيئة أنا في النهاية ابنها... أحداث من نوع لا أزال أرى أنه نادرا ما يشار إليه حتى مجرد إشارة، فيما تجري به أقلام المعنيين بالماضي من الكتاب، فهل ألتزم الصدق في روايتها؟؟ وأي حد من الصدق؟؟ لست مؤرخا على كل حال، فلست مطالبا بتحري الدقة وتوخي الحقيقة، ولكن لا يصح مع ذلك أن أعفي نفسي من تتبع أثرها، إن لم يكن في حياتي، ففي حياة من حولي بيئة ومجتمعا "[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص: 53

[2] اسماعيل، عز الدين، الأدب وفنونه دراسة ونقد، ص: 157/156

[3] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 169

وعلى الرغم من الاتهامات التي وجهت إلى الترجمة الذاتية أو السيرة الذاتية من افتقارها إلى الصدق والصراحة والميثاق فإن الشيخ عزيز ضياء حاول أن يلتزم الصدق والصراحة والنظرة الموضوعية في كتابه، كما عبر عن انطباعاته وخواطره عن " اعترافات روسو" الذي يعد من أهم الكتب حول السيرة الذاتية في الآداب العالمية فهو يقول " ليس من شك إطلاقا، في أنه لم يعترف طلبا لمغفرة أو طمعا في توبة وإنما ليقول للقاريء ما وجد أنه لا بد أن يقال، وبصدق مطلق، ومن هنا– مرة أخرى– يبدو لي أنها أعظم أعماله التي يمكن أن توصف بأنها " فن "[1].

ومن المعلوم للجميع أن الصراحة والصدق عند الشيخ عزيز ضياء لا يقصد بهما ذكر أحداث فاجعة حائرة على الاعتبارات الدينية، والسلوكية، والخلقية المثالية، والأنموذج القيمة كالفضائح الخلقية وغيرها من الأمور الأخرى، لأنه يعد من أكبر الكتاب والأدباء المسلمين في العرب الذين بذلوا قصارى جهودهم المتواضعة على النهوض بالمسلمين في العالم كله، وأنه كان لواء الأخوة الإسلامية ورافعا راية الأمن والسلام في أنحاء العالم بكتاباته ومقالاته، لذلك نحن نراه يدرك الفرق بين هذا النوع من الصراحة وغيره مما يخرج عن الثوابت والقيم المثالية والذي يبلغ حد المكاشفة الفاضحة مما هو موجود في أدب الغربيين وخاصة في أدب الاعترافات كما يقول " لكن أغرب ما ظل يلح به على روسو هو اعترافاته، أو هي قصة حياته التي كتبها في اثني عشر فصلا، وكانت السبب في طرده من سويسرا وأن تحرق مع مجموعة رسائله وما طبع من أعماله علنا... هذه الاعترافات، هي على الأرجح أعظم الأعمال التي يمكن أن توصف بأنها "فن" من أعماله... فيها الكثير من المآسي والأحزان التي عاشها... لست أدري، مالذي جعل روسو، يغشي قحف جمجمتي، وأنا أتأهب لكتابة هذه الفصول من قصة حياتي... أتراني أحسست، أن بين اعترافات روسو وبين قصتي وجوه شبه من نوع ما؟؟؟ ولكن كيف؟؟؟ إن روسو "يعترف"... وأنا "أقص"... ولا بد أن نلتمس الفرق بين سرد ما يسمي اليوم سيرة ذاتية، وبين سرد "اعترافات" في تضاعيف قصة حياة... ونحن

[1] المرجع نفسه، ص: 169

نعلم أن كلمة "اعتراف" له علاقة وشيجة بأحداث، ربما يعاقب عليها القانون، أو يستنكرها المجتمع، أو يندر أن يزاح عنها الستار الكثيف الذي لا بد أن يسدل، ليس فقط على فصول دراما الحب مثلا، وإنما قبل ذلك وبعده على الأسماء، حتى وإن كان أصحابها قد آووا إلى مراقدهم تحت أطباق الثري منذ سنين"[1].

ولا شك فيه أن الكاتب كان خاليا من المواقف الخادشة للحياء والماسة كما صرح ذلك بقوله " السؤال الذي أبيح للقاريء أن يطرحه علي، هو: هل أستطيع حين أكتب، قصة حياتي مع الجوع والحب والحرب، أن ألتزم هذا النوع من الصدق، أو هذا الحد منه؟ صحيح أن حياتي خالية والحمد الله من أمثال هذه الأحداث الفاجعة، التي لم يرى روسو ما يمنع أن يعترف بها، رغم ما فيها من بشاعة ونكران، مثل إنكار أبوته لخمسة أولاد، وقذفهم إلى ملجأ اللقطاء بل، وبتلك التصرفات القذرة الخادشة للحياء من جهة، والماسة بكرامة الإنسان وكبرياء الرجل، من جهة أخرى "[2].

ثم أنه يدرك الفرق بين كتابه " حياتي مع الجوع والحب والحرب " وقصة حياة جان جاك روسو في اعترافاته، يتحدث بكل من الدقة والجدة قائلا " كلا... ليس هناك أي وجه شبه بين قصة حياة جان جاك روسو في اعترافاته، وبين حياتي مع الجوع والحب والحرب، إلا في أن العملين يتفقان في أنهما قصة حياة مخلوق يجمع الناس والمؤرخون على أنه واحد من عباقرة الدنيا، إن لم يكن لشيء فلأن الكثير من آرائه وأفكاره أثمر ثماره في الثورة الفرنسية التي انفجرت بعد رحيله بثلاثين عاما، ومخلوق هو كاتب هذه السطور، أو هذه القصة، وهو ليس أكثر من واحد من عشرات أو مئات كان موقعهم من الحياة والمجتمع الذي يعيشون فيه، هو موقع كرة القدم بين أقدام اللاعبين.. وكرة القدم تظل الشيء القادر على استقبال الفعل والاستجابة له إن لم يكن بإصابة الهدف، فيرد الفعل بين الأقدام، ثم هي لا شيء بعد ذلك سوى أنها كرة لا يتحقق لها وجود، إلا في الملعب مع التيارين "[3].

---

[1] المرجع نفسه، ص: 168
[2] المرجع نفسه، ص: 169
[3] المرجع نفسه، ص: 169

وعندما نتبع الحوادث الكثيرة والمصائب المتنوعة التي تكشف عن هذه الخاصة نجد كثيرا منها له مواقفه الخاصة تجاه والده الكريم الذي لم يراه قط في حياته، كما حكى لنا قصته المؤلمة بكل صدق وأمانة كقوله " عرفت اليتم الذي يعلق عين الطفل بوجه كل رجل يراه، في أمل محموم بأن يكون من يراه هو الأب الذي تؤكد الأم الشابة أنه عائد إلى البيت في الصباح "[1]. وكذلك لما رجعت أمه فاطمة من الشام إلى المدينة المنورة وأرادت أن تتزوجي من شخص آخر لا علاقة له من بعيد، فاختلف الشيخ عزيز ضياء على هذا الزواج، واعترض أشد الاعتراض لأنه لا يريد أن تتزوج أمه من رجل آخر كان لا يعرفه أي شخص من أقربائه، وكان هو في الظن بأن والده سيرجع بعد، ولكن من الذي يقول له بأن والده قد مات في الطريق المؤدي إلى أمكنة بعيدة، كما يذكر لنا معبرا عن خواطره وعواطفه مما شعر حينذاك، كقوله " في اللحظات التي كنا نمشي فيها متجهين نحو زقاق القفل يتقدمنا العم محمد سعيد وزوج بدرية، تساءلت: (هل ستزوج أمي هذا الرجل؟؟؟) ولا أدري كيف وجدت نفسي أقول: (لا...لا...أبدا...) ولأعجب من ذلك أني وجدت نفسي أمسك بيد أمي، وأرفع وجهي إليها، وهي لا تزال تغطي وجهها بـ(البيشة) وأقول:

- يافمم... جاكي خبر عن أبويا؟؟؟ جاكي خبر أنو مات؟؟؟

قلت... أو وجهت هذه الأسئلة، في صوت أقرب إلى الهمس... ولكن ما أسرع ما نفضت أمي يدها من يدي... بل وتوقفت ونحن لا نزال في منتصف الزقاق، ورفعت عن وجهها (البيشة) وقالت:

- إيش بتقول ؟؟؟".[2]

ولكن بعد ذلك قد تبدل موقفه الخاص حول زواج أمه إلى النقيض، وأنه قد نسي كل ما فكر عن نفسه، كما عبر عن انطباعاته وأحاسيسه نحو الزواج مكشفا عن موقفه الخاص تجاه الزواج المبروك الذي حدث بين أمه والرجل الجديد الذي كان يعمل في

[1] المرجع نفسه، ص: 11
[2] المرجع نفسه، ص: 333

حكومة العثمانية ضابطا، فهو يقول " لكن مع ذلك وجدت نفسي أفكر في أبي... وأرسم له في ذهني صورة لا أملك إلا أن اعترف اليوم بأنها لم تكن مرضية بأية حال... وحتى عندما رأيت ذلك الحلم في (تاييبه) وسمعت من ذلك المخلوق الواقف على الباب وخلف قضاء ضبابي كلمة "زاهد" لم أشعر من فرحة أو ارتياح لرؤيته أو بالحنين إلى رؤيته مرة أخرى... وكانت مفاجأة قرار ابني وزوجته تسمية الطفل الذي سيرزقانه (زاهد) لا واقع لها إلا في غرابة العلاقة بين الحلم والواقع، لا أعفي أمي من اللوم ولا ألتمس لها العذر في الزواج، ولكن مع ذلك لست راضيا عن هذا الأب الذي تقول أمي إنها لم تتلق عنه أي خبر منذ غادر المدينة قبل الحرب أو قبل هجرة أهل المدينة إلى الشام وحتى اليوم الذي تم فيه طلاقها على مذهب الإمام مالك ثم شهور العدة ثم الزواج... ولا أدري لم ظللت حتى بعد أن شببت عن الطوق لا أتصور أنه مات ولم يعد يهمني في شيء إن كان قد مات أو لا يزال على قيد الحياة..."[1].

وكذلك عندما رزق ابنه ضياء بمولود سماه بعد رؤية وتفكير زاهد على اسم جده، والقصة التي حكاها لنا قصة عجيبة ومستغربة، يقول " أعجب ما في قصة هذه الرؤيا، أني حين عدت من تاييبه إلى بيروت ومنها إلى جدة، فوجئت بأن زوجة ابني ضياء حامل في شهرها الثاني... وأن ابني وزوجته قد اتفقا، من دون سابق علم بالحلم الذي رأيته في تاييبه، أن يكون اسم وليدهما إذا جاء ذكرا... (زاهد)... والأعجب أنهما لم يقولا لي شيئا عن اختيارهما هذا الاسم... وللأمانة أقول إني لم أقص عليهما قصة الحلم الذي رأيته في الصين... بل وللأمان أيضا، لم أكن أعلق، أو اهتم كثيرا، بإحياء أبي (زاهد)، في شخص حفيدي... كانت هذه المسألة لا تعني شيئا بالنسبة لي... فإذا بهما يفاجأني عندما رزقا بوليد ذكر بأنهما سمياه (زاهد)"[2].

وحينما كان يدون عزيز ضياء سيرته الذاتية كان عمر زاهد ضياء عزيز ضياء بن زاهد في الرابعة عشر من عمره آنذاك، وكان أحدا من أبيه في البيت وماكان له أخا

---

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 14

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 358

آخر كقوله " زاهد ضياء عزيز ضياء بن زاهد اليوم في الرابعة عشرة من عمره، في السنة الثالثة من مرحلة الكفاءة... وهو وحيد أبويه... وما زال كلما دخل على مكتبي، أتذكر ذلك الشيخ الذي تجاوز الثمانين من العمر، لم أره قط إلا في الحلم... كما لم أره بعد ذلك، ويدور في ذهني سؤال: ترى هل زارني في ذلك الحلم... ليقول لي، إنه سيظهر في شخص هذا الحفيد؟؟؟ "[1].

ومن المعلوم أن الوالد لعزيز ضياء كان عالما كبيرا، وزاهدا، وورعا، ومتقيا، ومتصلبا في الدين، وراسخ القدم في الفقه الإسلامي، الشريعة الإسلامية، وكان حافظا للقرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة وغيرها من الفنون. وكان عنده خبرات موسعة ومعرفة قوية ومعلومات جمة باللغة الفارسية فضلا عن اللغة التركية. قرأ تفسير القرآن الكريم للإمام البيضاوي وتفسير الكشاف للزمخشري كما يعبر الشيخ عزيز ضياء انطباعاته عن والده الكريم بكل صدق وأمانة فهو يقول " لا يا حبيبي... أبوك ما كان عسكريا... أبوك، كان عالم.. طالب علم... كان حافظ كتاب الله... وحافظ أحاديث البخاري ومسلم..." [2]. ومن صراحته وصدقه اعترافه بأن والده الكريم لم يكن جاهلا بل كان عالما وحافظا وقارئا كما يقول " فإني سمعت منها ومن جدي رحمه الله، وحتى من خالتي أيام مرضها في حلب أنه (زاهد)، وأنه عالم... وأنه (ختم القرآن كله) في صلاة التراويح ليلة 27 رمضان"[3].

ومما لا شك فيه أن وجود الوالد يلعب دورا هاما في حياة كل شخص من الأشخاص، لأن الوالد يحاول كل ما في وسعه في بناء شخصية أولاده، وهو لا يريد أن ينظر أولاده على رتبة صغيرة بل يحلم ويريد أن يكون أولاده في رتبة عالية، ويريد أيضا أن تكون شهرتهم في العالم كله، وأن الأولاد يريدون أن يكون أباهم في قيد الحياة لكي يطلب منهم مما يشتهي ويرغب في حياته اليومية، ولكن الذين يفقدون أباهم في أيام الطفولة ماذا يعتقدون بهم؟ وأما الشيخ عزيز ضياء فكان منهم وأنه لم يجد حب والده

[1] المرجع نفسه، ص: 358

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 81

[3] المرجع نفسه، ص: 256

في أيام الطفولة، بل فقده في سن مبكرة، على الرغم من ذلك كله أنه لم يفقد الأمل والرجاء، ولم يشعر بالحزن والأسى على وفاته كما يقول عنه معترفا بفضله وعظمته في المجتمع العربي " إني لم أكن أشعر بالحزن والأسى رغم كل الصور التي أتصورها لموته... مع أني ما زلت أشعر بحرقة الحزن، والأسى، لموت خالتي خديجة، وبعدها جدي... حتى هذه اللحظات التي أكتب فيها هذه السطور، لا أشعر بالحزن عليه ميتا، غائبا.. كان الشعور الذي يمزق نفسي عندما أرى الأولاد في أيدي آبائهم في الحرم أو في الأسواق هو أني دائما في يد أمي "[1].

ومن المعلوم للجميع أن الكاتب عندما يدون سيرته الذاتية، ويسجل وقائع أحداثه لا بد له أن يكون صادقا وأمينا في القول، فإن لم يكن صادقا، لم يرغب القاريء في قراءة سيرته الذاتية قط. ولم يجد فيه طراوة وحلوة ولذة وإبداعا كما ينبغي. وعندما نطالع هذا الكتاب نجد أن الكاتب يحكي لنا كل قصة من حياته بكل صدق وصراحة، وأنه لم يخفي أي شيء من القراء، بل يظهره إلى حد كثير، وأن هذه الصفات تحرض القراء إلى مطالعته وقراءته، نرى أن معظم الكتاب والمؤلفين الذين يكتبون سيرهم الذاتية يخفون الأشياء من عامة الناس وخاصة من الأقرباء، ولكن أمره يختلف عن الآخرين، كما نقيم قيمة هذا الكتاب ومؤلفه بعد مطالعة هذه المقتبسة التي تدل على صدقه وتواضعه كقوله " ما زلت أذكر إحساسي العميق بالفرحة وأنا أسمعها تعنى بأن آكل، ولمسة يدها على كتفي كان لها في نفسي وقع غريب لا أستطيع التعبير عنه... ولكني ظللت أتمنى أن تتكرر اللمسة لأي سبب، ولعل ما لا يزال يحتاج إلى تفسير هو هذا الشعور بالارتياح لهذه اللمسة من بدرية، مع أن لمسات أمي المماثلة، والحانية من دون شك، والتي تتكرر مرات في اليوم، لا تترك في نفسي هذا الأثر... قد يكون شيء من هذا مفهوما، بالنسبة لمخلوق في مرحلة اليفع أو الشباب، ولكنه يظل غامضا بالنسبة لطفل لم يتم الخامسة من العمر"[2].

[1] المرجع نفسه، ص: 310
[2] المرجع نفسه، ص: 245

وكذلك نقيم قيمة الكتاب بهذه القصة التي حكاها لنا وهي قصة تتعلق ببدرية التي كان يحبها حبا جما في أيامه الطفولة، كما يقول معبرا عن عواطفه وخواطره في وصف بدرية وفي وصف الليلة التي لم يكن ينساها في حياتة " كانت ليلة لا تنسى... ولم أنسها حتى اليوم... فهي الليلة التي لم يغلبني فيها النعاس، ربما لأول مرة طوال سني طفولتي... ليس فقط لأني ظللت أسمع الحديث الهامس الذي ظل يدور بين بدرية وبين أمي، وفيه الكثير من حكايات العم محمد سعيد، والخالة فاطمة، وآخرها حكاية الفتاة التي يقرأ عليها من (اليرقان)، وإنما لأن بدرية كانت بجانبي... أو أنا الذي كنت بجانبها... هذا الذي حصل...إذ كان موقعها بيني وبين أمي... ومع أنهم قد أطفأوا اللمبة (أم فتيلتين) التي كانت تضيء الديوان، وأشعلت بدرية لمبة أخرى معلقة في الجدار ضعيفة الضوء، فقد كانت كافية، أرى على ضوئها بدرية، وقد حررت رأسها من (المحرمة) التي كانت عادة المرأة في تلك الأيام تلف بها رأسها... كان شعر بدرية طويلا، ما كادت تخلصه من تلك المحرمة حتى تهدل، وانسدل على صدرها وكتفيها"[1].

إن التدخين بكافة أشكاله النوعية كالسجائر والأرجيلة وشرب السيجارة والسيكارة من الممارسات الضارة بالصحة العامة والبيئة والمجتمع الإنساني فهو يسبب العديد من الأمراض للمدخن وللمحيطين به، ويسبب تلوث البيئة والمجتمعات البشرية جمعاء كما يضر بميزانية الفرد أو الشخص الواحد، ولعل هذه العادة تليق بها أن تخفيها من عامة القراء، ولكن أمر عزيز ضياء كان مختلفا إلى حد بل أنه لم يخف أي شيء من الأشياء عن القارئين الدارسين بل أظهر كل من عيوبه ونقائصه بصدق وأمانة، كما حدثنا في سيرته الذاتية عن تلك العادة بالتدخين بكل صراحة، وهو يحكي لنا بأنه كيف يكون مبسم السيجارة؟ وكيف يكون مدمنا بالتدخين؟ وكيف أصبح مولعا بهذه العادات القبيحة التي لا جواز لها في الإسلام أيضا، حتى لم يتركها في طول العمر إذ يقول مصرحا ذلك " نهضت وجلست أسمع منه يقرأ لأصحح له ما يرتكب من أخطاء في

[1] المرجع نفسه، ص: 246

قراءة قصيدة شعر من دروس اللغة العربية... ولكن لا أدري كيف لاحظ أني أغالب حالة نعاس أكاد لا أستطيع معها أن أظل مفتوح العينين... فقال وهو يملس كتفي:

- اسمع... أنت نعسان المرة... لكن لو شربت سيجارة واحدة راح يطير عنك النوم... وقبل أن أجيبه بشيء... أخذ (يلف) سيجارة في ورقة خاصة بالدخان الذي كان في علبة أذكر حتى اليوم أنها كانت حمراء وعليها عنوان أو تعريف (سمسون)... وأشعلها... ثم قال:

- هيا... اسحب منها وهي في فمك.

رفضت في البداية.. ولكني وجدت نفسي اسحب منها بين شفتي... ليتسلل الدخان إلى صدري... وكانت نوبة سعال استغرقت دقائق... وكان المفروض أن لا أعود إلى التجربة ولكن عدت إليها... ليس في تلك الليلة فقط إنما كان يوم طول العمر... ولكن لم أكن ألف... بل كنت اشتري علبة فيها عشرون سيجارة... تحمل اسم (ماتوسيان) تستورد من مصر"[1].

لم يذكر الكاتب في هذه السيرة الذاتية من عادات التدخين وشرب السيجارة فقط، بل ذكر لنا بأي نوع من أنواع السيجارة كان يشربها عادة في طول اليوم؟ ومن أي مكان يأتي هذا النوع من السيجارة في المملكة العربية السعودية؟ وكيف أصبح مولعا بها منذ الشباب؟ وكذلك يعترف عن نفسه أن هذه العادة عادة سيئة لا يناسب لأي شخص من الأشخاص أن يتدخنها في الحياة قط، لأن السيجارة مضرة للصحة، ولا فائدة لها في حياتنا اليومية، يذكر معبرا عن انطباعاته عن السيجارة إذ يقول " لاحاجة بي أن أذكر أنواع السجاير التي كنت أدخنها بعد (ماتوسيان) إذ وجد ما كان يسمى (أبو جنيه) يستورد السادة، بن زقر... ثم (الثلاث خمسات) و(الثلاث تسعات) وهذه تتميز (بمبسم) ذهني ولكن الكثيرين كانوا يفضلون (الثلاث ثلاثات).. ثم السجاير الأمريكية التي

[1] ضياء، عزيز، الأعمال الكاملة، الجزء الخامس، ص: 85

أسموها (أبو اسطوانة) وهي (لكي سترايك) ومثلها (أبو جمل)، كانت تجربة لعينة دون شك "[1].

ثالثاً: اللغة والسرد والحوار في الكتاب

إن اللغة هي وعاء الفكر وأساس كل عمل من الأعمال الأدبية والفنية وجماليات الأعمال الأدبية وهي نتاج من استخدام اللغة وكذلك هي أداة التواصل والتوصيل بين الأفراد ووسيلة نعبر عن المشاعر والخواطر والأحاسيس والانفعالات وهي " ظاهرة أو حقيقية اجتماعية تستخدم لكي تثير عند الأفراد الآخرين استجابات محددة "[2]. واللغة هي الوسيلة الأصيلة التي يعبر بها المؤلف أو الكاتب أفكاره الثاقبة وخواطره ومشاعره وتجاربه القاسية كما يرى د. محمد إبراهيم الدبيسي فهو يقول " اللغة هي ما يصل المتلقي بالعمل الأدبي، وهي الوسيلة التي يقدم الكاتب من خلالها بنية النص متكاملة بعناصرها وخصائصها كافة، سواء كان نصاً سيرياً، أو قصصياً، أو روائيا، أو غير ذلك، واللغة بألفاظها ومعانيها: هي الوسيلة الأصيلة، التي يعبر بها الكاتب عن أفكاره، ومشاعره وتجربته، ويصف الأحداث والشخصيات والمكان والزمان"[3].

وقد أبرزت الكتابات السردية إشكالية إزدواجية اللغة، مما أثار خلافا عند المشتغلين بالأدب، نقاد، وكتاب سرديين، فمنذ بزوغ فجر الرواية العربية قد ظهر فريقان: الأول: جنح إلى العامية ووظفها في نصوصه الروائية، ورأى أن استخدامها يظهر التباين الثقافي، والفكري، والاجتماعي بين الشخصيات، ويجعل النص أكثر التصاقًا بالواقع، وأقدر تعبيرًا عنه، وإقناعًا للقاريء بمجريات أحداثه، وأما الفريق الثاني: فرفض توسّل العامية وتمسك بالفصيحة لغة للأدب، وحجته في ذلك، أن العامية لغة فقيرة كل الفقر في مفرداتها، فلا يشمل منتها أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي وهي إلى ذلك مضطربة كل الاضطراب في قواعدها وأساليبها ومعاني ألفاظها وتحديد وظائف الكلمات، فالعامية بذلك محدودة ضيقة لا تملك مرونة التعبير عن

[1] المرجع نفسه، ص: 85

[2] الهواري، أحمد إبراهيم، مصادر في نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر، ص: 77

[3] الدبيسي، د. محمد إبراهيم، حكي الذات السيرة الذاتية لأدباء المدينة المنورة دراسة نقدية، ص: 183

موضوعات علمية أو فلسفية أو أدبية أو غيرها من قضايا ليس لغير الفصيحة الإحاطة بها أو التعبير عنها[1].

وكما أن تلك النصوص الأدبية التي جمع متنها بين الفصيحة والعامية يلمس القاريء تناثرا في الكتابة والتأليف وتشويشا قلقا في الإبقاع يبتدي ذلك بين الصنفين اللغويين أحدهما: فصيح مقيد بأساليب نحوية وصرفية ولغوية وبلاغية ودلالية وثانيهما: منفلت من هذه القيود المذكورة لكنه محاط بزمانية ومكانية وهذا ما جعل " الهاوية موجودة بين اللغتين، فإذا استعملناهما جنبا إلى جنب، واحدة للأوصاف، والأخرى للحوار وجدنا تنافرا في الكتابة يكاد يكون ملموسا، يصدم القاريء عند انتقاله من لغة إلى لغة، ولا يوجد هناك إلا واحد من أمرين، وهو إما أن نكتب كل القصة باللغة العربية، أو كلها باللغة العامية، لنقضي على هذا التباين الشاذ، ونحل محله الألفة والتناسق، وبما أن اللغة العربية هي لغة الكتابة وجب علينا إذن نكتب القصة جميعها أوصافها وحوارها باللغة العربية "[2].

ويرى إبراهيم المازني أن اللغة العامية تصلح للحديث العادي والحوار في المسائل اليومية وللعبارة بها عن الأغراض المألوفة بين الناس عامة، فإذا أردت أن ترتقي بها عن هذه الطبقة وأن تتناول بها حديث العلم أو الأدب، أو الفسلفة أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى قصرت بك، وعجزت عن الوفاء بهذه المطالب، فتحتاج إلى لغة أخرى تستطيع أن تواتيك وتسعفك، لغة أخرى تكون أوفى، وأزخر، وأوفر، مادة وأكثر عناصر، ولا لغة هناك لنا غير اللغة العربية الفصحى التي لا تعد العامية إلا لهجة مشتقة منها[3]. وكذلك يرى المازني أن "اللغة العامية ليست لغة أجنبية، وإنما هي

---

[1] موسى، سامر صدقي محمد، رواية السيرة الذاتية في أدب توفيق الحكيم دراسة نقدية تحليلية، (رسالة الماجستير غير منشورة) ص: 149

[2] السعافين، إبراهيم، تحولات السرد دراسات في الرواية العربية، ص: 74

[3] الهواري، أحمد إبراهيم، مصادر في نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر، ص: 65

لغة عربية محرفة، فهي بنت العربية، وصلتها بها وثيقة، كما هو الحال في كل عامية بالقياس إلى اللغة الصحيحة"[1].

وأما عزيز ضياء فهو يعد من رواد الكتابة السردية الذين تنقلوا بين الفصحى والعامية في انتاجاتهم الأدبية وابداعاتهم الفنية بينما هو من الأدباء الذين كتبوا كتبا كثيرة حول هذا العنوان بأسلوب رائع منمق، ويتميز أسلوبهم بالرشافة والخفة والوضوح والتمكن من إبداع العبارة التي يصل بها إلى ذهن القاريء، فمن خلال هذه التوطئة يخطر سؤال مهم ببال كل من يقرأ ويطالع هذا الكتاب فلماذا لجأ الشيخ عزيز ضياء إلى اللغة العامية فضلا عن العربية الفصحى؟ ولماذا استخدمها إلى هذا الحد؟ وما هو السبب وراء ذلك؟ إن هذه التساؤلات المتكررة تأتي في أذهاننا كما تأتي في أذهان العديد من الباحثين والدارسين بصورة عامة والمشتغلين بقراءة هذه السيرة الذاتية بصورة خاصة.

وعندما نحاول إجابة هذه التساؤلات المتكررة نجدها أن الكاتب لم يذكر أي سبب من الأسباب عن استخدام اللغة العامية في أي جزء من الكتاب، ولكن قد جاء في بعض حواراته ومناقشاته ما يعلل هذا الاتجاه عنده، إذ تعلق بسببين، الأول: فهو يرى أن الإبداع لا يلزم أن يكون بالفصحى، كما يقول " ما الذي يمنع أن يتم الإبداع شعرا أو قصة أو مسرحية أو معالجة سينمائية أو تلفزيونية بهذه اللهجة، أو بغير الفصحى، إن الإبداع يستهدف في حد ذاته الامتاع أو التأثير أو الإثارة، فما الذي يحتم أن يكون بالفصحى، التي يتعذر فهمها على السبعين من الجماهير" وأما ثانيهما: فهو يرى أن في تسجيله للحوار بالعامية تدوين للهجة أهل المدينة في تلك الأيام، ورصد لذلك (التراث) حيث يقول " أما اختيار العامية في الحوار فلأني حاولت أن أكون المدون للهجة أهل المدينة في تلك الأيام... وفي ظني أن ذلك رصد لنوع من التراث لا أستعيد أنه قد ضاع الآن"[2].

---

[1] المرجع نفسه، ص:66

[2] الأخشمي، أحمد الأجشمي الدكتور، عزيز ضياء ناثراً، (رسالة الماجستير غير منشورة)، ص: 314/313

ويقول د. محمد إبراهيم الدبيسي عن استخدامه للهجة العامية "وكان استخدامه للهجة العامية (المحكية)، في نقل وقائع ذلك الحوار، عاملا من عوامل ذلك الصدق، وتلك الواقعية، بما يستوعب دلالات الحوار وإيحاءاته، ومعطياته النفسية الحقيقية، وأبعاده التي تعكس أجواءه لحظة تكوُّنه، ورصد الكاتب لتدفق تفاصيل الوقائع والأحداث والحوار حولها لحظة الكتابة، وقد يغيب تحويله إلى اللغة الفصحى جزءا من تفاصيله، ولوازمه الثقافية والدلالية القارة في تكوين المتحاورين"[1].

وعندما نطالع الكتاب فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة هو أن الشيخ عزيز ضياء لم يكتب الحوارات والمناقشات التي جرت بين الأفراد والأقارب وخاصة بين أمه باللغة العامية فقط، بل أنه كتب الحوارات والمناقشات والمحادثات التي جرت فيما بينهم على ثلاث مستويات الأول: حوار عامي وهو الأكثر والأغلب والثاني: حوار بلهجة مكسرة وذلك عندما يكون أحد أطراف الحوار ممن لا يحسنون اللهجة ولا يستطيعون أن يتكلموا إلا التركية أو غيرها من اللغات الأخرى، والثالث: حوار فصيح، وقد جاء في مواطن متفرقة من سيرته الذاتية، ننقل فيما يلي بعض الكلمات لعزيز ضياء لكي يتضح هذا الأمر، إذ هو يقول مصورا تلك الحوادث المثيرة التي وقعت معه خلال حصار المدينة " قطع الشيخ همسه بالتلاوة ليقول: سوف لن يبقى في المدينة أحد... هكذا أمر الباشا وقد سمعت أنه لم يأمر بإخلاء المدينة إلا بعد أن استأذن السلطان، وسمعت أمي تقول: لكن العم محمد سعيد، ومعه زوجته الخالة فاطمة، والعم عبد القيوم وزوجته خاتون... رفضوا أن يسافروا وهم لا يزالون في بيوتهم، ورأيت جدي يضحك ساخرا وهو يقول: لا يستطيع الباشا إكراههم على السفر، ولكن من أين يأكلون؟ سوف لن يجدوا ما يأكلونه، بعد أقل من شهر... كل الأكل سيوفر للعسكر... وقالت أمي: حسنا... ولكن نحن وهؤلاء الذين يسافرون معنا، إلى أين نذهب؟ إلى الشام بالطبع"[2].

[1] الدبيسي، د. محمد إبراهيم، حكي الذات السيرة الذاتية لأدباء المدينة المنورة دراسة نقدية، ص: 204

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 20/19

وكذلك نرى في سيرته الذاتية بعض الحوارات الفصحى التي قد استعملها الشيخ عزيز ضياء في معظم المواضيع إذ يقول " سمعت أمي تقول لخالتي: يا لطيف... كثيرون ماتوا في الشام... يقولون إنه مرض لا يدخل بيتا إلا ويأخذ أكبر عدد من العائلة، ورددت خالتي: (يالطيف...) رأيت جدي يعود قليل إلى مكانه مبتسما، وهو يقول: " الحمد لله ليس بها شيء... مجرد (دوخة) يظهر أنها حامل، وقد تعبت من السفر"... ثم بعد لحظات سمعت أمي تهمس في أذن خالتي: " وأنتي... عساك طيبة يا خديجة " " الحمد لله " قالتها خديجة وهي تتنهد، ثم حنت رأسها على أخي في حضنها وضمته إلى صدرها، ورددت: " الحمد لله " سرحت بخيال الطفل في هذه الجنة التي أسمع عنها كلما طرأت ذكرى الأموات وعجبت في نفسي وتساءلت لم لا يذهب كل الناس إليها؟ لماذا يتركون الموتى هناك وحدهم ويعودون... وجدتي حميدة التي أذكر أنهم حملوها إلى ذلك المكان البعيد... إلى الجنة كما ظلوا يقولون لي كلما سألت عنها، ترى كيف لم تصحب معها (الشيشة) وأنا لن أنسى أني تسببت في ميلانها وسقوطها وبعثرة قطع الجمر على الأرض عندما رميت بنفسي بين ذراعي جدتي في الديوان"[1].

وكذلك عندما نلقي نظرة عميقة على سيرته الذاتية نجد أنه قد استخدم في بعض الأحيان اللغة العامية بقدر كاف، كما نرى في هذه المقتبسة التالية حيث يقول " عندما تساءلت خالتي قالت أمي:

– أنا شفته شايل معاه الكيس اللي فيه هادي (الأمهار) والأشياء التي بيقول إنها (العدة)

– يكمن رايح يبيعها هيه كمان...

–... لا ياخديجة... هادي ما يبيعها أبدا.. أنا سمعته من زمان يحكي أمي– رحمة الله رحمة الله عليها... أنه تعلم الصنعة من شيخه، اللي وصاه أنو ما يفرط فيها أبدا...

– صنعة؟؟؟ صنعة إيه؟؟؟

[1] المرجع نفسه، ص: 29/28

– ما أدري... لكن أنا شايفه من يوم ما طلب الكيس والتقاه، وفرح لما التقاه، أنها صنعة رايح يشتغل فيها...

– وهوه يا ستيتة عنده عافية يشتغل؟؟؟

– طب... بس لازم يشتغل... ويمكن حتى أنا لازم اشتغل... يا خديجة الحكومة ماعاد بتعطي غير العيش الأسود، و(القنيطة) وعلبة (اللحمة المفرومة) كل حمستاشر يوم...

– أيوه صحيح... وما هو باين متى نرجع المدينة...

– الله يعلم متى... يبقولوا يا خديجة أنو يمكن ما نرجع..

– ما نرجع؟؟؟ طيب، يعني نفضل قاعدين في هادي البلدان؟؟؟ الشام... وحلب...و.

– يمكن يودونا استامبول..

– يا ريت يا ستيتة... أنا يا ما سمعت أمي رحمة الله عليها، تحكينا عن استامبول.

– انتي أصلك ما انتي عارفة إيش اللي حاصل يا خديجة... بيقولوا الكفار... إيوه الكفار بينتصروا على عساكر السلطان"[1].

ومما لا يشوبه شيء من الشك هو أن عزيز ضياء كان واعيا بأهمية التناسب بين واقعية الحوار بالعامية والفصحى، وكان يستعيده راصدا مكوناته وتفصيلاته، كما أعرب انطباعاته وخواطره مذكرا عن الأيام الماضية الأولى مع أمه بعد زواجها برجل جديد، إذ يقول " تنبَّهت على حركة في الغرفة... لأرى على ضوء النهار، أمّي تتجه إليَّ متوجَّسة كأنها تتوخّى ألا توقظني... ولكن حين رأتني أنظر إليها أسرعت إليَّ، وانحنت عليَّ، وأطتني بذراعيها... ضمتنى إلى صدرها... ورفعت وجهي إلى وجهها، وقالت:

[1] المرجع نفسه، ص:53/52

- مادام صحيت... هيّا قوم اغسل لك وجهك... والبس حوايجك، عشان تفطر معانا... كلمة (معانا) هذه ظنّت في كياني كله، إذ جعلتني أشعر لأول مرة أننا... ماذا؟؟؟ أننا مع هذا الرجل، الذي أصبح زوجها... وتساءلت بيني وبين نفسي... ماذا هو بالنسبة لي؟؟؟ كيف أناديه؟؟؟ جميع الرجال الذين مروا بنا، حتى اليوم، كنت أناديهم (عم...) أو (عمّي)... ووجدت في نفسي الجرأة على أن أسألها؟؟؟

- مع مين يا أمي؟؟؟

- معايا أنا و.... وتلعثمت.... ثم التزمت الصمت... وبعد لحظات قالت:

- ياعزيز... معايا أنا أمّك... وهوَّه (عمَّك)...عمّك الدكتور...

نهضت من الفراش مثقلاً...وأخذت يدي في يدها، ومشينا معاً... إلى (بيت الماء) حيث غسلت لي وجهي... ويديَّ... ورجلي أيضا... وعندما عادت إلى الغرفة، حرصت على أن تلبسني الثياب الجديدة... والحذاء... وكان في ذلك الدولاب (الخزانة)، ما بحثت عنه ووجدته... وهو المشط الذي مشَّطت به شعري "[1].

وكذلك ننقل فيما يلي بعض الأمثلة التي تدل على الحوارات العامية، وأن هذه الحوارات قد وقعت بينه وبين صديقه إبراهيم الذي كان يبيع المدافع الكبيرة في أسوق المدينة كقوله " أسرعت أقول لإبراهيم:

- إنتوا عندكم بنادق... ورصاص... تدافعوا عن أنفسكم...؟؟

- عندما بنادق ورصاص... لكن (دادي أمان) هو اللي حاططهم في الدولاب... وخالي هو اللي عنده المفتاح... هواللي يجي يزيت البنادق ويمسحها ويرجع يحطها في الدولاب.

- لكن ما عندكم في البيت رجال غيرك، و(دادتك العجوز) ... مين اللي رايح يدافع عنكم لو دخلوا المدينة؟ نحن عندنا... محمد علي وإسماعيل... وعمي بنفسه... وكما أنا..

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 12

- خالي دايما يقول: هوة عنده جماعته (ورجاله) ولازم ما نخاف من شيء...

- كيف ما نخاف؟؟؟ والناس بيقولوا إن اللي يهجموا ويدخلوا المدينة ما عندهم غير القتل... والدبح بالسيوف والسكاكين...

- بيقولوا كده... وفي الحقيقة أمي خايفة كثير.. لكن خالي بيدبح (طلي) ويعزم جماعته على الغدا أو العشا... ويقول كلهم رايحين يدافعو عننا.. خطر لي، بعد أن وصل بنا الحوار إلى هذا الحد، أن اسأل إبراهيم رأيه في أن تكون عندما مدافع... ورأيت في عيني صديقي مشاعر الدهشة:

- مدافع؟[1].

وكذلك أنه قدم في سيرته الذاتية العديد من الحوارات باللغة الدارجة وخاصة بلهجة مسكرة، كما نقدم فيما يلي بعض الحوار الذي جرى بين أمه وعمه صادق إذ يقول بكل صراحة " لا تخافي... هادا ما يئذي... مادام بتقول إنه ساكن من سنين... لازم ما تخافي منو...

- بسن يا عم صادق، أنا عندي ولد صغير... يمكن يدخل الحنية...

- طيب، ليه ما تطلعوا المجالس... أيام السموم راحت خلاص... وما تحتاجوا الديوان في هادي الأيام.

- بس يعني يا عم صادق، مو يمكن يطلع لنا في المجالس.

- والله يا بنتي ما أدري إيش أقول لك... كل شيء جائز.. أصله البيت كان مهجور طول السنين اللي غبتوها عنه..

- طيب يا عم صادق، ليه ما نشوف أحد يدور في الحنية ويقتله؟؟؟ وهنا رفع العم صادق رأسه، محملقا بعينيه، كأنه قد سمع ما يخيف ويرعب، ثم قال: إصحي... إصحي يا بنتي... يقول لك عقلك تفكري في شيء زي كده... إنتي بتقولي عندك ولد صغير بتحافي عليه...

[1] المرجع نفسه، ص: 195/194

- يعني إيه يا عم صادق؟؟؟
- يعني... يعني لازم تخافي على ولدك من ... من..
- من إيه يا عم صادق؟؟
- ما أدري إيش أقول لك... إسمعي أنا عندي فكرة.
- إيش هيه ياعم صادق؟؟
- تتركو البيت... تنقلو لبيت تاني... وأنا سمعت عندكم بيت في باب المجيدي ليه ما تنتقلو هناك؟؟؟
- بيت باب المجيدي فضيناه قبل ما نسافر.. وما أدري أبويا خلي مفتاحه عند مين..[1]

رابعاً: السارد واستخدام ضمير المتكلم

ومن المعلوم للجميع أن التعبير عن النفس شيء طبيعي يوجد في كل رجل من الرجال على وجه الأرض، وبالطبع أن الإنسان لا يريد أن يعيش منعزلا عن المجتمع الإنساني قط، فإنه يتعلم منه كثيرا جدا، وعندما أصبح قويا في التجربة من حياته الشخصية، فأراد أن يشارك هذه التجربة الناضجة مع الأشخاص الآخرين، في بعض الوقت أنه يقوم بجريمة كبرى في الحياة، ويريد أن يخفيها من أنظار الأقارب والناس الآخرين، لكن ضميره الداخلي يقلقه بأن يعترف بجريمته التي قام بها في طول الحياة، هذه هي الأمور التي تحرض الإنسان على كتابة سيرته الذاتية لكي يتمكن الجيل الجديد القادم من الإطلاع على جوانبه الضعيفة والقوية ومآثره العلمية والأدبية والتاريخية والفكرية التي قام بها الكاتب في طول حياته. ولا يخفى على أحد منا أن السيرة الذاتية أو الترجمة الشخصية تكتب مرة واحدة في الحياة فقط، وليس هو الشيء الذي يكتب مرارا وتكرارا في الحياة، لأن نص السيرة الذاتية نص مهم لدى الكاتب الذي يسجل سيرته الذاتية، وتكتب السيرة الذاتية بعد الخمسين عاما من العمر عامة، وأن جميع التدريبات في السيرة الذاتية يجب أن تكون فيها التعميم، ومن الناحية الهيكلية

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 192

وعمل التذكر يجب أن تكون واضحا تماما في انتاجات التذكير العملية، وأن تكون السيرة الذاتية مرآة صادقة صافية تنعكس فيها الحالات النفسية والعاطفية.

من اللافت للنظر أن السيرة الذاتية تكتب عامة بضمير المتكلم مع تحديد الأحداث والوقائع والتدهور والانهيار والزمان والمكان، ويكون فيها الكاتب أو السارد الشخصية الرئيسية أو البطل الرئيسي الذي يدور حوله كل الكتاب من السيرة الذاتية، على الرغم من ذلك أن هناك أكثر الكتاب والأدباء السابقين الذين سجلوا قصة حياتهم واستخدموا بضمير الغائب مثل: الدكتور طه حسين، الذي قد استخدم في سيرته الذاتية العربية المعنونة بـ" الأيام " ضمير الغائب، وننقل بعض عبارته لكي يثبت هذا الأمر كقوله " لا يذكر لهذا اليوم اسما، ولا يستطيع أن يضعه حيث وضعه الله من الشهر والسنة، بل لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتا بعينه، وإنما يقرب ذلك تقريبا، وأكبر ظنه أن هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره أو في عشائه، يرجع ذلك لأنه يذكر أن وجهه تلقى في ذلك الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف الذي لم نذهب حرارة الشمس، ويرجع ذلك لأنه على جهله حقيقة النور والظلمة يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من البيت نورا هادئا خفيفا لطيفا كأن الظلمة تغشى بعض حواشيه "[1].

وعندما نعود إلى أسلوب عزيز ضياء وابتكاره وجدته ودقته نجد أنه قد استخدم في كل جزء من هذه السيرة الذاتية بصيغة ضمير المتكلم، ولعل استخدامه بصيغة ضمير المتكلم يعود إلى ما عرف عنه من الجرأة والشجاعة والصراحة والصدق والأمانة في القول والفعل، ومن الجدير بالذكر أن الحديث بصيغة المتكلم يقدم لنا تجربة موسعة وخبرات فائقة كما يقول د. ماهر حسن فهمي " والحقيقة أن كاتب السيرة الذاتية حين يستخدم صيغة الغائب يبرئ نفسه أمامنا من مظنة العجب والغرور، لأنه يحول أنظارنا عنه من حين إلى حين، ويدفعنا إلى توهم قراءة رواية واقعية، ولكن تلك الميزة لا تلبث أن تتلاشى، فالحديث بصيغة المتكلم يقدم لنا تجربة عا رية، أما صيغة الغائب فربما كان فيه الإحساس بالهروب من هذا العري النفسي، والتستر وراء الرداء الروائي،

[1] حسين، الدكتور طه، الأيام، ص: 15

فصيغة الغائب تبعد الكاتب درجة عن داخله، وهناك تلازم بين مركز الرؤية وتقديم الصورة، فالمركز البعيد تصعب معه الرؤية الدقيقة للملامح وتستحيل مشاهدة البصمات، وإن كانت تسهل عملية التحليل"[1].

هنا ننقل بعض العبارة من الكتاب لكي يتضح أسلوبه الرائع إذ يقول متحدثا عن أول صباح من حياته " أول صباح في حياتي... من الذي يستطيع أن يتذكر أول صباح في حياته مادام قد استقبل الحياة ذات يوم، ودرج مع الأحياء يستقبل معهم الأصباح كما يستقبل الأماسي، ويرفع عينيه إلى النجوم ويبهره القمر، هلالا، ثم مراحل من استداراته، إلى أن يصبح بدرا... ولكن أنا... أنا أذكر أول صباح في حياتي... أدركه، ولعله حتى بعد أن أوغلت في طريق العمر، وحتى بعد أن رأيت مئات من سويعات الصباح، في طفولتي وصباي وشبابي، بكل ما عرفت في أيام ذلك الشباب من أفراح ومآس، ومن تغلب على المشاق والمتاعب أو اندحار وتراجع أمام الواقع بكل تجهمه وعبوسه... لا أزال أذكر أول صباح في حياتي... وكأنه أول ساعة من عمري "[2].

وعندما ندرس كل أجزاء من هذه السيرة الذاتية فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة هو أن عزيز ضياء قد استخدم بضمير المتكلم في كل أجزائها، ولم يذكر في أي مكان من الأمكنة ضمير الغائب والحاضر معا. فإن هذا الشيء يدل على أن الكاتب هو على حق، وهو صادق وأمين في قوله وفعله، لأنه أظهر خبايا نفسه ولم يخف عن القراء أي شيء يتعلق بحياته الشخصية، كما يتضح من هذه العبارة حيث يقول " حين كنت أمشي في هذا الزقاق المظلم، لم يكن في ذهني أن أعود إلى البين، كان كل تفكيري متجها إلى الذهاب إلى واحد من هذه " البلدان " المزارع– التي تحدث عنها يحي.. ولم يكن السبب هو الخوف من " العلقة " وإنما هو الحياة التي بدت لي جميلة مع الحمير وأحواض البرسيم الخضر كالزمرد... والنخلات الطويلة التي نتسلقها، ونأخذ " النغازي "

[1] فهمي، د. ماهر حسن، السيرة تاريخ وفن)، ص: 252

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 15

الصغيرة من أعشاشها... ولكن كيف؟؟ لا أعرف– حتى اليوم كيف يذهبون إليها– ثم الوقت ليل.. ولم أكن أخاف الليل... فقد عشت في حلب ليالي بطولها في الظلام، وأنا في حضن أمي، نرتعد كلما هدرت أصوات قصف المدافع وزخات الرصاص... ولكن المهم أين الطريق؟؟ "[1].

خامساً: التكرار في الكتاب

قد استخدم الشيخ عزيز ضياء في الكتاب لغة سهلة وساذجة، وأن طريقة السرد والحكاية والكتابة بالأحداث والوقائع عما رأها وشاهدها من خلال الطفولة والصبا جميلة جدا، وعناوينه وفصوله واضحة ، وقد أبعد عن نفسه من استخدامات الألفاظ الصعبة والتراكيب المعقدة والأسلوب الرديء الرذيل، ولكن على الرغم من ذلك كله نرى فيه تكرارا كثيرا جداً، هنا ننقل بعض العبارات للكتاب لكي يتضح أمامنا تكراره إذ يقول عن الشهداء الذين قتلوا في الحروب الدامية المتنوعة " قالت أمي: ربما يكون قد استشهد في الحرب... إننا نسمع من الذين كانوا يقدمون إلى المدينة بهذا (البابور) أن الذين استشهدوا كثيرون، استشهدوا؟؟؟... حبذا لو صدق ظنك فليس أحب عند الله من أن يستشهد المسلم، وهو يجاهد الكفار في هذه الحرب... ولكن زاهد سافر إلى روسيا ليجمع من المسلمين فيها هذه الأموال التي اعتزموا أن يؤسسوا بها الجامعة الإسلامية، والأرجح أنه لايزال هناك ولن نراه قبل أن تنتهي هذه الحرب التي أغلقت الطرق... وأرسل ضحكة ساخرة قصيرة خافتة وهو يرتشف آخر ما في كوبه من الشاي"[2].

وبالعكس أن المؤلف قدم نفس الحديث في الجزء الثاني من هذه السيرة الذاتية كقوله " أبوك يا ولدي، سافر روسيا... قازاقستان... يجمع تبرعات من المسلمين، عشان يعمل الجامعة الإسلامية، التي أمر بها (الباديشاه) بنفسه... وهوه سافر قبل الحرب بسنة... هوة راح من هنا.. والحرب قامت من هنا... يعني هوة ما كان لا في

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 68

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 20

حلب ولا في اسطنبول... كان في روسيا... لما صارت الحرب...ماعاد أحد يقدر يجي من روسيا... ولا أحد يقدر يروح لها..."[1].

وكذلك نرى في هذا الكتاب أن الكاتب قد استخدم كلمة واحدة في كثير من المواضع، ومن خير مثال على ذلك كقوله " الصباح "، الذي قد استخدمه في خمس عشرة مرة على الأقل في صفحتين فقط، لذلك نراه أنه ابتدأ حديثه بعد مقدمة قيمة مطولة بعنوان " أول صباح في عمري " وأن اسم الصباح هو الذي عرضه في هذه السيرة عدة مرات، كما نقوم بالملاحظة من هذا المقتبس الذي يقول فيه عزيز ضياء " إن يكن ذلك الصباح هو أول صباح عرفته، ولم أستطع قط أن أنساه، فإني لا أشك أن جميع الذين كانوا حولي... أمي وجدي وخالتي والفتاة السوداء، وأخي على خاصرتها، وتلك السوداء الأخرى العجوز التي كانت تقفل الصناديق والغرف بعد أن تكدس فيها ما لا حصر له من الأمتعة والأثاث، وتجمع المفاتيح وتنظمها في حبل مجدول من الصوف الأسود، كلهم لو قدر لهم أن يعيشوا حتى اليوم– لما استطاعوا أن ينسو ذلك الصبح"[2].

وكذلك نراه أنه قد استخدم في بعض الأحيان كلمة في صفحة واحدة أكثر من عدة مرات، ومن خير مثال كقوله " كانت هذه (القفة) بالنسبة لي هي المشكلة... إذ من أين لي واحدة منها؟؟؟ أما الزنبيل فمسألته سهلة... ولكن كل متسوق يحمل زنبيلة بيده بنفسه... ظللت أمشي أو أتسكع في هذا السوق محاولا أن أجد الطريقة التي أحصل بها على (القفة) من جهة... ثم الأهم من ذلك قيمتها إذا وجدتها وأردت شراءها، كان أمامي أحد هؤلاء الصبية واقفا خلف شخصية ظاهرة الوجاهة... اقتربت منه، والقفة على رأسه ولا تزال فارغة... وسألته:

– فين يبيعوا هادي القفة؟؟

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 81

[2] المرجع نفسه، ص: 16

– التفت إلى مندهشا، وهو يستعرضني... إذ ما الذي يجعل مخلوقا يرتدي مثل ملابسي، وفي قدميه حذاء لامع، وشعره مسرح بعناية، يسأل عن الدكان الذي يبيعون فيه هذه القفة؟؟؟ أطال النظر والتحديق.."[1].

وكذلك نجد الكثير من التكرار الذي قد استخدمه الكاتب في أكثر المواضع في الكتاب، هنا ننقل بعض النماذج لكي يتضح أمامنا هذا الأمر الصريح كقوله " لفت نظري، كلام كان يدور بالتركية بين أمي ومنكشة و(أمي باجي) عن الغرفة التي ينبغي أن ينصب فيها سرير يسمونه بالتركية (كريوله) وهو سرير اشتراه عمي قبل انتقالنا إلى هذا البيت ببضعة أيام... وازداد إنتباهي ومحاولة فهم الموضوع أن اسمي قد تردد أكثر من مرة، ومعه دعوات (أمي باجي) و (منكشة) وكلمات (إنشاء الله إن شاء الله) عندما تم نصب (الكريوله) هذه في غرفة في الطابق الثاني من البيت، جاؤوها بمرتبة عريضة تملأ عرض السرير، ثم بمجموعة من الأغطية والشراشف... إضافة إلى مخدة بعرض السرير... وأخرى تستند إلى الجدار... وكلها مزخرفة أو مزينة بما يسمي أيامها (كورديلا) حمراء وزرقاء... قلت في نفسي وأنا أرى كل هذه (الزفة) لـ(الكريولة)...غير معقول أن يكون هذا لأمي وزوجها... فإني أعرف سريرهما من الموبيليا بأعمدة الناموسية من الخشب المطعم بالنحاس الذي يلمع كأنه الذهب"[2].

سادساً: تزاحم المعاني والأفكار في الكتاب

وكذلك نجد في هذه الأجزاء الثلاثة وخاصة في الجزءين الأول والثاني تزاحما وتنافسا للمعاني والأفكار وحشدا للمعلومات الكثيرة في نطاق واسع كقوله "جاءت أخبار الحرب، تتلاحق، فيتحدث عنها الناس في المدينة، ولكن من دون أن يدركوا لها معنى، بل من دون أن يعوا أنها تلك التي أخذت تحصد في ميادينها مئات الألوف من الأرواح... سموها (سفر برلك)، وحتى اليوم لا أعرف معنى هذا الاسم على التحديد، رغم أني سمعته مئات المرات... كانوا يسمعون– على سبيل المثال– أسماء الدول التي

[1] المرجع نفسه، ص: 27
[2] المرجع نفسه، ص: 84

دخلت هذه الحرب، ولكن ما أقل الذين يعرفون شيئا واضحا عن هذه الدولة أو تلك... الدولة الوحيدة التي يعرفون عنها الكثير، الذي عايشوه هم، كما عايشه قبلهم آباؤهم وربما أجدادهم، هو الدولة العثمانية... التي يحفظون عن ظهر قلب أنها (الخلافة) وأن الخليفة هو (خادم الحرمين الشريفين) و(خاقان البرين والبحرين... السلطان ابن السلطان.... إلخ) ... وأن هذا السلطان، أو هو (الخليفة)، أو (الباديشاه) موجود في (دار السعادة) ... ودار السعادة هذه- في تلك الأيام- هي (اسطنبول)... وهي (القسطنطينية) التي يحفظون عن ظهر قلب أيضا أنها التي فتحها، وأزاح الكفار عنها، السلطان (محمد الفاتح)، الذي يعلقون في منازلهم صورته على جواده، وفي يده سيفه، وقد أشهره عاليا، يتقدم جحافل جيشه... وفي البحر... أجل في البحر، وليس في البر... لأنه فتح القسطنطينية بالهجوم عليها، وعلى أسوارها العريضة الشاهقة، من البحر..."[1].

إذا قمنا بالنظر والتحليل لهذه المقتبسة المذكورة أعلاه فاتضحت أمامنا هذه الحقيقة الناصعة أن الشيخ عزيز ضياء قد جمع فيها المعلومات الكثيرة والمترادفات المتنوعة إلى حد لا نجدها في مصادر أخرى، كما أنه قد استخدم عدة مرات صيغة اسم الموصول واسم الإشارة وصيغة ضمير الغائب مثل: هو، وهي، وذلك وغيره، وكذلك قد استخدم في كثير من المواضع الأسماء المتعددة مثل: سفر برلك، الدولة العثمانية، وخادم الحرمين الشريفين، وخاقان البحرين والبرين السلطان ابن السلطان الباديشاه دار السعادة، وكذلك قد جمع فيها كثيرا من المترادفات مثل اسطانبول القسطنطينية وغيرها الكثيرة.

وكذلك ينبغي لنا أن نلاحظ نماذج أخرى للتزاحم في المعاني والأفكار ومن أبرز ما يمثل ذلك في هذا المقطع الذي يقول فيه صاحبه بكل صراحة، وهذا أفضل مثال له كقوله " كان كتاب " الشيخ العريف محمد بن سالم " مدرسة لحفظ القرآن الكريم، وتعلم مباديء القراءة والكتابة على اللوح الذي تعلمت بعد بضعة أيام، كيف

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 8/7

أحفظ عن ظهر قلب ما يكتبه " محمد " وهو مساعد الشيخ ولعله من أقاربه، وتعلمت، كيف يمسح بعد الحفظ ثم يطلي أو يدهن بما يسمى " المضر" وهو نوع من مكعبات مستطيلة الشكل من " الطفلة " التي تغمس في الماء، ثم يدهن بها سطح اللوح، ويترك دقائق ليجف، ويبدو أبيض ناصعا يكتب عليه بالقلم " البوص" الذي يغمس في " الدواية " المعالجة بما يسمى الليقة التي تشبع بالحبر الأسود، الذي يتميز بأنه سهل الزوال عن اللوح عند مسحه أو غسله، وقد كان بالنسبة لي مدرسة تعلمت فيها الكثير من التصرفات والسلوكيات التي يجب أن تتم في الخفاء لا يفتضح أمرها عند الشيخ، الذي يعالجها في غالب الأحيان " بالفلكة " والفرش، بالخيزرانة التي لا أدري إن كانت مبلولة بالماء كما قال يحيي، أم جافة... ولكنها على كل حال من النوع " الرفيع الممصوص "، التي تظل " لسعتها " في كف القدم، بحيث يضطر الطفل إلى أن يتعثر في مشيته ربما ليومين"[1].

وكذلك يجب علينا أن نلاحظ مثالا آخر لتزاجم المعاني والأفكار كقوله " سرعان ما برق في ذهني اسم (أبو دربالة) ... الذي نشتري منه (الكوزة المزقرة) و(المقلاع)، وكذلك (المزويقات) و(المداوين) و(العجلة الحديد) التي نطلقها بين فكين من (سيخ)، وننطلق معها في الشارع ويروقنا صوت انطلاقها، ونحن نتسابق في الشارع بها، أبو دربالة، الذي نعرف محله الكبير، في الدكاكين المشرفة على ساحة المناخة من الطابق السفلي (للحماطة)... وقضيت وقتا أفكر فيما إذا كان يوافق على فكرتي في صنع المدفع، وقلت بصوت هامس:

– أنا عندي البارود والقطن... والفتيلة... ويمكن أن أحشوه مع القطن بكمية من الحجارة أو (الدحل) الحديد.."[2].

–

[1] المرجع نفسه، ص: 63
[2] المرجع نفسه، ص: 194

الفصل الثاني

الخصائص البارزة في الكتاب "حياتي مع الجوع والحب والحرب" ومكانته المرموقة لدى الأوساط العلمية والأدبية

لا يخفى على أحد ممن له أدنى إلمام بهذه السيرة الذاتية بأنها تعد وثيقة تاريخية ذات أهمية كبيرة بارزة من شاهد أعيان عايش تلك الفترة من الزمان والمكان، ورأى بعينيه كل ما مر به من أزمات ومحن، والكآبة والحزن والخوف والعذاب، والوحدة والغربة، وسجل كل ذلك في أسلوب علمي أدبي جميل.. فيمكننا القول وليست فيه المبالغة إن هذه السيرة الذاتية خير كتاب ومرجع تاريخي أدبي للنهضة العربية السعودية بصورة عامة وللحركات السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية بصورة خاصة، لذلك عندما ألقينا نظرة عابرة على هذه السيرة نجد أن السيرة الذاتية تتجلى فيها خصائص بارزة ومزايا نادرة لا تعد ولا تحصى، لذلك أود هنا أن اتناول بعض أهم الخصائص التي تمتاز بها هذه السيرة الذاتية عن التراجم الأخرى في الأدب العربي الحديث، ويكفي بنا الإشارة إلى بعص نموذجه فقط لكي تتضح هذه الصفات البارزة وعلى سبيل المثال : أثر الوراثة والبيئة على شخصيته، ومظاهر التغير على صياغة الفردية، وشخصيات مؤثرة في تكوينه الثقافي والديني والإسلامي، وصدقه وأمانته وتواضعه الخلقي والإنساني، وإثباته للتواريخ والأسماء والأماكن وغيرها من الصفات الأخرى.

أولاً: أثر الوراثة والبيئة في شخصيته

عندما نطالع هذه السيرة الذاتية فالأمر المهم الذي يشد انتباهنا بقوة تامة هو أن العوامل الوراثية والبيئية التي قد تركت آثارها العميقة وانعكاساتها في شخصية الشيخ عزيز ضياء الفذة، ومزاجه وخصائصه الخلقية والسلوكية، وأن هذه العوامل الأساسية هي التي قد تركت أيضًا آثارها العميقة في تكوينه السلوكي والفكري والأدبي والفني منذ نعومة أظفاره حتى أيامه الشباب، ولكن هنا ينشأ سؤال مهم في أذهاننا بأن ما هي العوامل الأساسية التي أثرت تأثيرا بالغا في بناء شخصيته الفذة؟ للإجابة على هذا

السؤال المهم عندما نرجع إلى قراءة ومطالعة هذه السيرة الذاتية نجد أن العوامل الأساسية التي أثرت تأثيرا بالغا وتركت آثارها وانعكاساتها على تكوين شخصيته عديدة ومنها: مدرسة الجد التي أثرت تأثيرا عميقا على حياته الشخصية أدبا وخلقا وسلوكا وثقافة، وهي المدرسة الأولى حيث تعلم ودرس أهم دروس الحياة، لأن جده من الأم لم يكن جاهلا عن اللغة العربية وآدابها بل إنه كان رجلا كريما حافظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكان عالما قرأ تفسير القرآن الكريم للزمخشري وللإمام البيضاوي، وكان أستاذا بارزا مرموقا في اللغة الفارسية أيضا كما أشار الأستاذ عزيز ضياء إلى ذلك بقوله " لم يكن جدي يجهل اللغة العربية، فهو– كما كانت أمي تقول– حافظ القرآن الكريم ويحفظ أحاديث الإمام البخاري ومسلم، وقرأ تفسير القرآن، للإمام البيضاوي وتفسير الكشاف للزمخشري، وهو أستاذ في اللغة الفارسية أيضا، ومنه تعلمتها هي، وذلك إلى جانب اللغة التركية بلهجة (التركمان) وكذلك بلهجة (استامبول)... ولكن... رغم كل ذلك كان يصعب عليه فهم اللهجات العامية، والسورية على الخصوص... ولذلك، فقد ظل يسمع من موفق كل ما أفضى به من الأخبار، ثم ما كاد يستأذن مع أم شفيقة وابنتها لطفية، ويخرجوا، حتى طلب من أمي أن تعيد عليه ما سمعه ولم يفهمه "[1].

درس الشيخ عزيز ضياء في البداية دروس الحياة من جده الكريم الذي أثر تأثيرا بالغا في بناء شخصيته الفذة لأنه قد بدأ تهجى أولى الحروف على أيديه، وبدأ تعليمه الابتدائي منه كقوله " أنا أعرف قراءة... هيا نقرأ... قل: بسم الله الرحمن الرحيم..

- بسم الله الرحمن الرحيم
- ماشاء الله... قل... الحمد لله...
- الحمد لله.
- الحمد لله.

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص. 126/ 127

- رب العالمين.
- رب العالمين.
- الرحمن الرحيم
- الرحمن الرحيم

ورأيت وجهه يتهلل ارتياحا... ثم قال:

- كمان... قل: بسم الله الرحمن الرحيم.

وظل يكرر الآيات نفسها من الفاتحة... وأكررها معه إلى أن حفظتها بحيث سردتها عليه من دون توقف عدة مرات أيضا..."[1].

ومن المدرسة الثانية التي أثرت تأثيرا عميقا في تكوينه السلوكي والخلقي منذ نعومة أظفاره هي البيئة والحارة التي ولد عزيز ضياء ونشأ وترعرع في ظلالها، ولعب في طفولته مع أبناء الحارة، وتعلم منهم مبادئ وعادات السلوك وتبادل عواطف الحب والكره والعطف والانتقام، كما أشار إلى ذلك بقوله " لكني، كنت أمر بتجربة هي الأولى من نوعها... ولم أشعر نحو الأطفال حولي بتلك المشاعر التي لا أنساها مع الأطفال في حلب... حيث كانوا يتضاربون... وكل منهم يحاول أن يطرح الآخر على الأرض... أحسست كأني أنتقل بذاكرتي ومشاعري نحو تلك الأيام، حيث كنا نعيش في البيت الذي ماتت فيه خالتي وجدي، ثم في بيت الجيران والرعب الذي لم نعرف الخلاص منه إلا بعد أن وصلنا إلى بيتنا هذا في (زقاق القفل)... ويبدو أن هذه الذكريات قد استغرقتني، إذ لم أشعر بالأيدي التي أخذت تمتد إلى القرطاس وتأخذ منه حبات الحلوى السكرية... ثم بالعم صادق وهو يرفع صوته منتهرا... وهو يقول لي متوترا: قلت لك شيل قرطاسك وروح عنهم... روح البيت..[2].

ومن المدرسة الثالثة التي تركت آثارها وانعكاساتها على شخصيته هي تلك المدارس والمعاهد والمؤسسات التي تعلم فيها دروس القراءة والمطالعة، ودرس التعليم

[1] المرجع نفسه، ص: 120
[2] المرجع نفسه، ص: 316

الابتدائي، وتلقى شيئا من سور القرآن الكريم، كما درس فيها من المرحلة الأولى إلى آخرها، وتعلم الكثير من التصرفات والسلوكيات إذ يقول عن نفسه بكل صراحة " قد كانت بالنسبة لي مدرسة تعلمت فيها الكثير من التصرفات والسلوكيات التي يجب أن تتم في الخفاء لا يفتضح أمرها عند الشيخ، الذي يعالجها في غالب الأحيان "بالفلكة" والفرش، بالخيزرانة التي لا أدري إن كانت مبلولة بالماء كما قال يحيي، أم جافة... ولكنها على كل حال من النوع " الرفيع الممصوص "، التي تظل " لسعتها " في كف القدم، بحيث يضطر الطفل إلى أن يتعثر في مشيته ربما ليومين "[1].

ومن المدرسة الرابعة التي تركت آثارها العميقة على حياته الشخصية هي مدرسة الراقية الهاشمية حيث قد التحق عزيز ضياء أولا للحصول على التعليم والتربية، وحينما قد التحق بها أغلقت بعد مكوثه لعدة سنوات من أسباب، وفيما بعد أراد أن يلتحق بمدرسة الصحة التي قد سمعها من لسان أصدقائي وزملائي الذين كانوا يدرسون فيها آنذاك كثيرا، وقد ظنها أهل بيته مدرسة للطب لكن الحقائق قد انكشفت بعد الالتحاق بها، لأنها ما كانت مدرسة للطب، بل أنها مدرسة للصحة، على أية حال قد التحق عزيز ضياء بهذه المدرسة، وقد تركها بعد قضاء عدة شهور بدون استكمال دراسته وتعليمه، وتعلم الكتابة على الآلة الكاتبة حتى أتقنها، ولما أعلنت مديرية الصحة في مكة عن وظيفة مقيد أوراق فانتقل إليها للحصول على الوظيفة، وتقدم لهذه الوظيفة الشاغرة طلبا متواضعا، وبعد عدة شهور قد عقدت الامتحانات، ثم قام بالمسابقة في هذه الإمتحانات، ونجح وفاز في الامتحان النهائي بدرجة فائقة، ثم التحق بهذه الوظيفة، وعمل فيها لعدة سنوات، ثم تركها وتوجه إلى الحصول على التعليم والتربية في مدرسة أخرى.

ثانياً: شخصيات مؤثرة في بناء شخصيته القوية والجذابة

إذا قمنا باستعراض هذا الكتاب فوجدنا أن الشيخ عزيز ضياء تحدثنا من خلال سيرته الذاتية أهم الشخصيات التي تركت طابعها الخاص في بناء شخصيته القوية

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 63

والجذابة، ومن أهم هذه الشخصيات المتميزة الأولى التي أثرت تأثيرا عميقا على حياته كانت هي شخصية أمه الحنون، التي وأنجبته ودرسته دراسة الحياة العامة، ومن المعلوم للجميع أن لكل أي أم من الأمهات لها فضل كبير في بناء المجتمع الإنساني، وهي المدرسة المربية التي تنشئ الأجيال الصاعدة، فإن تصلح الأم يصلح المجتمع كله، وللأم مكانة عظيمة سواء في الاعتبارات الاجتماعية أو الدينية، وتعتبر علاقة الإنسان بأمه من أشد العلاقات الودية متانة ورسوخا وحميمة منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان على وجه الأرض، فالإنسان بشكل عام يحتاج إلى أمه في كل مرحلة من مراحل حياته الفردية منذ ولادته مرورا إلى الشباب حتى إلى كهولته، وقد أدرك المجتمع البشري قديما وحديثا أهمية الأم في الحياة الإنسانية.

وأما بالنسبة إلى والدته فلها فضل كبير وإحسان عظيم في بناء شخصيته في المجتمع العربي، فهي الأم التي حرصت حرصا شديدا على تعليم ابنها عزيز ضياء، وأنها أرادت وحلمت أن يكون ولدها العزيز شيخا كبيرا وعالما عظيما كوالده الكريم الذي كان يعد من أهم العلماء والأتقياء في المملكة العربية السعودية وخارجها، وكانت له مكانة عظيمة لدى الأوساط العلمية والأدبية في المدينة المنورة وخارجها، نظرا لهذه الغاية أنها أدخلته في إحدى الكتاتيب في المدينة المنورة، ثم أدخلته في المدرسة الراقية الهاشمية حيث تعلم العلوم الدينية من التفسير والحديث النبوي الشريف وأصول الفقه وأسرار الشريعة والعلوم العربية الأدبية من النحو والصرف والبلاغة والفلسفة وما إلى ذلك من العلوم الأخرى.

وفضلا عن أمه الكريمة هناك عدد لا بأس به من أهم الشخصيات البارزة التي أثرت تأثيرا للغاية في حياته الشخصية ومن أهمها شخصية خالته خديجة، وهي التي نشأ وترعرع تحت ظلها العاطفية، كما يذكر متحدثا عنها في سيرته الذاتية قائلا " أما خالتي خديجة، فقد ظهر بوضوح أنها تشعر بسعادة غامرة، منذ جاءتها بشرى قرب مجيء عبد الغني... وفي تلك الغرفة التي أحسنت تأثيثها لتافت باجي ومعها أمي رأيتها على ذلك السرير الجميل من النحاس، وأغطيته الوردية اللون، ووسائده المؤطرة

بالدانتيلا... وهو صغير، لشخص واحد، قالت لتافت باجي إنه كان السرير الذي تنام عليه سيدتها الصغيرة الشابة..... لا بد أن أقول اليوم، إنها كانت جميلة.. بل قد لا أبالغ إذا قلت، إني حتى اليوم وبعد هذا العمر الطويل، ما زلت أذكر جمالها الرائع "[1].

وعندما توفيت خالته فشعر بالحزن والقلق الشديد حتى لا يتمالك على نفسه، ولم يستطع أن يتحمل هذه الحادثة الكبرى التي وقعت معه، والحقيقة أن هذه الحادثة قد هزته هزا عنيفا، وقد أثرت في نفسه تأثيرا عميقا كقوله " لم أكن، بطبيعة الحال، أحتاج إلى فطنة أو ذكاء، لأستوعب فكرة أن خالتي قد ماتت، كما مات قبلها رضيعها عبد المعين، وشقيقي عبد الغفور... وكما يموت هؤلاء الذين تلتقطهم عربات نقل الموتى من الشوارع والطرقات.. "[2]. وأضاف قائلا " اليوم... بعد هذا الترحال الطويل في دروب الحياة... وأنا أكتب هذه المذكرات أو الذكريات، تزدحم في القاع السحيق من أغوار النفس، الكثير من مشاعر الحزن والأسى ومشاهد الفجائع والحسرات، ولكن هذا الحزن الذي أطبق على قلبي يوم ماتت تلك الخالتة الحبيبة، كان هو أول الأحزان وأبعدها أثرا وتأثيرا في النفس"[3].

ومن أهم الشخصيات البارزة التي أثرت تأثيرا عميقا في صقل شخصيته هي شخصية أستاذه أحمد السناري الذي يعد من أكبر العلماء الأفذاذ والأدباء الجهابذة العرب، وهو الذي ألقى في قلبه حب الاطلاع على الأدب وقراءته ومطالعته بقواعده النحوية والصرفية ، كما نراه يقول في سيرة الذاتية معترفا بفضله وإحسانه العظيم " لتعشقي الحرف قصة تحدثت عنها كثيرا أو مرارا، يعرف عنها أو بعضها الأستاذ/ محمد حسين زيدان بالذات، كنت في مكة ولكن تكن لي علاقة لا بالأدب، ولا بالشعر، وكنت مع زملاء في المدرسة، زعموا لنا أنها مدرسة طب، وهكذا ظننا خاطئين، واكتشفنا بعد وصولنا مكة، وبقائنا فيها بضعة أشهر، أنها مدرسة تمريض، وانحدرت مدرسة التمريض هذه إلى حد أننا أصبحنا مكلفين بأخذ درجة حرارة المرضى المصابين

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 80/79
[2] المرجع نفسه، ص: 99
[3] المرجع نفسه، ص: 102

بالسل، والإسهال، وأمراض أخرى معدية. (وهو يضيف قائلا) جاء الأستاذ، أحمد سناري لزيارة الأخ والزميل أيامها، فؤاد وفا أخي طلعت وفا من رجال الشرطة، وكذلك فهمي الحساني– الله يرحمه– وأحضر معه كتابا في يده اسمه "العواصف والعواطف" لجبران خليل جبران، ولم أكن أيامها أدري، أو أعرف، جبران أو غير جبران وإنما الأستاذ /أحمد السناري أحضر هذا الكتاب معه، وعندما خرج مع أصدقائه نسي الكتاب في الغرفة، فأخذته، وأخذت أقرأ منه شيئا.... فأعجبني الكلام ولأول مرة أعرف أن الكلمة لها سحر"[1].

وكذلك من أبرز الشخصيات التي أثرت في قلبه طابعها الخاص الثقافي تأثيرا عميقا هي شخصية مدير مدرسة الدكتور خير القباني الذي له فضل كبير وإحسان عظيم في الاعتناء به وتوجيهه، كما أشار المؤلف إلى ذلك كقوله " قد يحسن بي أن أعود إلى الدكتور خيري القباني الذي قلت إنه صاحب الفضل في ذلك الحافز على الاهتمام بالدراسة بغرض التفوق، لأن هذه الدروس قد تفيدني عندما ألتحق– يوما ما– بكلية الطب في الخارج... كان بحمد الله هو الذي يقوم بكتابة جميع رسائل مديرية الصحة العامة على تلك الآلة التي ظننت في البداية أنها جهاز إرسال للتغرافات، ثم رآني أقف إلى جانبه وفي ملامحي مشاعر الدهشة والاستغراب، فقال لي إنها (الآلة الكاتبة) التي تطبع كلمات الرسائل، وليس ما يمنع أن أتعلم منه الكتابة بواسطتها... وأجلسني أمامها على الكرسي الذي كان يرتفقه، وأخذ يشرح لي كيف أكتب... وبعد أن وجد أني قد فهمت وضع أمامي جريدة– وحدد لي عمودا من الصفحة وهو يقول: أكتب هذا الكلام المكتوب في الجريدة عدة مرات إلى أن تتعب..."[2].

وكذلك من الشخصيات البارزة التي قامت بدورها الهام في تكوينه الثقافي والحضاري هي شخصية أستاذه البارز سعد الدين بشار الذي يعد من الأساتذة البارعين والأكاديمين الماهرين، ومن الأمور المستغربة كان الأستاذ سعد الدين بشار أديبا بارعا،

[1] كتاب الإثنينية حفل تكريم الأستاذ عزيز ضياء بتاريخ 1403/05/29هجـ.

[2] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 270

وكانت لديه خبرات موسعة ومهارات فائقة في العلوم الفنون وخاصة في اللغات الأجنبية مثل: اللغة الإنجليزية والفرنسية التركية، وهو الذي غرس في قلبه حب اللغة الإنجليزية نطقا وتحدثا وكتابة كما يقول بكل صراحة " إن الذي حبب إلى اللغة الإنجليزية في الواقع هو رجل اسمه سعد الدين بشار كان جارنا".[1]

ثالثاً: صدقه وتواضعه وإثباته لسرد التاريخ

لا يخفى على الداني والقاصى بأن هذه السيرة الذاتية تعتبر من أهم الكتب الأدبية في الأدب العربي السعودي بصفات الصدق والصراحة والتواضع الخلقي والثقافي والحضاري والنموذج الأدبي والإثبات للتواريخ والأسماء والأماكن السائدة في المملكة العربية السعودية والشام، ومن تواضعه وصدقه بأنه لم يكن أديبا أو كاتبا أو ناقدا كبيرا مثل الأدباء الآخرين، بل أنه يدعي عن نفسه دائما كتلميذ بليد لا يرغب في القراءة والمطالعة قط، كما أشار إلى ذلك معبرا عن تواضعه الخاص على القراء كقوله " اليوم حين يحتفل بي الابن عبد المقصود يحرجني كثيرا، إلا أنني أشعر دائما أن ألقاب الأستاذية التي أفاض وأغدقها علي الأستاذ/ حسين نجار، وجرت عادة الأستاذ عبد المجيد شبكشي أن يرددها في كل مناسبة، وفي كل لقاء، وهذه الألقاب لا أستحقها في الواقع، لأني أكرر ومنذ زمن طويل أنني لست أكثر من طالب علم، وليس هذا تواضعا، ولا رغبة لمزيد من الثناء، بل هي الحقيقة، فإني ما أزال طالب علم، بل لعلي في هذه الأيام أدهش كثيرا عندما أجد أنني قرأت كتابا في زمن ما، ثم آخذه بين يدي فأجد أنني قد نسيته، فأضطر إلى قراءته مرة ثانية، ومن هذه الزاوية يمكن أن أقول إني طالب علم بليد أيضا"[2].

وكذلك من صدقه وتواضعه اعترافه بالحقائق الناصعة التي حدثت معه حينما كان تلميذا في مدرسة الصحة، حيث وقعت معه حادثة رهيبة مخيفة ومعذبة هزته هزا شديدا لا ينساها قط في الحياة، بل يتذكرها دائما ويقصها على الذي يأتي إليه من رجال

[1] كتاب الإثنينية حفل تكريم الأستاذ عزيز ضياء بتاريخ 1403/05/29هجـ.
[2] المرجع نفسه.

وشيوخ وأولاد، ننقل هنا هذه الحادثة التي حدثت معه خلال الطفولة في المدرسة إذ يقول متحدثا عنها بشيء من التفصيل كقوله " ثم حدثت حادثة الهرب من مدرسة الصحة هذه بعد خناقة ومضاربة مع أحد الأطباء– الله يذكره بالخير إن كان حيا وأن يتغمده برحمته، إن كان ميتا– هذا الدكتور كان عنيفا جدا بالرغم من أنه قصير القامة، ضئيل الجسم، لكني كنت أضأل منه فكان هذا سببا يجعله حريصا على أن يتكبر علي من دون إخواني كلهم، وكانوا قد كلفوني مسؤولية الإشراف على قسم فيه حوالي عشرين أو ثلاثين مريضا كلهم مصابون بالسل.

– فأنا مكلف أن أحضر في الصباح قبل شروق الشمس، لأقيس درجة حرارة هؤلاء المسلولين، وأقوم بتسجيل درجة الحرارة في الورقة المعدة لذلك، محددا الساعة التي تم فيها قياس الحرارة.

– في الواقع إني أعترف: كنت أرتكب حماقة، وإهمالا، وعدم مبالاة، فلا أقوم بالتأكد من درجات الحرارة، كنت أضع مقياس درجة الحرارة في فم المريض، ثم أضعه في فم المريض الذي يليه وأكتب درجة الحرارة التي اختارها

– لاحظ الدكتور تصرفي هذا، فأصر على أن يتخذ ضدي موقفا يعاقبني فيه على سوء تصرفي، وأظن أن له حقا في الواقع، لكنني تضايقت.

– لقد كنت مجرما في هذه الحكاية، وأنا أعترف بذلك، ولكن... أيامها كنت شابا يافعا وكلهم مرضى بالسل، وعلمت أن جرثوم السل ينتقل في الهواء، والبنية الضعيفة تأخذه بسرعة، ولذلك وهربا من مرضى السل بل من القسم كله قمت بارتكاب هذه الحماقة، بل الجريمة على الأصح، وعندما لاحظني الدكتور أصر على مجازاتي وأخذ يوغر صدر المدير علي، وكان المسؤولون يطلبون منه أن يرفق بي لصغر سني، ورجعت أعمل معه لكنه شدد علي الخناق، وأخذ يزداد شدة في مراقبتي، وكان يساعدني في عملي مساعد، يقوم بكنس الغرفة، ورأي هذا المساعد واسمه/ محمد الأسود المعاملة السيئة لاتي يعاملني بها الدكتور، فقال لي: أعتقد أن هذا الدكتور لا يريد أن يعفيك ولا

يعفيني، بل يرغب أن ينكد عليك، قلت له: ما رأيك؟ قال: إذا حضر غدا فسوف أمسكه لك، وأنت عليك أن تعلمه درسا لا ينساه "[1].

وكذلك كونه ساردا يسرد هذه الحكاية معترفا بحماقته وإهماله، إذ يقول مذكرا عن الحادثة " في اليوم الثاني، جاء الدكتور بالفعل كعادته بعد حضوري بقليل، وقد كنت أحضر قبله، وكان من الضروري أن نسير وراءه عند تفقده للأقسام، فلما رآني، قال: أما تستحي؟ ألا تريد أن تترك عادتك؟ قلت له: لا تطول لسانك يا دكتور، أعني شيئا كثيرا قال، أتهددني؟ قلت له: نعم! وفي هذه اللحظة أمسك محمد الأسود به وتوليت ضربه على الفور، خرجت من باب المستشفى، وتوجهت إلى وكيل لي اسمه الشيخ/ عبد العزيز– الله يرحمه– في الشامية واختبأت عنده، وكان للشيخ عبد العزيز زوجة تسكن معه في البيب، فأخبرت بالحكاية كلها كيت، وكيت وكيت، فقال لي: هذه مصيبة كبيرة، قلت له: فعلا ولكن أريدك أن ترسلني إلى المدينة، قال: عليك أن تلتزم الصمت حتى نرى ماذا سيحدث؟ وفي صباح اليوم الثاني، سمعنا المنادي ينادي معلنا عن ضياعي أو ما في معناه، إذ كان المنادي في ذلك الوقت هو وسيلة الإعلان الوحيدة"[2].

هذه حقيقة جلية بأن هذه السيرة الذاتية تختص بصفة إثبات التواريخ والإفصاح عن أسماء الشخصيات والأماكن في المملكة، وتمتاز بها من التراجم الذاتية العربية الأخرى، حينما نقرأ من أولها إلى آخرها نشعر بأن هذه السيرة الذاتية أقرب من كتب التاريخ إلى حد، وأن هذه التواريخ والأماكن والأسماء تجعلنا نستفيد كثيرا من الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وليست فيه المبالغة لو قيل إنها مهمة جدا ومرجع كبير هام للطلاب والباحثين الدارسين في الجامعات العالمية بصورة خاصة وفي الجامعات الهندية بصورة عامة.

---

[1] المرجع نفسه.
[2] المرجع نفسه.

رابعاً: أهمية الكتاب ومكانته المرموقة عند الأوساط العلمية والأدبية

عندما نلقي نظرة عميقة على هذا الكتاب نجد أنه هو خير كتاب ومرجع تاريخي للحجاز والطائف ونجد وخاصة المدينة المنورة حيث قد استخدم المؤلف المحسنات والبدائع والصنائع من الجمل والتراكيب والأساليب وما عداها، ولا يقصد بها التأنق أو التصنع أو التكلف معنويا أو لفظيا، بل يهدف بها إلى الإبانة والفصاحة، قد استخدم المؤلف فيه أسلوبا رائعا خاليا من الحشو والتعقيد اللفظي والمعنوي كما يقول الشيخ عبد العزيز الرفاعي واصفا الكتاب " الروعة في هذه الحلقات أن الأستاذ عزيز يتحدث في شمولية ودقة ودقائق الحياة على ذلك العهد... اللهجة وطريقة التعبير، طريقة الحياة، وكيف كان الناس يتواصلون، ويتحاربون، ويتجاورون، ويقتسمون لقمة العيش في أشد الظروف قسوة وكربا "[1].

هذه حقيقة ناصعة لا تخفى على أحد بأن كتاب "حياتي مع الجوع والحب والحرب" يعتبر من أروع وأجود الكتب الأدبية التي ألفها الكاتب في هذا الفن الأدبي بأسلوبه الخاص، وأن الكتاب دون شك هو مرجع مهم للطلاب والباحثين الدارسين الذين يريدون أن يبحثوا عن موضوع السيرة الذاتية في الأدب السعودي، لأنه مملوء بالمعلومات القيمة والمواد النادرة عن تاريخ المملكة العربية السعودية قبل تأسيسها وبعدها، كما يقول الباحث الشيخ يزيد في مدونته الإلكترونية في وصف الكتاب وقيمته لدى الأوساط العلمية والفكرية والأدبية " عزيز ضياء، عندما قرأت سيرته الذاتية كدت أن أشعر بأن سبب وسر بقاءه الوحيد ونجاته بعد كل ما عاناه في طفولته من أهوال الجوع والحرب والمرض حتى يكتب سيرته هذه المفعمة بالأحداث، حتى يكون رسولا لما حدث ويخبرنا بتفاصيل غائبه ولم تؤرخ من الأشخاص من الذين عاشوا في ذلك الزمان والعاصف، عقليته الفذة وأنقاده المتحمس للحياة كان واضحا وجليا من خلال سيرته الذاتية وكتابه (حياتي مع الجوع والحب والحرب) بجزئيه الأول والثاني... سبب قراءتي

[1] جريدة الرياض عدد 6331 بتاريخ 02/9/ 1406هـ.

لكتاب أساسا لمعرفة قصة سفر برلك الشهيرة، ومالذي حدث بالضبط خلال تلك الفترة من أحداث مع نهاية الدولة العثمانية ومن بعدها مع دولة آل سعود، مع كل هذه التحولات الكبرى في المنطقة والتي شكلت هذه الرواية الجميلة حتى تظهر بكل تفاصيلها، عزيز ضياء كان يحق شاهد على العصر ومجرياته ويملك عين فاحصه للتاريخ جعلني وكأني كنت أعيش الأحداث بنفسي من خلال نقله للتفاصيل، لكم تمينت أنه أنهى روايته بجزءها الثالث، ربما لا تصدقون مشاعري وأنا أبحث عن عزيز ضياء من خلال صفحات الإنترنت، عن جميع تفاصيله، وأنصح الجميع بقراءة سيرته الذاتية الغامرة بالأحداث في الحجازية، وتغير من أفضل الروايات السعودية التي قرأتها حتى الآن "[1].

قد استخدم المؤلف في سيرته الذاتية في كافة الأجزاء من البداية إلى النهاية بصيغة المتكلم، وقد أبعد نفسه عن استخدامات الكلمات المعقدة، بل قد اتبع فيها على طريقة خاصة ومناهج خاصة، واختار أسلوبه الخاص وهو أسلوب السجع والاستطراد كما يقول د. محمد إبراهيم الدبيسي في الأسلوب الأدبي للكتاب " وهو ما يعني أن أسلوب عزيز ضياء، قد جاء مستوعبا للمستويات الأسلوبية والأدائية اللغوية المتنوعة، وتميز بتحقيق التوازن بين الوظيفي والجمالي في تشكيل الأسلوب، كما أن تحقق ما وصفه الزهراني بـ(الوظيفية التعبيرية الشعرية) لديه، تجعله مختلفا عن كتاب السيرة الذاتية المدينيين، بوعيه بخواص اللغة وجماليات الأسلوب، وإفادته من طاقات اللغة، وإمكاناته في استثمارها للتعبير عن تجاربه الحياتية، وتقديمها للملتقى بهذا المستوى الرفيع من الصياغة، والتكوين المتقن لعناصرها، سواء بخواص الألفاظ المفردة دلالياً، أو بالتراكيب الجميلة ونظمه المميز لها"[2].

ولا شك فيه أن عزيز ضياء كتب سيرته الذاتية وصور فيها عن نفسه وزمانه ومكانه وثقافته ودينه وحوادثه الكثيرة مما مر بها أحسن تصوير لمجتمعه، فسيرته

[1] https://yazeed.me/2015/11/12/

[2] الدبيسي، د. محمد إبراهيم، حكي الذات السيرة الذاتية لأدباء المدينة المنورة – دراسة نقدية، ص: 208

الذاتية تحتوي الجوانب كلها لحياته من نعومة أظفاره إلى العشرين من عمره، وتحدث فيها قصة لطفولته وشبابه وأهل بيته وعائلته ملقيا الضوء على زملائه وأصدقائه الذين كان يلعب معهم في شوارع المدينة المنورة، كما حكى لنا تجاربه وانطباعاته في الكتاب ومدرسة الطب متحدثا عن أبيه وجده وخالته وأساتذته الكرام الذين قد استفاد منهم كثيرا، وسلط الضوء على رحلاته التي قام بها بالقطار مع بعض أهله إلى مدينة حلب وحماة وتنقلاته بين عدد كثير من مدن الشام، وعبر فيها خواطره ومشاعره عن جوعه وفقره وعذابه مما شعر عن نفسه مع الناس الآخرين، وكذلك سلط ضوءا بشيء من التفصيل على خدماته ووظيفته في مجال العلم والأدب والثقافة والتاريخ وعلى الجملة أنه جمع فيها الصغير والكبير تماما عن حياته الشخصية الفردية.

حينما يقرأ القاريء بهذه السيرة الذاتية يجد في نفسه طراوة ولذة ومتعة وابداعا، وإنه لا يود أن يتركها إلا بعد اختتام فصولها الكاملة، والكتاب لم يزل ولا يزال يزيد قيمته يوما فيوما كما يقول محمد علاقي في وصف الكتاب بكل صراحة " ربما لم أسعد منذ سنوات بقراءة سيرة ذاتية كما سعدت، مؤخرا، بقراءة "حياتي مع الجوع والحب والحرب" للكاتب المبدع الراحل عزيز ضياء(1914-1999) وهو كتاب ليس بالجديد في تاريخ صدوره، فقد طبع في عام 1995م، ولكنه أحد هذه الكتب التي لا تفقد قيمتها، بل تزداد ثمنا بمرور الوقت، ليس فقط لقيمته الروائية، وإنما لتأريخه تأريخا دقيقا لحقبة زمنية ممتدة من الحرب العالمية الأولى إلى الثانية، وهي فترة ثرية بالأحداث التاريخية والمتغيرات الاجتماعية في الحجاز، حقبة ندر فيها الانتاج الأدبي في مجال السيرة الذاتية المحتوية على تفاصيل تاريخية بالغة الأهمية وغير معروفة للأجيال الحالية، إنه نتاج رائع يمثل ما يسميه علماء التاريخ History from below وهو فرع من علم التاريخ يتناول التاريخ من وجهة نظر الأفراد العاديين.. إنه تاريخ الناس عن

الناس– ومن أفواههم وأقلامهم يروون ما عاصروه من أحداث وما رأوه من تبعات لأحداث مهمة غيرت حياتهم كما غيرت حياة الألوف غيرهم– للأبد"[1].

ويعترف الشيخ أحلام محمد علاقي عن قيمة الكتاب وأهميته البالغة لدى الأوساط العلمية والفكرية والأدبية، وإنه يتأثر برصانة أسلوبه الرصين إلى حد حتى يدافع عن نفسه بأنه يستحق ويليق به أن يدرس في الجامعات الاسلامية العربية العريقة على مستوى العالمية، كما يقول متحدثا عنه " إنها سيرة ذاتية أكثر من رائعة– تستحق ليس فقط القراءة، بل وأن تدرس في جامعاتنا كمثال لسيرة ذاتية محلية على مستوى العالمية بل وتفوق على كثير منها بلا أي مبالغة إنها قصة إنسان في صراع أهوال الحرب وقصة قوة النفس الإنسانية وقدرتها على البقاء والإبداع بعد الألم والحرمان والخوف، أما تلك الأم– وقد أهدى عزيز ضياء كتابه إليها– فهي بحق بطلة القصة، وتكاد تكون تجسيدا دقيقا لرمز الأم في كل الثقافات الكائن الذي يعطي بلا حدود وبلا مقابل "[2].

وبعد ذلك أن الباحث الأستاذ أحلام محمد علاقي يقوم بالمقارنة بين هذه السيرة الذاتية وسيرة الدكتور طه حسين، ثم أنه يفضل سيرة عزيز ضياء على سيرة طه حسين كما يقول معترفا بقيمته العالية لدى الأوساط العلمية الأدبية " من أجمل ما في الكتاب، وهو من أجزاء ثلاثة، دقة التصوير السينمائي في سرد الحدث من بؤرة ترتكز على أحاسيس الطفل الصغير وانفعالاته، وبلغة أهل السينما فإن الفوكالايزر يرتكز على الطفل ويمنحه قوة التعبير لإيصال الحدث وتكوين الصورة، ولعل من قرأ أيام طه حسين يستدرك الفرق في السرد بين السيرتين– فضمير الشخص الثالث في أيام طه حسين يولد انفصال– مقصود من الكاتب– بينه وبين الشخصية في السيرة ولكن ضمير المتحدث في سيرة ضياء يمنح الحدث قربا وحميمة مقصودة، ما يساهم في تقريبه للقاريء وطي المسافة بين الورق والواقع باختصار– إنها سيرة جميلة، رائعة رغم كل

[1] مجلة عكاظ بتاريخ 3 ذوالقعدة 1434هـ المصادف 7 سبتمبر عام 2013 المنشورة على شبكة http://okaz.com.sa/article/603738

[2] المرجع نفسه.

ألمها– وجزء من تراث تاريخي وروائي وأدبي يستحق التقدير والانتشار، فما أشد حاجتنا اليوم كجيل الإنستجرام والواتساب لأعمال هادفة تثقيفية وتعليمية تعيد تذكيرنا بتاريخنا الذي لا نعرف عنه إلا القليل "[1].

وبالطبع ما قرأت هذه السيرة الذاتية إلا أكثر من خمس مرات، قرأت ثلاث مرات حرفا حرفا ومرتين استقصائيا، ولكن أن هناك عددا كبيرا من القارئين الذين درسوها أكثر من عشر مرات حسب ذوقهم الخاص، ولكن من وجهة نظري ليس أمرا مهما بأن كم مرة قرأناها، بل من الأمر المهم هو بكم فهمناها بعد القراءة والمطالعة، كذلك هناك عدد كثير من الدارسين والقارئين الذين قرأوها مرة واحدة فقط ولكن تفكيره واسع وفكرته عميقة بالنسبة إلى القراء الآخرين، كما نرى الباحث فيصل أكرم الذي قرأها مرة فقط ولكن آرائه الثاقبة عن هذه السيرة ذو اهتمام بالغ، كما يقول في وصف هذه السيرة الذاتية " في الواقع أنني حين قرأت (حياتي مع الجوع والحب والحرب) للمرة الأولى، قبل أكثر من عشر سنين، أخذت على المؤلف المأخذ نفسه وكنت أحبذ أن تكون اللغة فصحى حتى في الحوارات... ولكني الآن حين أعيد القراءة بشيء من البعد عن (اللهجة) الحجازية التي بدأت في الذوبان بين مختلف اللهجات باعتمادها وغيرها من اللهجات المحلية على كثير من مفردات الفصحى (أو اللغة الرسمية الوسط)، صار الكتاب بالنسبة لي (ذاكرة) بكل فقراته المتضمنة للأحداث العامة عن تلك المرحلة من عمر الحجاز بما كان يدور من حوارات (بيتوتية) بين أفراد الأسرة الحجازية (المدنية) وهي لا تختلف كثيرا عن الأسرة (المكية) والحجازية عموما "[2].

ومجمل القول إن الأستاذ ضياء يمتاز بصفته شخصية بارزة فذة في كل حقل من حقول العلم والمعرفة، وله قدرات متكافئة وخبرات موسعة في اللغة العربية والإنجليزية والتركية وعداها، كتب سيرته الذاتية بأسلوب قيم يمتاز بالسهولة والجزالة والفصاحة والبلاغة وغيرها، وأحاط المؤلف في هذا الكتاب جميع أصناف البدائع

---

[1] المرجع نفسه.

[2] المجلة الثقافية بتاريخ يوم الخميس 27 ذوالقعدة 1431هجـ المنشورة على شبكة الإنترنت-http://www.al-jazirah.com/culture/2010/04112010/fadaat19.htm

والصنائع التي كانت موجودة آنذاك، والكاتب له مهارة تامة في الموضوعات والقضايا السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية التي عالجها في هذا الكتاب بحيث لا نجد أي كاتب مبدع أو مؤلف بارع وعالم كبير في العرب والغرب كان يتقن اللغة العربية الفصحى والعامية وكيفياتها اللغوية والمعنوية والبلاغية بالإضافة إلى مهاراته الفائقة باللغة الإنجليزية والتركية والفرنسية، يستحق ويليق هذا الكتاب من وجهة نظري أن ينتخب لجائزة نوبل وقد أكد على رأي قول الكاتبة الأديبة الشهيرة شريفة الشملان التي تريد أن تختار هذه السيرة لجائزة نوبل كما تقول بكل صراحة " لو كانت جائزة نوبل تعطي لمن يستحقها فعلا، لكانت حقا للأستاذ عزيز ضياء عن "حياتي مع الجوع والحب والحرب " [1]. وقد اتفق على هذا الرأي الأستاذ فيصل أكرم الذي يقول " وأنا اتفق تماما مع هذا الرأي، وأرى إضافة إلى ذلك أن هذا الكتاب يصلح أن يكون مسلسلا تلفزيونيا عن حياة عزيز ضياء خاصة بينما الفقرات الواردة في كتابه عن مرحلة (الجوع والحرب) وفي كتب أخرى عن مأساة الحصار والتهجير الإجباري (سفر برلك) يجب أن يلم شتاتها ويتم توثيقها في عمل يحفظ كل ذلك من النسيان أو التهوين أو التهويل... بخاصة أننا نقترب الآن من اكتمال قرن كامل من الزمان (الهجري) يفصل بيننا وبين تلك الأحداث العظمى، في تلك المرحلة من العصر الحديث لمنطقة الحجاز.."[2].هذا مما يدل صراحة على مكانة الكتاب وأهميته الأدبية والتاريخية.

[1] المرجع نفسه.
[2] المرجع نفسه.

الفصل الثالث

دراسة تحليلية ومقارنة بين كتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب " وكتاب "أيامي" للأديب الرائد أحمد السباعي

يعتبر الأديب الرائد أحمد محمد السباعي من رواد الثقافة الأوائل في المملكة العربية السعودية في القرن العشرين. وكان أديبا فذا، وكاتبا كبيرا، وصحفيا لامعا، برز في مجال الصحافة في المملكة العربية السعودية حتى لقب بـ "شيخ الصحافة العربية في الحجاز". ويعتبر أول من قام بالدعوة إلى كاتبة مسرح عربي سعودي، وكتابه " سلم القراءة "، يعتبر أول مؤلف عربي يقرر على الطلاب والطالبات للمدارس العربية في أنحاء المملكة. وهو الذي حصل على جائزة الدولة التقديرية في الأدب العربي عام 1404هـ، واستلم جائزتها من يد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز في حفل أقيم تكريما وتقديرا له في المملكة العربية السعودية. كتب الأديب الرائد السباعي سيرته الذاتية بعنوان " أيامي"، وقدم هذا الكتاب في الطبعة الأولى والثانية تحت عنوان " أبو زامل " في عام 1373هـ والموافق عام 1954م، وكان الهدف من تأليف هذا الكتاب أن يمثل جانبا من سيرته الذاتية، وأن يمثل صورا من حياة الجيل الذي كان يعيش معه.

أولاً: كلمات تعريفية موجزة عن الكتاب " أيامي" للأديب الرائد أحمد السباعي

كتب أحمد السباعي سيرته الذاتية المسماة بـ" أيامي" في جزء واحد فقط. يعد هذا الكتاب من وجهة نظري القصيرة أول سيرة ذاتية أدبية جاءت في حيز الوجود في شكل كتاب مطبوع في اللغة العربية الفصحى والعامية بداية تحت مسمى بـ "أبو زامل "، قصة الجليل الجديد الماضي. وهذا الكتاب ما هو إلا بمثابة سيرة ذاتية عن حياته الشخصية والفكرية والنفسية الخاصة به، حيث سرد فيه سردا مفصلا عن قصة حياته منذ أيام طفولته وشبابه بأسلوب يمتاز بالفصاحة والبلاغة. كما ذكر فيه أول أيامه في

الكتاتيب المختلفة والمعاهد المتنوعة والمؤسسات المتعددة في مكة المكرمة وخارجها. وتحدث فيه عن ميلاده ونشأته وترعرعه ووظيفته التي تقلدها في أيام الشباب. وأنه يصف أيضا أهم المواقف التي تعرض لها في حياته الشخصية والاجتماعية والفكرية في مكة المكرمة. ويحكي قصة تخرجه وبداية وظيفته كونه مدرسا بارزا وأستاذا مجتهدا في إحدى المدارس العربية من حيث تلقى تعليمه الابتدائي في أيام الطفولة والشباب، وقد سلط الضوء على تحوله إلى عالم الصحافة وبداية مشواره العلمي والأدبي والفني على حد سواء.

ثانياً: مسمى الكتاب، طبعته ونشرته

صدر كتاب " أيامي" في طبعته الأولى تحت عنوان " أبو زامل " (قصة الجيل الماضي) في عام 1373هـ الموافق عام 1954م، عن دار مصر للطباعة والنشر والتوزيع– مصر. وعندما تدبر وفكر في التوسع فيما يخص سيرته الذاتية تناسى " أبا زامل " وقدم للقراء والدارسين الباحثين وخاصة المشتغلين بسيرة الذاتية بعنوان " أيامي" في الطبعة الثالثة من هذا الكتاب وذلك في عام 1970م. وجاء إصدار نادي تبوك الأدبي لكتاب أحمد السباعي باسم " أيامي"، الذي صدر في طبعته الأولى قبل خمسين عاما عن طريق دار التهامة للنشر والتوزيع بجدة كما يذكر الأستاذ الشيخ عبد المقصود محمد سعيد خوجه مشيرا إلى ذلك بقوله " قد رأيت من باب الأمانة العلمية أن أشير إلى كتاب صدر لأستاذنا السباعي بعنوان "أبو زامل– قصة الجيل الماضي" في طبعته الثانية عام (1379هـ – 1959م) وطبع بمطابع دار قريش بمكة، ولم أقف على طبعته الأولى.. ومادة هذا الكتاب نفسها طبعت بعنوان " أيامي" الطبعة الأولى عام (1402هـ– 1982م) ضمن سلسلة الكتاب العربي السعودي " 78 " وقد أعمل المؤلف قلمه منقحا "[1]. وقد أشار علي جواد الطاهر إلى مسمى الكتاب وتعدد طبعاته

[1] السباعي، أحمد، الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ أحمد السباعي، الجزء الأول، ص: 02

وموضوعاته وإفصاحه وعن أهميته للمؤلف ومجتمعه العربي قائلا " وقد رأينا له (أبو زامل) الذي صار في طبعة ثالثة " أيامي"[1].

ويوضح الكاتب والباحث حسين بافقيه في التاريخ الثقافي حول كتاب السباعي الصادر أخيرا في طبعة جديدة نشره نادي تبوك بعد أن أخذ إذنا من الورثة حيث يقول " أنا كنت الوسيط، راجعت الكتاب وصححته وكتبت كليمة بتوقيعي على الغلاف الأخير، طبعا لم يسعفنا الوقت الضيق لكي أحرره وأقدمه بمقدمة طويلة، الطبعة أشرفت عليها شخصيا، وأتوقع أنها ستحظى بعناية القراء، وطبعت بعد مراجعة دقيقة جدا، الحق أن حماسة رئيس لجنة المطبوعات وعضو مجلس نادي تبوك الأدبي عبد الرحمن الحربي، للكاتب ذللت كثيرا من العقبات، وأهمها الحصول على موافقة الورثة، وطبع الكتاب في مدة وجيزة جدا ليلحق معرض الرياض الدولي للكتاب"[2].

وإن هذا الكتاب أعيد نشره قبل سنوات ضمن سلسلة الأعمال الكاملة لإثنينية عبد المقصود خوجه، ولكن طبعاته كانت محدوة النشر والتوزيع بين عامة الناس في البلاد العربية، كما يعلق على ذلك الباحث الدكتور بافقيه بقوله " طبعة خوجه محدودة الانتشار، وطبعة نادي تبوك هي الأدق، بل هي أدق من طبعة تهامة، حيث إن المشكلة أن بعض كتب الرواد كانت تطبع طباعة عشوائية، ويتخللها كثير من الأخطاء، كتاب السباعي يصلح مقررا مساعدا في التعليم العام، النص حيوي وبديع ويبعث على حب الحياة، ويصلح للسينما والتلفزبون والمسرح، وغيره "[3]. والكتاب في الواقع خير كتاب ومرجع تاريخي للنهضة العربية السعودية في القرن العشرين، قد عرض فيه الشيخ أحمد محمد السباعي تجارب حياته الشخصية والفكرية التي مر بها في مراحل حياته الأدبية والفنية كما يعلق أحمد جمال على الموضوع الذي يدور حوله

---

[1] الحكمي، د. عائشة يحيى، السيرة الذاتية عند أدباء المملكة العربية السعودية في مرحلة الطفرة (1390-1418هـ)، ص 135

[2] مجلة فكر الثقافة بتاريخ 03/05/ 2016 المنشورة على شبكة الإنترنت fikrmag.com/cul_news.php?news_id=881

[3] المرجع نفسه.

الكتاب في قوله " الواقع وأرجو ألا يغضب أستاذي السباعي– أنه حاول عبثا ليثبت أن أسرته ومدرسته القديمتين المحافظتين.. قد أساءتا تربيته وتعليمه.."[1].

ويقول الباحث والمحقق الأستاذ سمحي ماجد الهاجري عن هذه السيرة الذاتية " سيرة السباعي، بدت لمن درسوها أسهل مأخذا، وبخاصة أن ميثاقها القرائي تعدل مرتين تبعا لتطور سياقات التلقي، لأنها كتبت على مرحلتين، وصارت بهذا أقرب إلى منهج جورج ماي(George May)، المرن، وبالذات في صيغتها الأساس (أبو زامل)، منها إلى تعريف فيليب لوجون (Philippe Lejeune) الأكثر صرامة في الالتزام بحدود التعريف، ويمكن اعتبار السباعي، من خلال سيرته الذاتية، رائد أدب الاعتراف في واقعنا المحلي، وهو إنما بدأ بنفسه ليدعو المجتمع إلى الاعتراف بعيوبه ويتطهر من آصاره وأوضاره، كما تطهر هو باعترافاته وعالج عيوبه، منذ البداية، حتى صار من الأشخاص الذين يشار إليهم بالبنان "[2].

كما قلت آنفا أن هذا الكتاب صدرت طبعته الأولى بمسمى " أبو زامل " (قصة الجيل الماضي)، وشمل في طبعته هذه أربعة عشر موضوعا أو عنوانا أو فصلا وهي: (في الكتاب، أبجد هوز، خالتي حسينة، كتاتيب ومعلمون، مع حفاظ القرآن، شيطان الفصل عباس، حفظ متقن، ستى، طيش، حظ معاكس، أدب وعلم نقطة تحول، حروف ونقط). وتقع هذه الطبعة في مائة وأربع عشرة صفحة من القطع الصغير، ثم طبع الكتاب طبعة ثانية بالمسمى السابق نفسه في عام 1379هـ الموافق عام 1959م بمطابع دار قريش بمكة المكرمة. وهي المطابع المشهورة التي أنشأها المصنف كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل، وهذه الطبعة تقع في مائة وتسعين صفحة من القطع الصغير المتوسط التي بين أيدينا الآن. ومن هنا فقد أضاف السباعي في كتابه العديد من الموضوعات وهي (محظوظون في الكتاب، إصرافه أو إقلابه، في المدرسة الراقية، كرسي الأستاذية بين الصحافة الأدب، في صحيفة صوت الحجاز، حفظ متقن، أدب

---

[1] الحكمي، د. عائشة يحيى، السيرة الذاتية عند أدباء المملكة العربية السعودية في مرحلة الطفرة (1390–1418هـ) ص 135

[2] صحيفة " المدينة " الأربعاء 2014/03/01 المنشور على شبكة الإنترنت al-madina.com/article/142473

وعلم، نقطة تحول)، وبهذا أصبح مجموع موضوعات الكتاب وعناوينه تسعة عشر تقريبا، كما زودت هذه الطبعة ببعض الرسوم التوضيحية، مذيلة بشروح وتعليقات تعين على فهم الموضوعات والقضايا، ولم يحمل هذا الكتاب فهرسا للموضوعات.

وقد أعادت مؤسسة تهامة طباعته بمسماه الجديد عام 1402هـ المصادف عام 1982م، ضمن سلسلة الكتاب العربي السعودي رقم 78 في مائة وسبع عشر صفحة من القطع المتوسط، ثم ظهر الكتاب في 1390هـ ، عن مطابع دار قريش، ثم ظهرت طبعته الجديدة في عام 1437هـ المصادف عام 2016م، من مطابع النادي الأدبي بمنطقة تبوك، وتقع هذه الطبعة الجديدة مائة وتسعين صفحة تقريبا من القطع الصغير، وضمت هذه الطبعة مقدمة جاءت بعد الإهداء الذي سبقت الإشارة إليه، كما يذكر المؤلف في مقدمته لسيرته الذاتية قائلا " إنها "أيامي" قدمتها في الطبعة الأولى والثانية تحت اسم " أبو زامل " كنت أردتها رمزية تمثل بعض فصولها جانبا من حياتي وتعطي بجوانبها الأخرى صورا من حياة الجيل الذي عشته، ولكني رأيت اليوم وفي الطبعة الجديدة أن أتوسع فيما يلم بحياتي إلى جانب ما عرف من سمات الجيل فتعين عليّ أن أنسى أبا زامل وأتقدم إلى القارىء بقصة (أيامي)[1].

ثالثاً: العوامل الدافعة إلى كتابة هذه السيرة الذاتية

هذه حقيقة لا يتنازع فيها اثنان أن السيرة الذاتية قد تكون مرآة لصاحبها ومثلما هي مرآة لزمنها ووطنها ومجتمعها الإنساني في أرجاء المعمورة، وأن السيرة الذاتية ربما مرآة للزمن على نوعين: النوع الأول: هو الزمن الذي يعاد تذكره، وهذا يكون في السيرة الذاتية المتعلقة بزمن الطفولة. والنوع الثاني: هو الزمن الذي يجري التذكر فيه وهو الزمن غالبا ما يكون زمنا صعبا من ناحيتين: الناحية النفسية الشخصية لكاتب السيرة الذاتية، والناحية التاريخية الاجتماعية لمجتمع بدأ الكاتب أو الراوي يكتب فيه فصول سيرته الشخصية[2]. وعندما نلقي نظرة خاطفة على هذا الكتاب وجدنا أنه يعد أول كتاب

[1] السباعي، أحمد، أيامي ص: 11

[2] يوسف، محمد، الدكتور طه حسين بصفته مترجما ذاتيا، رسالة شهادة الماجستير ما قبل الدكتوراه (غير منشورة)، ص: 79

في فن السيرة الذاتية الذي كتبه الأديب الرائد أحمد محمد السباعي بعد تجارب علمية، وخبرات واسعة، ومهارات فائقة في العلوم العربية وآدابها، وكذلك يعد هذا الكتاب البداية الحقيقية لفن السيرة الذاتية في الأدب العربي بشكل عام وفي الأدب العربي السعودي بشكل خاص.

يعتبر الكتاب من أفضل وأروع السير الذاتية في الأدب العربي الحديث الذي سجل فيه المؤلف أحوال قصته مما مر به في حياته في القرن العشرين، وعرض فيه عن ترجمته الشخصية منذ نعومة أظفاره إلى صباه، فلعل هذه التوطئة تجبرنا على أن نسأل عن أنفسنا بأن لماذا كتب الأستاذ أحمد محمد السباعي سيرته الذاتية في اللغة العربية؟ وما هي البواعث والدوافع الجذرية التي دفعته إلى تدوين هذه السيرة الذاتية في اللغة العربية الفصحى فضلا عن اللغة العامية؟ فإن هذه هي التساؤلات التي تأتي في أذهاننا كما تأتي في أذهان الدارسين الباحثين الآخرين بشكل عام والمشتغلين لسيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي وفي أذهان كل من يرغب في قراءة ومطالعة هذا الكتاب بشكل خاص. عندما نحاول إجابة هذه التساؤلات المتكررة فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة تامة هو استظهار جوانب حياته الشخصية، وتبرير صنيعه وإيضاح موقفه من الحياة العامة والمجتمع الإنساني، وإبراز المقدرة الأدبية والفنية والموهبة القصصية، ونقل الخبرات الموسعة والمهارات الفائقة إلى الآخرين. ومن أهم الدوافع التي تحرضه على تأليف الكتاب هي طبيعة الأحداث المتناسية، والظروف القاسية، والأهوال الرهيبة التي حدثت معه خلال أيامه الطفولة والصبا في مكة المكرمة وخارجها. وكذلك من البواعث التي تحرضه على كتابة هذه السيرة الذاتية في اللغة العربية هو أن يمثل جانبا من سيرته الذاتية، وأن يمثل صورا من حياة الجيل الجديد الذي كان يعيش معه خلال الطفولة والكهولة. هذه هي الرغبة والشوق التي حرضته على التأليف لسيرته الذاتية في اللغة العربية، لكي يتعرف الجيل الجديد القادم على قصة حياته الشخصية التي عايشها خلال الطفولة والصبا في مكة المكرمة وخارجها.

رابعاً: أهم القضايا التي يعالجها الكتاب

مما لا شك في أن هذا الكتاب يعد من الأعمال المهمة في فن السيرة الذاتية ليس في الأدب العربي السعودي فحسب بل في أدبنا العربي الحديث أيضا. يبدأه صاحب الكتاب بآية القرآن الكريم " وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا "[1] (صدق الله العظيم). في هذا المكان يجدر بي الإشارة إلى هذا القول بأن هذه الآية الكريمة المذكورة لم تكن موجودة في طباعات الكتاب السابقة لا بمسماه القديم والجديد، ولا أعلم هل هي إضافة جديدة من وضع السباعي أو الناشر الجديد، والله أعلم بالصواب. ثم نلاحظ خلال دراسة الكتاب بأن موضوعات الكتاب في طبعاته السابقة بمسماه القديم والجديد كان كل موضوع منها يأخذ رقما متسلسلا داخل متن الكتاب والمختلفة بينما وردت الموضوعات والعناوين في هذه الطبعة الجديدة بدون ترقيم، ثم يبدأه بإهداء يوجهه إلى: " من جهل أثر التربية العالية في إعداد الجيل!! إلى: من ظن النجاح في أساليبها القاسية أهدي كتابي"[2]. يضمن هذا الكتاب على العديد من الفصول وكل فصل من الفصول يحمل عنوانا مهما، وكل العناوين المذكورة أعلاه مرتبطة بحياة أحمد محمد السباعي وآرائه الثاقبة وأفكاره وخواطره وعواطفه مما شاهد ورأى وسمع في الطفولة والشباب في المملكة العربية السعودية بصورة عامة وفي مكة المكرمة بصورة خاصة، يمكننا القول بأن هو العارض والمعروض والواصف والموصوف.

عالج الأستاذ أحمد السباعي في هذا الكتاب فترة زمنية محددة من حياته بدء من أول يوم من الأيام أدلج فيه إلى الكتاب وانتهاء عمله بصفته محررا ورئيس التحرير في جريدة صوت الحجاز، وقدم عن نفسه مباشرة من خلال ذكر اسمه الأول كما عبر عن انطباعاته وخواطره قائلاً " سماني أبي (أحمد) ودللتني أمي فكانت تناديني (أحمد حماده) وكانت أغنيتها الدائمة وهي ترقصني– " أحمد حماده لب القلادة أمه تحبه وأبوه

[1] سورة الإسراء رقم الآية 24

[2] السباعي، أحمد، أيامي، ص: 9

زيادة ". ولا أزال إلى اليوم أذكر أني كنت دلوعتها كما أذكر كلمات الأغنية التي ظلت تدللني بها إلى الأيام الأولى التي كنت أدلج فيها إلى الكتاب، وشاركها أبي في تدليل طفولتي الأولى لأنه رزق بي في سن اليأس ولعله عقد على رأسي آلاف الآمال والأماني"[1].

وتحدث فيه عن ذلك الكتاب المشهور باسم ." كتاب زقاق الشيش" حيث تلقى التعليم الابتدائي والوسطى كما أشار إلى ذلك بقوله " درج بي إلى الكتاب في زقاق الشيش في جوار المدعي، ولم يتركني حتى أضاف إلى جعل الفتوح قرشا زائدا للفقيه، ورجاه أن يعني بي، وألا تأخذه خشية في تربيتي.. (فاللحم لك يا سيدنا " يعني لحمي أنا " والعظم لي.. أنت كسر يا سيدنا وأنا أجبر) ولم ينس شأن العريف فقد كانت للعرفاء في كتاتيبنا صولة، وكان أحدهم لا يتسامح في حدود دولته مع الصبيان إلا لمن يعترف بحقوقه في الكتاب ويعرف كيف يسترضيه، ويقدم (هللاته) القليلة التي ينفحها إياه في كل صباح والده ليتشري بثمنها من بضاعته الفجة (فوفلة جنجاوي) واحدة... أو قطعة من (طبطاب الجنة) وكلتاهما نوع من الدقيق المحمر بمسحوق السكر"[2].

وألقى الضوء فيه على الكتاب الذي قضى فيه عدة سنوات للحصول على التعليم والتربية كما يقول معبرا عن عواطفه وخواطره ومشاعره في وصف الكتاب "طالت إقامتي في الكتاب كما طال ترددي إلى خالتي حسينة دون أن أنجح في (فك الحرف) فقد كانت قراءتي كلها آلية بشهادة جميع معارف أبي وجيرانه، وأشير على أبي أخيراً أن ينقلني إلى غير هذا الكتاب فألحقني بكتاب في باب الدريبة، ثم بآخر في جبل الهندي ثم بغيره وبغيره، حتى انتهيت إلى كتاب أوسع كان قد أسسه نابغة جيله الشيخ محمد الخياط في مكان القبان اليوم في جوار المدعا وقسم طلابه إلى فصول بعضها أعلى تحصيلا من بعض، وكان الشيخ عبد الرؤوف الصبان من تلامذة فصوله العليا، فألحقت فيه بفصل المبتدئين وشرعت أعالج التهجي من جديد، ولم يكن حظي في

[1] المرجع نفسه، ص: 13
[2] المرجع نفسه، ص: 14

الكتاب الجديد أحسن مما سلفه من كتاتيب، إلا أن طول الاستمرار كان له أثره الضئيل، فقد كنت قضيت من عمري إلى أن التحقت بكتاب القبان نحو ست سنوات استطعت في نهايتها أن أختم (جزء عم) وأن أقرأ في ركاكة واضحة بعض الكلمات من الخطابات التي تصل إلى أبي ويأبي إلا أن يمتحنني بقراءة ما فيها "[1].

وقام الأديب الرائد بتسليط الضوء بشيء من التفصيل على خصائص أستاذ الدرس الذي كان ماهرا في فنه، وعندما يوجه سؤالا عن أي معنى شرحه في درس سابق، وبادر قبل غيره بالإجابة اعتمادا على ما كتب كقوله " ولقد ساءني هذا بقدر ما نفعني فقد كان أستاذ الدرس لا يكاد يوجه سؤاله عن أعي معنى شرحه في درس سابق حتى أبادر قبل غيري بالإجابة اعتمادا على ما كتبت إجابة لا تخرج عن النص الذي تلقيته منه بحروفه وألفاظه فربما سره هذا وهو لا يدري أنها إجابة آلية كنت لا أفهم مما تعنيه حرفا واحدا وبهذا ظللت في منأئ عن أكثر ما يفهمه غيري في أكثر الدروس كما أسأت من حيث لا أقصد إلى بعض زملائي الذين كانوا يستهلون الاعتماد على جريدتي!! على أن هذا لا يعني أن دراستنا كانت تحفل كثيرا بناحية الفهم فقد كان التحفيظ ركيزة هامة من ركائز التدريس، فكثيرا ما كنا نكلف حفظ المتن والشرح وما يتبعها من تعليقات".[2]

ومن اللافت للنظر أن أحمد محمد السباعي كان ضعيفا جداً في قواعد اللغة العربية، كما يذكر ذلك المشهد معبرا عن عواطفه وخواطره إذ يقول "والذي يجب أن أعترف به أنني رغم ما عانيت في حفظ الأجرومية ورغم ما استطعت حفظه من ألفية ابن مالك عشت لا أدري ما جدوى ما أحفظ ولا أعرف شيئا عن مدى علاقته بتقويم لساني بل أعرف مبلغ حاجة لساني لأن يقوم، ليس معنى هذا أن أستاذ النحو كان لا يشرح لنا معاني ما حفظنا ولكن تلافيف الحفظ في دماغي اتسعت أكثر مما يجب لطول ما استعملتها فأخذت مكان غيرها من التلافيف فعطلتها عن وظائفها في الفهم

[1] السباعي، أحمد، أيامي، ص: 47/ 48
[2] المرجع نفسه، ص: 80

فاصبحت عيا في فهم ما يشرح، ثم لبثت تلافيف الحفظ أن كلت وعجزت، ولبلادتي في الفهم تقدمت السن بي دون أن أحصل على حصيلة تستحق الذكر في علم النحو ولو لا أني شعرت بعد سنوات أنني فقير فيما يقوم لساني فاضطررت لقراءة كثير من الشروح لظللت إلى اليوم لكي أعرف الغرض من علم النحو".[1]

ويضيف وهو يصف نفسه بالصفاقة والوقاحة إذ يقول " ومما يضحك أنني على أثر هذا لجأت إلى شيخ من شيوخ النحو كانت تربطني به صداقة متينة ورجوته أن يتفضل بإعطائي درسا في النحو فلم يبخل بذلك ولكن صفاقتي أبت عليَّ أن أستمر فقد تراءى لي بعد الحصة الأولى والثانية أنه يسهب في تفريع الفروع وتنويعها في ذهني بعد أن راجعت حواشي الكتاب واستوعبت ما يعنيه أن في الإمكان تبويب الموضوع بشكل أقصر فجئته في حماسة فاتح القسطنطينية أعرض عليه الفكرة في غرور الشاب المراهق الذي يشعر أنه لا يداني في الفهم"[2].

وعندما نلقي نظرة خاطفة على الكتاب نجد أنه قد اهتم كل الاهتمام بالعوامل الأساسية التي أثرت تأثيرا عميقا في نشأته وتربيته العلمية والأدبية في أيامه الطفولة والصبا كما يقول في وصف إحدى المدارس العريقة حيث قضى عدة سنوات للحصول على التعاليم الابتدائية والوسطى، وصار حافظا من الحفاظ الممتازين الفائقين، يذكر متحدثا عن المدرسة الراقية العريقة كقوله " قضيت نحو ثلاث سنوات في استظهار القرآن غيبا حتى أصبحت من حفاظه الممتازين واستطعت أن أحقق في امتحان نهاية السنوات الثلاث درجة طيبة أهلتني للنقل للصفوف التي تدرس العلوم على أنواعها في المدرسة التي سموها راقية، ورأيتني أشعر وأنا أختلط بالزمرة الجديدة من الطلبة أن مستواي في الفهم واستيعاب ما يقرره المدرس أدنى بكثير من مستوى زملائي، ولعل لتطرفي في إجهاد حافظتي أثرا في الضغط على بعض التلافيف في رأسي بصورة

[1] المرجع نفسه، ص: 83.
[2] المرجع نفسه، ص: 83/ 84

عطلت وظائفها في الفهم فابتكرت لنفسي أسلوبا أفيد به حاصل الشروح التي يلقيها أستاد الدرس"[1].

ومن المعلوم أن الأستاذ أحمد السباعي كان رغابا، وعاشقا، ومحبا للقراءة والمطالعة منذ نعومة أظفاره، قرأ الشيخ في الطفولة كتاب " قصص أبي الزيد الهلالي" ثم ازدادت قراءته ومطالعته حتى قرأ ودرس "سيرة ابن هشام" و"تاريخ ابن الأثير"، وبعد استكمال هذه الكتب أنه وجد فيها لذة ومتعة نفسية وطراوة وإبداعا كما أعرب عن عواطفه وخواطره قائلا " ولازمني شغف القراءة وحب التدريس... فقرأت قصص أبي زيد الهلالي، وعشرات أمثالها مما لا تختلف كثيرا عن أسلوب العوام، ثم تقدمت قراءتي فدرست سيرة ابن هشام، وتاريخ ابن الأثير... فشعرت أنني أتلذذ بأسلوب أرقى مما كنت أقرأ وأحسست أنني أمازج المؤلفين فيما يكتبون، وأسايرهم فيما يعجبني من آراء، وأحنق عليهم فيما لا يعجبني، وأناقشهم في كل ما يحتمل المناقشة والجدال"[2].

وكما أنه تحدث في هذا الكتاب عن العديد من القضايا العامة المهمة مثل: جهل أمه الحنون، وأثرها وعاطفتها الحنونة والشفيقة على تربية الأولاد الصغار، الذين نشأوا وترعرعوا تحت ظل عاطفتها وشفقتها، وتكلم فيه عن جهل أبيه الكريم الذي لا يدري قراءة وكتابة منذ الطفولة، أنه كان أميا جاهلا لا يستطيع أن يقرأ أي عبارة سواء كانت مكتوبة في اللغة العربية واللغات الأجنبية وغيرها من اللغات العامية الدارجة، لذلك نراه يذكر في وصف والده الكريم الذي كان يرسل ابنه البار للحصول على لتعليم والتربية في الكليات والجامعات العريقة في البلاد، إذ يقول " كان أبي رحمه الله معذورا فيما يرى فقد نشأ أميا، وتركت الأمية في نفسه شعورا عميقا بالنقص، أراد أن يعوضه في خلفه بأفظع ما تراءى له من ألوان التعويض.. كان يرى أن نجاحي وقف على المثابرة المستمرة التي لا تعرف الهوادة ولا اللعب ولا جري الأزقة: " أتوضأ يا واد وصل العصر واقعد اقرأ حتى نصلي المغرب.. وبعد المغرب أيش عندك؟ برضه اقرأ حتى

[1] المرجع نفسه، ص: 79

[2] السباعي، أحمد، أيامي، ص: 151/ 152

نصلي العشاء ونأكل لقمتين وترقد أصبح حافظ!!" وما علم رحمه الله أن برنامجه في المثابرة هو علة بلادتي وجمود ذهني، وأن الساعات التي أقضيها في الكتاب مكباً على (جزء عم) كانت أكثر من الكفاية للمثابرة، وأنه لا بد بعدها من انطلاقي إلى البرحة والأزقة لأشبع رغبتي في اللعب... وأبدد ما اعتزاني من سأم الكتاب، وأنشط ذهني لاستئناف الدراسة في أوقاتها المقررة في اليوم الثاني"[1].

وكذلك ألقى ضوءا ساطعا على الكتاب عن العلماء والكتاب والشعراء الذين قاموا بخدمات جليلة ومساهمات مرموقة في العديد من مجالات العلمية والأدبية والتاريخية على نطاق أوسع. وتحدث عن العلماء والكتاب والمؤلفين الذين لمع نجومهم في ميدان العلم والأدب والثقافة في المملكة العربية السعودية وخارجها، والذين لعبوا دورا هاما في ترويج اللغة العربية وآدابها بمؤلفاتهم القيمة والمصنفات النادرة كما أعرب عن عواطفه وخواطره متحدثا عن مساهماتهم القيمة في العلوم والفنون كقوله " في هذه الفترة المبكرة لمع في مكة من شبابنا الأساتذة محمد سرور الصبان، عبد الوهاب آشي، محمد سعيد العامودي، جميل مقادمي، عمر عرب، حسين نظيف، كانوا يتحلقون حول الشيخ محمد سرور فقد كانت له مكتبة في الشارع اليوسفي لبيع الكتب الأدبية وكان له مركاز في ردهة المكتبة يجمع بعضهم أحيانا كما كان بيته في المسفلة مجمعا لسمرهم في أكثر الليالي كما كانت للشيخ حسين نظيف خلوة عند باب العتيق تجمعهم في بعض ساعات النهار وتتابع ظهور الأسماء في مكة لتضاف إلى ما قدمت وليكونوا جميعا ما نسميه بالرعيل الأول فكان الأساتذة محمد حسن فقي، حسين سرحان، أحمد غزاوي وأحمد العربي، عبد السلام عمر، أمين عقيل، عبد الله فدا، حامد كعكي، عزيز ضياء ثم محمد سعيد عبد المقصود وأخيرا أحمد سباعي إذا قبلوا إضافته إلى أسمائهم"[2].

وكذلك يحكي لنا من خلال هذا الكتاب صورا آسرة لعدد من الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي كانت سائدة آنذاك، وتناول متحدثا عن الكتاب

[1] المرجع نفسه، ص: 43/ 44
[2] المرجع نفسه، ص: 63/162

ونظامه ومنهجه التعليمي الذي كان رائجا في المدارس والمعاهد والمؤسسات الإسلامية الدينية العصرية آنذاك. وكذلك قام بتسليط الضوء على الألعاب المختلفة التي كان يلعبها الأولاد الصغار مع الأصدقاء والزملاء في الطرقات والأزقة بصورة عامة، وكان الشيخ يمارسها مع الأولاد الصغار أيضا، وحدثنا في كتابه الرائع عن أنواع الحلويات المختلفة التي كانوا يتناولونها صباحا ومساء وظهرا بالتركيز على الخرافات والبدعات التي كانت منجمدة في أذهان عامة الناس عن العفاريت والعصبية التي كانت بين الأحياء، كما يذكر معبرا عن ذلك المشهد من مشاهد الكتاب الذي درس فيه الشيخ أحمد محمد السباعي إذ " كان شيخنا مصابا بما يشبه الصداع في رأسه، واعتقد أن صداعه من نوع لا يخفف وطأته إلى مزاولة العطاس، لهذا كان يعد في جيبه أعوادا من الكبريت وشيئا من القطن النظيف فإذا بدأ جلسته الصباح بيننا نسي وظيفة الحصة الأولى، وشرع يلف القطن على عود الكبيريت الذي أحضره لفًا رقيقًا تبدو نهايته رفيعة دقيقة ثم دسه في أنفه، وبالغ في إيصاله إلى آخر ما استطاع وأتاه العطاس أنساه محيطه وتركه مشغولا بمنديله الملوث... وكان يحلو لبعض المتشيطنين أن يداعبه أو يداعب الطلبة فيعمد إلى اصطياد بعض الذباب بيده، ثم يجعل في مؤخرة كل ذبابة (قشة) رفيعة طويلة، ثم يطلق الذباب في الغرفة ليثير الضحك بما صنع لها من أذناب طويلة، فإذا التفت إلى الثانية هدأ صاحبها، وانطلق ثالث في زاوية غيرها يضحك، فإذا شعر الشيخ أن المزاح قد ثقل، وأن ترتيبه متفق عليه.. أطرق إلى الأرض، وراح يبحث عن قطن جديد يعالج به أنفه!! فإذا أبت ذبابة مذيلة إلا أن تحط على أنفه، وترسل ذنبها من القش إلى ما بين عينيه رفع يده ثم وضعها على (القشة) الذنب، ثم عاد فأطلقها وهو يكتم ضحكة خافتة يخشى أن يسمعها الصبيان! وتنتهي عملية القطن والأعواد والعطاس بانتهاء الحصة الأولى"[1].

وكذلك ذكر لنا فيه عن عقائد الجيل الذي كانت منه جدته الأم، كما يقول مذكرا عن أحاديثها الرائعة التي كانت تقول له في الطفولة " كانت– رحمها الله– تنهى عن

[1] السباعي، أحمد، أيامي ص: 68/66

كنس البيت على أثر خروج المسافر منه، لأن ذلك يمنع عودته وتوصي بصب الماء خلفه في اللحظة التي يخرج فيها من الباب لأن الماء أمان!! وكانت تنهى عن غسل الثياب يوم الاثنين لأن صحابيا فقد ولديه على أثر الغسل يوم الاثنين كما تنهى عن خياطة الثوب فوق لابسه أو كنس البيت أثناء الليل أو شراء الفحم في شهر المحرم، لأن ذلك كله (بطال).. (وبس بطال) فإذا قلت (يا ستي) لم هو (بطال) صاحت في وجهي: (قم يا ولد.. أنت متفلسف)!!! إحنا ناس زي ما نسمع من الكبار!! نقول طيب وما علمت- رحمها الله- أن مأساة المسلمين في بعض كبارهم الذين ظلوا يسمعون منهم وهم يقولون طيب!! دون أن يناقشوا حقيقة هذا الطيب أو يبحثوا مصادره الصحيحة... وكانت ستي تفرض على كل من يخلع سنه من أحفادها أن يرمي به إلى وجه الشمس وهو يهيب يا شمس يا شموسه خذي سني.. وأعطني من العروسة !!"[1].

وكذلك يعرفنا من خلال هذه السيرة الذاتية عن جدته الأم التي كانت حفظت عن ظهر قلب لكل مناسبة من المناسبات قصص الأنبياء والأولياء الكرام وغيرها من القصص، وربما كانت تحكيها لكل رجل من الرجال الذي كان جالساً عندها، كما كانت لها قدرة متكافئة لرواية القصة عن الملائكة والجن وغيرها، كما يقول الأديب الرائد السباعي في وصف جدته الأم " كانت- رحمه الله- تحفظ لكل مناسبة قصة تروي بعضها عن الأنبياء وأخرى عن الأولياء، وغيرها عن غيرهم وكانت قصصها تمتاز بالمبالغات التي تشبه هوايتها المتطرفة في المغيبات وما وراء المحسوسات.. كانت تقص عن الخضر عليه الصلاة والسلام آلاف القصص التي يحفظها عجائز جيلها، وليس فيها ما يثبت في النقل أو يخضع للعقل، ولكنها مجذوبة ترضي وجدانها، وتنافق أعصابها كما يفعل المتفيهقون من أصحاب الأفهام المكدودة والأذهان الضيقة، وكانت تحدثني عن الملائكة والجن أحاديث لا أدري كيف توافرت لها مع أميتها، وإنه ليأخذني اليوم العجب من تلك الحافظة التي استطاعت أن تعي كل هذه المعلومات، وأجدف

[1] المرجع نفسه، ص: 95

على الظروف التي تلم تهيئ تعليمها على أسس صحيحية، وأسأل نفسي: ترى أي مدى كانت تبلغ من العرفان لو تيهأت لها دراسة مستقيمة؟؟.

أكبر ظني أنه سيسوي منها عالمة من أروع المتعلمات، وأن ربح أولادها وأحفادها من معارفها سوف لا يوازيه ربح في الحياة، ولكن سوء الحظ إلى جهل المسؤولين عنها أبي ألا يترك ظروفها عاطلة من أسباب التعليم وأن يحيطها بالمنهل الوحيد الذي نهلت منه معلوماتها الخاطئة وخرافاتها الضالة، وتركها تهيئ أولادها لأسوأ ما يتهيأ له الناشئون، وكانت ستي تعرف عن (الدجيرة) و (هول الليل) و (السبع الجنيات) ما لا يعرفه قصاص نابغة! فكنا نقضي حولها الليل وعجائبه في صور تركت في تربيتنا أسوأ الآثار، وملأت أعماقنا بالعقد التي عجزنا إلى اليوم عن حل أكبر طائفة منها"[1].

إذا أمعنا النظر العميق في الكتاب لوجدنا أن الأستاذ السباعي كان كاتبا كبيرا، وعالما عظيما، وصحفيا مشهورا ملأ العيون والآذان، وهو الكاتب الذي لا يجد أدنى غضاضة وذلة في أن يتحدث عما كان الملل الذي يدفعه إلى وظيفته في مرحاض في بيت سيدنا، كما نراه يسر لنا قصته إذ يقول " إني لا أذكر إلى اليوم كيف كنت أصعد فوق (الحنفية) خزنة الماء في بيت الراحة وأتربع فوق غطائها الخشبي ثم أعمد إلى (المغراف) فأغمره في الماء حتى يمتليء ثم أوزعه في أركان (بيت الراحة) ركناً بعد آخر كما يفعل بائع الشربة الذي كنت أراه في طفولتي يغمر معلقته الكبيرة في قدر الشربة ثم يوزعها على أواني الزبائن في دكانه، وكانت طفولتي (المتشيطنة) تمثل لي أني هنا أبيع الشربة.. وأخاطب نفسي لأرد عليها بلا فرق بين بائع الشربة وبيني: (هات الفلوس يا ولد.. شيل قدرك يا أخينا.. خلاص أعطيتك الوصاية) في كلمات صادرة مني وإلى، لو تهيأ لسيدنا أن يسمعها، أو يفتح الباب ليراني متلسا بها لحكم بحنوني، وتفضل فطردني من كتابه، إنها خيالات صبيانية لا يكاد يسلم من أمثالها غيري ولكن الناس يأبون في الغالب الأعم أن يسجلوا على أنفسهم ما مر بهم من

[1] المرجع نفسه، ص: 96/ 97

ترّهات الطفولة كما أسجلها على نفسي، إنها خيالات صبيانية لا بد منها لتبدد السأم الذي يخيم على غرفة التعليم في كتاب سيدنا ولا يعرف مقدار ما أحسن منظموا الفسح في المدارس إلا من قاسي عناء القيود التي كانت تربطنا بألواحنا سحابة اليوم في إطراد لا يتخلله إلا شرب الماء أو قضاء الحاجة المستعجلة أو محو اللوح عند خافة المركن في حوش الكتاب"[1].

وكذلك نراه يذكر لنا عن الشقاوة والوقاحة معترفا بها في العبارة القادمة كقوله " كنت شخصيا من أكثر العيال (شقاوة) وأميزهم وقاحة، وكانت لي عصا مدهونة بذوب الشحم معدة للأيام السود، وكنت كثير العبث بها لا أترك دكانة إلا (أخبطها) أو كليا إلا أضربه أو حمارا إلأ ألهبه، أو جملا إلا أوكزه.. فكنت لذلك أشتبك مع الجمال أو الحمار أو صاحب الدكان في علقة حامية، وكنت لا أظفر فيها إلا في القليل النادر!![2].

الخصائص البارزة في الكتاب " أيامي".

هنا نود أن نذكر بعض الخصائص البازرة التي نجدها خلال مطالعة وقراءة هذا الكتاب الصغير، لكي تتضح على القاريء أهمية الكتاب وقيمته.

أولاً: أثر الوالدين في بناء شخصيته العلمية والفكرية

مما لا شك في أن ديننا الإسلام الخالد إلى يوم القيامة جعل للوالدين مكانة عالية في المجتمع البشري، وحض المسلمين على برهما وطاعتهما في الكثير من آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وخص بذلك الأم والأب، كما قال الله تعالى " وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيْمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّل مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا "[3].

---

[1] السباعي، أحمد، أيامي ص: 32/ 33

[2] المرجع نفسه، ص: 115

[3] سورة الإسراء: رقم الآية 23

وعندما نطالع هذا الكتاب فالأمر الذي يشد انتباهنا بقوة تامة هو أن الأديب الرائد تحدث في العديد من القضايا التي تتعلق بالأم والأب والجدة والأساتذة وما إلى ذلك. كما نشاهد فيه أنه ذكر عددا من أهم القضايا المعاصرة الهامة مثل: جهل أمه الحنون، وأثرها على تربية الأولاد الصغار والكبار، وعاطفتها نحو كل شخص من الأشخاص في المجتمع العربي السعودي، كما ألقى ضوءا على جهل والده الكريم الذي لا يعرف قراءة ولا كتابة مع أن له فضل كبير وإحسان عظيم في تربيته ودرسه وتعلمه، كما عبر عن خواطره ومشاعره وآرائه الثاقبة عن شخصية والده الكريم الذي درسه دروس الحياة الكاملة كما يقول في وصف أبيه الكريم" كان أبي قد طبعني رغم حبه لي على قسوة الحياة لأن حب الأبناء ما كان يعني في نظر جيله غير الصرامة والإلزام كانت أوامره رحمه الله لا تقبل النقاش، وكانت آراؤه يقصر عنها الجدل، وكان جميع ما يبلغه من شقاوتي في البيت والشارع أو المدرسة لا يقبل دفاعي فيه، ولا يبيح لي في شأنه تفصيل الملابسات التي تهون من وقع الحادث أو تخفف من عقوبته... ولأن ذلك في نظره فصاحة أو (فصعنة لا يقرها الأدب العالي!!) وكانت لأبي عقائد في الحياة لا هوادة في شأنها، فمذاكرة الدروس والإكباب عليها لا يجب أن تحدد بأوقات وتقاليد لف العمامة، وطريقة ربط الحزام وكيفية انتعال (المداس) وشكل ارتداء الكوفية كل هذه أشياء يجب أن يساير فيها الوضع العام.. وأن تحترم عادته في شأنها"[1].

وكذلك يذكر لنا حول مجلس والده وطريقة أدبه في المجالس إذ يقول " كان لمجلسه أدب خاص... فجلوسي أمامه يجب ألا يتغير عن الوضع المعروف عنده بالحشمة، ويجب ألا يستثيرني الحديث فأنبس بكلمة، أو أناقش في رأي، أو أضحك لأقل مناسبة بحضوره فذلك سلوك لا يتفق مع الأدب العالي كذلك!! وقد تركت هذه الآداب في نفسي أكثر من عقدة فإذا رأيتني اليوم أمقت التقاليد، ولا أتقيد في المجالس الكبيرة بآدابها الخاصة إلا مكرهًا، وأتميز عن كثير من غيري بكثرة الكلام، وشدة اللفظ

[1] السباعي، أحمد، أيامي ص: 88/87

وقوة المراس في الجدل... فذلك أثر الشعور بالنقص الذي أحاول أن أعوضه باللجاجة وحب الانطلاق، والنفور من القيود العامة، " [1].

كان والد أحمد السباعي جديا عن قراءة ودراسة ابنه الكريم، وبذل كل مجهوداته المكثفة لتعليمه وتربيته، وكان يود أيضا أن يتقدم ابنه المطيع في الحصول على العلم والأدب والثقافة، ولا يتخلف إلى الوراء في متنافس الدنيا ولم يزل ولا يزال يتقدم إلى الأمام في كل ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية، كما يود آباءنا وأجدادنا، يصور السباعي ذلك المشهد معبرا عن عواطفه وخواطره قائلا " زادت مطامع أبي في نجاحي بازدياد الأيام واشتد قلقه من أجل تعليمي، فكان يود بجدع الأنف ألا يراني إلا مكبا على قراءة أو كتابة، وألا يسمح للعبث أو اللعب أن يشغل دقيقة واحدة من أوقاتي الثمينة، فكنت إذا اضطررت للاستجمام لجأت باسم (قضاء الحاجة) إلى بيت الراحة أقضى فيه بعض الدقائق التي تدفع عني السأم كما كنت أفعل في الكتاب... وليت والدي كان يعلم أن إكبابي كان مبعث (مبعث) وأن حاجتي إلى العبث واللعب أكثر منها إلى إضافة حصص جديدة أجود فيها"[2].

وكذلك من الشخصيات الأخرى التي لها أثر عميق في بناء شخصيته الفذة هي شخصية والدته الكريمة التي أنجبت ابنا كبيرا أدهش العالم كله بتأليفاته القيمة وتصنيفاته النادرة كقوله في وصف والدته " أما أمي، فقد كانت مسكينة لا تتميز بشيء، ولا تترك في غيرها أثرا، ويبدو أنها رحمها الله مشغولة في التوفيق بين عطفها عليّ، واحترام إرادة أبي في تقويمي، وعندما... توفي والدي وتركني لها... قضت حائرة في انتهاج السبيل الذي يوفق بين ضعفها وتهذيبي، ورأيتني أستغل حيرتها فأتخطى الحدود، وأستمرئ الانطلاق، ثم أستوي على عرش البيت، وأفرض إرادتي على الضعفاء والحائرين، وتلك هي عقدة النقص التي تركتها في نفسي حياة القوة والقيود، والتي

[1] المرجع نفسه، ص: 88/ 89
[2] المرجع نفسه، ص: 52

اندفعت بتأثيرها أول ما استطعت الاندفاع في حرد لا تقيده الضوابط، ولا تضبطه القيود"[1]

وتحدثنا في سيرته الذاتية من أهم الشخصيات المتميزة التي أثرت تأثيرا بالغا في تكوين شخصيته الفذة من الطفولة والصبا حتى إلى الكهولة هي شخصية جدته الأم الحنونة التي قد اشتهرت في المنزل باسم ستي، وكان السباعي يدعوها دائما بهذا الاسم كما يذكر لنا قائلا " كانت ستي (جدتي لأمي) قد عاشت حياتها الأولى مضطهدة في بيت زوجها، فلما أطلق قيادها بموت زوجها عنيت قليلا ببناتها منه، ثم زوجتهن وتحررت من كل ما يقيدها في الحياة وأخذت على عاتقها أن تتسلى فيما بقي من عمرها بسجادتها وسبحتها، وتلاوة الأدعية والابتهالات التي كانت تحفظها عن ظهر قلب، تلقتها عن العجائز اللواتي كن يخالطنها في (حصوة) النساء بالمسجد، أو خلف (حلقة العالم) في جوار زمزم "[2].

كانت جدته أكبر شيخوخة في المنزل، وكانت تحفظ لكل مناسبة من المناسبات قصة طريفة تقصها على الأطفال الصغار من البيت، كما يذكر لنا الكاتب عن أسلوبها الجميل الذي تقص فيه القصة، ولا شك فيه أن قصصها كلها كانت تمتاز بالمبالغات التي تشبه هوايتها المتطرفة في المغيبات وما وراء المحسوسات والأحاسيس إذ يقول مذكرا جدته " وكانت– رحمها الله– تحفظ لكل مناسبة قصة تروي بعضها عن الأنبياء وأخرى عن الأولياء، وغيرها عن غيرهم وكانت قصصها تمتاز بالمبالغات التي تشبه هوايتها المتطرفة في المغيبات وما وراء المحسوسات... كانت تقص عن الخضر عليه الصلاة والسلام آلاف القصص التي يحفظها عجائز جيلها، وليس فيها ما يثبت في النقل أو يخضع للعقل، ولكنها مجذوبة ترضي وجدانها، وتنافق أعصابها كما يفعل المتفيهقون من أصحاب الأفهام المكدودة والأذهان الضيقة... وكانت تحدثني عن الملائكة والجن أحاديث لا أدري كيف توافرت لها مع أمّيتها، وإنه ليأخذني اليوم العجب

[1] المرجع نفسه، ص: 89/88

[2] السباعي، أحمد، أيامي ص: 89/ 90

من تلك الحافظة التي استطاعت أن تعني كل هذه المعلومات، وأجدف على الظروف التي لم تهيئ تعليمها على أسس صحيحة. وأسأل نفسي: ترى أي مدى كانت تبلغ من العرفان لو تهيأت لها دراسة مستقيمة؟؟ "... وكانت ستي تعرف عن (الدجيرة) وهو (هو الليل) و(السبع الجنيات) ما لا يعرفه قصاص نابغة! فكنا نقضي حولها الليل وعجائبه في صور تركت في تربيتنا أسوأ الآثار، وملأت أعماقنا بالعقد التي عجزنا إلى اليوم عن حل أكبر طائفة منها "[1].

ثانياً: أثر الشخصيات الأخرى في صقل مواهبه العلمية والأدبية

وكذلك إن هناك شخصيات بارزة لعبت دورا قيادي في صقل شخصية أحمد السباعي الخلقية والروحية والفكرية والأدبية والثقافية، ومن الشخصيات المتميزة الهامة التي تركت طابعها الخاص على شخصيته الفكرية بنوع خاص هي شخصية أمين الريحاني، والرافعي، وجبران خليل جبران وأسلوب كتاباتهم الفائقة، كما يذكر لنا معبرا عن انطباعاته وخواطره ومشاعره عن هذه الشخصيات الموثرة والجذابة وأسلوب كتاباتهم وبحوثهم العلمية والتاريخية إذ يقول " تناولت الكتاب فإذا هو " الريحانيات " للأستاذ أمين الريحاني، فشرعت في قراءته في دهشة الرائد الذي امتطى أول طيارة تمخر به غياب الهواء، وتسلك به سبيلا ليس فيه مكان لما تعودت قدماه على الأرض، وشاقني هذا النوع من الكتابة، وراقني فيه عذوبة الألفاظ وطرافة الخيال وتمنيت لو أجد من أمثال هذه المطالعات... ما يملأ أوقاتي جمالاً، وعثرت بعد أيام على (حديث القمر) للأستاذ الرافعي... فلذت لي مناجاته الرائعة، وترك أسلوبه الأخاذ في نفسي أثراً، فرحت أنسج على منواله تقليدا ومحاكاة وأضيف إلى دفاتري صفحات من لون جديد... (ويتابع قائلا) وقرأت بعدها عدة مؤلفات لجبران خليل جبران.. فاستطاع أن يستحوذ على مقدراتي في الحياة، وأن يترك أثره في توجيهي، ويعلمني كثيرا من شذوذه على القواعد العامة، وما تعارف الناس عليه من أوضاع واصطلاحات، وصاغني صياغة عاتية لا تقر المبادئ التي لا يقرها عقل، أو منطق ولا أنكر ما حييت أن شكيمة جبران وقوته

[1] المرجع نفسه، ص: 96/ 97

فيما يكتب أزاحت عن نفسي أرتالاً ورثتها من بيئتي في البيت، والكتاب والشارع، وفتحت عيني على كثير من حقائق ما تلقيته من (ستي!!) وحلت غير قليل من العقد التي كانت تنتاب نفسيتي، وأعدتني لتربية جديدة لا تمت بصلة إلى كل ما صادف حياتي الماضية "[1].

في الحقيبقة، أن الأستاذ أحمد محمد السباعي لم يذكر في هذا الكتاب عن أهم الشخصيات المتميزة التي أثرت تأثيرا قويا في تكوين بناء شخصيته دون والداه وأساتذه، بل أنه استطاع أن يسلط الضوء على طبائع الشخصيات الأخرى التي لاتزال متناقضة في الطبائع والسلوكيات، وهي: شخصية التلميذ عباس، وشخصية الأستاذ إسماعيل، فهاتان الشخصيتان متناقضتان، وفي الوقت نفسه مترابطتان من خلال العمل، ولكن مع ذلك كله أنهما محبوبتان عنده، كما تحدثنا عن صفاتهم الخلقية، وحسن معاملاتهم، إذ يقول " نقلت المدرسة زملائي من الطلاب الذين قيل إنهم فرغوا من التعليم التحضيري إلى المدرسة الراقية في قلعة جبل هندي، وأمروني وجماعة يبلغ عددهم الثلاثين أن نتخلف في مكاننا حيث أفردوا لنا غرفة جمعونا فيها وكتبوا على لوحتها (صف الحفاظ).. وانتدبوا لنا الشيخ " إسماعيل.." ليكون أستاذنا في تحفيظ القرآن ودراسة بعض مباديء العلوم التي قرروا أن ندرسها إلى جانب حفظ القرآن، وعز على الشيخ إسماعيل أن يعترف بمبادئ العلوم التي قررها لنا المنهج وكلفه بها.. فقد كنا لا نزاول في فصله غير حفظ القرآن إن كان ما زاولناه عنده يسمّى "حفظًا". يبدو لي أن الشيخ إسماعيل كان أول شيخ رأيته لا يعرف كيف يمارس أعمال الشخط والنرفزة ولهب الظهور بالعصي الرفيعة اللدنة، ولهذا كان جزاء عمله بين طلابه أسوأ جزاء ينتظره طيب القلب بين طليعة أشرار آثمين"[2].

[1] المرجع نفسه، ص: 153/152

[2] السباعي، أحمد، أيامي ص: 65

دراسة مقارنة بين كتابين "حياتي مع الجوع والحب والحرب" للأديب الشيخ عزيز ضياء و" أيامي" للأديب الرائد الأستاذ أحمد محمد السباعي

لقد ذكرت سابقا عن سيرتي الذاتية " حياتي مع الجوع والحب والحرب " للأديب الراحل عزيز ضياء و" أيامي" للأديب الرائد أحمد السباعي بالإطناب، وكتبت عن خصائصهما البارزة وميزاتهما البديعة وأسلوبهما الرائع، كما ذكرت أهم القضايا العامة التي تناولتها وتعالجتها هاتان السيرتان الرائعتان، وبعد الاستعراض العلمي والأدبي والاستعراض الفني والتحليلي الوصفي لهاتان السيرتان المرموقتان أجدر بي أن أقدم دراسة مقارنة ومطالعة موازنة بين هذين الكتابين " حياتي مع الجوع والحب والحرب " للأستاذ عزيز ضياء و" أيامي " للأستاذ أحمد السباعي معاً. وأود في هذا المكان أن أصرح بأنني أنا لا أجترئ أن أقوم بدراسة موازنة ومطالعة مقارنة شيقة مسهبة بين هذين الكتابين لأنهما أهمية كبيرة على مكانهما، على الرغم من هذا إنني سأحاول حسب مقدرتي أن أقوم بدراسة مقارنة وموازنة شيقة جريئة بينهما لكي تتضح أهميتهما ومكانتهما على عامة القراء.

أولاً: المقارنة بين شخصيات الشيخ عزيز ضياء والشيخ أحمد السباعي

يعد الشيخ عزيز ضياء (1914م – 1999م) من أكبر العلماء والكتاب والأدباء والمترجمين الماهرين الذين ثبتوا نقوشهم الثابتة ومهاراتهم الفائقة في العلوم والفنون بتأليفاتهم وبحوثهم الأكاديمية ومقالاتهم الرائعة. وكان علما من أعلام الصحافة العربية في المملكة العربية السعودية، نالت إنجازاته الصحافية والأدبية إعجابا كبيرا وتقديرا بالغا في الأوساط العلمية والفكرية والأدبية. قام بتحليل الحوادث الكثيرة المثيرة التي مر بها خلال الطفولة والشباب، وعبر عن موقفه ونظريته الخاصة عن القضايا الاجتماعية والسياسية والتاريخية الوطنية والدولية من خلال مقالاته القيمة وبحوثه العلمية والأدبية. لم يترك أي مناسبة اجتماعية وسياسية تاريخية دون أن يعبر عنها خواطره ومشاعره في

المجلات والصحف الصادرة من المملكة العربية السعودية وخارجها، وأنه كتب ولايزال يكتب في مجلة " إقرأ " و " اليمامة" حول مواضيع مختلفة تتعلق بالإسلام وتعاليمه ومبادئه وما يواجهه الإسلام في تلك الأيام من التحديات الغربية والتهديدات الصهيونية ومؤامرات المستشرقين وأعداء الإسلام والمسلمين.

ومما يجدر بالذكر أن شخصيته تمتاز بقدرات متنوعة ومميزات مختلفة في الكتابة والصحافة والخطابة والترجمة وتنظيم الجمعيات الدينية والإسلامية. ولا مراء فيه أن كان باحثا، ومحققا، وناقدا، روائيا، وقاصا، وصحافيا معروفا، ومتخصصا في الدراسات العربية والتاريخ والحضارة والأيديولوجيات الغربية القديمة والحديثة. وكان أيضا محللا سياسيا معروفا لدى الأوساط العلمية والأدبية والثقافية والتاريخية. وقد تجول في العالم كله ورتع من المؤسسات والمعاهد والجامعات العلمية الشهيرة كثيرا جدا، وقام بخدمات جليلة ومساهمات كبيرة في مختلف الميادين من العلم والأدب والثقافة والتاريخ والسياسة وغيرها من العلوم الأخرى.

وأما بالنسبة إلى الأديب الرائد أحمد محمد السباعي (1905م- 1984م)، فإنه يعد من رواد الثقافة الأوائل في المملكة العربية السعودية في القرن العشرين. يمتاز بكونه شخصية فذة من أهم الأدباء والشعراء في تاريخ الأدب العربي السعودي، وأنه يعتبر أول الصحافيين على مستوى المملكة الذين كانت لديهم جولة وصولة في مجال الصحافة العربية ورفع مستواها، وكان أديبا فذا، وكاتبا كبيرا، وصحفيا لامعا، برز في مجال العلم والأدب العربي في المملكة العربية السعودية، وإلى جانب إسهاماته القيمة في اللغة والأدب والدراسات الإسلامية والخدمات الأكاديمية والإدارية، نال شهرة فائقة في العالم العربي على الخصوص وفي العالم الغربي وشبه القارة الهندية على العموم بمقالاته النادرة التي لم تزل ولا تزال تنشر في مجلتي " الندوة " و " القريش " حول مواضيع مختلفة تتعلق بالإسلام وتعاليمه ومبادئه وما يواجه الإسلام في ذلك الحين من تحديات وتهديدات ومؤامرات كثيرة من قبل أعداء الإسلام والمسلمين. أنه تولى العديد من المناصب الأدبية والفنية والثقافية مثل: رئيس التحرير للكثير من الصحف السعودية

العربية، والمجلات الغراء الأخرى. كما أنه حاز على جائزة الدولة التقديرية في مجال الأدب واللغة في عام 1404هجـ، والتي كانت من قبل الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، وقد بدأ مشواره في الكتابة والتأليف والترجمة في جريدة صوت الحجاز واستمر في الرقي بين المناصب حتى أسس مطبعة الحرم أو مطبعة قريش.

ثانياً: المقارنة بين الكتابين "حياتي مع الجوع والحب والحرب " و" أيامي"

عندما نستعرض الكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب" فالأمر الذي يتضح أمامنا هو أن هذا الكتاب يعتبر من أحسن وأروع الكتب العربية التي صنفه عزيز ضياء بعد تجارب علمية وخبرات فائقة في مجال العلم والأدب والثقافة. كتب الكتاب وسجل فيه قصة حياته الحقيقية التي شاهدها خلال الطفولة والصبا في المدينة المنورة والعديد من مدن الشام. وأن هذا الكتاب ليس سيرة ذاتية ممتدة من الطفولة إلى الكهولة، بل هو سيرة ذاتية تحدثنا فيه عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية منذ الطفولة إلى الصبا فقط. وهو تعبير نفسي عن مدى إحباط الكاتب في محيطه نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والفكرية بوصفه كاتبا ومؤرخا واعيا في القرن العشرين.

سجل الأستاذ عزيز ضياء فيه حوادث حياته الكثيرة، وجعل هدفه من الكتابة الحديث عن الأحوال والأوضاع التي عايشها خلال مراحله الطفولة والشباب مع بعض أفراد أسرته وخاصة أمه الحنون. كما أراد أن يفيد القراء عن الأحداث المفاجعة والأهوال المروعة التي مر بها عن فترة زمنية متقدمة من حياته امتدت ما بين الرابعة إلى العشرين من عمره، وأنه يعترف ببضاعته في العلوم والفنون، وكذلك يعترف أنه لا يستحق أن يكتب كتابا ينطوي على قصة حياته الماضية، كما يقول في مقدمته الكتاب " ماذا في حياة العشرين؟ مما يستحق أن يكتب؟ قد يكون معقولا أن أجد اليوم بعد السبعين والكثير مما يمكن أن يكتب أو يقال عن هذه المرحلة أو تلك من العمر الذاهب... ولكن ماذا لدي ابن العشرين؟ لكن، وفي الواقع أني، بعد هذه الأعوام

الطويلة، مازلت أرى أن في حياتي قبل العشرين ما يمكن أن يملأ فصولا طويلة.. أو ما يمكن أن أجد فيه عناصر قصص لا قصة واحدة" [1].

وكتب الشيخ أحمد محمد السباعي سيرته الذاتية بعنوان "أيامي"، وقدم هذا الكتاب في الطبعة الأولى والثانية تحت عنوان "أبو زامل" في عام 1373هـ والموافق عام 1954م، وكان الهدف من وراءه أن يمثل جانبا من سيرته الذاتية، وأن يمثل صورا من حياة الجيل الذي كان يعيش معه، وعندما فكر وتدبر في التوسع فيما يخص سيرته الذاتية تناسى أبا زامل وقدم للقراء بعنوان "أيامي" في الطبعة الثالثة من هذا الكتاب في عام 1939م– 1970م. والحقيقة، أن هذا الكتاب ما هو إلا بمثابة سيرة ذاتية عن حياته الشخصية والنفسية والفكرية الخاصة به، حيث سرد سردا مفصلا عن سيرته الذاتية منذ أيام طفولته وصباه، كما ذكر فيه أول أيامه في الكتاتيب المختلفة في مكة المكرمة والدراسات المتنوعة فيها، وتحدث فيه عن نشأته وتعليمه ووظيفته ومناصبه التي تقلدها خلال الشباب، ووصف أهم المواقف التي تعرض لها في حياته الشخصية، ويحكي قصة تخرجه وبداية وظيفته بكونه مدرسا بارزا في إحدى المدارس الواقعة في مكة المكرمة، حيث تلقى تعليمه الابتدائي في أيامه الطفولة، وتحدثنا فيه عن تحوله إلى عالم الصحافة وبداية مشواره العلمي والأدبي والفني.

ومن الملاحظ أن الفرق هدفا وغاية بين هذين الكتابين هو أن أحمد السباعي أراد من تسجيله في "أيامي" رمزية تمثل بعض الفصول من حياته، وتصويرا لجانب من جوانب جيله، ووصف النمط من أنماط حياته الشخصية منذ الطفولة إلى الكهولة، وإفادة عامة القراء اليوم، وإعانة المؤرخ غدا. وأما الشيخ عزيز ضياء فأراد من كتابة سيرته الذاتية الإطلاع على الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية التي كانت سائدة في كافة البلاد العربية، وإلقاء الضوء على نشوب الحرب العالمية الأولى التي وقعت في العالم كله، والكشف الأستار عن سفر برلك الذي قام به عدد لا بأس به من العرب السعوديين والسوريين واللبنانيين إلى بلاد بعيدة في بداية القرن

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 11

العشرين لأسباب سياسية واجتماعية واقتصادية مختلفة. وكانت أسرة الشيخ عزيز ضياء منهم، وبعد مغادرة منازلهم وأوطانهم جعل الناس يموتون بسبب قلة المعونة والأكل والشرب فيها. بينما كان عزيز ضياء طفلا صغيرا يشاهد كل الأحوال بعينيه، وبعد قراءة هذا الكتاب يمكننا القول إن المؤلف قد أكد على أهمية السياسة والاقتصاد والجغرافيا حتى تتفوق الأوضاع على الموضوعات الأخرى، في مثل هذه الأقسام، صرف الكاتب وقته على بيان أحوال الطقس، والمساحة، والجبال، والأنهار، والبحار، والمناظر البهيجة، والمظاهر القديمة، ويهتم بالتاريخ اهتماما كبيرا بالغا أكثر من سرد الأحوال الشخصية والنفسية. وطبعا، أن هذا الكتاب حافل بأحداث مهيبة ومفزعة، وظروف قاسية كما أنه مملوء بطرائف من الحكايات، والقصص، والنوادر، والمحادثات، والمناقشات، والحوارات المختلفة بلهجة مكسرة وبلغة دارجة وفصيحة على حد سواء. وكذلك فيه تصوير للعادات التقليدية والأخلاق السليمة والقيم المثالية التي كانت سائدة في المجتمع العربي السعودي والشامي بصورة خاصة، ومما يجدر بالذكر أن صاحب الكتاب لم يكتف في سيرته الذاتية على الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية فقط بل أنه صور فيه كثيرا من الشخصيات البارزة التي كان لها دور فعال في بناء شخصيته الفذة وفي تكوين شخصيته ممتازة في الكتابة والصحافة والترجمة وفي جميع مراحل الحياة.

ثالثاً: المقارنة في الأسلوب الأدبي والفني بين الكتابين "حياتي مع الجوع والحب" و" أيامي".

عندما نقوم بدراسة مقارنة وموازنة جادة بين الكتابين تبدو لنا واضحا أن الشيخ عزيز ضياء سجل في كتابه قصة حياته الشخصية المنفردة كثيرا جدا، وصور أحسن تصوير عن ذاته وعصره ومصره ومجتمعه الذي نشأ وترعرع فيه دون أبيه، وإنه قد ذكر فيه قصة لطفولته وصباه وشبابه ومدينته وبيئته وبعض أفراد أسرته الكريمة وأترابه ومدرسته التي قد هرب منها من خلال دراسته. وكذلك حكى لنا عن تجاربه الفائقة

وخبراته العلمية والأدبية والفنية والمناصب التي تقلدها من خلال حياته، وذكر لنا فيه عن قصة والده وأساتذته ورحلاته وتنقلاته المأساوية التي قام بها بالقطار في الليلة الظلام مع بعض أفراد أسرته من المدينة المنورة إلى عدد كبير من مدن الشام، وتحدث فيه عن وظيفته ومهنته ومرضه ووفاة أخيه الشقيق الصغير وجده وخالته الكريمة التي كان يحبها حبا جما كما ألقى الضوء على زواج أمه الحنون برجل جديد في المدينة، وألقى الضوء على خدماته البارزة التي قام بها من خلال حياته في حقول العلم والصحافة والكتابة والتاريخ وما إلى ذلك. وبالجملة، أن هذا الكتاب هو الذي جمع فيه عزيز ضياء الصغير والكبير من تجارب حياته المرة بأسلوب رائع يمتاز بالفصاحة والبلاغة.

ولقد اهتم عزيز ضياء في سيرته الذاتية اللغة والأسلوب اهتماما بالغا إلى تجويد المعنى أكثر من تجويد اللفظ وإلى توليد المعنى أكثر من تزوين الألفاظ. ومن الدراسة العميقة تبدو لنا أن هذا الكتاب يعتبر من أهم الكتب العربية التي صنفت بعد تجربة علمية أدبية في العلوم والفنون في حقل السيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي في القرن العشرين، يتأثر به القاريء من رصانة أسلوبه الأخاذ، وجودة بيانه، وبديعة تراكيبه، وحسن تقديمه، وحسن سرد الحكايات البديعة، ويمتاز هذا الكتاب بأسلوب رائع منمق من بين السير الأخرى، وهو الأسلوب الذي تنعكس فيه آراؤه وأفكاره وعواطفه تجاه البشرية والأمة الإسلامية جمعاء، وهو في غاية الروعة والجمال وله قدرة متكافئة على البيان والكلام ويتمتع بعمق الفهم للإسلام وقضايا المسلمين والقضايا الراهنة المتواجدة في ذلك الحين في المملكة العربية السعودية والشام، وكذلك يتميز أسلوبه بالبساطة والوضوح وعدم تكلف الزينة والزخرفة حيث قد استعمل لغة سهلة و عبارة ساذجة وتراكيب فصيحة أنيقة رضية بالغة.

ولا شك فيه أن الشيخ عزيز ضياء كان خبيرا بفن الصحافة العربية، وأنه كان يقدم تحليلا سياسيا لقضية من القضايا الساخنة من المنظور الإسلامي والمجتمع الإنساني، وكان يتحلى أسلوبه في تحليل الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية

والقضايا الدينية تحليلا دقيقا شاملا يقترن بالعلم الدقيق والدراسة العميقة، وكان ينقد الأحداث الرهيبة المفزعة والأهوال المرعبة بأسلوب رائع منمق مبسط خال من الغموض والخمود، ويستمد من دراسته العميقة ومطالعته الواسعة الجادة لتاريخ العالم السياسي والاجتماعي والديني والحضاري والثقافي وغيره.

ومن اللافت للنظر أن الأستاذ عزيز ضياء المغفور له لم يستخدم في كتابه أي كلمة أو عبارة يصعب فهمها على القاريء بل أنه أبعد نفسه عن استعمالات الألفاظ الغامضة والتراكيب المعقدة التي تثقل على عواتق القاريء عامة، و كذلك أنه لم يتبع منهجا خاصا في الأسلوب والعبارة، ولم يختر لنفسه طريقة خاصة، بل أنه قد استعمل في بعض الأحيان أسلوب السجع وأحياناً أسلوب الاستطراد حيث ذكر عنصر العاطفة والخيال والفكرة على حد سواء، وقد اعتنى المؤلف بالسجع في حواراته ومناقشاته وأحاديثه الحلوة كل الاعتناء، واستخدم المحسنات والصنائع والبدائع والنظائر ولكن لم يقصد بها التأنق أو التصنع والتكلف بل أهدف بها الإبانة والوضاحة والصراحة التامة، وأن هذا الأسلوب يدل على ثقافته وحضارته وخبراته الموسعة ومهاراته الفائقة في انتخاب الألفاظ المناسبة لأفكاره الرفيعة ومعانيه السامية.

ومن الدراسة العميقة لهذا الكتاب تبدو لنا أن القاريء لا يمل بل يجد في نفسه لذة، وطراوة، وحلوة لأن التواصل والتلازم لا يوجد إلا في هذا الكتاب، كما نرى خير مثاله في كتابة الحكايات، والحوارات، والمناقشات، والقصص، والوقائع، والأحداث التي حكاها لنا صاحبه في الكتاب، وأن هذه الميزة لا توجد في أكثر السير الذاتية والتراجم الشخصية إلا في سيرة طه حسين وجبران خليل جبران والعقاد وغيرهم الكثير، ومما يجدر بالذكر أن الشيخ الأستاذ عزيز ضياء كان متأثرا بالغا بأسلوب جبران خليل جبران في حياته ولم يزل ولا يزال يتبعه في الكتابة والصحافة والتأليف والتصنيف.

ننقل هنا بعض الكلمات لعزيز ضياء لكي يتضح أسلوبه الرائع إذ يقول مصورا عن انعكاسات الرحلة المطولة التي قام بها مع والدته وجدته وخالته من المدينة المنورة إلى دمشق باحثا عن والده الذي فقد في الطريق، وأغلب الظن أنه قتل في الطريق، ولم

يرجع بعد، وعما شاهد خلال تلك الرحلة المطولة التي قطع بها عدد لابأس به من المهاجرين من المدينة المنورة إلى الشام " أذكر في ما أذكره عن سوق الحميدية في دمشق الذي اشترى منه جدي تلك الملابس والأحذية، أنه سوق طويل جدا والدكاكين على جانبيه والناس يتزاحمون فيه إلى حد يصعب فيه المشى ويدي في يدي جدي، ولا أنسى ما ظل يعانيه الشيخ بعد أن امتلأ الكيس بما ظل يشتريه من دكان على هذا الجانب ومن دكان ثان على الجانب الآخر... كان الكيس ثقيلا يحمله الشيخ بيد واحدة بينما الأخرى تمسك بيدي أنا... إلى أن خرجنا من السوق حيث ظللنا نخوض في أوحال الشارع، تحت زخات عنيفة من المطر والبرد تبرق معها السماء وترعد إبراقا وإرعادا ظلت ذكراهما تعود إلى ذهني في كل مرة أرى فيها البرق أو أسمع الرعد طيلة أيام العمر"[1].

وكذلك يمكن لنا أن نلاحظ هذا الاقتباس الأصلي حيث يصور لنا عن تلك الهجرة الجبرية التي قام بها بمرافقة والدته فاطمة وجده الأم وخالته عبر القطار، ويستعيد ذاكرته حينما كان يمارس الألعاب المتنوعة مع زملائه وأقرانه في القطار الذي كان يؤدي من المدينة المنورة إلى دمشق (الشام) في كل أسبوع من الأسابيع إذ يقول بصراحة " إذ لم أنس بعد، ما كانت تحفل به الرحلة من المدينة بهذا (البابور) من متع ومباهج، أهمها أو ما لن أنساه منها ذلك العدد الكبير من الأطفال الذين كان يؤذن لي أن ألهو معهم طيلة الوقوف، فليس ما يمنع أن ينصرف الكبار إلى قضاء حوائجهم، بينما ينصرف الصغار إلى اللعب حيث هم في العربة، بين الصناديق والحقائب والسلال، أو على أكوام الرمل والحصى التي يجدونها أمامهم حين يأذن لهم الكبار ويساعدونهم على الهبوط من العربة إلى الأرض، ثم هناك ما لا يقل أهمية عندي من اللعب مع الأطفال وهو اللحيسة) التي لم أعد أرى شيئا منها على المائدة، لا أرى أثرا لهذه (الحيسة) التي أيقنت أنها ستعود إلى الظهور عندما نسافر بالبابور بعد يومين"[2].

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 24

[2] المرجع نفسه، ص: 24

ويذكر عزيز ضياء على إمكانات ذاكرته مراحل تلك الرحلة المطولة الجبرية وتفاصيلها وأول محطاتها في حلب ودمشق وعدن، كما أنه يذكر لنا عن تلك العربة التي كان يجرها حصان أو حصانان أو بغال في الطريق الذي يؤدي إلى الشام كقوله "استوقف الشيخ عربة يجرها حصان، عرفت فيما بعد أن اسمها (فيتون) رمى فيها الكيس الذي يحمله، ثم ساعدني على الصعود إلى مقعدها وما كاد يجلس إلى جانبي حتى أخرج من جيب ثوبه الفضفاض منديلا راح يمسح به وجهي ورأسي ثم يضمني إليه وهو يقول: برد... برد شديد... أليس كذلك؟ وانطلقت العربة بنا في طريق طويل، والمطر لا يزال ينهمر، والناس يتراكضون تحت زخاته إلى الأرصفة، على الجانبين، ويتجمعون تحت مظلات الدكاكين، وظللت أنا وادعا على صدر جدي وقد أغراني الدفء بأن أهجع وأنا أرمق الطريق بعينين يراودهما النعاس لكني وجدت نفسي أفتحهما، متنبها وأنا أرى صفوفا من الجند تسير، وعلى أكتافهم هذه الأشياء التي عرفت في ما بعد أنها البنادق، يطلقون منها قذائف تخترق أجساد الناس فتقتلهم، كما عرفت أن لإنطلاق هذه القذائف من البنادق أصواتا مفزعة يسمعها الناس فيعرفون أن الحرب لا تزال تدور، وفي الحرب بموت هؤلاء الجنود، كما يموت أولئك الذين يطلقون عليهم القذائف القاتلة من بعيد"[1].

كما قمنا بملاحظة جادة من هذا المقتبس الذي أشار المؤلف فيه إلى السفر الذي قام به عدد كبير من أبناء المدينة المنورة خائفين بشدة الجوع والحرب، ويحدثنا من خلال سيرته الذاتية أيضا عن القطار الذي كان يجري بين المدينة المنورة والشام مباشرة، كما عبر عزيز ضياء عن عواطفه وخواطره في وصف القطار السريع الذي لم كان يجري ويقطع مسافات طويلة بالاستمرار كقوله " ارتفع صوت صفارة القطار أخيرا، وأنا أعرف الآن أنه سيمشي، وأن هناك على الأرض أولئك الناس الذين يقفون وفي عيونهم الدموع ومعهم آخرون يحملون ما يبيعونه من الفواكه والحلوى، ولكني في هذه المرة لا أراهم، ولا أرى كيف يظلون واقفين، ولكنهم مع ذلك يمشون ويمشي معهم كل ما

[1] المرجع نفسه، ص: 25

تقع عليه العين، حتى الأشجار والجبال، إنني الآن في حضن جدي وحوله هؤلاء الناس الذين جلسوا على أرض العربة وإلى جانبهم أو حولهم الحقائب والصناديق والسلال، ومرة أخرى لم أنس أنني لا أرى أثرا لقدر (الحيسة)... بل ولا أرى أثرا لإبريق الشاي، فلا أمل في أن نأكل شيئا كما اعتدنا أن نفعل في مثل هذا الوقت من الصباح، مشى القطار بعد أن أغلق أحدهم الباب العريض في الوسط، وارتفع ضجيجه وهديره وضاع معه صراخ الأطفال، وبدأ كل شيء يهتز ويرتعد، أخذت همهمة جدي تتلاحق كالعادة بما يتلوه من أدعية وأذكار، واستغرقت أنا في نوم عميق لا أدري كم طال، حين أحسست بأن جدي يزيحني عن حضنه وينهض مسرعا ويفتح صندوقا صغيرا يحرص على أن يظل في متناول يده، ليخرج زجاجة صغيرة يأخذها في يده ثم يشرع في التحرك متهجا إلى الجهة المقابلة حيث كان الجميع يلتفتون وفي عيونهم تساؤل وقلق، وبعضهم يردد (لا حول ولا قوة إلا بالله)... وآخرون يقولون (قد تموت قبل أن نصل).. ويعلق آخر: (لو ماتت قبل أن نصل، فلا بد أننا كلنا (نتكرتن))[1].

ومن الأمور المهمة أن الأديب الراحل عزيز ضياء قد استخدم في هذا الكتاب لغة عامية في مواضيع كثيرة، ولكن هنا يجول في أذهاننا سؤال مهم بسيط بأنه لماذا استخدم اللغة العامية إلى حد؟ هذه هي التساؤلات التي تأتي في أذهاننا كما تأتي في أذهان الباحثين الآخرين على العموم والمشتغلين بالترجمة الذاتية على الخصوص، وعندما نعود للإجابة إلى التساؤلات نجد أن المؤلف لم يذكر في مقدمته الكتاب أي سبب من الأسباب، وكذلك لم يشر إليها في أي مكان، كما أشرت إلى ذلك في الفصل السابق، ولكن لا يمكن إنكار هذه الحقيقة بأن الكتاب يمتاز بالفصاحة والبلاغة والروعة والبيان، ننقل هنا بعض الكلمة التي تدل على تضلعه وتمكنه على استخدام العامية، إذ يقول في الحوار الذي وقع بينه وبين أمه الكريمة " عادت أمي، بعد أن شيعتهن إلى الباب... وكنت أنتظرها في الواقع، وفي نفسي أن استأذنها في الذهاب إلى بيتنا في زقاق القفل... وقبل أن تجلس نهضت أقول:

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 28/27

-أنا أبغا أروح بيتنا..

وبدا على وجهها الاستغراب والدهشة وهي تقول:

بيتنا؟؟؟ في زقاق القفل؟؟

-أيوه... اقعد مع دادة منكشة.

- لكن ليه؟؟ ليه ما تبغا تقعد معانا هنا؟؟ هادا دحين بيتنا كمان.

- يا فمَّم بيتنا هناك... بيتنا في زقاق القفل..

- أيوه هاداك بيتنا صحيح.. لكن هادا دحين بيتنا كمان.

- يعني بيتين؟؟؟

- أيوه بيتين... هاداك

ملكنا وأنا وإنت... وهادا... وتلعثمت... لحظات ثم قالت:

-اسمع أفهمكت... اقعد. ولكني لم أجلس... ووجدت نفسي مختنقا بزحمة البكاء وأنا أقول:

- أنا فاهم يا فمَّم... فاهم هادا دحّين بيتك إنتي... مع الدكتور.. لكن أنا... أنا بيتي هناك[1].

ومن نموذج آخر للغة العربية العامية التي قد استخدمه في سيرته الذاتية كقوله " لا أدري كيف خطر لي أن أسأله:

- أنت يا يحيي كانت عندك قفة واشتغلت؟؟؟

فوقع ضحكة استغرق فيها لحظات، ثم قال:

-كيف أقدر أشيل قفة على رأسي- زيك- ولو شافني سيدي حسين يقتلني..

- سيدك حسين أبو أمك؟؟؟

- لا... سيدي حسين هوّه أخونا الكبير... وهوّه اللي نخاف منّه... كلّنا...

- مين كلّكم؟؟؟

- كلّنا... أنا وأخوتي... وكرايمي... وحتى أمّنا.

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 16/ 17

– طيب وأبوك؟؟؟

– وأمك يايحي، ما اتجوّزت بعد أبوك ما مات؟؟؟

وفرقع ضحكة خفيفة وهو يقول:

–تتجوز؟؟؟ كيف تتجوز وهي حرمة عجوزة... لمّا أبويا مات كان سيدي حسين هوّه رجّال البيت... أمّا سيدي أبو أبويا... دا خلاص... طول نهاره على السجادة...

– لكن يا يحي... ليه سيدك حسين، لو شافك شايل القفة، يقتلك؟؟؟

– عشان عيب...

– كيف عيب؟؟؟ ليه عيب؟؟؟[1].

وأما بالنسبة إلى أحمد السباعي فإنه قد استخدم لغة عامية في أكثر المكان، ولكن في الحقيقة أنها ليست بصعبة جدا لا نفهمها، على كل حال، لا يمكن لأحد منا إنكار هذه الحقيقة بأن هذا الكتاب يعد من أشهر الكتب التي ألفت حول هذا الفن في القرن العشرين، فإن السباعي عرض فيه عن نفسه وبيئته العربية السعودية من جميع أطرافها في المدينة والكتاب والمدرسة ولا يترك شيئا دون أن يرسم رسما بارعا فريدا، والكتاب دون شك دليل على مهارته وخبراته الواسعة وتجاربه العلمية والأدبية والفنية والتاريخية وبراعته في الفنون الأدبية الأخرى. حيث قد استعمل لغة سهلة، وألفاظا لطيفة، وكلمات رائعة، وعبارات فصيحة، وتراكيب رضية، وقد أبعد نفسه باستخدام الألفاظ المعقدة والتراكيب المشكلة الجادة.

فلا بد لنا أن ننقل بعض الكلمات للغة الدارجة لكي يتضح هذا الأمر، إذ يقول عن عقائد الجيل التي كانت منه جدته الأم مذكرا عن أحاديثها الطريفة التي قالت له في أيام الطفولة " كانت– رحمها الله– تنهى عن كنس البيت على أثر خروج المسافر منه، لأن ذلك يمنع عودته وتوصي بصب الماء خلفه في اللحظة التي يخرج فيها من الباب لأن الماء أمان!! وكانت تنهى عن غسل الثياب يوم الاثنين لأن صحابيا فقد ولديه على أثر الغسل يوم الاثنين كما تنهى عن خياطة الثوب فوق لابسه أو كنس

[1] المرجع نفسه، ص: 33/32

البيت أثناء الليل أو شراء الفحم في شهر المحرم، لأن ذلك كله (بطال).. (وبس بطال) فإذا قلت (يا ستي) لم هو (بطال) صاحت في وجهي: (قم يا ولد.. أنت متفلسف)!!! إحنا ناس زي ما نسمع من الكبار!! نقول طيب وما علمت- رحمها الله- أن مأساة المسلمين في بعض كبارهم الذين ظلوا يسمعون منهم وهم يقولون طيب!! دون أن يناقشوا حقيقة هذا الطيب أو يبحثوا مصادره الصحيحة... وكانت ستي تفرض على كل من يخلع سنه من أحفادها أن يرمي به إلى وجه الشمس وهو يهيب يا شمس يا شموسه خذي سني.. وأعطني من العروسة!!"[1].

وكذلك علينا أن نلاحظ نموذجا آخر لأسلوبه الذي يدل على اللغة الدارجة، وأن هذا النموذج هو الذي يعرفنا عن مدرسة حيث كان يدرس العلوم والفنون في أيامه الطفولة كقوله " لم يكن الاختبار تحريريا إلا في مواد خاصة كالخط والحساب وما يشبههما أما بقية الدروس فيجري اختبارها يجلس الشيخان أو الثلاثة على كراسيهم ويحضر التلاميذ، من أبوك يا شاطر؟ أو هوة أعرفه والله رجال طيب ها بشرني حافظ التاريخ... كيف بلبل؟ ها سمعني يا شاطر كيف كانت وقعة القادسية... لا موكدا.. لا تتربش.. على مهلك... ارجع من الأول.. لا باين عليك البارح ما رقدت... أيوه ارجع ثاني مرة... بروضو حفظك مو مضبوط يا شيخ إسماعيل ايش تشوف نحط له بس 6 من 10 لا ما عليه.. زيده كمان نمره أيوه رجال طيب...

-هنا أزيدك النمرة لكن بشرط تحفظ.

- أيوه يا سي الشيخ الله يرحم أبوك خلي لي هيا بس 8 والا 9 الله يعافيك.

- والله ما أدري.

- ما ايش تشوف يا شيخ عمر؟

- زي بعضه يا سيدي... بلكي يتشطر بعد كده ويصير رجال.."[2].

---

[1] المصدر السابق ص: 95

[2] المرجع نفسه، ص: 85

وهنا نموذخ آخر حيث يقول " وأكون في هذه الآونة عدت من سبحاتي في برحة المروة بين لاعبي (الكبت) وتنبهت حواسي من غفوتها.

– صحيح غير معقول 30 دقيقة.

– نطرحها يا عم شاكر.

تطرح ايش من ايش.. هادي ثلاثة أعداد يا واد كيف تطرحها؟ اجمع 10 و5 تساوي 15 وبعدين اطرحها من 15.

– يعني كم يبقي.

– يبقي صفر.

– وهل تتملا البركة في صفر؟

– لا... غير معقول، ويهز أبي رأسه موافقا العم شاكر بأنه غير معقول.

وأعود أنا من سبحتي في برحة المروة!! وأفهم أن الحل غير صحيح فأركز ذهني جيدا ثم أقول:

– نضربها يا عم شاكر؟

– تضرب ايش في ايش يا واد؟

–نضرب عددين يكفوا؟[1].

رابعاً: المقارنة بين السرد والحوار في الكتابين

إن الحوار الطويل والصغير في كتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب " منثور في أكثر المكان وخاصة في الجزء الثاني والثالث، حيث اعتمد عليه صاحبه في رسم الشخصيات الممتازة، وفي نقل المعلومات الهامة والقصص والحكايات والفكاهات وتصوير الأحداث المروعة والظروف الرهيبة والحوادث الكثيرة المثيرة التي واجهها خلال حياته في المدينة المنورة وفي العديد من مدن الشام، ننقل بعض الحوارات الذي يدور بين الشخصيات المؤثرة والجذابة التي ضمته سيرة الكاتب من خلال النقاط التالية–

[1] المرجع نفسه، ص: 57/56

الشكل الأول: أطراف الحوار، إن أغلب الحوار المذكور في هذا الكتاب استأثرت به شخصية الكاتب والشخصيات المؤثرة الأخرى التي ورد ذكرها في هذا الكتاب، وأن هذا الحوار يدور في بعض الأحيان بين كاتب السيرة الذاتية ووالدته، وفي بعض الأحيان بينه وجده، وبينه وبين والده، وبينه وبين أساتذه المهرة الذين درس منهم أسباق الحياة الاجتماعية والثقافية والتاريخية في المدينة المنورة، وكذلك يدور هذا الحوار بينه وبين خالته خديجة، وبينه وبين خير القباني، وبينه وبين الأشخاص الآخرين الذين لهم دور قيادي في صقل شخصيته البارزة.

ومما يجدر بالذكر أن جميع الحوار الذي دار بين الشخصيات التي ضمتها سيرة الكاتب جاءت في لغة عامية بسيطة وبالأخص بلهجة أبناء المدينة المنورة على ثلاث مستويات كما – سبق القول– الأول: حوار بلغة دارجة عامية. والثاني: حوار بلهجة مكسرة عامية. والثالث: حوار بلغة عربية فصحى. ننقل فيما يلي بعض الحوارات الذي دار بين عزيز ضياء والسيدة ستيتة ومنكشفة ووالدته إذ يقول " ظللت هكذا بين ذراعيها وعلى صدرها لحظات تمنيت ألا تنقضي... ولكنها رفعت صوتها تنادي أمي..

– يا ستيتة تعالي استريحي عندنا.. أمي في (المركّب) عمّال تطبخ لنا رز وعدس وحوت ناشف، وجابوا عبد المنان،

– أجي يا بدرية بعدما أدخل وأفسخ (قُنعتي)...

– طيب خلي عزيز معايا...

– أيوه خلّيه معاكي... بس لا تخلّيه يروح يلعب مع الأولاد في رأس الزقاق.

ووجدت نفسي أبادر إلى الرد فأقول لها وهي تدخل البيت:

– يا ففم... أنا أقعد مع خالة بدرية. هنا تدخلت (منكشة) التي ظلّت تلتزم الصمت حتى الآن لتقول:

– أنا كمان فيه (يالانجي ضولمة).

تقصد أنها جهّزت أكلة يسميها الأتراك (يا لانجي ضولمة) ومعناها (المحشي الكاذب أو الكذاب) وهو الباذنجان يحفر، ويُحشر أرزاً، ويطهي بالزيت، ويؤكل بارداً.. أجابتها بدرية بنبرة مرحة ضاحكة:

-خلاص.. إنتي تجيبني (اليالانجي) حقّتك.. ونحن الحوت الناشف والرز والعدس ونتغدى كلنا مع بعض...

كان هذا الذي أسمع سارا مفرحا، وكأنه يرفع عن قلبي، أو هي عن نفسي ما ظللت أعانيه منذ اللحظات التي مشينا فيها إلى المحكمة، وما دار فيها، وإلى أن رجعنا إلى البيت.. وأخذت مجلسي إلى جانب بدرية، على (شلتة) افترشتها... فأحاطتني بذراعها وقالت:

-خلاص يا عزيز... إنت دحّين عمرك سبعة سنين... موكده؟؟

- لأ.. ستة سنين وتسعة أشهر.

- وضحكت ضحكة مرحة حلوة وهي تقول:

- ماشاء الله عليك... صرت تعرف الستة سنين والتسعة أشهر كمان؟؟

- كده أمّي قالت في المحكمة.

- طيب قل لي... فين بدلتك البحاري... ليه مالبستها لما رحت المحكمة؟؟

- عند أمي... وهيّه تقول ألبسها لمّا يجي العيد.

- طيب ومتى يجي العيد يا عزيز...

- العيد الكبير؟؟ ما أدري؟؟ "[1].

ومن النموذج الآخر للحوار الذي دار بين الكاتب وبدرية ووالدته كقوله " هذا أمي كلام ما يدخل العقل... بنت نجم الدين أفندي يمكن أصغر مني أنا... جوزوها صغيرة.. وأراد الله جوزها مات بالشوطة اللي جات في الشام... يعني ما يمكن أبوها يجوّزها لواحد أكبر من أبوها. وعادت الخالة فاطمة تسحب من الشيشة نفسا طويلا، ثم تنفث الدخان من منخريها وفمها ثم تقول:

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 345/344

– الكلام اللّي ما يدخل العقل هوّه اللّي بيجري وراه أبوكي... وشوفيه ما جا الين دحّين.. وأرسلت ضحكة ساخرة مصطنعة وهي تقول:

– مين يدري... يمكن اتأخر هو عبد المنان معاه... عشان بيملك عليها...

وارتفع صوت بدرية قليلاً، وهي تقول:

– يا أمي هادا كلام ما يدخل العقل... عبد المنان يشوف أبويا يبغا يبجوز هادي البنت ويسكت...؟؟؟ ما يقول لي؟؟؟

– وليش يقول لك؟؟؟ ليه ما يكون هوّه كمان.

وانتفض صوت بدرية وارتفع وهي تقول:

– هوّه كمان أيه يا أمي؟؟؟

هوّه كما حاطط عينه منها.

– من هادي البنت

– إيش هادا الكلام يا أمي؟؟؟ أبويا... وزوجي... يتجوز الاثنين وحده بنت؟؟؟

– لا.. يا غبية... واحد منهم اللّي يبغا يتجوزها... إذا أبوها ما رضي يجوزها لأبوكي يرضى يجوزها لعبد المنان..."[1].

وعندما نطالع الكتاب " أيامي" نجد فيه بأن الحوار مبثوث أيضا في موضوعاته حيث اعتمد الكاتب في رسم الشخصيات البارزة، وفي نقل المعلومات العامة، وتصوير الأحداث المتغيرات مما شاهدها خلال طفولته وشبابه في مكة المكرمة، أود هنا أيضا أن أقدم بذلك الحوار العامي والفصيح الذي ضمته السيرة الذاتية من النقاط التالية–

الأول: أطراف الحوار، فإن أغلب الحوار الدارج العامي والفصيح الوارد في هذه السيرة استأثرت به شخصية الكاتب ويمكن أن نصفه من خلال طريقتين الأول: حوار دار بين شخصية الكاتب والشخصيات الأخرى التي وردت في السيرة الذاتية، وأن هذا الحوار قد جرى بين الكاتب ووالده، وبين الكاتب ووالدته، وبينه وبين أمه، وبينه وبين جدته، وبينه وبين فقه الكتاب، وبينه وبين خالته حسينة، وبينه وبين زملائه وأصدقائه

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الثاني، ص: 219

الذين درسوا في تلك المدرسة التي كان يعمل بها معلما للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. كما دار بينه وبين محمد سرور الصبان، وبينه وبين محمد المليباني وغيرهم الكثير، ننقل هنا هذا الحوار كنموذج لكي يتضح أسلوبه إذ يقول " وقالت أمي إلى علبتها الصغيرة، خاضعة في غير اقتناع ثم سلمتني الجنيه وهي تهيب بي:

– لكن ما تقول إيش الصنعة اللي بدك تسويها.

– بس أنت مالك شغل... قولي لها يا ستي... هيا تعرف حاجه في الدنيا!! قولي لها اسكتي مالك شغل!

ولم تنطق ستي بحرف لأنها سكانت بدأت وظيفتها في السبحة (يالطيف يا لطيف يالطيف) ويدها تشير إلى أمي في إلزام وتصميم أن تعطيني الجنيه ثم ترفع سبابتها اليمني إلى السماء وكأنها تقول: (عليك يا رب)، وأعتقد أن الله لم يخيب رجاء ستي فيما توجهت، ولكنه لم يستجب لضراعتها إلا بعد حين طويل، تسلمت (الجنيه) وأنا أعدو في خفة المجانين إلى الدرج، وما بلغت باب الشارع حتى وقفت أعيد النظر فيما كان، وأدققه فيما يكون "[1].

الثاني: هو ذلك الحوار الذي يسمى بـ "المونولوج الداخلي" أو المناجاة" وهو حديث النفس للنفس واعترافات الذات للذات، ومن نموذجه تلك الكلمة التي خاطب فيها ابنه البار، وهو في وقت أزمة تمثلت في نفاذ النقود التي كانت تمده بها والدته، وأن هذا الحوار قد وقع بين والده وعريف الكتاب، وبين الوالد والشيخوخة حسينة، وبين الوالد والعم شاكر، وبين الشريف الحسين بن علي وأهل مكة المكرمة، وبين الشريف بن علي ومدير المدرسة عبد الوهاب خياط إذ يقول " راعني كف دفيء يضرب على كتفي (حيا الله أبو حماد!! هيا يدك مجيدي... شوف العيال عندهم سليق في الشهدا يدك على نص مجيدي لأجرة الحمار، والنص الثاني للباي ها... معانا؟)

– أيوه معاكم... واللي ينزل من السماء تستلقاه الأرض، نعم سأكون معهم، ولكن ما الحيلة الليلة في أمي وستي وقد أمستا تنتظران مكسب الجنيه وأن يعرفا نوع

[1] السباعي، أحمد، أيامي ص: 107/105

المهنة التي اعتزمت احترافها! دفعت (المجيدي) إلى صاحبي، ووعدت أن أوافيه حيث يجتمعون، ثم انقلبت إلى أمي:

(شوفي يا أمي... هذا ريال مكسب اليوم.. ها... يا ستي اشتريت حوائج من الحراج.. وبعتها في في ساعتها كسبت ريال واحد... ايش تقولي... ها.. شاطر؟؟؟)

– شاطر والله يا ولدي.. روح الله يكسبك!!"[1].

خامسًا: المقارنة في استخدام ضمير المتكلم بين الكتابين

ومن الدراسة العميقة يبدو لنا أن الشيخ عزيز ضياء قد قام باستخدام في سيرته الذاتية بضمير المتكلم، وأن استخدامه لضمير المتكلم في كتابة السيرة الذاتية يخلق الشعور والإحساس بالألفة والمؤدة والثقة بالذات والشعور بالنفس، ولعل استعماله لضيمر المتكلم هو عقد ضمني بين الكاتب والمتلقى الذي يتمثل في أن هناك تطابقا بين المؤلف والسارد وبين السيرة الذاتية الشخصية الرئيسية في ذلك العمل العلمي والأدبي على حد سواء، وأن استخدام ضمير المتكلم ربما يعود إلى ما عرف عنه من الشجاعة والجرأة والإقدام والصراحة، كما نرى نموذجا مثاليا له في هذه السيرة الذاتية حيث يقول عزيز ضياء " لا أدري إن كان نومي في حضن خالتي قد طال أم قصر، فقد سمعت أمي وخالتي توقظاني، وفتحت عيني وجلست لأرى جدّي أيضاً، وأخي على صدر أمي، وقد تحلق الجميع حول قطعة من قماش عليها قدر الحيسة وطبق من الجبن وكسر من أرغفة الخبز وإلى جانب الشيخ إبريق يكسب منه الشاي لأمي وخالتي ويخرج لكل منهما قطعة من السكر وهو لا يزال يهمس بالصلاة على النبي وبتلك الآية من القرآن، وكنت جائعا واشتهيت أن أمد يدي وأن اقتطع ما أشاء من قدر الحيسة التي ما زلت مشغولا باشتهائها منذ رأيت أمي تصنعها، عندما أيقظوني في الفجر، ولكن الشيخ كان هناك وقد تعود ألا يسمح للصغير بأن يمد يده إلى شيء وأن أنتظر ليعطيني هو أو أمي أو خالتي نصيبي من أي لون من ألوان الطعام، لم يطل انتظاري فقد امتدت يد جدي إلى القدر بملعقة ملأها ثم وضعها في طبقه ثم ثانية وثالثة، ثم

[1] المرجع نفسه، ص: 109/108

بقطعة سخية من الجبن، وبجزء من رغيف من خبز الحنطة وزاد على كل ذلك أن ملأ كوباً من الشاي وضع فيه قطعة السكر.."[1].

وكذلك استخدم الأديب الرائد أحمد السباعي في سيرته الذاتية بضمير المتكلم دون ضمير الغائب والحاضر، كما استخدم الأستاذ طه حسين في كتابه القيم النادر المسمى بـ " الأيام "، وأن استخدام الأستاذ السباعي لضمير المتكلم يخلق أيضا الشعور بالألفة والمؤدة والمحبة والشعور بالمسؤولية تجاه عن نفسه وعن المجتمع الإنساني الذي قضى فيه طوال حياته، ولعل استخدامه لضمير المتكلم يرجع أيضا إلى ما عرف عنه من الشجاعة والجرأة والصدق والصراحة كقوله " كنت أشارك في بعض هذه الخدمات أو أكثرها لأن سيدنا كان لا يدين كثيرا بمدأ التخصص وكان يميزني ويختصني برعاية بالغة في بعض الأحيان فيسلمني نعاله أمضي به في العم جابر الخرّاز في رأس المدَّعيَ، وأبقى إلى جواره أنتظره الفراغ من تسميره، أو يبعث بي إلى أمه في دارها أحمل إليها (زنبيل المقاضي) وأقضي وقتاً غير يسير عندها أعاونها على غسل (الصحون) والأطباق وأعني بطفلته الصغيرة عندها، وكان يصل إلى علم والدي بعض ما أعانيه في الخدمة فلا يغيره ما يسمع، لأن مبدأ (من علمني حرفاً صرت له عبداً) عقيدة لا يصح التهاون بها عنده، ولأن الفتوح في رأيه رهين برضاء الفقيه، ورضاء الفقيه كائن ولا بد في التوافر على خدماته وتسمير نعاله"[2].

سادسًا: المقارنة في قالب التعبير بين الكتابين

من المعلوم للدارسين المحققين أن الترجمة الذاتية لأي رجل من الرجال ومذكراته عن نفسه تعبير صادق عن ظاهره وباطنه وقرارة نفسه ومواقف فكره وذهنه وعقله وعمله ومما شاهد من خلال حياته من الطفولة إلى الكهولة، لذلك نرى أن معظم الكتاب والأدباء للتعبير عن خواطرهم وأحاسيسهم وتجاربهم الحية يستخدمون الأساليب المختلفة حسب طبيعتهم وذوقهم الخاص، ويستخدم بعضهم الأسلوب التفسيري

[1] ضياء، عزيز، حياتي مع الجوع والحب والحرب، الجزء الأول، ص: 19

[2] السباعي، أحمد، أيامي، ص: 18

والتحليلي وبعضهم يستخدم الأسلوب التفسيري التصويري وبعضهم يستخدم الأسلوب القصصي والروائي وما إلى ذلك، وأن الأسلوب الذي قد استخدم الشيخ عزيز ضياء في هذا الكتاب للتعبير عن تجاربه العلمية والأدبية والفنية والتاريخية وغيرها من الحوادث الكثيرة المثيرة والظروف القاسية التي مر بها خلال الطفولة والصبا في صحراء المدينة المنورة والحجاز وخاصة في العديد من مدن سورية هو أقرب إلى الأسلوب القصصي والروائي وإن هذا الأسلوب " وهو الأسلوب الذي يختاره الكاتب المتمرس على معالجة الفن الروائي، والكاتب حين يختار هذا القالب أداة يهدف من ورائها إلى التعبير عن ترجمته الذاتية فإنه يخلق به أن يكشف عن غايته، فيفصح إفصاحا أنه يصوغ سيرة حياته الحقيقية على هذا النحو الروائي، وحينئذ عليه أن يتمسك بعناصر الحقيقة فيما يقصه، دون أن يسترسل مع الخيال والتصور، ودون أن يسلم نفسه إلى ما يفرضه، " تكنيك الرواية " فيختار به بمنأى عن الترجمة الذاتية ليمنحنا، رواية تعتمد آنئذ على تجاربه الشخصية، ولا يمكن في هذه الحالة أن ندخلها في عداد الترجمة الذاتية المصوغة في قالب روائي، إذ أنه أخل بشروطها باستسلامه لفنية الرواية وما تجره إليه من تعمية وتخييل وتصور وابتداع في الشخصيات والأماكن والمواقف والأحداث وإنكار لشخصيته: وإعارتها اسما آخر غير اسمه"[1].

ولدينا في الأدب العربي الحديث روايات اعتمدت كل منها اعتمادا كبيرا على الحياة الشخصية لكاتبها من مثل " الأيام " لطه حسين و" سارة " للعقاد و" إبراهيم الكاتب " و" إبراهيم الثاني " للمازني و" عودة الروح " و" عصفور من الشرق " لتوفيق الحكيم و" الحي اللاتيني " لسهيل إدريس، و" العنقاء " للويس عوض، " مرداد " و" مذكرات الأرقش " و" لقاء " لميخائيل نعيمة، و" أيام الطفولة " لعبد الحليم عبد الله، وكلها روايات انتفع كتابها بتجاربهم الشخصية انتفاعا كبيرا فيما يثبونه في ثناياها من

[1] عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص: 115

مواقف وأحداث، لها قيمتها البالغة الأهمية في مجال الترجمة الذاتية، بيد أنه لا يمكننا أن نعدها جميعا ترجمة ذاتية، لأن أكثرها قد أخل بالأمس الفنية للترجمة الذاتية[1].

وللتعبير عن نفسه قد اختار الأديب الرائد أحمد محمد السباعي الأسلوب الذي هو أقرب إلى الأسلوب الإخباري والتفسيري التصويري التحليلي الجياش، وأن هذا الأسلوب "هو الأسلوب الذي يبدأ فيه الكاتب بداية تحليلية على نحو ما يفعل في المقالة المبنية على التحليل والتفسير والإيضاح، فهو مدخل تحليلي تبدأ به الترجمة الذاتية، يعمد صاحبه إلى التعبير عن أفكاره، والتحليل المتأمل لموافقة وواقعة الذي مضى ومن مجموع ذلك يتألف موضوع ترجمة الذاتية التي اتخذت شكل مقالة مسهبة تضم فصولا صغيرة"[2].

سابعًا: المقارنة في الموضوعات العامة بين الكتابين

مما لا يشوبه شيء من الشك هو أن الكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب " يعتبر من أهم انتاجات الشيخ عزيز ضياء التي سجل فيها انطباعاته ومشاعره وخواطره وتنقلاته ورحلاته وجولاته وصولاته بعد تجارب علمية وخبرات واسعة ومهارات فائقة في مجال العلم والأدب والمعرفة والتاريخ والسير الذاتية والعلوم العقلية والنقلية النظرية وغيرها، وأن هذا الكتاب يعد من كتبه النافعة المفيدة المؤثرة في نفوس القراء والدارسين الباحثين ممن يريدون الإلمام بالتاريخ العربي السعودي من الحرب العالمية الأولى حتى الثانية، ومن الثورة العربية الكبرى حتى تأسيس المملكة العربية السعودية.

سجل الشيخ عزيز ضياء في هذا الكتاب قصة حياته، وتحدث الحوادث الكثيرة المثيرة التي قضاها في ظل العهود الثلاثة: العثماني، والشريفي، والسعودي، والتي مرت على المملكة العربية السعودية بصورة عامة وعلى المدينة المنورة بصورة خاصة، وهو بذلك يؤدي شهادة تاريخية مهمة تحتاجها الأجيال القادمة التي لم تعاصر تلك الأحداث والوقائع لتعرف تاريخ المدينة المنورة، وتحدث فيه عن حياته ودراسته وأطوار حياته

[1] المرجع نفسه، ص: 115
[2] المرجع نفسه، ص: 112

وتدرجه في الوظائف، وألقى ضوءا ساطعا على البيئة التي نشأ فيها وترعرع في ظل عواطف والدته، كما ذكر لنا عن رحلاته وجولاته وتنقلاته التي قام بها برفقة بعض أفراد أسرته من البابور إلى الشام وغيرها من البلاد الأخرى، والكتاب دون شك مليء بالأحداث والشواهد التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية التي عايشها في تلك الفترة من الزمان، وكذلك تحدث من خلال سيرته الذاتية عن المدينة المنورة في تلك العهود التي عاشها المؤلف مع أهاليها، وقام بتسليط الضوء على المدينة المنورة والأماكن المختلفة والحارات والشخصيات الممتازة التي أنجبتها المدينة المنورة، كما ذكر بعض عادات المدينة المنورة وتقاليدها الرسمية وغير الرسمية.

ومن الملاحظ أن صاحب الكتاتب لم يكتف في سيرته الذاتية على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فقط بل أنه ركز جهوده المضنية على سرد الحوادث الكثيرة والظروف السيئة التي قام بمشاهدتها مع ناس المدينة المنورة، وقد صور فيه كثيرا من الشخصيات البارزة التي لها دور حيوي في بناء شخصيته وصقل مواهبه في اللعلوم المتنوعة والفنون المختلة، فالكتاب يبدأ بمثل فرنسي ثم بإهداء إلى والدته فاطمة بنت الشيخ أحمد صفا، ثم يبدأ بمقدمة مطولة أوضح فيها العوامل الأساسية الدافعة إلى الكتابة لسيرته الذاتية في اللغة العربية، وأن هذه المقدمة تحتوي على ست صفحات تقريبا، حيث شرح معنى هذه السيرة الذاتية، والحوادث الكثيرة التي عايشها عزيز ضياء في فترة طفولته، وكان لها تأثير عميق مباشر في حدوث متغيرات خطيرة على كثير من البلاد العربية والغربية، وكذلك تحدثنا خلال سيرته الذاتية عن ولادته ومرحلة الطفولة والصبا وأسفاره وتهجيره من المدينة المنورة إلى الشام على حكم فخري باشا (حاكم والي العثمانيين على المدينة المنورة خلال العهد التركي) خائفا من الجوع والفقر وباحثا عن أبيه الذي فقد في مكان ما، وكل ذلك وقع في أثناء الحرب العالمية الأولى.

وأن الكتاب " الأيامي" يعد من أول الكتب في فن السيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي الذي قام أحمد السباعي بكتابته بعد السبعين من عمره متكئا على ذاكرته القوية القريحة، فهذا الكتاب ما هو إلا بمثابة سيرة ذاتية وترجمة شخصية عن

حياته العلمية والأدبية والسياسية والتاريخية والاجتماعية وماعداها، حيث أنه تحدثنا عن ترجمته الشخصية منذ نعومة أظفاره حتى الشباب، قد احتوى الكتاب على العديد من الفصول، وكل فصل من الفصول يحمل عنوانا، وكل العناوين المذكورة مرتبطة بحياة أحمد السباعي وآرائه الثاقبة وأفكاره العميقة وخواطره ومشاعره فهو العاصف والموصوف وهو العارض والمعروض.

قام السباعي بمعالجة من خلال كتابه فترة زمنية محددة من حياته بدءا من أول يوم من الأيام أدلج فيه إلى الكتاب وانتهاء عمله بصفته محررا في جريدة صوت الحجاز، وقدم فيه مباشرة من خلال ذكر اسمه الأول، ثم ولادته ونشأته في حارة الشامية في عام 1323هـ المصادف عام 1905م بمكة المكرمة، وتناول والده الكريم الذي كان رجلا أميا عمل في مهنة الطوافة في المملكة العربية السعودية، وقد توفي عندما كان الرابعة عشر من عمره، وتحدث فيه بشيء من التفصيل عن والدته كان اسمها " جواهر"، وكانت هي أيضا إمرأة أمية لا تعرف الكتابة والقراءة، وكذلك ألقى الضوء على حياته والده الكريم الذي تزوج أربع زوجات، زوجته الأولى توفيت في حياته، وأنجبت منها ابنته الكبرى "آسيا"، ثم تزوج زوجته الثانية، وأنجبت له ابنته الثانية " عائشة "، ثم تزوج زوجته الثالثة، وأنجبت له أيضا ابنه أسامه، ثم تزوج زوجته الرابعة الأخيرة، وأنجبت له أيضا ابنه زهير.

ثم تحدثنا في سيرته الذاتية عن كتاب زقاق الشيش حيث تهجى أولى الحروف العربية، وتعلم مباديء القراءة والكتابة، وحفض القرآن الكريم كاملا، ثم التحق بالمدرسة الهاشمية في عهد الشريف الحسين بن علي الواقعة في مكة المكرمة، حيث درس القواعد النحوية والصرفية والبلاغية معا، وبعد أن أكمل القواعد العربية توجه إلى المدرسة الراقية الواقعة في جبل هندي بمكة المكرمة، حيث بدأ القراءة والدراسة من جديد، ثم قد التحق بمدرسة الأقباط العليا بالإسكندرية ومكوثه بها نحو عامين، ثم عودته إلى مكة المكرمة، وخلال هذه الفترة من الزمان فقد والده وهو في سن مبكر فتحمل مسؤوليات أسرته، كما أنه تحدثنا في سيرته الذاتية عن ترك تعليمه على أثر

وفاة والده الكريم الذي كان يتحمل مسؤولية المنزل، وعن ممارسة التجارة وبعض الأعمال اليدوية لكي يعيل أسرته جمعاء، والتحاقه بالعمل الصحفي بصفته محررا في جريدة "صوت الحجاز" ورئيسا لتحريرها ومديرا للجريدة العربية في العام نفسه، ثم انتقاله إلى وزارة المالية حيث عمل فيها مفتشا ماليا وعمل خلال تلك الأيام سكريترا عاما للإذاعة العربية السعودية عندما أنشئت لأول مرة.

ولو قمنا بنظرة عابرة على صاحب الكتاب فوجدنا أنه قد اهتم فيه كل الاهتمام بالعوامل الأساسية التي أثرت تأثيرا عميقا للغاية على نشأته وتربيته العلمية والتعلمية والفكرية في أيام الطفولة والصبا، ومن أهمها، الكتاب، والمدرسة، والمنزل، والحارة، والأصدقاء، والزملاء وما إلى ذلك. ولا شك فيه أن السباعي كان رغابا وعاشقا ومحبا للقراءة والمطالعة منذ نعومة أظفاره حتى وفاته، أنه قرأ وطالع العديد من الكتب الأدبية والتاريخية والأدبيةو الفكرية، وبعد ذلك ازدادت قراءته حتى قرأ ودرس سيرة ابن هشام وتاريخ ابن الأثير، وبعد القراءة هذه الكتب أنه وجد فيها لذة وطراوة وإبداعا، وكذلك نجد في هذا الكتاب العديد من القضايا مثل: جهل أمه الحنون وأثرها على تربية الأولاد الصغار، وجهل أبيه الذي لا يدري قراءة وكتابة. وكذلك نجد فيه ذكر بعض العلماء والكتاب العرب الذين قدموا بخدمات جليلة ومساهمات ملموسة في العديد من مجالات العلمية والأدبية والفنية وغيرها من المجالات الإنسانية جمعاء. وكذلك قد سلط المؤلف الضوء على العلماء والأدباء والرجال السياسيين الذي قدموا مساهمات جبارة في كل ميدان من ميادين العلم والأدب والتاريخ والسياسة في المملكة العربية السعودية وخارجها، وقد نالت مؤلفاتهم ومقالاتهم وبحوثهم العلمية والتاريخية لدى الأوساط العلمية والفكرية في المملكة وخارجها مثل: محمد سرور الصبان، عبد الوهاب آشي، محمد سعيد العامودي، جميل مقادمي، عمر عرب، حسين نظيف، حسين سرحان، أحمد غزاوي وأحمد العربي، عبد السلام عمر، أمين عقيل، عبد الله فدا، حامد كعكي، عزيز ضياء ثم محمد سعيد عبد المقصود وأخيرا أحمد سباعي وغيرههم الكثير.

ثامنًا: الموضوعات أو القضايا المشتركة بين الكتابين

مما لا يختلف فيه اثنان أن هذين الكتابين يحملان أهمية كبيرة لما لهما من فوائد أدبية وتاريخية وثقافية واجتماعية جمة، وأنهما يشتركان في بعض الصفات المتميزة ويختلفان في غيرها، أما وجوه الاشتراك فتتمثل في أن الكتابين يهتمان أكثر بتبيين الأحوال الاجتماعية والسياسة والأدبية والتاريخية ومدى تأثيرهما على الكاتبين وعلى المجتمع العربي والشامي على بشكل عام. ومن الدراسة المقارنة والموازنة الجادة يتضح لنا كثير من جوانب السيرة الذاتية لشخصيتهما، ويتسنى لنا معالجة التمييز بين الكتابين الشهيرين، وعندما قمنا بدراسة مقارنة شاملة وموازنة جادة لهذين الكتابين فالأمر الذي يشد بانتباهنا بقوة تامة هو أن هذين الكتابين من السيرة الذاتية قد اشترك فيهما بعض القضايا والموضوعات المهمة مثلا أن الأديب الرائد أحمد محمد السباعي تفتحت عيناه قبل أهوال الحرب العالمية الأولى في مكة المكرمة، ودرس في البداية في الكتاتيب المختلفة، وعاش حياة الحي والقرية والكتاب ومدرسة نظامية أسسها الشريف حسين في مكة المكرمة، وكذلك عاش الحياة الفقيرة التي تحمل طابع الحزن والقلق، وشاهد بعينيه مما حدث معه ومع الناس الآخرين في المملكة، وقد عاني العديد من المصائب والحواث المثيرة في أيامه الطفولة والصبا.

وكذلك أن الأديب الراحل عزيز ضياء المغفور له تفتحت عيناه على أهوال الحرب العالمية الأولى ونذرها، وتعلم أولا الكتاتيب المختلفة في المدينة المنورة والشام، ونشأ وعاش حياة الحي والكتاتيب المختلفة والمدارس المتنوعة وخاصة المدرسة الراقية الهاشمية ومدرسة الصحة في مرحلته الطفولة والصبا رغم عدم الشعور بالملل والحزن والقلق، وأنه قام بالمشاهدة آثار الحرب العالمية الأولى وانعكاساتها في كل بلد من بلاد المملكة العربية السعودية وسورية، ولقد كانت أسرته الكريمة ممن الذين أجبرهم فخري باشا مغادرة أوطانهم ومنازلهم وهجرهم إلى بلاد نائية مثل: الشام والأردن وفلسطين وغيرها من البلاد الأخرى، وقد تنقل الشيخ عزيز ضياء إلى العديد من مدن الشام حيث شاهد وسمع أهوال الحرب العالمية الأولى وآثارها، ثم قام بالعودة إلى وطنه العزيز برفقة

والدته الكريمة مباشرة ليشاهد ويرى مما تركته الحرب العالمية الأولى من الآثار والانعكاسات على مجتمع العربي وخاصة مجتمع المدينة المنورة والحجاز.

وعندما قمنا بموازنة شيقة جريئة بينهما يبدو لنا أن أحمد محمد السباعي للتعبير عن نفسه كتب سيرته الذاتية، وصور فيها عن نفسه وتعليمه وتربيته وثقافته وعصره ومصره ومجتمعه أحسن تصوير، كما تحدث خلال سيرته الذاتية عن الحوادث الكبيرة المثيرة التي كان لها تأثير عميق مباشر في حدوث متغيرات خطيرة على الكثير من الدول العربية ومجتمعاتها. وقد ألقى ظهور الملك عبد العزيز على ساحة الأحداث الكبرى التي حدثت في الجزيرة العربية وتوحيده لأجزائها، وانعكاسات ذلك على المجتمع العربي السعودي والشامي معا، وفي الواقع، أن هذا الكتاب ما هو بمثابة سيرة ذاتية عن حياته الشخصية الخاصة به، حيث تحتوي الجوانب كلها لحياته المنعدمة النظير من نعومة أظفاره وشبابه، وكذلك أنه ذكر فيه سبب تسميته أحمد وأول أيامه في الدخول في الكتاب الابتدائي والمدرسة الثانوية ومواصلة الدراسات فيها، وبداية نشأته وترعرعه في ثقافة العربية الخاصة في أرض مكة المكرمة المحبوبة لدى الناس في العالم كله، كما تناول أهم المواقف التي تعرض لها في حياته الشخصية في الأزقة والطرق في مكة المكرمة، وذكر لنا تجاربه العلمية والأدبية والثقافية والتاريخية والاجتماعية والدينية، محاكيا عن تخرجه وبداية عمله كمؤظف ومدرس في تلك المدرسة الراقية الهاشمية التي درس بها الابتدائية والثانوية من التعليم والتربية، وكذلك تحدثنا في كتابه عن تجوله وتحوله وتنقله من عمله إلى عالم الصحافة والكتابة والتصنيف والتأليف والترجمة، وبداية مشوراه العلمي والأدبي والثقافي والديني والاجتماعي والسياسي وما إلى ذلك.

وبالعكس أن الشيخ عزيز ضياء تحدث في كتابه عن فترة زمنية متقدمة من حياته تمتد من مراحلها الأولى إلى العشرين من عمره، وأن الكتاب هو الذي قد رشح به الشيخ عزيز ضياء لنيل جائزة الملك فيصل العالمية في عام 1418هـ، ولكن من سوء الحظ أن المنية قد عاجلته قبل استلام هذه الجائزة التقديرية المحترمة، والكتاب قد تم

نشره في سلسلة حلقات سيرته الذاتية تحت العنوان " حياتي مع الجوع والحب والحرب " في مجلة (إقرأ) ومجلة (اليمامة)، وبعد إلحاح شديد عاود نشر بقية الحلقات حيث استأنف كتابة الجزء الثاني وبعض أجزاء من الجزء الثالث في هذه المجلة، ولا شك فيه أن الكتاب من قبل ومن بعد قصة حياة رائعة جميلة تثير فينا كل معاني الطموح والعجب الإعجاب بهذا الطفل الصغير الذي استطاع أن يشق طريقه في الحياة تحت ظروف قاسية، ثم يحقق في النهاية الكثير من آماله وأحلامه وأحزانه وشقاءه وعناءه، وتوجد في حياته كلها دروس وعبرة كثيرة لنا، حيث كتب ترجمته الشخصية وصور نفسه وعصره ومصره وبلاده وثقافته ومجتمعه أحسن تصوير، وكذلك تحدث فيه عن الرحلات التي قام بها وحيدا برفقة أمه وبعض أفراد أسرته بما فيها أخوه الشقيق الصغير عبد الغفور وابن خالته عبد المعين وخالته خديجة وجده لأم، وأن هذه الرحلات المطولة لم تقطعها أسرة عزيز ضياء فقط بل قام بها عدد كبير من الناس المقيمين في المدينة المنورة خائفين بسبب الجوع والخوف والشقاء والعناء والبؤس من حصار المدينة المنورة والحجاز، وقد تمت هجرتهم من المدينة المنورة إلى الديار المجاورة التي لا تزال خاضعة تحت السلطنة العثمانية.

ومن خلال الدراسة العميقة يبدو لنا أن الكتابين يبزران ترجمة للذات وترجمة للواقع على حد سواء، وهما في بعض الأحيان يتناولان حياة صاحبهما بالوصف والروعة والجمال، ويتناولان الموضوعات العديدة المهمة التي تتعلق بحياة الناس وخاص العرب، وإنهما يكشفان الكثير من أسرار الحياة الاجتماعية والثقافية والتاريخية والقضايا الموجودة في كافة المملكة العربية السعودية وخاصة في المدينة المنورة والحجاز ومكة المكرمة، وأنهما يلقيان ضوءا ساطعا على الحوادث الكثيرة المثيرة التي حدثت معهما بشيء من التفصيل، ويكشفان خبايا نفسهما بكل صدق وأمانة، كما أنهما يصوران انعكاسات انتهاء الحرب العالمية الأولى على مجتمع البلاد العربية وخاصة مجتمع مكة المكرمة والمدينة المنورة حيث قد انتشرت الأفراح والسرور فيما بين الناس وعمت الرقصات الشعبية ابتهاجا بانتهائها، وكذلك يسجل الكاتبان في كتابهما بشيء من

التفصيل عن موقف فخري باشا والي المدينة من قبل العثمانيين وامتناعه عن تسليمها، وهما لا يتناولان الحوادث التاريخية المثيرة فقط يتحدثان عن الحوادث الكبيرة الأخرى التي وقعت آنذاك، ومن أبرزها ضم الملك عبد العزيز للحجاز وما وقع خلال ذلك من حوادث كبرى. كما أنهما يذكران صورا للحياة الاجتماعية والسياسية مما كان منتشرا وسائدا في مجتمع المدينة المنورة والحجاز في أواخر العهد العثماني وأوائل الحكم العربي السعود مما يجعل هذين الكتابين وثيقة مهمة.

ومن الجوانب المشتركة بين الكتابين هي دقة الملاحظة للأشياء والتصوير الدقيق للمنظر البهيج أو الرهيب، والفرح والحزن والألم، والابتهاج والبكاء، واليأس والأمل، والخيبة والرجاء، واليأس والأمل، وهما يصوران لكل شيء من الأشياء الغالية تصويرا دقيقا رائعا لا نظير ولا مثيل لهما في الأدب العربي الحديث في القرن العشرين. كأن القاريء يمر من تلك الحوادث الكبرى والوقائع المثيرة عن نفسه حتى يتيقن أنه يشاهدها بين أيديه. ومجمل الكلام أن الكتاب لعزيز ضياء كتاب قيم يمتاز بالفصاحة البلاغة الروعة والجمال، حيث عبر المؤلف عما رآى وشاهد في الطفولة والصبا في البلاد العربية وخاصة في المدينة المنورة الشام. والكتاب هو هو وثيقة تاريخية اجتماعية مهمة من شاهد عيان عايشا تلك الأحداث والوقائع وشاهد آثارها وانعكاساتها على المجتمعات العربية السعودية، وأن الكتاب لأحمد السباعي تعبير صادق عن مدى إحباط الكاتب في محيطه نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهو أيضا وثيقة تاريخية هامة من شاهد عيان عانى الكثير من الوقائع والأحداث في المملكة العربية السعودية، وفي الحقيقة هو مفيد وممتعة جدا لمن يرغب في قراءة السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث.

خاتمة البحث

مما لا شك فيه أن التعبير عن النفس شيء طبيعي يوجد في كل شخص من الأشخاص على وجه الأرض، وبالطبع إن الإنسان لا يريد أن يعيش منعزلا عن المجتمع الإنساني قط، فإنه يتعلم منه كثيرا، وعندما يكون قويا في التجربة من حياته الشخصية وذكرياته الحلوة والمؤلمة التي مرت بها فإنه يرغب في أن يشاطر هذه التجربة الناضجة مع الأشخاص الآخرين، وأحيانا أخرى عندما يرتكب بجرائم كبرى في الحياة، ويريد أن يخفيها عن أنظار الأقارب والناس الآخرين، يقلقه ضميره دائما لكي يعترف بجريمته التي قام بها في أيام الطفولة والصبا والكهولة، إن هذه هي الأمور التي تحث الإنسان على كتابة سيرته الذاتية لكي يتمكن الجيل الجديد القادم من الاطلاع على جوانبه الضعيفة والقوية، ومآثره العلمية والأدبية والتاريخية والفكرية التي قام بها في طول حياته.

وأما بالنسبة للشيخ عزيز ضياء فهو يعد من أهم الأدباء والعلماء الذين قاموا بخدمات جليلة ومساهمات ملموسة في كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية، فقد سجل الشيخ عزيز أحواله الذاتية وتجاربه الشخصية وذكرياته الحلوة والمؤلمة التي تحفل بها حياته في كتاب أسماه بـ " **حياتي مع الجوع والحب والحرب** " في ثلاثة أجزاء.

يعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي كتبها الشيخ عزيز بعد تجارب علمية وأدبية حيث تحدث فيه عن فترة زمنية من حياته من السنة الرابعة حتى العشرين من عمره مسلطا الضوء على وقائعه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والاصلاحية والتعليمية التي شاهدها وسمعها خلال أيام الطفولة والصبا في المدينة المنورة والشام. ومن الممكن أن نقسم الحوادث الكبيرة المتنوعة التي حدثت معه في تلك الفترة من الزمان إلى ثلاثة مراحل وهي كالآتي: –

- تحدث الشيخ عزيز من خلال سيرته الذاتية عن مرحلة الطفولة من نعومة أظفاره حتى العشرين من عمره، كما تحدث فيها عن أول صباح من حياته الذاتية، ومغادرته مع أسرته من البابور (المدينة المنورة) إلى العديد من مدن سوريا وحماة بحثا عن والده وزوج خالته، وعن التعرف على أحوال بعض أفراد أسرته في جو من الجوع والعطش والخوف والحزن، وقام بتسليط الضوء على الحوادث الكبيرة التي تعرضت لها

أسرته والتي بدأت بسرقة اللصوص لمقتنيات الأسرة، وأهم أغراض المنزل في الشام، وما أسفر ذلك من تطورات وتحولات من الخوف والجوع والعطش.

- تحدث فيها عن موت أخيه الصغير عبد الغفور وعبد المعين قبل أن يراه أبوه الكريم، وتدهور صحة خالته وموتها في سوريا، وذكر فيها عن موت جده الكريم في جو من الرعب والأسى والحزن، وتولي أمه المسؤولية، وبدء الكفاح من أجل تأمين الحياة، وألقى الضوء فيها على الحرب العالمية الأولى والثانية وأسبابها الأساسية ونتائجها في العالم كله، وكذلك ذكر فيها عن الأحداث والوقائع التي أعقبت رجوعه مع والدته إلى المدينة المنورة ومعاناتهما بعد تعرض منزلهما بعملية السرقة، وعن الأحداث التي تلت تلك المرحلة إلى أن تزوجت والدته برجل جديد كان يعمل ضابطا في الخلافة العثمانية بعد أن حكم بطلاقها من أبيه على المذهب المالكي.
- تحدث فيها عن تعليمه وتربيته في مدارس متنوعة، حيث التحق بمدرسة التمريض الواقعة في مكة المكرمة والتي كان يعتقدها بعض أفراد أسرته أنها مدرسة للطب، ولكن الحقائق قد انكشفت بعد الذهاب إليها أنها ما كانت مدرسة للطب بل مدرسة التمريض، ثم ألقى فيها ضوءا ساطعا على مدرسة الخديوي إسماعيل بالقاهرة والجامعة الأمريكية ببيروت ومعهد التحقيق الجنائي في كلية الحقوق بالجامعة المصرية العربية واصفا دراسته ومناهجه التعليمية والتربوية وبداية التحاقه بالوظائف الحكومية الرسمية وغير الحكومية وجولاته وتنقلاته من مكان إلى مكان آخر.

ومما لا يشوبه شيء من الشك أن هذا الكتاب يعد من أفضل كتب التراجم الذاتية في الأدب العربي الحديث، يمتاز بأسلوبه الرائع ودقته في الوصف والبيان والتنوع الوصفي والفني والأدبي، وهو إبداع علمي خالص، تمتاز ألفاظه بنعومتها ونصاعتها وسحرها، وهو في الحقيقة عرض بسيط لمختلف مراحل حياته وسيرته الفكرية والعلمية وهواياته المفضلة منذ نعومة أظفاره حتى صباه، قد رصد الكتاب بعض الأحداث التاريخية وتاريخ التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، وهو سجل أدبي وتاريخي وعلمي وتربوي وسياسي وثقافي وديني وفقهي حيث سجل المؤلف ملاحظاته العميقة وتجاربه الواسعة من حياته الشخصية، وهذا الكتاب مع أنه في السيرة

الذاتية يصور لنا البيئة وقضايا الحياة المختلفة قبل تأسيس المملكة العربية السعودية وبعدها.

وإن من يقوم الاهتمام بأدب عزيز ضياء يجد نفسه أمام بحر من العلوم والفنون، والكتاب يمتاز بعذوبة الكلام، وأناقة العبارات الفصحى، وحلاوة الألفاظ الرقيقة، وروعة التصوير، يتأثر القارئ من رصانة أسلوبه، وجودة بيانه، وبديعة تراكيبه، وحسن تقديمه، وحسن سرد الحكايات التي عايشها الشيخ عزيز ضياء في الطفولة والشباب في أزقة المدينة المنورة والشام وغيرها من البلاد الأخرى، وكذلك يمتاز الكتاب بأسلوب رائع تنعكس فيه آراؤه وأفكاره وعواطفه تجاه البشرية والأمة الإسلامية، وهو في غاية الروعة والجمال، وله قدرة عالية على البيان والكلام، ويتمتع بعمق الفهم للإسلام، وقضايا المسلمين، والقضايا الراهنة المتواجدة في ذلك الحين، وكذلك يتميز أسلوبه بالبساطة والوضوح وعدم تكلف الزينة والزخرفة.

ومن خلال البحث والدراسة لهذا الكتاب توصلت إلى جملة من النتائج وهي كالآتي: –

- من الدراسة العميقة يبدو لي بأن الشيخ عزيز ضياء دوّن في سيرته الذاتية متحدثا عن الحرب العالمية الأولى وآثارها وانعكاساتها على المجتمع المدني ورحلة "السفر برلك" التي قام بها عدد لا بأس به من أبناء المدينة المنورة إلى بلاد الشام والأردن وسوريا وتركيا بحكم فخري باشا– والي العثمانيين على المدينة المنورة– ليتضمن بقاء المؤن لعساكره المحاصرين من قبل قوات الشريف بن الحسين بعد أن وعده الإنجليز بتعيينه حاكما على البلاد العربية عامة ومنطقة المدينة المنورة خاصة بعد القيام بالثورة العربية ضد العثمانيين.
- وكذلك نتعرف على "السفر برلك" الذي قام به عزيز ضياء بمرافقة والدته فاطمة بنت أحمد صفا وخالته خديجة وأخيه الصغير الشقيق عبد الغفور وابن خالته عبد المعين وجده الأم الشيخ أحمد صفا إلى العديد من مدن الشام ليشهدوا الحرب والجوع والعطش والمرض والعذاب بأبشع صورة، ويعود إلى المدينة مع والدته بعد وفاة بعض أفراد الأسرة، وقد تعرضت بعد ذلك لسرقة اللصوص مقتنيات الأسرة.

- دون الشيخ عزيز ضياء الأحداث والوقائع بلسان الطفل الصغير الذي نشأ في تلك الحوادث الكبيرة مستخدما اللهجة العامية الحجازية في حواراته الطويلة.
- تحدث من خلال سيرته الذاتية بتلك الأحداث التاريخية التي مرت بجوانب حياته المختلفة بكل مظاهرها الاجتماعية والثقافية والسياسية ومفرداتها اللغوية وأساليبها الشيقة، كما تحدث عن الأحداث في المدينة خلال الحرب العالمية الأولى وما خلفت الحرب نفسيا وجسديا وثقافيا على أبناء المدينة والحجاز وسوريا، وأنه قدم لنا الكثير من التفاصيل الصغيرة عن حياة عامة الناس وأصولهم المختلفة وحتى مذاهبهم وتقاليدهم وعاداتهم المتنوعة.
- وقد تبين لي من خلال سيرته الذاتية بأن والدته فاطمة بنت الشيخ أحمد صفا أو يسميها "ففم" واجهت بمشاكل متنوعة من المرض والجوع ووحشة الغربة والفاقة والخوف والحزن وفقدان أفراد أسرتها واحد تلوا آخر.
- ومن الدراسة العميقة يبدو لي أنه قد اعترف بالفضل الكبير لزوج والدته الكريمة مع " الدكتور ضياء" الضابط التركي الذي تزوجها بعد طلاقها من أبيه السابق على المذهب المالكي، والذي كان له فضلا كبيرا في رعايته والعناية به.
- وفي الواقع أن الكتاب يعتبر وثيقة تاريخية مهمة للأحداث المتنوعة والوقائع الكثيرة التي كان لها أكبر الأثر على البلاد العربية وخاصة منطقة المدينة المنورة لأنها توافقت مع انهيار الإمبراطورية العثمانية، والحربين العالميتين، واستلام الشريف بن الحسين وأبناؤه الحكم في بلاد الشام، واتفاقية سايكس بيكو.
- وقد تبين لي من خلال هذا الكتاب أن عزيز ضياء عرف الرعب والجبن الذي "يملأ الأحلام لسنين طويلة من العمر" وعرف اليتم الذي "يعلق عين الطفل بوجه كل رجل يراه" وعرف التشرد في الطرق والشوارع التي "تزدحم بجثث الموتى وواكب الجياع" وعرف الجوع والمرض والعذاب الذي يهدد حياته الشخصية في كل لحظة من اللحظات، وعرف الجوع والعطش الذي جعل وجبة الخبز الأسود أشهى وجبة تناولها خلال طفولته وصباه.

- ومن خلال الدراسة للكتاب يبدو لي أن المؤلف قد استخدم اللهجة الحجازية الدارجة في الأجزاء الثلاثة ولا سيما الجزءين الأخيرين، وفي بعض الأحيان أن استخداماته قد يكون عيبا لأن القارئ ربما لا يفهم مما كتبها الكاتب على قدر الإمكان، بغض النظر عن استخدام اللهجة الدارجة والتكرار أن الكتاب قد فتح نافذة جديدة من ذهني حول تاريخ المدينة المنورة والحربين العالميتين وسقوط الدولة العثمانية والحال الذي كان عليه أبناء البلاد العربية وخاصة أبناء المدينة المنورة.
- عندما نلقي نظرة عميقة على الكتاب نجد أن ضياء كتب كل شيء من أحواله الذاتية وتجاربه الشخصية ووقائعه السياسية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وما عداها من الأحوال الأخرى مثل ما وقع وحدث بكل صدق وأمانة خاصة. ولم يحاول أن يخفي أي شيء من الأشياء ولو بأمر تافه عن الآخرين، ولم يضف شيئا عن نفسه، من أجل ذلك أن هذا الكتاب يختص بصفة إثبات التواريخ والإفصاح عن أسماء الشخصيات والأماكن.
- يتميز الكتاب عن غيره من الكتب الأخرى بتفرده بالحديث عن الوطن والناس من جذور التاريخ بكل صدق وأمانة، وعندما نطالع الكتاب من أوله إلى آخره نجد فيه طراوة ولذة وإبداعا، كما نشعر بأن الكتاب هو أقرب من كتب التاريخ من ناحية، وإن هذه الصفات من التواريخ وأسماء الشخصيات والأماكن والحوادث الكبيرة تجعلنا أن نستفيد كثيرا من الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينة التي كانت تشهد بها البلاد في تلك الفترة من الزمان.
- وكذلك نرى في الكتاب أن المؤلف قد اهتم بتجويد المعنى أكثر من تجويد اللفظ وبتوليد المعاني أكثر من تزويق الألفاظ والكلمات، وهو غارق في المعنى غير ملتفت إلى الألفاظ والعبارات والتراكيب، وقد اعتنى فيه بلغة بسيطة جميلة ومؤدبة تراعي الذوق الأدبي الجيد، كما أنه أبعد نفسه عن استخدام الكلمات الصعبة والتراكيب المعقدة والتعبيرات السيئة للذوق العام والخاص.

- قدم نفسه في سيرته الذاتية كشخصية رئيسية مهمة، كما قدم فيه باقي الشخصيات كثانوية، ومن الملاحظ أن شخصية الأم والجد والخالة والأخ والأصدقاء والزملاء من الصف والأساتذة تتمثل الشخصيات الثانوية.
- وقد تبين لي من خلال هذا البحث أن أدب السيرة الذاتية قديم جدا وليس من الفنون الأدبية الحديثة كما يظن البعض من الأدباء والعلماء في القرن الحاضر، بل هو جنس أدبي فني مستقل ومشارك في نسج الثقافة العربية كالرواية والمسرحية والقصة القصيرة وما عداها.
- ومن خلال هذا الكتاب نتعرف على الحياة العامة في تلك الفترة المملوءة بالأحداث والتغيرات التي انتهت إلى قيام المملكة العربية السعودية، ونتعرف على العادات والتقاليد ونمط العيش، والطعام والشراب، والعلاقات الاجتماعية والصلات الودية الأخوية في مجتمع متنوع يعيش فيه العربي مع التركي مع الهندي مع القازاقي والبخاري والأفغاني وغيرهم، وكذلك نطلع على القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي شهدها جميع العالم وخاصة البلاد العربية كلها.
- وأما الكتاب الآخر الذي قمنا بدراسته التحليلية والوصفية والمقارنة هو الكتاب المسمى بـ" أيامي "، فهو الذي كتبه الأديب الرائد أحمد محمد السباعي بعد تجارب علمية وقدرات فائقة في كل من مجال العلم والأدب والثقافة، يعتبر هذا الكتاب أن يكون أول كتاب في فن السيرة الذاتية في الأدب العربي السعودي في بداية القرن العشرين، وبعد ذلك لم يزل ولا يزال يتبعه الأدباء السعوديون الآخرون، وبدأوا يسجلون سيرهم الذاتية في لغات مختلفة. ذكر الأستاذ السباعي في هذا الكتاب قصة حياته الشخصية وأحواله الذاتية وانطباعاته النفسية وحالته الفكرية والعلمية وذكرياته الحلوة والمرة وحوادثه الكثيرة التي عاشها خلال مرحلة الطفولة والشباب في مكة المكرمة، يمتاز هذا الكتاب بعذوبة الحديث وأناقة العبارات وحلاوة الألفاظ وروعة التصوير.
- سجل السباعي في هذا الكتاب قصة من حياته وأسرته الكريمة مما عاشها خلال الطفولة والصبا، وجعل هدفا من وراءه أن يمثل جانبا من سيرته الذاتية،

وأن يمثل صورا من حياة الجيل الذي كان يعيش معه، فالكتاب الذي كتبه السباعي بعد تجارب علمية أقرب إلى المقال حيث يلاحظ صاحبه في نفس الوقت القصة والمسرحية والسيرة الذاتية والبحث الاجتماعي بأسلوب جميل، وبعد قراءة هذا الكتاب توصلت إلى نتيجة بأنه هو أول كتاب عربي في موضوع السيرة الذاتية الذي ألفه السباعي في القرن العشرين، ولم يوفق أي كتاب آخر أن يتسابق معه في الأدب العربي السعودي في القرن العشرين، والكتاب على الرغم من صغر حجمه كتاب مهم جداً في باب السيرة الذاتية وذو فوائد كثيرة لا تعد ولا تحصى.

- وعندما نلقي نظرة على هذين الكتابين المرموقين بـ" حياتي مع الجوع والحب والحرب"، و" أيامي"، ونقوم بمقارنة جادة بينهما فالأمر الذي يتضح لنا هو أنهما يعدان من أجمل وأروع التراجم الشخصية في الأدب العربي الحديث في القرن العشرين، وأن هذين الكتابين تأثر بهما عدد لا بأس به من كبار الأدباء والعلماء والنقاد تأثرا للغاية، حتى أنهم أبدعوا سيرهم الذاتية على منوالهما، وإن هذين الكتابين لا يترجمان لحياة صاحبهما بأسلوب أدبي فني فقط، بل إنهما يتجاوزان إلى أن يكونا شهادة على العصر كله، حيث يعطينا هذان الكتابان صورة واضحة لكثير من الحياة السياسية والاجتماعية والتاريخية والثقافية والحضارية والدينية والإسلامية في المملكة العربية السعودية والشام في القرن العشرين.
- إن الكتاب " أيامي" يعد من أهم الأعمال الأدبية والفنية لأحمد محمد السباعي، فهو يقدم لنا فيه صورا تاريخية جاذبة لعدد من الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التاريخية التي كانت سائدة في وقت طفولته وصباه وشبابه، وحرص أحمد السباعي على تصوير الكتاب ونظامه ومنهج التعليم والتربية فيه والعريف والفقيه والحفلات وما إلى ذلك، كما حدثنا فيه عن الألعاب المفضلة التي كان يمارسها هو وأصدقاؤه وزملاؤه أيام طفولته على أزقة مكة المكرمة، وسلط ضوءا ساطعا على أنواع الحلوى اللذيذة التي كانوا يتناولونها متحدثا عن الخرافات التي كانت منتشرة بشدة في أذهان العامة والخاصة من الناس في ذلك الحين، وتطرق السباعي فيه إلى العصبية

التي كانت سائدة بين أحياء المدينة لدرجة أنها تدفع صبيان الحي وشبانه إلى الاعتداء على نظرائهم في الأحياء الأخرى، كما تطرق فيه بعض الخرافات والبدعات الاجتماعية التي كانت سائدة في تلك الفترة من الزمان.

- وأما " حياتي مع الجوع والحب والحرب" لعزيز ضياء فإنه يعد من أهم السير الذاتية في الأدب العربي السعودي، تم نشرها بعد كتاب " أيامي" نحو في منتصف القرن العشرين، حقق عزيز ضياء في مستهل الكتاب العوامل الدافعة إلى تأليف الترجمة الشخصية في اللغة العربية دون اللغات الأخرى، واستكمل شروط الكتابة في اللون الأدبي والفني والتاريخي، وإن صراحة عزيز ضياء وبساطته في روايته لمسيرة حياته الحافلة بالنشاطات الثقافية والتربوية والفكرية والتاريخية، وبيانه التفاصيل الدقيقة جعلت من كتابه نموذجا رائعا بديعا للكتابة في السيرة الذاتية الإخبارية التاريخية والسياسية والاجتماعية وما إلى ذلك، وليست المبالغة لو قلت إن هذا الكتاب هو يرتبط بين السيرة الذاتية والتاريخ، ويبتعد عن الناحية الفنية، وهو خير مرجع ومصدر لمن يدرس الأستاذ عزيز ضياء كرائد من رواد الإصلاح والحركة الفكرية الأدبية الحديثة في المملكة العربية السعودية في القرن العشرين، وكذلك هو مرجع تاريخي عن الحرب العالمية الأولى والثانية. وزبدة القول إن هذين الكتابين لكاتبين كبيرين يعدان من أفضل السيرة الذاتية اللذين جاءا إلى حيز الوجود في القرن الماضي، ويتفوق كل كاتب آخره في سيرته الذاتية بميزات علمية، وخصائص أدبية بارزة، وخطط ومناهج تربوية. ولا ندعي أنهما خاليتان تماما من العيوب والنقائص فالنقص من طبيعة البشر، وليس الكمال إلا لله.

وما توفيقي إلا بالله فنعم المولى ونعم النصير.

ثبت المصادر والمراجع

1 ابن خلدون، عبد الرحمن: **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا،** دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر 1979م.

2 ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين: **لسان العرب،** تحقيق عبد الله الكبير وآخرين ط دار المعارف 1979م.

3 أبو زيد، بكر بن عبد الله: **النظائر،** دار العاصمة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1443هـ.

4 أبو زيز، بكر بن عبد الله، **العلماء الذين ترجموا لأنفسهم،** مطابع دار الهلال للأوفمت، الطبعة الأولى 1405هـ، الرياض.

5 اسماعيل، عز الدين: **الأدب وفنونه دراسة ونقد،** ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي القاهرة الطبعة الثامنة 2004، القاهرة، مصر.

6 الأب، لويس شيخو: **تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشرو الربع الأول من القرن العشرين،** دار المشرق لبنان، طبعة ثالثة 1991م.

7 الأخشمي، أحمد بن علي بن أحمد: **عزيز ضياء حياته وآثاره وما كتب عنه،** مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض 1426هـ/ 2005م.

8 الأندلسي، على بن حزم: **طوق الحمامة في الألفة والآلاف،** مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة 2012م.

9 الأنصاري، الدكتور عبد الرحمن الطيب وآخرون: **موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث نصوص مختارة ودراسات،** المجلد السابع، دار المفردات للنشر والتوزيع الرياض، الطبعة الأولى 1422هـ/2001م.

10 التميمي، أمل، **السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر،** المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2005م، المغرب

11 التونجي، الدكتور محمد: **المعجم المفصل في الأدب،** دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الثانية 1419هـ 1999م.

12 التويجري: عبد العزيز بن عبد المحسن، **حاطب ليل ضجر**، دار الشروق القاهرة الطبعة الأولى 1408هـ/ 1987م

13 الجوزي، أبو الفرج: **من روائع النصائح والوصايا لفتة الكبد إلى نصيحة الولد، شرح وتحقيق أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم**، مكتبة الإمام البخاري مصر الطبعة الأولى 1412هـ.

14 الجار الله: **تركيه بنت حمد ناصر**، موقف الملك عبد العزيز من الحرب العالمية الأولى، دار القاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى 2006.

15 الحديدي، عبد اللطيف: **فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الحديث**، دار السعادة للطباعة القاهرة الطبعة الأولى 1996.

16 الحكمي، د. عائشة يحيى: **السيرة الذاتية عند أدباء المملكة العربية السعودية في مرحلة الطفرة (1390-1418هـ)**، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع عمان، الطبعة الأولى 2015م/ 1436هـ.

17 الخطيب، لسان الدين أبوعبد الله محمد: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، الجزء الأول، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع بدون سنة الطباعة.

18 الدبيسي، د. محمد إبراهيم، **حكي الذات السيرة الذاتية لأدباء المدينة المنورة دراسة نقدية**، الانتشار العربي، الطبعة الأولى 1436هـ/ 2015م، بيروت- لبنان

19 الرياحي، كمال: **حركة السرد الروائي ومناخاته في استراتيجيات التشكيل**، ط، ز طار مجدلاوي للنشر والتوزيع 2005م.

20 السباعي، أحمد: **الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ أحمد السباعي**، الجزء الثالث (أيامي)، كتاب الإثنينية عبد المقصود خوجه، جدة، 1404هـ/1984م.

21 السباعي، أحمد: **تاريخ مكة**، ج 1-2، الناشر: فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض، سنة الطباعة 1419هـ/ 1999م.

22 السباعي، أحمد: **أيامي،** منطقة تبوك: النادي الأدبي، الطبعة الثانية 2016

23 الجهيمان، عبد الكريم: **مذكرات وذكريات من حياتي،** الناشر: دار الشبل الرياض، الطبعة الأولى 1415هـ/ المصادف عام 1995م.

24 الردادي، سعود عودة: **أمن الحج قبل العهد السعودي،** دار المآثر المدينة المنورة، والطبعة الأولى 1422هـ/ 2001م.

25 الريحاني، أمين: **تاريخ نجد الحديث وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما،** دار الجيل بيروت، بدون سنة الطباعة.

26 السعافين، إبراهيم: **تحولات السرد دراسات في الرواية العربية،** الطبعة الأولى دار الشروق للنشر والتوزيع، المركز العربي للمطبوعات 1996م.

27 السنجاري: علي بن تاج الدين بن تقي الدين، **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم،** جامعة أم القرى مكة المكرمة 1998م.

28 السيال، د/جمال الدين: **تاريخ الترجمة والحركة والثقافية في عصر محمد علي،** دار الفكر العربي مصر 1951م.

29 الشاوي، عبد القادر: **الكتابة والوجود السيرة الذاتية في المغرب،** أفريقيا الشرق بيروت لبنان 2000م.

30 الشدياق، أحمد فارس: **الساق على الساق فيما هو الفارياق،** مكتبة الحياة بيروت 1961م.

31 الشيرازي، المؤيد في الدين هبة الله: **ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق محمد حسين كامل،** دار الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية 1949م.

32 الصلابي: علي بن محمد حمد، **تاريخ الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط،** دار المعرفة بيروت ط1 1425/ 2004م.

33 العتيبي: إبراهيم بن عويض الثعلي، **الأمن في عهد الملك عبد العزيز تطوره وآثاره (1319هـ- 1373هـ/ 1904م- 1953م)**، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة الرياض 1417هـ- 1996م.

34 العثيمين: الدكتور عبد الله، **تاريخ المملكة العربية السعودية**، الجزء الأول والثاني، دارة الملك عبد العزيز بالرياض 1999م.

35 العودة، عائشة: **أحلام بالحرية**، مؤسسة ناديا للطباعة والنشر رام الله الطبعة الثامنة 2007م.

36 العودة، عائشة، **أحلام بالحرية من تجربة اعتقال فتاة فلسطينية**، رام الله مؤسسة ناديا للطباعة والنشر الطبعة الثانية 2007.

37 العيساوي، ريم: **فدوى طوقان نقد الذات قراءة السيرة**، الدار المصرية اللبنانية القاهرة 1998م.

38 الغامدي، محمد جمعان: **جدة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود، (1925م- 1953م)**، الوادي الجديد للطباعة، الطبعة الأولى 1421هـ/2000م.

39 الغامدي، د. صالح بن معيض، والحيدري، د. عبد الله، **السيرة الذاتية في الأدب السعودي دراسات نقدية**، جامعة الملك سعود، 1434هـ/ 2013م، الرياض

40 الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: **القاموس المحيط**، دار الحديث القاهرة بدون سنة الطباعة.

41 القصيبي، غازي عبد الرحمن: **سيرة شعرية**، دار التهامة للنشر والمكتبات جدة، الطبعة الثالثة 1424هـ.

42 المبخوت، شكري، **سيرة الغائب، سيرة الآلي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين**، مسكيلياني للنشر والتوزيع 15 نهج أنقلترا تونس، الطبعة الثالثة 2015م، تونس

43 المختار: صلاح الدين، **تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها**، ج1، 2، منشورات دار مكتبة الحياة، يحي الخليل، بيروت ص–ب، 1390هـ.

44 **المعجم الوسيط**، دار المعارف ديوبند الطبعة الرابعة 1431هـ/2010م.

45 المقدسي، أنيس: **الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة**، دار العلم للملايين مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر بيروت لبنان الطبعة السادسة 4000.

46 المقدسي: شمس الدين أبي عبد الله، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، دار صادر، بيروت، بدون سنة الطباعة.

47 **الموسوعة العربية العالمية**، الناشر: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية 1999.

48 النجار، الدكتور حسين فوزي: **التاريخ والسير**، الدار المصرية للتأليف والنشر والتوزيع دار القلم القاهرة مصر الطبعة الأولى 1964م.

49 النقشبندي، عبد الحق بن عبد السلام: **الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحق بن عبد السلام النقشبندي** (تراجم الشخصيات)، الناشر: عبد المقصود خوجه، رقم الإبداع 1424/5587 في مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى، 1426هـ/2005م.

50 الهواري، أحمد إبراهيم: **نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر**، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر 1978.

51 الهواري، أحمد إبراهيم: **مصادر في نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر**، الطبعة الثامنة دار المعارف للنشر والتوزيع القاهرة 1983م.

52 اليمني، عمارة بن أبو الحسن: **النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية**، طبع في مدينة شالون على نهر شون بمطبع مرسو سنة 1897 المسيحية.

53 باطرفي، خالد محمد: **عبد الله بلخير يتذكر**، الناشر: عبد المقصود خوجه، رقم الإبداع 1425/5654 في مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الثانية 1425هـ/2004م.

54 بدوي، عبد الرحمن: **الموت والعبقرية**، وكالة المطبوعات- الكويت ودار القلم بيروت لبنان بدون سنة الطباعة.

55 بركات، على عبده: **اعترافات أدباءنا في سيرهم الذاتية**، تهامة للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الأولى 1982م.

56 بسام، قطوس: **سيمياء العنوان**، مطبوعات المكتبة الوطنية عمان، الأردن المطبعة الأولى 2001م.

57 بطرس البستاني: **قاموس محيط المحيط**، نشر مكتبة لبنان بيروت 1977م.

58 بكري: الدكتور شيخ أمين، **الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ط1 1972.

59 بلقين، عبد الله: **مقدمة مذكرات الأمير عبد الله، تحقيق ليفي بروفنسال**، دار المعارف مصر 1955م.

60 حسن، محمد عبد الغني: **التراجم والسير**، الناشر: دار المعارف-1119 كورنيش النيل- القاهرة- ج.م.ع. الطبعة الثالثة.

61 حسين، الدكتور محمد كامل: **في أدب مصر الفاطمية**، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي بدون سنة الطباعة.

62 حمدان، عاصم: **الأعمال الكاملة للأديب الدكتور عاصم حمدان علي**، الجزء الأول، الناشر: عبد المقصود خوجه، رقم الإبداع 1426/114في مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى، 1426هـ/2005م

63 حمد الفاروقي وآخرون: **تاريخ العربية وآدابها**، الناشر: سهارا كاليكوت الهند بدون سنة الطباعة.

64 روزنثال، فرانز: **علم التاريخ عند المسلمين**، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت الطبعة الثانية 1403هـ/1983م.

65 رفاعي، عبد العزيز: **دراسات في الشرق الأوسط**، مكتبة النهضة القاهرة مصر بدون سنة الطباعة.

66 زيدان، محمد حسين: **الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد حسين زيدان**، الجزء الأول، الناشر: عبد المقصود خوجه، رقم الإبداع 1426/2032في مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى، 1426هـ/2005م.

67 زيدان، محمد حسين: **الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد حسين زيدان**، الجزء الرابع (ذكريات العهود الثلاثة)، الناشر: عبد المقصود خوجه، رقم الإبداع في مكتبة الملك فهد الوطنية 1426/2032 الطبعة الأولى، 1426هـ/2005م.

68 سيدو، الدكتور أمين سلمان: **عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري حياته وآثاره وما كتب عنه**، مكتبة فهد الملك الوطنية الرياض الطبعة الأولى 1431هـ.

69 شاكر، تهاني عبد الفتاح: **السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الأولى 2002م.

70 شاكري، محمد: **الخبز الحافي سيرة ذاتية روائية**، دار الساقي بيروت لبنان الطبعة السادسة 2000م.

71 شرف، الدكتور عبد العزيز: **أدب السيرة الذاتية**، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان مكتبة لبنان 1992م.

72 شحاته، حمزة: **الأعمال الكاملة للأديب الكبير الأستاذ أحمد السباعي**، الجزء الأول (الشعر) شجون لا تنهتي، الناشر: عبد المقصود خوجه، رقم الإبداع في مكتبة الملك فهد الوطنية1431/8204 الطبعة الأولى، 1431هـ/2010م.

73 شحاته، حمزة: **الأعمال الكاملة للأديب الكبير الأستاذ حمزة شحاتة،** الجزء الثاني (رفات عقل) الناشر: عبد المقصود خوجه، رقم الإبداع في مكتبة الملك فهد الوطنية1431/8204 الطبعة الأولى، 1431هـ/2010م.

74 شحاته، حمزة: **الأعمال الكاملة للأديب الكبير الأستاذ حمزة شحاتة،** الجزء الأول، الناشر: عبد المقصود خوجه، رقم الإبداع في مكتبة الملك فهد الوطنية1431/8204 الطبعة الأولى، 1431هـ/2010م.

75 شكري، محمد، **الخبز الحافي سيرة ذاتية روائية** (دار الساقي بيروت الطبعة السادسة، لبنان، 2000م

76 صفراني، الدكتور محمد: **غازي القصيبي حياته ومختارات من شعره،** مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري الطبعة الأولى 2011م.

77 ضياء، عزيز: **عهد الصبا في البادية،** دار التهامة للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الأولى 1402م.

78 ضياء، عزيز: **حياتي مع الجوع والحب والحرب،** الجزء الأول والثاني، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الثانية 2012م.

79 ضياء، عزيز: **عهد الصبا في البادية،** الناشر: دار التهامة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1414هجـ.

80 ضياء، عزيز: **الأعمال الكاملة للأديب والأستاذ عزيز ضياء،** الناشر: عبد المقصود محمد سعيد خوجه جدة، ج 1،2،3،4،5 الطبعة الأولى 1426هـ/ 2005.

81 ضياء، عزيز، **قصص من سومرست،** الناشر: تهامة للنشروالطباعة، جدة، الطبعة الأولى 1981م-1401هـ.

82 ضيف، شوقي: **البحث الأدبي مناهجه أصوله مصادره،** الطبعة السابعة دار المعارف بدون سنة الطباعة.

83 ضيف، شوقي الدكتور: **الترجمة الشخصية**، دار المعارف-1119 كورنيش النيل- القاهرة- ج.م.ع. الطبعة الرابعة.

84 طوقان، فدوى: **رحلة جبلية رحلة صعبة سيرة ذاتية**، الناشر: دار الشروق للنشر والتوزيع عمان الأردن الطبعة الثانية 1985م.

85 عباس، احسان الدكتور: **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين**، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان الأردن الطبعة الأولى 1997م.

86 عباس، احسان الدكتور: **غربة الراعي**، دار الشروق للنشر والتوزيع راما لله المنارة الطبعة العربية الأولى 2006م.

87 عباس، الدكتور إحسان: **فن السيرة**، دار الشروق للنشرو التوزيع عمان الأردن الطبعة الأولى 1996م.

88 عبد الدايم، الدكتور يحي إبراهيم: **الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث**، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان بدون سنة الطباعة.

89 عطار، عبد الغفور: **بين السجن والمنفى**، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى عام 1981م.

90 علي، محمد كرد: **خطط الشام**، الجزء السادس، الناشر: مكتبة النوري دمشق الطبعة الثانية بدون السنة.

91 فقي، محمد حسن: **الأعمال الشعرية الكاملة** - الجزء التاسع، الناشر: عبد المقصود خوجه، مكتبة الملك فهد الوطنية الطبعة الأولى، 1417هـ/1996م.

92 فهمي، د. ماهر حسن: **السيرة تاريخ وفن**، (الكويت: دار القلم، الطبعة الثانية 1303هـ/ 1983م).

93 قنديل، أحمد: **الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ أحمد قنديل**، الجزء الثالث (الشعر)، الناشر: عبد المقصود خوجه، رقم الإبداع 1427/5514في مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى 1427هـ/2007

94 قنديل، أحمد: **الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ أحمد قنديل**، الجزء السادس، الناشر: عبد المقصود خوجه، رقم الإبداع 1427/5514في مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى 1427هـ/2007

95 قنديل، أحمد: **الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ أحمد قنديل**، الجزء الأول، الناشر: عبد المقصود خوجه، رقم الإبداع 1427/5514في مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى 1427هـ/2007

96 لوجون، فيلب: **السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، ترجمة وتقديم عمر حلي**، المركز الثقافي العربي بيروت الطبعة الأولى 1994م.

97 مجدي وهبه: **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، مكتبه لبنان ساحة رياض الصلح بيروت الطبعة الثانية 1984م.

98 محمد، شعبان عبد الحكيم: **السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث**، (مؤسسة الوراق للنشروالتوزيع 2015).

99 مربع، أحمد بن علي: **السيرة الذاتية مقاربة الحد والمفهوم**، (الرياض: فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، الطبعة الثالثة 2010)،

100 معلوف، لويس: **المنجد في اللغة والآداب والعلوم**، الناشر: المطبعة الكالوثية بيروت لبنان بدون سنة الطباعة.

101 وهبه، حافظ: **جزيرة العرب في القرن العشرين**، دار الآفاق العربية مصر 1935.

102 هيكل، الدكتور أحمد: **في الأدب واللغة**، دار الغريب للطباعة والنشر، الطبعة الثانية 2010م.

الرسائل الجامعية:

1 الروقي: عائض بن حزام، **حروب محمد علي في الشام وأثرها في شبه الجزيرة العربية، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث**، جامعة أم القرى قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية مكة المكرمة 1406هجـ/ 1985م.

2 الشيب، ندي محمود مصطفى، **فن السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني بين 1992- 2002م** (رسالة ماجستير غير منشورة) تحت الإشراف الدكتور عادل أبو ريشه، (جامعة الجناح الوطنية كلية الدراسات العليا 1427هـ 2006م).

3 الأخشمي، أحمد الأجشمي الدكتور: **عزيز ضياء ناثراً**، (رسالة الماجستير غير منشورة) بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الله بن علي ثقفان في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1423/ 1424هـ.

4 الجبار، فاطمة سالم عبد: **أحمد قنديل حياته وشعره**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب في سنة 1409هـ/1989م بجامعة أم القرى.

5 يوسف، محمد: **الدكتور طه حسين بصفته مترجما ذاتيا**، لنيل شهادة الماجستير ما قبل الدكتوراه جامعة جواهر لال نهرو نيو دهلي 2008م.

6 قشقوش، ريم، **تأثير كل من شخصية الأب والأم في صقل شخصية بنت الشاطئ (تحليل في سيرتها على الجسر) في إطار مساق: السيرة الذاتية الأدبية**، رسالة الماجستير غير منشورة قدمت إلى (قسم اللغة العربية في سنة 12/2011)،

7 موسى، سامر صدقي محمد، **رواية السيرة الذاتية في أدب توفيق الحكيم دراسة نقدية تحليلية**، (رسالة الماجستير غير منشورة) (قدمت هذه الأطروحة في اللغة العربية وآدابها بكلية الدرسات العليا جامعة النجاح الوطنية في نابلس- فلسطين عام 2010).

الصحف والمجلات:

1 صحيفة **اليوم** (العدد 11196) بتاريخ الإثنين الموافق 9 فبراير 2004م، الصادرة: عن دار اليوم للإعلام من المملكة العربية السعودية

2 جريدة **الرياض** (العدد 16330) بتاريخ يوم الأحد 28 ربيع الآخر 1434هـ الموافق 10 مارس 2013م

3 جريدة **الرياض** (العدد 16881) بتاريخ يوم الجمعة 17 ذي القعدة 1435هـ/12 سبتمبر 2014م الصادرة عن مؤسسة اليمامة الصحفية الرياض.

4 جريدة **الشرق الأوسط** (العدد 11506) بتاريخ يوم الأحد 16 جمادي الثاني 1431هـ 30 مايو عام 2010م

5 جريدة **البلاد السعودية** (العدد41735) بتاريخ 28 جمادى الأول 1435

6 صحيفة **عكاظ** بتاريخ 1433/02/24هـ/ 18 يناير 2012، الصادرة: من مؤسسة عكاظ للنشر والصحافة جدة

7 جريدة **الشرق الأوسط** (العدد 9442) بتاريخ يوم الإثنين 19 شعبان 1425هـ 4 أكتوبر 2004

8 المجلة **الثقافية** (العدد 161) جمادي الثانية 1427هـ

9 الأميني، نور عالم خليل: مقالة " أديب العربية الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر" المنشورة في مجلة **الداعي** (2014 العدد) بتاريخ ذي الحجة 1435هجـ المصادف أكتوبر 12 السنة 38 الصادرة عن دار العلوم ديوبند (الهند)

10 صحيفة **المدينة** بتاريخ 2014/05/28م، الصادرة من مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر.

11 صحيفة **عكاظ** بتاريخ 1435/07/27هـ /26 مايو 2014م، الصادرة: عن مؤسسة عكاظ للنشر والصحافة جدة.

12 عبد الرحيم، رائد مصطفى: **دراسة في سير الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بين زيري في غرناطة**، المنارة للبحوث والدراسات مجلة علمية متخصصة، المجلد 10 العدد 5

13 صحيفة **عكاظ** بتاريخ يوم الثلاثاء 1435/09/11هـ/ 8يوليو عام 2014م، الصادرة من مؤسسة عكاظ للنشر والصحافة جدة.

14 صحيفة **عكاظ** بتاريخ يوم الأربعاء 1433/04/21هـ/ 14 مارس 2012، الصادرة من مؤسسة عكاظ للنشر والصحافة جدة

15 صحيفة **المدينة** (العدد 19487) بتاريخ 2012/03/14، الصادرة من مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر.

16 صحيفة **عكاظ** بتاريخ يوم الأربعاء 1433/04/22هجـ/15 مارس 2012، الصادرة من مؤسسة عكاظ للنشر والصحافة جدة.

17 كتاب **الإثنينية** عبد المقصود خوجه، جدة، 1404هـ/1984م.

18 صحيفة **الجزيرة** بتاريخ يوم الإثنين 1436/2/9هـ الموافق 2014/12/1م، الصادرة عن مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر الرياض.

19 خوجه، عبد المقصود: كتاب **الإثنينية**، جدة، 1404هـ/1984م.

20 صحيفة **عكاظ** يوم الجمعة 1437/8/6هـ/ 13 مايو عام 2016 الصادرة من مؤسسة عكاظ للنشر والصحافة جدة.

21 محمد باوزير: لمحات في أدب السيرة الذاتية، **جريدة الرياض** (العدد 14519)17 ربيع الأول 1429هـ/ 25 مارس 2008.

22 كتاب **الإثنينية** عبد المقصود خوجه، جدة، حفل وتكريم الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار بتاريخ 1414/05/05 المصادف 02/06؟1984.

23 **الإثنينية:** حفل وتكريم الأستاذ عزيز ضياء في 1983/03/14.

24 **كتاب الإثنينية/** حفل وتكريم للأديب الدكتور زاهر بن عواض الألمعي بتاريخ 1417/07/21هـ/ 1996/12/02م.

25 **كتاب الإثنينية/** حفل وتكريم الأستاذ محمد حسين زيدان بتاريخ 1983/02/28 جدة.

26 **كتاب الإثنينية** 256 بتاريخ 1423/11/17هـ المصادف 2003/01/20م.

27 **كتاب الإثنينية/**حفل تكريم سعادة الدكتور عاصم حمدان علي رقم 262 بتاريخ 1424/11/06هـ/ 2003/12/29م.

28 **كتاب الإثنينية/** حفل وتكريم للأديب الأستاذ أحمد محمد جمال بتاريخ 1405/05/14هـ/1985/02/04م.

المصادر والمراجع في اللغة الإنجليزية:

1 Al hazimi, Mansour and others: Beyond the Dunes an Anthology of modern Saudi literature, published in 2006 by I.B. taurice & co.Ltd. London

2 The encyclopedia of Islam (new edition) by C.E Bosworth and others Leiden Brice 1997.

3 Oxford Dictionary of English, New Second edition revised Oxford University Press, London.

4 Blanchard Marc Eli, : The critique of Autobiography, Published by: University of Oregon.

5 Howarth, William L. : Some principle of Autobiography, Published by: The Johns Hopkins University press.

6 Philopp, Thomas, : The Autobiography in Modern Arab Literature and Culture, Published by: Duke University press.

المراجع في الإنترنت:

1 http://aljsad.org/forum36/thread147254

2 http://www.marefa.org/index.php

3 www.ikhwanwiki.com/index.php/=title

4 Alburhan.com/Article/index/6346

5 www.izzatomar.com شبكة الانترنت

6 https://forum.sedty.com/t252578.html

7 http://www.adabimadina.net/?p=404

8 www.ikhwanwiki.com/index.php?title=

9 www.langne_arabe.fr/spip.phpzarticle1305

10 http://www.makkawi.com/Articles/Show.aspx?ID=184

11 http://www.marefa.org/index.php

12 http://www.al-jazirah.com/2016/20160101/cul.htm

13 عمارة اليمني: شاعر سني يمدح الفاطميين، المقالة المنشورة على شبكة alrased.net/main/article.aspx?selected_article_no=3928.

14 http://www.almoajam.org/poet_details.php?id=4640

15 http://www.dr.-aysha.com/inf/articles.php?action=show&id=2250

16 http://www.okaz.com.sa/new/issues/20121123/con20121123549886.htm

17 https://ar.wikipedia.org/wiki/ dated 2/4/2016

18 http//www.hiramagazine.com/archives/title/29

19 http//www.alukah.net/culture/0/26860/#1x2224gjryea.

محتويات البحث

م	العنوان	رقم الصفحة
1	**المقدمة**	13-01
2	**الباب الأول: أدب السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية**	14- 145
3	**الفصل الأول:** معنى السيرة والسيرة الذاتية	15-52
4	**الفصل الثاني:** أدب السيرة الذاتية في الأدب العربي	53-84
5	**الفصل الثالث:** أدب السيرة الذاتية في المملكة العربية السعودية	85-145
6	**الباب الثاني: الشيخ عزيز ضياء: حياته وأعماله الأدبية**	146- 219
7	**الفصل الأول:** عصر الشيخ عزيز ضياء- لمحة خاطفة	147-167
8	**الفصل الثاني:** ملامح من حياة الشيخ عزيز ضياء	168- 175
9	**الفصل الثالث:** جهوده العلمية والأدبية ونشاطاته العملية	176- 193
10	**الفصل الرابع:** إسهاماته في مجالات شتى	194- 210
11	**الفصل الخامس:** أعماله المؤلفة والمترجمة	211- 219
12	**الباب الثالث: مساهمة الشيخ عزيز ضياء في فن السيرة الغيرية (الترجمة) والسيرة الذاتية**	220- 293
13	**الفصل الأول:** نظرة عابرة على مساهمة الشيخ عزيز ضياء في فن الغيرية (الترجمة) والسيرة الذاتية	221-232
14	**الفصل الثاني:** التعريف الموجز عن الكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب"	233-251
15	**الفصل الثالث:** كتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب": دراسة تحليلية من حيث الموضوعات	252-293
16	**الباب الرابع: كتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب" و "أيامي" دراسة تحليلية أدبية والمقارنة بينهما**	294- 395
17	**الفصل الأول:** العناصر الأدبية البارزة في الكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب"	295-329

18	**الفصل الثاني:** الخصائص البارزة في الكتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب" ومكانته المرموقة لدى الأوساط العلمية والفكرية والأدبية	345-330
19	**الفصل الثالث:** دراسة تحليلية ومقارنة بين كتاب " حياتي مع الجوع والحب والحرب" وكتاب " أيامي" للأديب الرائد أحمد السباعي	395-346
20	**خاتمة البحث**	403-396
21	**ثبت المصادر والمراجع**	418-304
22	**محتويات البحث**	420-419

Autobiographical Literature in the Kingdom of Saudi Arabia with Special Focus on the Book "My Life with Hunger, Love and War" By Aziz Dia:

An Analytical Study

Thesis Submitted to the Jawaharlal Nehru University in partial fulfilment of the requirements for the award of the Degree of

Doctor of Philosophy

Submitted by:

Abdul Hakim

Under the supervision of:

Dr.Ubaidur Rahman Tayyeb

Centre of Arabic and African studies

School of Language, Literature & Culture Studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi- 110067

2019